كتـــاب عمـــره عشـــرة قرون
ينشر فى الذكرى الألفيـــة لصـــاحبه

نحو القلوب الكبير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

محاولة ممتعة للانطلاق بالنحو العربي إلى أشواق الحب الإلهي ومذاقاته

تحقيق وشرح ودراســـة

الدكتور
إبراهيم بسيوني
أستاذ بكلية الألسن جامعة عين شمس

الدكتور
أحمد علم الدين الجندي
أستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

الطبعـــة الأولى

القـــاهرة

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

نحو القلوب الكبير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

حقوق الطبع محفوظة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٢١٢٠

* الترقيم الدولى I. S. B. N. 977 – 254 — 030 – 4

الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ — ١٤١٥ هـ

١٩٩٤ م

إهداء

إلى روح شيخنا الإمام القشيري رضي الله عنه وتمر عشرة قرون، وتحوم روحك حولنا تهتف بنا من وراء الغيب أن نتذكر كلماتك في تربية الشيوخ لتلاميذهم تربية أرواح، وكيف أنها أسمى من تربية الآباء لأبنائهم، لأنها تربية أشباح.

فهل نتجاوز أقدارنا حين نضع أنفسنا في مصاف تلاميذك فنقدم للناس كتابك هذا احتفالاً بذكراك الألفية، لكي ينهلوا من نبعك الصافي كما نهلنا، ويتباركوا بكلماتك كما تبركنا ...

داعين الله أن تمسنا نفحة من نفحاتك فنقبل في الصالحين.

خدامك

بسيوني علم الدين

رجـــاء واعتـــذار

١ ـــ قبل المضى فى القراءة نرجـــو النظر فى تصويبات الأخطـــاء آخر الكتـــاب .

٢ ـــ كان الأمر معقودا ان يظهر الكتاب فى طبعة تليق بمكانة صاحبه رضى الله عنه ، ولكن لأمر خارج عن ارادة الناشر وارادتنا ـــ طبع الكتاب غير مضبوط بالشكل ، ثم اضطررنا أخيرا الى ضبطه فى الهوامش بالكلام .

وشـــكرا المحققان ،

محتـــويات الكتـــاب

الموضـــوع رقم الصفحة

محتويات الكتاب

الاهـــــداء

المدخـــل . . . . ٧ ـــ ٣٠

تمهيـــد ٧

الاتجاه الاشارى فى منهج القشيرى بعامة ١١

الاتجاه الاشارى فى « نحو القلوب الكبير » والمقصـــود بعلم النحو الصوفى أو « نحو القلوب » ١٤

خطـــة الشروح ١٨

صـــاحب الكتـــاب ٢٢

توثيق الكتاب ونســـخه ٢٦

مخطوطات نحو القلوب الصغير ٢٧

مخطوطات نحو القلوب الكبير ٢٨

طلعت (٢٨) ، التركية (٢٩) ، التونسية (٢٩) ، السورية (٣٠) الاسكندرية (٣٠)

القسم الأول ـــ تحقيق الكتاب . . . . . ٣٥ ـــ ١٠٤

القسم الثانى ـــ شروح الكتاب ودراسته . . . ١٠٥ ـــ ٤٧٠

تفصيل لمواضع فصول الكتاب فى القسمين

رقم الفصل مسلسلا	عنوان الفصل	رقم الصفحة فى القسم الأول (التحقيق)	رقم الصفحة فى القسم الثانى الشرح والدراسة
١	النحو بين الظاهر والباطن . .	٣٥	١٠٧
٢	اقسام الكلام : اسم وفعل وحرف	٣٨	١٢٠
٣	تتمة فى الاسم والفعل والحرف .	٣٩	١٢٩
٤	الكلام المفيد	٣٩	١٢٩
٥	الاعراب والبنـــاء	٤٠	١٤٠
٦	وجوه الاعراب أربعة	٤١	١٥٨
٧	وجوه البنـــاء	٤٤	١٨٩
٨	المعرفة والنكرة	٤٧	٢١٠
٩	المفرد والمثنى	٤٨	٢١٧
١٠	تتمة فى المفرد والمثنى	٤٩	٢٢١
١١	الجمـــع	٥٠	٢٢٦
١٢	تابع الجمع	٥١	٢٣٣
١٣	الأسماء الستة	٥٤	٢٤٠
١٤	اللازم والمتعدى	٥٥	٢٤٥
١٥	الأفعال الخمسة	٥٦	٢٥١
١٦	الصحيح والمعتل	٥٧	٢٥٦
١٧	الادغـــام	٥٩	٢٦٩
١٨	الاسم المبتدأ	٦٠	٢٨٠
١٩	العوامل على قسمين لفظية ومعنوية	٦١	٢٨١
٢٠	فصول باب الابتداء	٦٢	٢٨٢
٢١	الخبر واقسامه	٦٣	٢٨٧
٢٢	خبر المبتدأ على اقسام . . .	٦٤	٢٨٨
٢٣	خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ .	٦٥	٢٨٩
٢٤	الفاعل مرفوع	٦٦	٢٩٧
٢٥	المفعول منصوب	٦٧	٣٠٢
٢٦	اقسام المفعول	٦٨	٣٠٣
٢٧	ما لم يسم فاعله مرفوع . .	٦٩	٣١٨
٢٨	المضاف اليه	٧٠	٣٢٣
٢٩	كان واخواتها	٧١	٣٢٧
٣٠	ان واخواتها	٧٢	٣٢٨

رقم الفصل مسلسلا	عنوان الفصل	رقم الصفحة فى القسم الأول (التحقيق)	رقم الصفحة فى القسم الثانى الشرح والدراسة
٣١	الفعل الماضى	٧٣	٣٣٤
٣٢	الفعل المضارع واعرابه	٧٤	٣٣٨
٣٣	الحروف التى تجزم الفعل	٧٥	٣٣٩
٣٤	فعل الأمر	٧٦	٣٤٤
٣٥	النعت	٧٧	٣٤٩
٣٦	الشرط والجزاء	٧٨	٣٥٣
٣٧	حروف العطف	٧٩	٣٥٧
٣٨	همزة الوصل	٨٠	٣٦١
٣٩	حروف الخفض	٨٢	٣٦٦
٤٠	كف ان واخواتها عن العمل	٨٣	٣٧٠
٤١	الفاء فى جواب الطلب	٨٤	٣٧٤
٤٢	المنــادى	٨٥	٣٧٨
٤٣	الترخيم	٨٦	٣٨٥
٤٤	الأفعال الجامدة	٨٧	٣٩١
٤٥	المعانى المختلفة لـ (ما)	٨٨	٣٩٦
٤٦	لا النافية للجنس	٨٩	٤٠٤
٤٧	كم الاستفهامية وكم الخبرية	٩٠	٤١٠
٤٨	حروف القسم	٩١	٤١٥
٤٩	الظرف	٩٢	٤١٩
٥٠	الاستثناء	٩٣	٤٢٤
٥١	الالحاق	٩٥	٤٣٠
٥٢	الممنوع من الصرف	٩٦	٤٣٤
٥٣	التصغير	٩٧	٤٣٩
٥٤	التعجب	٩٨	٤٤٢
٥٥	الحال	٩٩	٤٤٦
٥٦	التمييز	١٠٠	٤٥٠
٥٧	بين العدد والمعدود	١٠١	٤٥٣
٥٨	الاسم الموصول	١٠٢	٤٥٨
٥٩	النسب	١٠٣	٤٦٤
٦٠	جموع الكثرة والقلة	١٠٤	٤٧٠
	الخاتمة		٤٧٧
	التصويبات		٤٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

به الاستعانة وعليه التوكل

مدخـــــل

كلانا — علم الدين الجندى وأنا — ندين بالفضل الكبير لله سبحانه — ولشيخنا وإمامنا عبد الكريم القشيرى زين الإسلام فى كل عصـــوره : فطوال اقترابنا منه منذ عهد بعيد ونحن نغترف من أفضاله وكراماته خيراً من بعد خير •

وحينما أهلت ذكراه الألفية فتح الله علينا بالحصـــول على أربع مخطوطات — لكتاب نادر من كتبه — شهد له علماء المراجع والمصادر فى الشرق والغرب بعلو القيمة والنفاســـة ، فجمعنـــا هذه المخطوطات من أصقاع العالم المتبعدة ، ثم بدأنا منذ سنين ذات عدد نقرؤها ونعيد ، ثم لنحققها ، ثم لنشرحها فتحصل فى آخر الأمر كتاب يحتل فى الثقافة الرفيعة شأناً كبيراً •

ولعل أهم ما فيه هو هذه النظرة الابتكارية التى انماز بها الشيخ ، إذ جعل النحو الظاهرى بعناوينه الكبرى والصغرى وتفاصيله ثم أدق تفاصيله مناطاً لاستخراج كنوز ثمينة من علوم أرباب الأحوال ، وإذا بنا أمام علم ثالث جديد كل الجدة هو « نحو القلوب » ، وللقشيرى فى هذا كتابان ، أحدهما صغير سبق لـــ « علم الدين الجندى » أن أصـــدره ، وهذا الكبير الذى بين يدى القارىء •

ولسنا نخشى شيئاً أكثر مما يصاب القارىء للوهلة الأولى بصدمة ثقافية تنأى به عن الكتاب ، وهذا شىء ملاحظ كثيراً فى أول تعامل المرء مع كتاب تراثى رفيع المستوى ، لكنه — وهذا شىء نؤكده تأكيداً — سيجد نفسه مع قليل منا لصبر فى روضة أنيقة ، بديعة الزهر حلوة الثمر •

فالقشيرى معروف فى الشرق والغرب على السواء بأنه صاحب قولة

الحق المستنيرة المعتدلة ، وأن أعماله تمتد لتشمل علوم الكلام والتوحيد والتفسير والحديث والتصوف والتربية والأخلاق ••• فضلا عن اللغة والأدب إذ هو شاعر ، ومتذوق بصير •

والله وحده يعلم كم من الجهود بذلنا حتى نخفف الأحمال الباهظة لهذا الكتاب فيصبح ميسور الفهم والمنال لدى الناس وبصفة خاصة لدى الباحثين الذين يقتربون من هذه المناطق ، ويعرفون وعورة الدروب المؤدية إليها ••• بحيث يمكن القول إنه لا غنى عنه للمتأدبين الأصلاء •

وكل الذى يسعدنا الآن أن يطل القشيرى على الناس فى عيده الألفى فى حلة من حلله الرائعة ، وأن يتقبل الناس هذا العمـــل الجليل أحسن القبول إن شاء الله •

والله الموفق وعليه الاعتماد ومنه التيسير ،

د• إبراهيم بسيونى **د• أحمد علم الدين الجندى**

القاهرة فى رجب من عام ١٤١٤ هـ

تعـريف بالكتـــاب
وصـــاحبه

أولا ــ الاتجاه الإشارى فى منهجه بعامة

للإمام عبد الكريم القشيرى منهج فى التأليف ينماز بخصائص جمة ، ولكننا نتوقف هنا عند خصيصة تهمنا ونحن نقدم هذا الكتاب : فنحن طوال عشرتنا ومعايشتنا معه من خلال مصنفاته نلحظ أنه يميل إلى استنباط الإشارة المحكمة ابتداء بالقرآن الكريم فى لطائف الإشارات ومرورا بالتحبير والمعراج والترتيب •• وغيرها •

هذا الخط الإشارى ينبنى على أن المعانى الظاهرة فى القرآن وفى العلوم العقلية والنقلية المعتمدة على اللغة والفقه والأصول والتفسير ونحوها لها معان باطنة لطيفة تخفى على الذهن العادى **ولكنها تتاح المتحققين** • وقبل أن نتعرف مقاصده البعيدة من هذا الاتجاه وهذه الجهود نعرض عرضاً سريعاً لبعض مصنفاته للتدليل على تعشقه لهذا المنهج من ناحية وليكون تقبله فى كتابنا الجديد الذى نقدمه الآن أمراً معتاداً ــ من ناحية أخرى •

فالتحبير فى التذكير ــ كما يتضح من عنوانه كتاب معد للاستفادة منه فى « الذكر » ، ورأى الشيخ **أن أسماء الله الحسنى وصفاته** هى أليق الموضوعات للذاكرين • ورأى أيضاً أن يخرج بها عن نطاقها فى علم الكلام والجدل إلى نطاق جديد • فبينما كانت قضية نفى الصفات وإثباتها موضع شد وجذب بين المعتزلة والأشاعرة ، وبينما شغلت قضية صفة واحدة وهى « الكلام » حيزاً ضخماً من التاريخ الإسلامى بل قامت لأجلها فتن وفتحت سجون وعذب مفكرون إذا هى هنا على يد القشيرى فى « تحبيره » قلباً نابضاً بالحياة ، منعشاً للفكر والذكر على السواء • ويتلخص منهجه فى ذلك فى خطوات ثابتة ، فهو بعد أن يعالج الصفة « كالجبار » مثلا من ناحية اللغة حيث يصرفه إلى « جبر الكسر » أو « إلى نخلة جبارة » أى لا تنالها الأيدى أو إلى « الجبروت »

والجبروت فى حق الخلق مذموم ، وفى حق الله محمود •• يبدأ باتخاذ كل معنى بداية لمعارف مخصوصة تتلاءم وكل وصف ، ثم يترتب على كل صنف من المعرفة سلوكيات مخصوصة أيضاً ويبدأ على النحو التالى « ومن آداب من عرف ذلك أن يفعل كذا وكذا •• » •

معنى هذا أن منهجه اتخذ من موضوع نظرى جاف اشتجر حوله الخلاف بداية لعلم عملى تطبيقى له جدوى ، ويمكن أن يكون أساساً ركينا فى الحياة الروحية للإنسان • فكأن القضية باختصار قد خرجت من نطاق محدود إلى نطاق غير محدود بمقدار ما تتسع آفاق الذكر أمام بصر الإنسان وبصيرته •• وهو بلا شك اتجاه مبتكر استفاد منه الغزالى بعد نصف قرن وهو يضع كتاباً حول نفس الموضوع وهو « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » إذ اتبع المنهج ذاته وتبنى الغايات ذاتها •

وفى كتابه « المعراج » يتخذ من قصة الإسراء والمعراج إشارات عجيبة ، الهدف منها إعلاء قدر المصطفى عليه الصلاة والسلام على جميع الأنبياء والرسل ، وترسيخ الإيمان بهذه المعجزة بطريق مقنع ممتع وهو يتابع كل نقلة من نقلاتها •

أما « لطائف الإشارات » فهو كما يتضح من اسمه يعتمد على استنباط الإشارة من النص القرآنى بحيث يضيف إلى تفاسيرنا التقليدية المنكبة على الاشتغال بالعبارة : نحواً وصرفاً واشتقاقاً ولغة وفقهاً وأخباراً — أشياء جديدة تغيب كثيراً عن أفهامنا • وهو فى مقدمة كتابه يعترف أن هذه ميزة لا يتمتع بها سائر الناس وأنها وقف على أصفياء الله وأوليائه : « •• أودع سبحانه صدور العلماء معرفة القرآن الكريم وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ، ورزقهم الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه ، ووعده ووعيده • » ثم يستطرد مفصلا شأن هؤلاء المرادين لهذه المهمة « •• وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفى

رمـــوزه ، **بما لوح لأسرارهم** من مكنونات ، فوقفوا ــ بما خصوا به من أنوار الغيب ــ على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق ــ سبحانه وتعالى ــ يلهمهم بما يكرمهم .. فهم عنه ناطقون ، وعن لطائفه مخبرون ، وإليه يشـــيرون ، وعنه يفصحون .. والحكم إليه فى جميع ما يأتون ويذرون » .

ومن عجيب الأمر أن يطول النفس الإشارى عند الشيخ حتى يتمكن من تفسير القرآن الكريم كله سورة سورة وآية آية بل أحياناً يحلل الآية الواحدة إلى كلماتها ، ويصل الأمر ذروته عند البسملة فيفسرها واحدة بعد الأخرى ــ وهى التى تتكرر فى مفتتح كل السور بنفس ألفاظها ــ تفسيراً متجدداً يليق بالجو العام لـــكل سورة على حدة ، والإشـــارات المنطلقة من كل بسملة بدورها تتجدد على نحو مذهل .

غير أن مقدرته هذه تجد تفسيراً لها فى سيرته ... كما ســنرى ، فقد انكب على العلوم العقلية والنقلية ما وسعه ، وثقف على أيدى كبار الشيوخ أمثال الإسفراييني والباقلانى وابن فورك والدقاق وغيرهم من أئمة نيسابور فى أزهى عصورها كما أنه قبل ذلك وبعده أديب .. له شعر خاص وله أسلوب أدبى ممتاز ، ومن هنا فان **تذوقه للشعر** خارج البيئة الصوفية والمجلوب للاستشهاد به على الموضوعات الصوفية **يأخذ بدوره الطعم الإشارى** المعهود ، فنحس أن هذا الشعر المنقول عن المتنبى أو صريع الغوانى أو العذريين قد ارتدى ثوباً جديداً حين ضم إلى الخمريات أو الغزليات الإلهية أونحوها بحيث تعجزعن تمييزه فى السياق الإشارى.

وكتابنا هذا لا يخرج عن ذلك كما سيتضح بعد قليل ..

والسؤال الذى يطرح نفسه لماذا هذا الاهتمام بالخط الإشارى عند الشيخ فى معظم تصانيفه ؟

نرجىء الجواب على هذا السؤال إلى الفقرة التالية بعد أن نضم إلى تصانيفه الإشارية هذا الكتاب الجديد .

ثانيا ــ الاتجاه الإشارى فى « نحو القلوب الكبير »

نعلم أن علم النحو هو العلم بالقواعد التى نضبط بها أواخر الألفاظ حتى يسلم الكلام وتتحقق الفائدة المرجوة منه فنأمن وقوع « اللسان » فى اللحن والخطأ • وهو علم وضعى شارك فيه أفذاذ من علماء المشرق والمغرب • هذا هو المفهوم السائد الذى عرفه الناس وألفوه •

وجاء الشيخ •• فأراد أن يكسب له وللطريقة بل للتدين عمــوماً نصيراً جديداً يؤيد به حقائق تتصل « بالقلوب » لا « باللسان » وحده •

النحو علم مستقل ، والتصوف بدوره علم مستقل ، أما الجمع بينهما فى صعيد واحد فهو علم جديد يمكن أن نسميه :

علم النحو الصوفى أو « نحو القلوب » •

وقد بدأ الشيخ جهده فى هذا الخصوص فوضع كتاباً صغيراً خطط فيه لفكرته الأساس ، واختار نماذج قليلة لتوضيح « اكتشافه » ولكنه ما لبث أن صنف هذا الكتاب الكبير ليشمل ستين فصلا تكاد تستغرق كل موضوعات النحو المألوفة • وخضعت كلها للإشارة وعلم الباطن •

ولكى نتصور البداية العقلية لهذا الأساس علينا أن نردد فيما بيننا وبين أنفسنا مصطلحات النحو التقليدية مع استحضار التصورات الدينية فى ذات الوقت •• فالاسم المبتدأ ، وخبره ، والفاعل ، والفعل ، والمفعول، والمرفوع والمنصوب والمخفوض والوقف والسكون والجزم ••• الخ هذه الألفاظ ذات الدلالات المعروفة ، ولسوف يحدث بالقطع ــ من قبيل تداعى المعــانى ــ أن نصرف هذه الدلالات ذات الرائحة النحوية الصرفة إلى دلالات عميقة كل العمق فى المفهوم الدينى • فليس من شك فى أننا فى الوعى أو فى اللاوعى سنحس بنوع من اللقاء المعنوى الحميم بين الله والمبتدأ ، وبين الخالق والفــاعل ، وبين الكون والمفعــول ، وبين من هو (مرفوع) فى القيمة وآخر (مخفوض) ، وبين من تؤثر فيه العوامل

ومن لا يتأثر ... هكذا بالتداعى بين المعانى المشتركة ، تمكن القشيرى أن يضع أساس هذا العلم الجديد « نحو القلوب » .

فإذا كانت الفكرة بسيطة فى بدايتها فهى عند رجل كالقشيرى يتحالف مع الإشارة ويؤمن بها ويعمل لهـا ــ كما أوضحنا .. الفكرة هنـا تأخذ مداها البعيد ، وتتسع وتدق وتحتد وتكبرلتلد فى النهاية هذا الوليد الغض « نحو القلوب » .

وأشهد أننا ونحن نتعامل مع هذا الكتاب لم نجد عنده من البداية إلى النهاية افتعالا أو تكلفاً ، بل العكس هو الصحيح فإننا كنا نسمح لأنفسنا أحياناً أن نتابع الفكرة الكبرى للباب النحوى ، وننسرب مع التفاصيل والتفاريع كما تذكرها مطولات النحـو فأدهش إذ أجـد إمكان سريان الفكرة الإشارية إلى مستوى الأعماق البعيدة فى أغوار الموضوع.. وقد نوهنا فى الشروح بذلك ونحن شديدو الإعجاب بالرجل حتى لقد حدثتنا أنفسنا كثيراً أنه يتمتع بميزة أكبر من الفطنة والذكاء ودقة النظر .. إنها نفح روحى عميق يلهمه هذه الفتوحات .. ونحن نقول لأنفسنا : إن السر فى ذلك كله أنه لا يقترب من هذا العمل إلا بيد متوضئة !

ولسنا نبالغ فيما نذهب إليه فإنا لا مصلحة لنا فى المبالغة ، بل إننا نقترب من هذا العمل العلمى ونحن مجردون من كل الأهواء الشخصية .. ولسوف يحس القارىء ــ إن شاء الله ــ بقيمة هذا الصنيع وتقديره حق قـدره . ويكفى للتدليل على ذلك قياس النتائج بمحصولها النهـائى ، فالشيخ قد جرب الإشارة مع معظم أبواب النحو فلم يتخل إلا عن بابى « البدل » و « التوكيد » تقريباً وفى كنف ذلك استطاع أن يلم بأطراف التجربة الصوفية كلها بأدق دقائقها ــ كما يتضح من المتن ومن الشروح.. فماذا ننتظر من الرجل لإثبات نجاحه أكثر من ذلك ؟ أليسـت الحقيقة واحدة مهما اختلفت المعارف ؟ ومع أن الشيخ كان يكتفى وهو يورد فقرات النحو الظاهرى بسطور قلائل يراها جديرة بالاهتمام لإطلاق الإشارة نحو

هدف محدد يفصح عنه أويلغزه •• إلا أن هذا القدر من النحو الظاهرى يكفى الآن كى نقتحم به محاولة تيسير النحو، وتخفيفه من أثقاله التى ينوء بها شبابنا فيزورون عن النحو وعما يتصل بالنحو إذ تنقبض نفوسهم من مناهجه وطرق عرضه ووسائل تطبيقه •• نتصور أنه يمكن الاستفادة من تجربة الشيخ فى هذا التخليص كى نعيد تقديم هذا العلم بعد تنقيته من طول ومشقة لا جدوى منهما ، ونكتفى بما يمكن أن نسميه الحد الأدنى والضرورى من النحو ، ذلك القدر الذى يعلق بالأذهان ولا يكون قابلا للنسيان عبر الأزمان •• بل يظل نافعاً فى أمورنا الحياتية عند التحدث وعند الخطـــاب وعنـــد القراءة والكتابة • •• تلك فائدة محققة من هذا الكتاب • ومع ذلك فإن هذا ليس الهدف من تأليف الكتاب •• فلم يكن فى الواقع يطمح إلى زيادة كتب النحو كتاباً جديداً فهو يعلم أن مكتبة النحو متخمة •• إنما كان يهدف حسب خطــه الفكرى فى كل مصنفاته **أن يحول العلم إلى عمل** ، والنظرية إلى تطبيق ، والمبادىء إلى سلوك •• هذا جزء أساسى فى تخطيط تصنيفه •• فكيف تم له ذلك ؟

استحضر الشيخ فى ذهنه الجزئية التى يريد أن يتناولها فى فصـــل « النحو » وانتقى من كل التراكمات النحوية الكثيرة ما يكفى لســـلامة « اللسان » من الخطأ واللحن ، وأوجز ذلك فى عبارات مركزة كأنه يصوغ دستوراً ذا مواد محددة ضابطة ، بلا حشو ولا استطراد • ثم صـــاغ لأجل أهل « القلب » ــ ما يناظر ذلك تماماً ــ شيئاً نافعـــاً فى العلوم الصوفية من الناحيتين النظرية والعملية • وخرج من هذا التنظير بشىء ممتع مقنع للمريدين والسالكين والواصلين • وظل هكذا ينتقل بين الستين فصلا من فصول النحو واضعاً نصب عينيه أن يضيف جديداً فى كل فصل ، بحيث يكون استجماع هذين المحصولين المتوازيين فى نحو اللسان ونحو القلب ثروة ثمينة فى نهاية الأمر •

وكأنى بالشيخ بعد كل هذه الجهود يريد أن يقول للمريد :

هأنت بعد هذا قد أدركت أن كل صغيرة وكبيرة فى علم من العلوم

العقلية التى يتحمس لها أهلها لها أصل عندك فى علوم الصوفية ، وبكلمات أخرى : فإن علوم الصوفية ليست بدعة •• وإنما هى مستمدة من أصول مألوفة تعارف الناس على احترامها وتقديرها •• وهكذا •• ما يصدق على النحو يصدق على الفقه والتفسير والأصول والكلام •• وكل العلوم التى فى خدمة الشريعة •

وبالتالى •• فإن الشريعة والحقيقة تتلاقيان ، فهما وجهان لشىء واحد ، فالحقيقة بيت والشريعة بابه ، ولا دخول للبيت إلا من الباب ، فأى تقصير فى أحدهما على حساب الآخر « فغير مأمول وغير محصول » ولو وصلت فى الكرامة حتى طرت فى الهواء أو مشيت فوق الماء فسننظر أولا فى موقفك من الشريعة ، وأى تقصير لك فيها ولو فى هينة منها يذهب بك وبكرامتك أدراج الريح !

ذلكم هو المقصد الأسمى والأسنى لهذا الإمام الجليل من كل منهجه الإشارى ، اعتراف كامل بفكرة الظاهر والباطن ، وإتاحة الفرصة أمامهما ليتبادلا النفع •• نفع العابدين والسالكين •• بل المتدينين بصفة عامة ، والذائقين بخاصة • وإذا كان توضيح أمور « الحقيقة » بواسطة علوم «الشريعة» هدفاً ، وإذا كان **«الحب الإلهى» هوجوهر هذه «الحقيقة»** ••

فكأن هذا الكتاب فى الواقع إنما جاء لتصحيح فكرة هذا الحب ، وبيان أشواقه ومكابداته ، وتفتيح الأبصار والبصائر أمامه كى يقوم بدوره العاطفى النبيل فى تجميل الحياة أمامنا ، وتنظيم مجتمعاتنا ••

وتستطيع أن تتمثل قيمة هذا الدور لو تخيلت الناس وقد أقاموا علاقاتهم الحياتية على أساس **محبة الله** ومحبة بعضهم بعضاً •• تلك المحبة التى تعطى للوجود طعماً ، وللتحرر مذاقاً •• وبدونها تصبح الحياة أشبه بغابة موحشة تمتلىء بالصخور الرخامية الباردة وتعج بالوحوش الكاسرة !

وهكذا تحول النحو ــ ذلك العلم الجاف الذى يشق على الدارسين ــ إلى واحة وارفة ذات مياه وظلال ، ونسائم وخيرات ؛ فيها ينتعش القلب والروح والسر ، ويزدهر الجمال والجلال ، وتنمو العاطفة المشبوبة صاعدة نحو « المنعم » شاكرة له مثنية عليه ، وعلى نعمه (ظاهرة) و (باطنة) .

ثالثا ــ خطتنا فى الشروح

لو ترك القارىء فى مواجهة مع المتن وحده بدون الشروح لأخافه الإيجاز المركز والإشارة المبهمة وربما أزاحه بعيداً دون أن يعطيه قدره الحقيقى .وربما أيضاً يكونْ فى ذات الوقت له عذره ، فالشيخ لم يكتب كتابه لأى قارىء ، وإنما للمريدين ، وليس لكل المريدين بل لمن لهم خبرة بحقائق علم النحو من ناحية وبقضايا علم القلوب من ناحية ثالثة وبالقدرة على تنظير هذه بتلك حتى يتم الاستمتاع والاقتناع ... ونتصور أنهم قلائل ــ من حيث العدد ــ فى كل زمان ومكان .

فإذا جئنا نحن الآن فى هذا العصر ووضعنا فى غاياتنا أن ندنو بالكتاب من أكبر عدد من الناس كى نعرفهم ــ وهذه مهمتنا الأساس ــ بالشيخ وأفضاله فإن ذلك يلقى علينا عند شرح الكتاب مهام ثقيلة .. نعترف أننا تخوفنا من حملها فى بداية الاقتراب من هذا العمل .

لم تكن المهمة سهلة .. لأن استنباط الإشارة من العبارة أمانة علمية يلزم الوفاء بها قدر الوسع ، ثم إن صياغة الشرح تحتاج إلى أسلوب واضح يتيسر للكافة فهمه . وقد تكون مهمة الشراح فى الزمن القديم أسهل منها فى عصرنا ، لأنهم كانوا جميعاً ــ المؤلفون وشراحهم ــ يعيشون فى زمن واحد أو متقارب ، وكانت أنماط الثقافة فى عصورهم غير بعيدة عما يصدر من مصنفات ، وللناس اعتياد على ذلك كله . أما نحن

فهناك ما يشبه القطيعة بين تراثنا القديم وبين ثقافاتنا الحاضرة .. ونزعم أن النتيجة — إن شاء الله — كانت لصالحنا ، فقد أصبح ممكنا أن يوصف هذا العمل بأنه من نماذج الأعمال القديمة المعروضة فى أسلوب معاصر بعيداً عن الإعنات والمشقة .. ونزعم كذلك أن خبرتنا بالشيخ خلال مصنفاته قد ربت لدينا حسا حتى بما يريد أن يقوله لما بما يقوله فقط .. فتلك أجل الثمار التى جنيناها من طول خدمتنا له .

ومع ذلك كله فيبقى الأمر من الناحية العلمية المحضة أن الشروح تتبنى على التذوق ، والذوق شىء ليس فى الكتب ، فمن حق القارىء الواعى أن يتقبل ما ذهبنا إليه ، وأن يرفضه ، وأن يقدم جديداً فى فهمه.. وفى جميع الأحوال نحن نتقبل النتائج بصدر رحب . فيكفينا أن نشغل أفهام الناس بشيخنا ، وأن نجعله منطلق تفكيرنا .. فذلك حسبنا .

والعمل رمزى إشارى .. وكلاهما ملغز ، وربما يدفع ذلك إلى الهيام فى أودية شتى ، فكان رائدنا أن نتفهم بداية الدرب فى كل فصل ، ثم ننطلق فى حدود مرسومة دون استطراد أو إملال أو افتعال أو مخاطرة .

ونحن الذين رقمنا الفصول ووضعنا لها العناوين .. ولم يكن ذلك بالمتن ، كما أننا قمنا بوضع علامات الترقيم وترتيب الأسطر بحيث تغدو مفهومة عند قراءتها الأولى .. وليس هناك شىء من ذلك فى المتن أيضاً .

والكتاب يتكون من ستين فصلا تستوعب موضوعات النحو التقليدية ماعدا التوكيد والبدل .

وليس بالضرورة — كما يرى الشيخ — أن يكون الفصل ذا أصل كبير، فقد يجد فى شىء صغير كواو وعمرو أو ألف الوصل أو دخول (ما) فى كثير من أبواب النحو ملحظاً يستحق إشارة نافعة وهامة فيغتنمه .

ولاحظنا أيضاً أن الشيخ — وهو بصدد التركيز — قد تجنب المسائل

التى يشتجر حولها الخلاف عادة بين النحاة ، فاجتهد أن يختار على نحو انتقائى الثوابت التى لا خلاف حولها تاركاً ذلك لمن يريد أن يمخر عباب النحو فى مظانه •• فالمهمة هنا مختلفة إذ إن ذلك شىء لا يعنيه •

وفى معظم الأحيان كان استخراجنا لمفهوم الإشارة محدداً بحدود العبارة ، ولكننا كنا نجد أنفسنا أحيانا أمام عبارات لها صـــفة التعميم بحيث يمكن أن يدخل تحت العام خصوصيات كثيرة ، فكنا نقدم الاحتمالات التأويلية الممكنة ، ونساير كل احتمال إلى آخر مداه •• لأن الحدس بواحد فقط غير مأمون العاقبة •

ونحاول فى الشروح تقديم أنماط شتى لأسلوب العرض ، فأحيانا نجد الموقف يتطلب بسطة فى قضايا من علم الكلام ، أو من علم النفس أو الشعر ، أو القصص ، أو الأسانيد عن الشـــيوخ •• ونحو ذلك وقد اخترنا هذا التلوين فى وسائل العرض لمقتضيات الأمر من ناحية ولمحاولة التخفيف عن القارىء ودفع السأم عنه من ناحية أخرى •

ونلجأ إلى تفريعات فى « نحو الظاهر » تتطلبها الإشارة كى يزداد التنظير إحكاماً ، ونتجنب ذلك إذا لم تدع إليه الضرورة ، وسيجد القارىء الذى يعنيه أمر النحو الظاهر فقط أننا وفينا الكيل ولم نطفف •• إذا وازن بين كفة العبارة وكفة الإشارة •

ولم نشغل أنفسنا بقضية تحقيق انتماء الشيخ نحوياً إلى مدرسة البصرة أو الكوفة أو بغداد أو المغرب لأن ذلك ليس فى حسابنا هنا ، وربما تصـــدى لذلك باحث غيرنا ، لأننا وجدنا الشيخ يهتم بالقواســـم المشتركة بين النحاة ، ولا يطمح أن يكون امتداداً للمطولات أو طرفاً فى الخلافات • ولكن ذلك لم يمنع أن ننبه أحيانا إلى ما نلاحظه على منهجه ، وعلى مصطلحه لأننـــا شعرنا أن معايشة المســـائل العقائدية والمفاهيم الصوفية قد أورثه رؤية خاصة لمعنى (الفاعلية) و (الابتداء) و (الرفع

والنصب والخفض والجزم والسكون) •• الخ فالجرس اللغوى للفظة يقع فى سمعه وعقله ووجدانه موقعاً متفرداً بحكم الخلفية الثقافية التى يحملها ، وهكذا تحولت معطيات النحو إلى مردودات له ، وتم التفاعل بين المفكر وموضـــوع تفكيره فكانت الثمرة ثراء البحوث النحوية بظهور تفسيرات جديدة ، ربما كانت عوناً على فهم جديد لمشاكل نحو الظاهر •• وقد نبهنا إلى ذلك فى شروحنا فى مواضع شتى •

وقد أدت الأقواس « » و ( ) أدواراً هامة فى الشروح ، فالأولى للقرآن والحديث والأسانيد ، والثانية لما له أهمية فى عملية التنظير والمقايسة •

ونعتذر إذا لم يتم ذلك عند الطبع على وجه الكمال •

وأخيراً •• فإنه للوهلة الأولى قد يحسب القارىء أننا قد وقعنا فى ورطة التكرار فى الشروح ، ولكن ليس فى الأمر تكرار مطلقاً ، فطبيعة الموضوع تفرض أن يطل الشىء برأسه فى أبواب النحو أكثر من مرة أو من مرتين •• خذ مثلا (المرفوع) ومعناها فى العبارة (والإشارة) ، فهذا الاصطلاح يتكرر بلفظه فى المبنى والمعرب وفى الاسم وفى المبتدأ والخبر واسم كان وخبر إن والفـــاعل ونائب الفاعل •• فإذا كان الأصـــل أن (المرفوع) له الرفعة لأنه ليس فضلة وأنه أساس أو عمدة أو •• أو •• فاستحق (الضـــم) الذى هو أثقل الحركات ، لأن المهـــام تتلاءم مع أصحابها •• إلى آخر ذلك فإن من المتوقع أن يكرر الشيخ ذات الملاحظة فى المتن وفى الإشارة • وقد تغلبنا على هذه المشكلة ــ خوفاً على القارىء من الملالة ــ فكنا نسعى إلى التماس جديد نضيفه فى هذه المواقف التى تكاد تتشابه ، بحيث بدا الأمر وكأنه لا تكرار ، وكانت ذخيرتنا فى ذلك المقتطفات التى نستجلبها من كتب الشيخ الأخرى أو من أقوال الشيوخ أو من شعر الإنشاء والإنشاد عند الصوفية •• المهم عندنا أن نضيف جديداً يفيد ويمتع •

رابعا ــ صــاحب الكتـــــاب

هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيرى ، وكنيته أبو القاسم ولقبه زين الإسلام وشهرته القشيرى وأمه سلمية • وكان ميلاده فى (استوا) إحدى قرى مدينة نيســـابور ، وتلقى تعليمه الأول ودراساته الدينية فى قريته •

وهو عربى النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه • فهو بهذه العروبة التى تجرى فى دمائه من أحسن الردود على من يتهمون التصوف بأنه نتاج عناصر أجنبية غريبة عن العرب والعروبة •

ترك القشيرى قريته استوا وذهب إلى نيسابور ليتعلم الحساب كى يشارك مع لفيف من أهل قريته فى إصلاح موازين الاقتصاد بهــا بعد ما اختلت نتيجة ثقل الخراج المفروض عليها •

ولكنه فى نيسابور غير مسار حياته للمرة الأولى ، وذلك حينما وجد نفسه فى بيئة علمية خصبة شدت كل اهتمامه ، ودعته للانغماس فيها ، والتزود بزاد العلم فى المعقول والمنقول ، تلقى الفقـــه على يدى الإمام العظيم الإسفراييني وأصول الفقه على ابن فورك ، والمذهب الشافعى على يدى أبى بكر الطوسى • وإلى جانب ذلك غشى مجالس اللغة والأدب والنحو والعروض وكتب دروسها ، كما قرأ مصنفات الباقلانى •

ومعنى هذا أنه تسلح بسلاح الثقافة المألوفة فى عصره عند أوثق أربابها ، ومعنى هذا أيضاً أنه قبل أن يلج حومة التصوف كان معداً أحسن إعداد لفهم الشريعة والحقيقة وما يتصل بهما من معارف وضعية وهذا أيضاً من أحسن الردود على من يتهمون الصوفية وكتاب التصوف بالجهل والشطط والبعد عن الجادة ، وأنهم يأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم !

وتلعب الصدفة وحدها لتغيير حياته للمرة الثانية ••

فقد كان ذات ليلة يحضر مجلس الشيخ أبى على الدقاق الذى كان يتحدث فى « علم القلوب » ومذهب أصحاب الأحوال والمذاقات والمواجيد، والشريعة والحقيقة وما بينهما من تواصل واتصال .. الخ وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه على نحو عجيب غريب . ولم يستطع بعد ذلك مفارقة هذا المجلس وصاحبه .. وهو يستمع على الدوام إلى هاتف فى أعماقه : إنك لهذا خلقت !

وحينما اقترب من الشيخ وبسط له بعض حاله ، وشـكا إليه أنه يعجز عن التوفيق بين مجلسه ومجالس العلوم العقلية والنقلية أشار عليه الشيخ أن يواصل إتقان هذه العلوم إلى درجة الاكتمال ..

ومن هذه النصيحة نعرف عنصراً هاماً فى المذهب الصـوفى للشيخ القشيرى فيما بعد : هو وجوب تصحيح البداية وتكريس الإيمان بقدر الوسع من الثقافة المنقولة والمعقولة قبل الولوج إلى عالم التصوف حتى يكون البنيان سليم الأساس .

ومن هنا نعرف أيضاً ـ بالنسبة لكتابنا هذا ـ أن صاحبه جـدير بحمل أمانة علم «كالنحو» ، فهومتقن له أشد الاتقان ، ومتمكن من أصوله وفروعه بقدر يسمح له أن يوظفه لخدمة أرباب الحقائق على نحو مأمون .

ولم يستطع الشاب الافتراق عن الشيخ .. وبادله الشيخ حباً بحب، وأولاه عنايته ورعايته ، وأعجب بسجاياه حتى جاء وقت رضى أن يزوجه بابنته الوحيدة فاطمة التى أنجب منها القشيرى ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة وكلهم من أرباب الأحـوال كما أنجب ابنتـه (أمة الرحيم) أم عبد الغافر الفارسى صاحب تاريخ نيسابور الشهير .

وكان أثر الدقاق فى القشيرى بعيداً جـداً ، وآية ذلك أن اسـمه لا يغيب عنه فى مصنفاته مشفوعاً بالتقدير وبالترحم .

وكان زواجه موفقاً وحياته الأسرية مستقرة •• الأمر الذى ساعده على أن يكون مفكراً سوى المزاج ، بعيداً عن التعقيدات والصراعات ، واضح الرؤية ، مستمسكاً بآداب وقيم حافظ عليها طوال حياته وتظهر جلية فى كل مصنفاته •

ثم يأتى التحول الثالث •• وهو هذه المرة يتمثل فى قوة غاشمة ظالمة من خارج محيطه العائلى والعلمى والاجتماعى • ذلك أن القشيرى ــ شأن الأشاعرة جميعاً ــ نكبوا ذات يوم نكبة داهمة ، وكان ذلك حينما نجح الوزير اللعين الكندرى فى استصدار أمر من السلطان (طغرل) بسب المبتدعة فأجاز له السلطان ، وإذا بالكندرى يضيف اسم أبى الحسن الأشعرى إلى المبتدعة ، ويجرى ذلك على منابر نيسابور فى وقت واحد • وحدثت فتنة هوجاء ، وهاج الناس ، وشارك الجيش فى الصــدام •• وتعرض القشيرى وأصحابه للإهانة والضرب والتعذيب ، وكان صدى هذه الفتنة لدى السلطان ــ حين تلقاه فاتراً •فخاب أمل الأشاعرة ، ووجدوا أنه من الخير ترك الأهل والديار والنزوح إلى بعيد خارج الوطن •

وهو يشير إلى هذا الذى حدث له من بعيد فى بعض مواضع من كتابه هذا خصوصاً فى فصوله الأخيرة ــ وقد نوهنا بذلك فى موضــعه من الشروح •

واستقر المقام بالمنفيين إلى جوار المصطفى الحبيب صلوات الله عليه وسلامه ، وظلوا على هذه الحال عشر سنوات كاملة •

وجاء وقت •• اتفق فيه الجمع على أن يحسموا خلاف الرأى بينهم فى العودة أو المنفى عن طريق اختيار واحد منهم يقول كلمته وتكون هى كلمة الجمع التى لا نقاش فيها •• وتم ذلك ، وكان المختار لهذه الكلمــة الحاسمة المسموعة : القشيرى •• ولا أحد غيره •

وقف القشيرى يخطب فى الناس ولا يدرى بماذا يشير •• وإذا به

فجأة ينكشف له بفراسته على البعد أن (الكندرى) قد انتهى عهده وسقط النظام كله وجاء (ألب أرسلان) •• فهتف فرحا :

يا أهل خراسان بلادكم بلادكم إنى لأرى خصمكم يقطع الآن إربا إربا ويرسل كل عضو منه إلى ناحية بعيدة •• هيا هيا إلى خراسان !

ويقول السبكى فى طبقات الشافعية : وضبط اليوم والتاريخ والساعة وإذا بدعاء الشيخ يستجاب وتتحقق الأمانى •

وعاد القشيرى إلى وطنه نيسابور وقضى السنوات الأخيرة من عمره من ٤٤٥هـ إلى ٤٥٥هـ فى هدوء واستقرار وتتالت مصنفاته ، وكثر تلاميذه ، وعمت بركاته •

ودفن إلى جوار شيخه الدقاق فى مدينتـــه الحبيبة نيســـابور فى عام ٤٦٥ هـ رحمه الله رحمة واسعة •

خامسا — توثيق الكتــاب ونســخه

أتيح وأنا أنقب عن آثار الشيخ إبان إعداد لأطروحة الدكتوراه أن أجد فى كثير من كتب الببلوجرافيا والمصادر التى تحدثت عنه أن له كتابين أحدهما باسم : نحو القلوب الصــغير والآخر باسم نحو القلوب الكبير (تذكرة النوادر وكشف الظنون ومفتاح السعادة وطبقات الشافعية فضلا عن بروكلمان) كما أشاروا إلى أن الأول صغير الحجم وتوجد منه نسخ قليلة مبعثرة فى أرجاء العالم ، أما بالنسبة للثانى فهو (سفر نفيس جليل القدر غير أنه مفقود) .

وتحدث مصادفة عجيبة .. إذ أعثر ضمن ســلاسل المجاميع على واحدة برقم (١١٦) فى دار الكتب ببــاب الخلق على كتيب يتألف من خمس ورقات مجهولة النسب فلا نعرف صاحبها ولا ناسخها ولكن بالقراءة المتأنية وجدنا تعويلات على الإمام القشيرى وكيف أنه يرى كذا وكذا . وتدور هذه الآراء حول إخراج النحو الظاهرى إلى نحو التصــوف ، والمقارنة بين الظواهر النحوية والمسائل القلبية . فاكتفينا من الكتاب بهذه النصوص القليلة المسندة لإبراز فكرة الشــيخ فى الموضــوع برمته : التنظير بين النحوين وأدخلنا ذلك فى حسابنا عند وصف منهجه فى التأليف بعامة .

وفى وقت متسع لاحق أمكن الحصول على بيانات كافية عن معظم ما يعرفه الناس عن مخطوطة « الصغير » .

فهو غالباً ما يبدأ على هذا النحو :

كتاب نحو القلوب الصغير :

للأستاذ أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أودع الحكمة أهلها ، وعلم آدم الأسماء كلها
. . . . . .   (المتن) .

نذكر ذلك هنا حتى نعاون الباحثين على التمييز بين الكتابين ، كما ننوه بإشارات خفيفة عن كل ما نعلم عن مخطوطات خمس للصغير حتى يزداد التيقن من توثيق الكبير .. الذى سنتحدث عنه بعد قليل .

مخطوطات « نحو القلوب الصغير » :

١ — مخطوطة بمكتبة أحمد تيمور رقم ١٩٦ تصوف تقع فى ١٢ صفحة والصفحة ١٣ سطراً والناسخ يرد اسمه فى الصفحة الأولى وهو محمد بن حسنى الشابى التونسى .

٢ — مخطوطة بمكتبة طلعت رقم ٢٤٢ مجاميع بدار الكتب المصرية ومنها ميكروفيلم بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٥٥ من ورقة ١٧ — ٢٢ وكتبت بخط حسين رضا الوزير فى آخر ربيع الآخر عام ١٣١٩ . ومتوسط سطور الصفحة ١٠ أسطر ، وخطها فارسى مضبوط ، وتقع فى مجموعة أنيقة تسمى (علبة الآداب) وفيها رسالتان إحداهما نحو القلوب الصغير للقشيرى والأخرى رسالة فى اللغة لأحد العلماء .

٣ — مخطوطة حديثة العهد بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٤٥٥ب مساحتها ٢٠٠ × ١٤٥ مم مربع . وتقع فى ست صفحات بكل صفحة خمسة أسطر ، وعناوينها بالمداد الأحمر ، وعلى صفحتها الأولى اسم الناسخ وهو : محمود الجبالى .

٤ — مخطوطة للناسخ السابق ، على ورق سميك أصفر ومكتوبة بخط الرقعة بالمداد الأسود ومؤرخة بالثالث من رمضان ١٣٤٤ الموافق ١٧ مارس ١٩٢٦ وهى خالية من الترقيم .

٥ ـ مخطوطة بمكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة رقم ٢٦ مجاميع وتقع فى ثلاث ورقات ضمن سبع رسائل خطية بالنسخ الجميل ومطرزة الصفحات بإطار من الخطوط السوداء المذهبة .

وقد حقق هذا الكتاب الدكتور أحمد علم الدين الجندى ـ وطبع فى مدينة تونس ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

مخطوطات « نحو القلوب الكبير »

تتفق جميع النسخ التى بين أيدينا على أن البداية الحقة للكتاب هى :

« النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام .

يقال : نحوت نحوه أى قصدت قصده ، فنحو القلب القصد إلى حميد القول ... الخ » .

أما الاختلاف فيقع فيما بين البسملة وهذه البداية ، وهو خلاف لا يؤثر ، لأنه راجع إلى الناسخ الذى يكرم الكتاب أو صاحبه حسبما يرى ، أو ربما لصاحب النسخة أو أحد قرائها .

وإليك النسخ ومصادرها وكلمة قصيرة عن كل منهما ، ولكنها كافية فى التعريف بها وتوثيقها .

١ ـ نسخة :

برقم ١٥٩٣ تصوف مكتبة طلعت ونرمز لها بالرمز (ط) وهى ضمن مجموعة ، وتأتى تالية لكتاب بعنوان :

« شرح محاسن المجالس والرفيق المؤانس » .

للشيخ الإمام ابن العريف الصوفى رضى الله عنه ونفع به آمين ويليه بعد ذلك كتابنا (نحو القلوب للإمام القشيرى رضى الله عنه وتسير ديباجته على هذا النسق :

كتاب نحو القلوب•تأليف الأستاذ الإمام الأوحد ، والشيخ القدوة : جمال الإسلام أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن محمد ابن طلحة القشيرى النيسابورى رضى الله عنه آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم •

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتى

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى رحمه الله وبه ثقتى :

النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام • • • •

٢ — نسخة تركية :

وقد رمزنا إليها بالرمز (ب) إشارة إلى (بورصة) وهى قرية صغيرة تقع على مقربة من البحر الأسود فى تركيا • والنسخة محفوظة بمكتبة « خراججى أو غلو زاده » برقم ١٠٩ •

وهى تأتى تالية لكتاب بعنوان « مفتاح التنزيل فى خلاصة التأويل » لأبى الفضل محمد بن محمد بن أبى القاسم البقالى وهى خالية من التنقيط ورديئة الخط ، ومضغوطة الحروف وبالتالى فهى عسيرة فى القراءة ، وفيها بعض سقوط فى المتن ، ولكنها أفادت فيما يمكن أن يكون فى غيرها من اشتباه أو حذف ، وتقع فى إحدى عشرة ورقة من الحجم الكبير •

٣ — النسخة التونسية :

وقد رمزنا لها بالحرف (ت)

وهى أكثر وضوحاً من سابقتيها وتبدأ على النحو التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم ، قال الإمام المحقق الجليل أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيرى تغمده الله برحمته آمين :

النحو هو القصد إلى صواب الكلام • • • •

٤ ـ النسخة السورية :

ونرمز لها بالرمز س

وديباجتها بعد البسملة والحمدلة : قال الأستاذ الإمام زين الإسلام وناصر السنة ، وناصح الأمة أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى رحمه الله رحمة واسعة :

« النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام »

٥ ـ نسخة الاسكندرية :

ونرمز لها بالرمز ك

وتحمل صفحتها الأولى رقم ورود الكتاب إلى كتبخانة الإسكندرية التابعة لمجلسها البلدى شارع محرم وهو ٧٦٣٢ والرقم المسلسل ٢١٢٩ د وعلى الصفحة ذاتها نقرأ هذه الكلمات :

« الأصول فى نحو أرباب القلوب تصنيف الإمام العالم الأستاذ أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى رضى الله عنه وأرضاه .

وتبدأ الصفحة التالية بالبسلمة ثم الحمدلة ثم الصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيين ثم : قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم القشيرى رحمه الله تعالى : النحو هو القصد إلى صواب الكلام . . . .

وهكذا يتأكد لنا توثيق الكتاب من ناحية وتمييزه عن « الصغير » من ناحية أخرى ، وتتأكد لنا نسبته إلى صاحبه ، وقد تضافرت النسخ بعضها مع بعض فى توضيح المتن ، ونحمد الله أن كثرتها قد جنبتنا الكثير من الصعاب وحالت دون ظهور المشتبهات .

ولم نحاول أن نغرق الهوامش فى أثناء التحقيق بتعليقات طويلة حتى لا نرهق القارىء ، وأحلنا ذلك على باب الشروح .

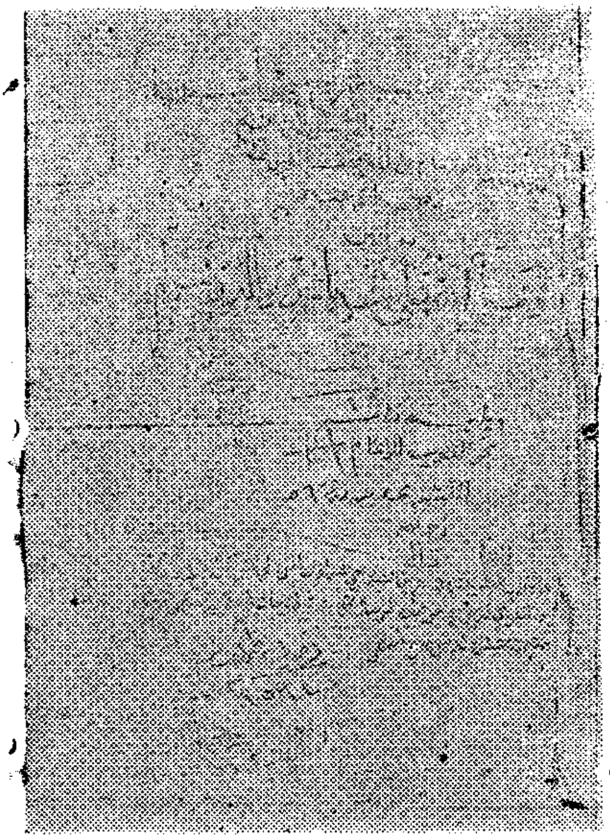

الصفحة الأولى من النسخة التركية « طلعت » تصوف
رقم ١٥٩٣ ونرمز لها بحرف (ط)

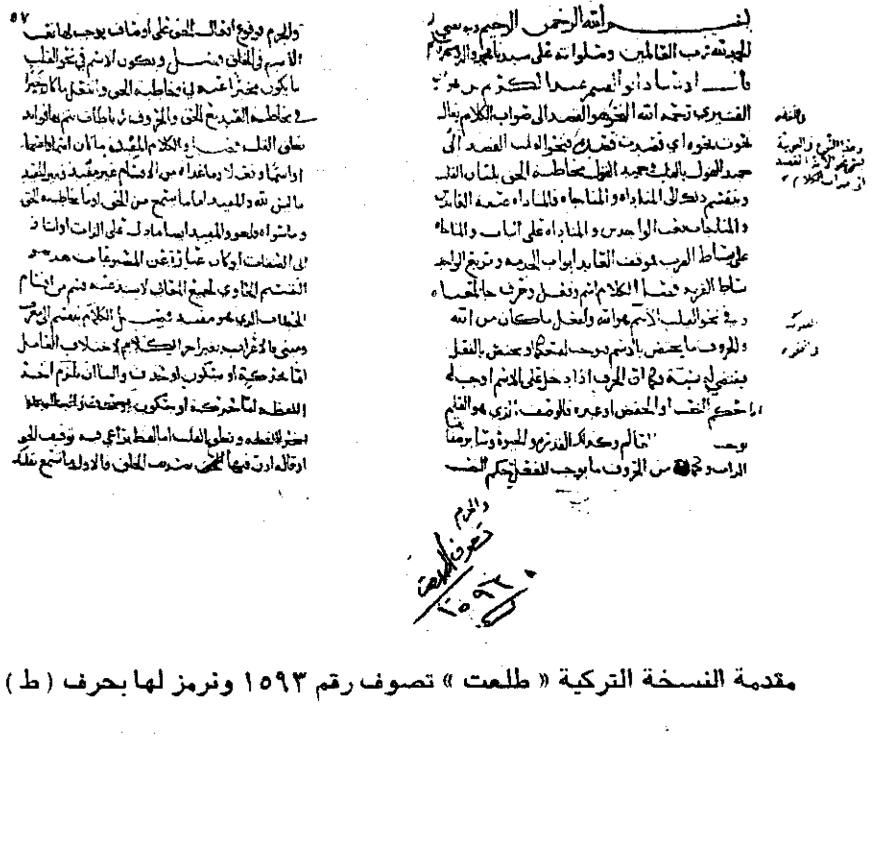

مقدمة النسخة التركية « طلعت » تصوف رقم ١٥٩٣ ونرمز لها بحرف (ط)

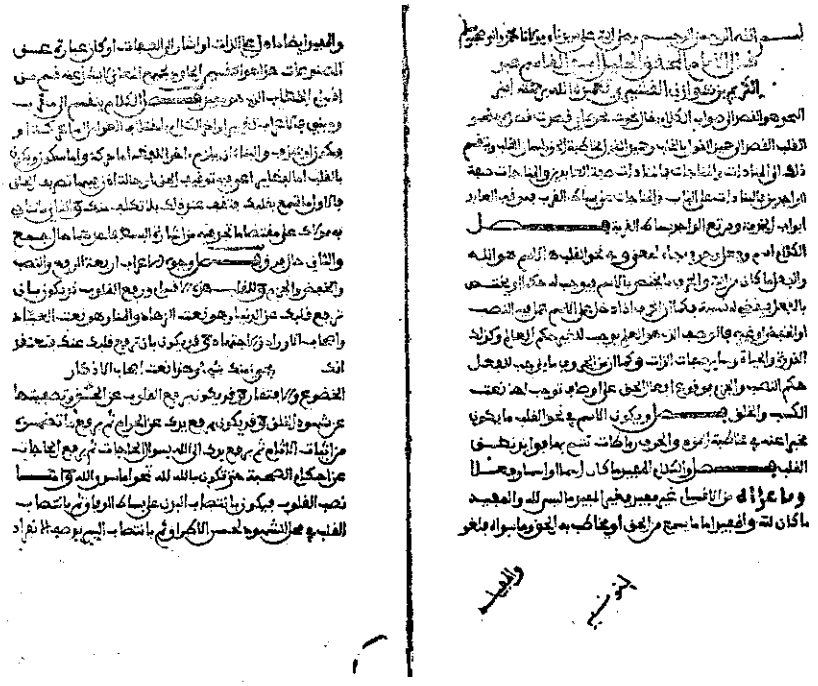

مقدمة النسخة التونسية ونرمز لها بحرف (ت)

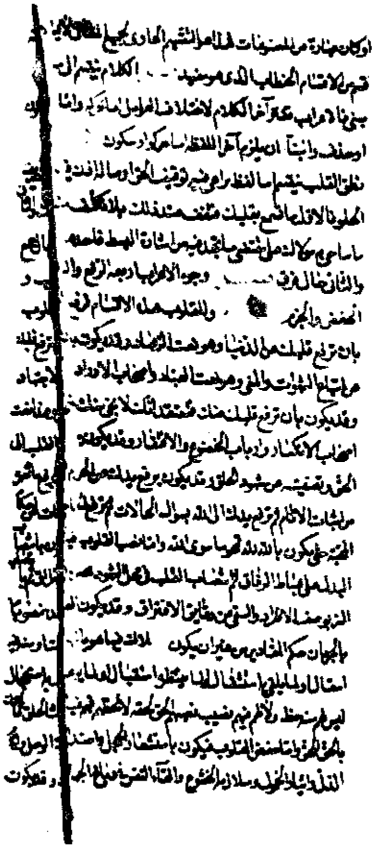

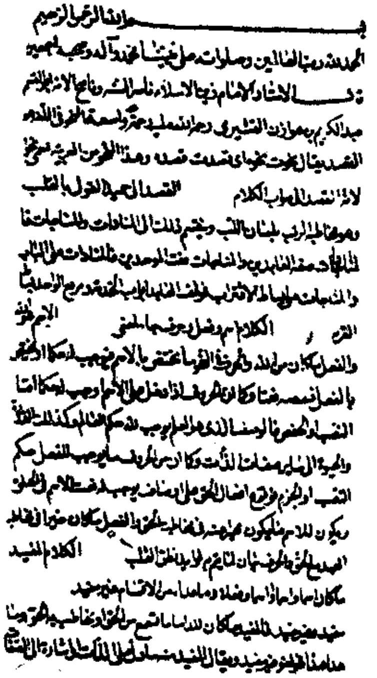
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

مقدمة النسخة السورية ونرمز لها بحرف (س)

القسم الأول

تحقيـــق الكتـــاب

الرمز :	النسخة
ط	نسخة (طلعت) ~~رقم~~
ب	النسخة التركية (بورصة)
ت	النسخة التونسية
ك	نسخة الإسكندرية
س	النسخة السورية

تنبيه : يرجع إلى الفهارس طلبا لمعرفة الصفحة المطلوبة لشرح المتن عند نقطة بيعينها •

ومع ذلك فإن المتن معاد فى قسم الشروح تسهيلا على القارىء •

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه ثقتى(١)

الحمــد لله رب العــالمين ، وصــلواته على ســيدنا محمــد وآله وصحبه وســلم •

قال الأستاذ أبو القاســم عبــد الكريم بن هوازن القشــيرى — رحمــه الله :

فصــل [١] :

النحو (فى اللغة)(٢) هو القصد إلى صواب الكلام ، يقال : نحوت نحوه أى قصدت قصده (وهذا النوع فى العربية يسمى نحواً لأنه القصد إلى صواب الكلام)(٣) •

فنحو القلب القصد إلى حميد القول بالقلب(٤) وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب ، وينقسم ذلك إلى :

المناداة والمناجاة ، فالمناداة صفة العابدين ، والمناجاة نعت الواجدين، المناداة على الباب ، والمناجاة على بساط القرب(٥) ، فموقف العابد أبواب الخدمة ، ومربع(٠)(٦) الواجد بساط القربة(٠٠) •

---

(١) لم ترد فى بقية النسخ ، ولا نستبعد وجودها فى الأصل جرياً على عادة الامام القشيرى فى ارداف البسملة بدعاء من هذا القبيل (انظر اللطائف مثلا حيث تتلو البسملة عبارة : **رب يسر**) .

(٢) لم ترد فى بقيــة النسخ .

(٣) لم ترد فى بقيــة النسـخ .

(٤) هكذا أيضاً فى ك و ت ولكنهــا فى س (**باللب**) ونحن نرجح (بالقلب) لأن الشيخ فى بقية مصنفاته يتحدث فى هذا السياق عن ذكر اللسان وذكر القلب .

(٥) فى س (الاقتراب) وهى وان كانت تراعى الفاصلة الا اننــا آثرنا التقيد بمصطلحين للأحوال : (البعد والقرب) .

(٦) بفتح الميم وفتح الباء ، فى س (مرتع) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٠) بفتح الميم والباء .   (٠٠) بضم القاف .

فصـــل [٢] :

الكلام اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى :

وفى نحو (القلوب)(١) : الاسم هو الله(٢) والفعل ما كان من الله ، والحرف إما(٣) يختص بالاسم فيوجب له حكمـاً ، أو يختص بالفعـل فيقتضى له نسبة ، وكما أن الحرف(٤) إذا دخل على اسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره ، فالوصف الذى هو العلم (مثلا) يوجب لله حكم العالم ‥ وكذلك القدرة والحياة(٥) وسائر صفات الذات .

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حــكم النصــب(٦) والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم(٧) فى الخلق .

---

(١) وردت (القلب) فى بقيـــة النسخ .

(٢) أردف لفظ الجلالة بـــ (تعالى) فى س .

(٣) جاءت (ما) فى س و ت والصواب ما اثبتناه فى المتن .

(٤) فى س (الحروف) والسياق يقتضى الافراد .

(٥) فى س (الى سائر) وهى مقبولة فى السياق ايضاً .

(٦) فى س (أو) .

(٧) هكذا فى بقية النسخ ما عدا (ت) فهى (الكسب) ، والصواب أن تكون (الاسم) لأن الكسب للعباد وليس الله الذى هو (الاســـم) كما قال فى مفتتح الفقرة (الاسم هو الله) .

فصـــل [٣] :

والاسم فى نحـــو القلب ما كان مخبراً عنه فى مخاطبة الحق(١) ، والفعل ما كان خبراً فى مخاطبة العبد مع الحق .

والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب .

فصـــل [٤] :

والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً(٢) ، أو فعلا واسماً وما عداه من الأقسام غير مفيد .

وفى نحو(٣) القلب مفيد وغير مفيد ، فغير المفيد ما ليس لله ، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب(٠)(٤) به الحق ، وما سواه فلغو .

ويقال(٥) : المفيد إما دل على الذات ، أو أشار إلى الصفات ، أو كان عبارة(٦) عن المصنوعات .. هذا هو التقسيم الحاوى لجميع المعانى ، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذى هو مفيد .

---

(١) مشطوبة فى ك ثم صححها الناسخ (الحق) وهذا هو الصواب .

(٢) فى ك (اسمان) وهى خطأ — كما لا يخفى .

(٣) فى ك (وفى نطق) القلب .

(٤) يمكن بناء على مقدمة الفقرة فى مسالة الخطاب ، وبناء على ما سيأتى من توضيح فى الفقرة التالية . أن نضبطها (يخاطب) بكسر الطاء وفتحها ، فالعبد يخاطب الحق بالصلاة والنجوى والذكر والدعاء ونحو ذلك ، والحق سبحانه يخاطب العبد بالوحى ان كان نبياً وبالكشوفات ان كان ولياً .

(٠) بفتح الطاء .

(٥) ننبه الى أن قوله (ويقال) لا يعنى ايراداً لرأى باحث غير المصنف ، وانما هى عادة عند الشيخ حينما يرى رأياً جديداً يختلف عن الوجه الذى ذكره .

(٦) يقصد بها (تعبيراً) عن المصنوعات .

الإعراب والبنـــاء

فصـــل [٥] :

الكلام ينقســـم إلى معرب ومبنى ، والإعراب تغير آخر الكلمـــة لاختلاف[١] العامل إما بحركة أو سكون أو حذف .

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون .

ونطق[٢] القلب إما بلفظ[٣] يراعى فيه توقيف الحق ، أو قالة[٤] أذن[٠] فيها الحق تصريف الخلق[٠٠] ، فالأول ما تسمع بقبلك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك[٥] ، والثانى ما تناجى به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط ، فأحدهما حال جمع ، والثانى حال فرق .

---

(١) فى ت (باختلاف) وهى مقبولة أيضاً .

(٢) فى ت (ويكون بالقلب) أى ويكون الاعراب والبناء فى نحو القلب .

(٣) فى س (نطق القلب ينقســـم **اما** ..) وفى ك (ونطـــق القلب اما لفظ) .

(٤) فى ك (ماله) وهى غير ذات معنى اما فى ت فهى (حالة) ونحن نؤيد قالة أو حالة على أساس أن الاذن بالقول فى حال الفرق — أى عند الرد الى حال العبودية والتصريف حتى يستكمل العبد ما تتطلبه الشريعة منه وهو فى حال جمع الجمع — يربط القالة بالحالة .

(٠) بفتح الهمزة وكسر الذال .   (٠٠) بفتح الخاء وسكون اللام .

(٥) هذه هى الصواب ، وقد استعملها القشيرى فى (رسالته ولهـــذا فنحن نستبعد ما جاء فى ك (بلا تكلف منكر) فالراء زائدة فى الخط .

فصـــل [٦] :

وجـــوه الإعراب أربعـــة : الرفع والنصـــب والخفض والجزم ٠ وللقلوب هذه الأقسام ، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد ٠ وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشـــهوات(١) والمنى — وهو نعت العباد(٠) وأصحاب الأوراد والاجتهاد ٠

وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجىء(٢) منك شىء — وهذا نعت أصحاب الانكسار(٣) ، وأرباب الخضوع والافتقار ٠

وقد يكون(٤) برفع القلب إلى الحق ، وتصفيته عن شهود الخلق ٠

وقد يكون برفع يدك عن الحرام ثم برفع ما تضـــمره من إثبـــات الأنام(٥) ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات(٦) ، ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة حتى تكون بالله لله ، تمحو ما سوى الله(٧) ٠

---

(١) هكذا فى كل النسخ ما عدا ت فقد سقطت عبارة (وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات) .

(٠) بضم العين وتشديد الباء .

(٢) سقطت (لا) فى ت والسياق يتطلبها .

(٣) فى ت (الأذكار) وربما تقبلها السياق أيضاً .

(٤) (وقد يكون وقد يكون) مكررة هكذا فى ك ولا ضرورة لهذا التكرار .

(٥) هكذا فى ك أيضاً ولكنها فى س و ت (الآثام) والصواب ما أثبتناه لأن السياق يتطلب تجنب العبد تعويله فى الاحتياج على الغير ، والمقصود هو نفى هذه الغيرية فالتصوف حسب أحد تعريفاته : قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق .

(٦) فى س (الحالات) والأصوب حسب السياق ما أثبتناه .

(٧) ارجع فى (احكام المحبة) الى رسالة القشيرى ص ١٥٨ .

وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن(٨) على بساط الوفاق ، ثم بانتصاب القلب فى محل الشهود بحسن(٩) الإطراق ، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد .

والتنقى(١٠) عن دقائق الافتراق .

وقد يكون العبد منصوبا لجريان(١١)حكم المقادير من غير أن يكون(١٢) له اختيار ، ولا له فيما هو به إيثار(١٣) ، أو منه فيه اشتغال(١٤) ، ولما يلقى به استثقال ،ولما ينتظره استقبال ، ولا لما يوعد(١٥) به استعجال .

ليس لهؤلاء فيهم حظ ولا نصيب ، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم فهم غياث(٠) الخلق ، قائمون للحق بالحق .

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل ، واستدامة الوجل ، ولزوم الذل(١٦) وإيثار الخمول ، وملازمة الخشوع ، وإلقاء النفس فى ذبائح الجهاد .

وقد يكون بخفض الجناح ــ لــكل من طالبك(١٧) بشىء ليس فى الشرع له نُكْر(٠٠) ــ من غير رد ولا نزاع(١٨) ، ولا إبرام ولا استكراه .

---

(٨) هكذا فى بقية النسخ ولكنها فى س (البدل) وهى خطأ من الناسخ.

(٩) هكذا فى ط و س ولكنها فى ت و ك (لحسن) .

(١٠) جاءت فى س بدون نقط على التاء والنون ، وهى بتشديد القاف وكسرها .

(١١) فى ط (يجريان) وهى مقبولة فى السياق أيضاً .

(١٢) فى س يوجد بياض بعد يكون . . . الى (ولا له) .

(١٣) بدون نقط فى ك .

(١٤) بدون نقط فى ك .

(١٥) وهى فى س و ت (يدعو) وقد آثرنا (يوعد) حسب تذوقنا الخاص للسياق . وهى بفتح العين .

(٠) بكسر الغين .

(١٦) سقطت (الذل) فى ط ووردت فى بقية النسخ .

(١٧) جاء بعدها فى ط (أو يدوسك بقدميه) .

(١٨) جاء بعدها فى ط (ولا استشعار بعار) .

(٠٠) بضم النون وسكون الكاف .

وهكذا(١٩) العارف يستقل(٢٠) أعقــاب(.)(٢١) الــكافة مســتحقراً لقدره(..)(٢٢) مستقذراً لنفسه وفعله فى عاجله وآجله ٠

وأما جزم القلوب ، فالجزم القطــع ، ويكون بحــذف العلائق ، والسكون تحت جريان أحكام(٢٣) الحقيقة من غير إخــلال بشىء — من آداب الشريعة ٠

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى(...) ، فإن الأمانى والمطالب متضادة(٢٤) ، فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات(٢٥) بسيوف اليأس ، ثم يسكن بالله لله مع الله ، فإن رجع إلى ابتغــاء(٢٦) الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة(٢٧) ٠

(١٩) جاءت فى ط و ت (وكذلك) .

(٢٠) هكذا فى س و (استقل = مضى وارتحل) ويكون المعنى ارتحل فى اعقاب الناس لتواضعه ، وكره التصدر والتقدم طلباً للصيت والشهرة .

(٢١) هكذا فى النسخ الثلاث أما فى ط فقد جاءت بدون الف ، وأعقاب جمع عقب وهى هنا تعرب ظرف زمان فيكون المعنىكما جاء فى الهامش السابق أن العارف يؤثر السيرخلف الناس تخفياً وانكساراً، حتى يظل دائماً مستشعراً الخمول فى كنف ارادة مولاه .

(٢٢) مشتبهة فى ط وواضحة فى بقية النسخ .

(٢٣) سقطت (احكام) فى س ووردت فى بقية النسخ ، والسياق يتطلب اثباتها .

(٢٤) مشتبهة فى ط وواضحة فى بقية النسخ .

(٢٥) فى س (الاختيارات) بالباء والصحيح كما اثبتناها وكما وردت فى بقية النسخ لأن المقصود هو سقوط اختيار العبــد وتفويض الأمر كله لله ، فلا يكون للعبد من نفسه فى نفسه ارادة او (اختيار) .

(٢٦) هكذا فى النسخ الثلاث ولكنها فى ت (انتماء) والأصوب (ابتغاء) لأن المقصود الا يلتمس العبد الترخص بل يلجأ الى الأشق —وذلك واحد من اصول مذهب الشيخ رضوان الله عليه .

(٢٧) ربما تبدو الكلمتان (الشرك والردة) مثيرتين للفزع هاهنا ، ولكن هذا — كما ذكرنا فى الهامش السابق — أصل عند الشــيخ فى كل مصنفاته . انظر مثلا الرسالة ص ٢٠٣ (فان نقض العهد فى طريق الارادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر) (ومن لجأ الى الرخص فقد فسخ عقده مع الله) .

(.) بفتح الباء . (..) بفتح القاف وسكون الدال وكسر الراء .

(...) بضم الميم وفتح النون .

فصـــل [٧] :

وجوه البناء فى النحو(١) أربعة : الضمة والفتحة والكسرة والسكون ؛ وللبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام :

فضم الأسرار صونها عن الأغيار ، وفتحة القلوب تنقيتها(٢) من الكروب بمفاتحات(٣) الغيوب ، وكسرة القلوب سجودها عند بغتة الشهود ومفاجآت(٤) الالتقـــاء ، وسكون البواطن ســـكونها(٠) إلى الحق بنعت الاستئناس(٥) على وصف الدوام فى عموم الأحوال .

وفى المعرب والمبنى إشارات أخر(٦) :

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل ،

والمبنى ما يكون على صيغة(٧) واحدة ... وكذلك صفات العبد منها مايقبل التغيير والتأثير(٨) — وهى ماكان مجموعا(٩) بتصرفه(٠٠) وتكلفه(٠٠٠)، والتغير

---

(١) (فى النحو) موجودة فى س وغير موجودة فى النسخ الثلاث ولا ضير من اثباتها حتى يتضح التنظير بين نحو الظاهر ونحو الباطن .

(٢) فى س (تثنيتها) وهى مرفوضة فى السياق .

(٣) هكذا فى س و ط وهى فى ك (بفاتحات) وفى ت (بمفاتيح) .

(٤) فى ك (بمفاجاة) وفى س (ومقاساة) . (٠) بضم النون .

(٥) فى ك (الاياس) وربما كانت الايناس ، وهى بهذا الاحتمال الأخير مقبولة فى السياق أيضاً .

(٦) سقطت (**أخر**) من ت .

(٧) فى ت (صفة) وهى مقبولة فى الســـياق — وان كانت (صيغة) اكثر دقة فى وصف المبنى .

(٨) فى ت (والتلاشى) وهى غير مرفوضة فى السياق اذا ناظرنا بين ما يستطيع المرء (حذفه) من الأخلاق الرديئة وبين (حذف) حرف العلة — فكلاهما يحدث الخلاص منه (والتلاشى) له .

(٩) وردت (مجموعات) فى ط و ك .

(٠٠) بتشديد الراء وكسر الفاء . (٠٠٠) بتشديد اللام وكسر الفاء .

ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهى موضوعات الحق — سبحانه — فيه من أخلاقه ، ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه ، وكذلك من أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه ، فمن شقى نفـذ(١٠) بالرد(١١) قضاؤه ، ولم ينفعه كده(٠) وعناؤه ، ومن سعد مضى بالقبول حكمه ، فلم يذرجه عن محكوم السعادة جرمه(٠٠) .

ومن أقسام البنـاء ما يبنى على الكسر ، فصاحبه أبداً مكسـور لا يجبر(١٢) كسره ، ولا يتغير فقره ، ولا يزول ضره ، ولا يصلح قط أمره ، صباحه بلاء ، ورواحه شقاء(١٣) ، وجده منكوس ، وحظه مبخوس، ونجمه منحوس(١٤) ، وقصـده معكوس .. إن ورد نهراً غيض ماؤه ، وإن وجد دراً(٠٠٠) قرب فقده .

ومن ذلك ما بنى على الفتح فصاحبه لا يزول نعيمـه ، ولا يبرح مقيمه ، يسطع من البعد نسيمه ، ويسعد على القرب نديمه ، ولا يتكدر بغيبته(١٥) مشربه ، ولا يتغير — بطول حجبته(١٦) مذهبه .

الصدر له فارغ وإن أبطأ فى حضوره ، والشمس ظلام عند تلألىء نوره(٠٠٠٠) ، والبدر يخجل(١٧) لفجأة(١٨) ظهوره .

(١٠) مشتبهة فى ط وواضحة فى بقية النسخ .

(١١) فى ت (بالوعـد) وهى غير مقبولة فى السـياق ، لأن الشقى مردود لا موعود . وهى بتشديد الدال .

(١٢) هكذا فى النسخ الثلاث وهى فى ط (لا يجبر) وهى مقبولة أيضاً .

(١٣) هكذا فى النسخ الثلاث ولكنها فى ك (سماء) بدون نقط .

(١٤) (وحظه منحوس ونجمه منحوس) ساقطة فى س .

(١٥) فى ت (لغيبته) .

(١٦) فى ك (حجته) وهى مرفوضـة فى السياق لأن المقصـود هو احتجاب أنوار الكشف بعض الوقت .

(١٧) هكذا فى النسخ ما عدا ت فهى (خجل) والسياق لا يرفضـها اذ تنسجم عبارة (البدر خجل) مع (الشمس ظلام) التى سبقت .

(١٨) مشتبهة فى ط لأن الرسم فيها بدون نقط ، والفجاة اصطلاح صوفى (انظر باب ألفاظ تدور بين هذه الطائفة بالرسالة القشيرية) .

(٠) بتشديد الدال . (٠٠) بضم الميم .

(٠٠٠) بضم الدال وتشديد الراء . (٠٠٠٠) بكسر الراء .

ومن ذلك ما بنى على الضم(١٩) ، فصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار(٢٠) ، غير(٢١) معاتب على اختلاف الأطوار ، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار ، فالعتب(٢٢) عنه(٢٣) مرفوع ، والعذر(٢٤) عنه موضوع ، فلا له عقل فيلزمه تكليف ، ولا له أو منه — فى الشرع(٢٥) — فعل فيتوجه عليه تضيف ... هؤلاء باسر(٢٦) القدرة ، مشكل بين الورى حديثهم(٠) ، ملتبس على الكافة أمرهم .

ومن ذلك ما بنى على السكون فصاحبه على مكانه موقوف ، وعن قصده مصروف ، لا يغنى عنه جده(٠٠) ، ولا يسعده جده(٠٠٠) ، يطول به الزمان ، وتتوالى عليه الحدثان ، وهومن أول حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص ، ولا يخرج إلى صورة(٢٧) الانتقاص .

كذلك الأحكام(٢٨) : مختلفة الأقسام ، متفاوتة الأدوار .

---

(١٩) هكذا فى ك وهى فى بقية النسخ على (الرفع) ونحن نرجح ما اثبتناه لأن البناء يكون على الضم ، كما يتفق هذا مع السياق الذى يسير عليه المصنف حيث عرض فيما سبق للمبنى على (الكسر) وعلى (الفتح) وسيتحدث بعدئذ عن المبنى على (السكون) .

(٢٠) فى ك (الاحسان) وهى مرفوضة لأن التكلف الانسانى مرجعه الى (الاختيار) .

(٢١) (غير) ساقطة فى ت .

(٢٢) فى ط (فالغيب) وهى مرفوضة .

(٢٣) سقطت (عنه) فى س .

(٢٤) فى ط (والوزن) والمعنى يرفضها .

(٢٥) هنا مساحة كبيرة من السقوط فى ت .

(٢٦) واضحة فى س ومشتبهة فى بقية النسخ والمعنى يتقبلها .

(٢٧) فى النسخ (سورة) ولكننا رأينا ان (صورة) البق ، وربما كانت (سورة) . بفتح السين وسكون الواو .

(٢٨) كذلك الأحكام ... الخ تتصل بالسبب كله وهى غير موجودة فى ب .

(٠) بضم الثاء . (٠٠) بكسر الجيم وتشديد الدال .

(٠٠٠) بفتح الجيم .

فصــل [٨] :

الأسماء على ضربين : اسم معرفة، واسم نكرة ٠

وفى الإشارة : الخلق كذلك ، فمن صاحب(٠)معرفة،ومن صاحب نكرة ، ولكل حد(٠٠) ووصف ٠ فالاسم النكرة يصير معرفة ــ ولا رتبة فوق أن صار معرفة ٠ كذلك لا رتبة(١) للعبد فوق العرفان٠٠قال المشايخ : ما رجع من(٠٠٠) رجع إلا من الطريق(٢) ، أما من وصل فما رجع ٠

---

(١) فى ط مشتبهة وهى واضحة فى ك و س .

(٢) المقصود أن الارتداد عن الطريق يكون للمبتدئين الذين وصلوا الى بعض اجزاء هذا الطريق ، اما الذين اتاح لهم الحق سبحانه اجتيازكل عقباته ، وتمرسوا بكل مقاماته ، وتذوقوا **جل** احـــواله ولاحت لهم فى مرحلة ما انوار الوصول وكشوفات العرفان فانهم لا يعودون ولا يرتدون .

(٠) بالكسر مع التنوين .

(٠٠) بتشديد الدال مع التنوين .

(٠٠٠) بفتح الميم .

فصـــل [٩] :

الاسم المفرد إذا ثنيته(٠) الحقته(١) ألفاً فى حال الرفع ، وياء فى حالى النصب والجر ونوناً بعد الألف والياء .

ونون التثنية مكسورة ، وهى تسقط عند الإضافة .

والإشارة من ذلك : أن الواحد لا تثنيـــة له من لفظ الواحـــد ، و (الاثنان) لا واحد لهمن لفظه ، فلا يقال من (الواحد) واحدان ، ولا من (اثنين) اثن ، وهذا محال فى التقدير(٢) .

كذلك الذى هو (واحـــد) فى الحقيقة(٣) يســـتحيل أن تزول عنه وحدانيته ـــ تقديراً ووجوداً . والذى يصح أن يكون (اثنين) فمن المحال أن يصير فرداً لا ثانى له ـــ تقديراً . قال الله تعالى :

« ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون(٠٠) »(٤) الآية .

---

(١) فى س (الحقت به) .

(٢) (وهذا محال فى التقدير) موجودة فى ط و ك وغير موجودة فى س .

(٣) المقصود هو المولى سبحانه وتعالى .

(٤) سقطت (شىء) فى س وهذا خطأ (الآية ٤٩ سورة الذاريات) اما الأخرى فهى قوله تعالى (قلنا احمل فيهـــا من كل زوجين اثنين) آية ٤٠ سورة هود .

(٠) بتشديد النون وسكون الياء .

(٠٠) بتشديد الكاف وفتها .

فصـــل [١٠] :

وما دام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته فى حروفه ، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع فى التغير :

فمرة مرفوعاً بالألف ، ومرة منصوباً أو مخفوضاً باليـــاء ـــ كذلك العبد ما دام بقلبه مفرداً(.) مجرداً(.) فهو فى أســـمى نعوته(١) ، فإذا حصلت علاقة المواصلات(٢) وقع فى التلوين فمرة ومرة .

ونون التثنية أبداً مكسورة ، كذلك صاحب الملاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح .

ونون التثنية تسقط عند الإضافة ، لأنها بدل من التنوين فى الواحد ، والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة فالصفة التى فى مقابلتها تكون مغمورة مستورة ـــ فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور ، وإذا كان الغالب عليه البسط فقبضه مغمور ، وإذا كان الغالب عليه(٣) الأنس(..) فالهيبة كالمقابل(٤) ، وإذا كان غالبه الهيبـــة فالأنس كالزائل(٥) ... وعلى هذا النحو جميع أوصافه .

---

(١) فى ط (نحواه) وربما كانت (نجواه) ويكون المعنى ان تكون نجواه تفريداً وتجريداً للحق سبحانه . (.) بتشديد الراء وكسرها .

(٢) لأن الأصل فى التجريد والتفريد اسقاط العلاقات والعائقات فهى آفات الطريق واذا وجد شيء من ذلك فهو نقص فى التوحيد ، فلا اثنينية فى التوحيد ، لأن التوحيد اسقاط السوى .

(٣) مكررة مرتين فى س . (..) بضم الهمزة .

(٤) فى س (كالقالب) والمعنى قد لا يتقبلها لأن المقصـــود أن تكون الهيبة كالمقابل أى كالمغلوب عندما يكون الأنس غالباً .

(٥) فى س (كالزايل) وفى ك والياء بدون نقط وفى ط توجد واو برأس صغيرة جداً .

فصــل [١١] :

الجمع على ضربين : جمع سلامة وجمع تكسير(١) ·

وفى الإشارة كذلك : ما يسميه(٢) القوم(٣) الجمع على قسمين : جمع سلم صاحبه ، وهو ما حفظ عليه الشرع فى وقت غلبات الجمع ·

وجمع صاحبه مكسور(٤) الصحة ، وهو ما لا يحفظ(٠) على مدعيه(٠٠) آداب(٥) العلم ·

والفرق بين جمع أقسام النحو فى الخطاب وأقسام جمع نحو القلوب: أن كلا الجمعين(٦) فى الخطاب — فى مسائل النحو — صحيح ، أما فى نحو القلوب فأحدهما صواب والثانى غير صواب ·

الإشارة : جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد كذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة ، والفعل من البدعة ، والنفس من الشهوة ، والقلب من الغفلة والغيبة ، والسر(٠٠٠) من الحجبة ·

وجمع التكسير ما تكسر فيه لفظ الواحد : كذلك المدخول(٧) من جمع القوم ما يزول(٨) عن عقود الحقيقة ، ويزيغ عن حدود(٩) الشريعة ·

---

(١) هكذا فى ط و ك ولكنها فى س (جمع تكسير وجمع سلامة) ولكن النسق الذى سارت عليه الفقرة فيما بعد يقتضى ما اثبتناه .

(٢) مشتبهة فى ط .

(٣) سقطت (القوم) فى ط والمقصود الصوفية .

(٤) فى ط (مسكور) والخطأ واضح .

(٠) بفتح الياء . (٠٠) بتشديد الدال .

(٥) فى ط (اذن) وفى س (آداب) وهى وان كانت مقبولة الا اننا رجحنا (ادب) الموجودة فى ك للتشابه فى عدد الحروف بينها وبين (اذن) مما يجعلنا نقترب من الأصل .

(٦) هكذا فى س ولكنها فى ك (ان كل الجمع) .

(٧) أى الذى فيه (دخل) اى شبهة وارتياب على اية صورة .

(٨) فى ط (يدول) والتصحيف واضح .

(٩) فى ك (معدود) والأرجح استعمال (حدود الشريعة) كما جرت عادة الشيخ .

(٠٠٠) بتشديد السين مع كسرها .

فصـــل [١٢] :

إذا جمعت اسماً مذكراً جمع السلامة فيما يعقل(١) ألحقت بآخره واواً فى حال الرفع ، وياء فى حالى النصب والخفض ، ونوناً بعد الواو أو الياء — وهى مفتوحة ، وتسقط عند الإضافة .

والإشارة : إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع فى كل هذا التلوين والتغير(٢) .. فمرة ومرة ، من زيادة ونقصان ، وتبـــديل وتحويل — كذلك صاحب الجمع زال(٣) حكمـــه عن نفســـه ، فمرة يظهره الحق فى ديان(٤) التقريب ، ومرة ينصـــبه فى نعت الإبعـــاد .. وهو محو عن الاختيار « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود »(٥) .

خرج الشبلى يوماً فى زى رث(٦) فقيل له فى ذلك فقال :

فيوماً ترانا فى الحرير نجره(..) ويـــوماً ترانا فى الحديد عوابسا
ويوماً ترانـــا والثريـــد نلته(..) ويوماً ترانا نأكل الخبز يابسا(٦)

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول مرة :

« إنى لست كأحدكم ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى »(٧) .
وقال مرة : « أنا ابن امرأة تأكل القديد »(٨) .

---

(١) فى س (يفعل) وهى غير صحيحة اذ المقصود ان الجمع السالم للعقلاء أو لوصف العقلاء .

(٢) فى س (والتغير) وهى مقبولة وقد سبقت فى فصل سابق ولكننا هنا آثرنا ما جاء فى بقية النسخ (التغيير) لتنسجم مع (التلوين) .

(٣) فى ك (وجدان) وفى ط (واحدان) .

(٤) فى ك (نحو) وهى خطأ .

(٥) آية ١٨ سورة الكهف .

(٦) انظر : حياة الشبلى فى كتب الطبقات .

(٧) رواه مالك والشيخان والترمذى عن انس .

(٨) (كانت تأكل) رواه الحاكم من حديث جرير ، وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(.) بتشديد الثاء . (..) بتشديد الراء والتاء .

ومرة حكم لعشرة بالجنة ، ومرة يقول : « إنه ليغان على قلبى »(٩) .

وجمع السلامة له قياس(١٠) ، وجمع التكسير كثير الفنون مختلف القياس شكل(١١) المبانى(١٢) .

كذلك من حفظ(٠) بوصف العلم فهو — مقاما — سيد(٠٠) وقته وإمام زمانه . والذى هو فى هذه الطريقة جمع تكسير فصاحب بلاء لا يهتدى إليه أحد ، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة ، لكنه مستور فى الحقيقة أمره ، وهو فى عين التعريف (التشريف) . ومن هو على جانب من هذا الحديث(١٣) يظنه من أهل التكليف .

ألوانها شتى الفنون وإنما ... تُسقى(٠٠٠) بماء واحد من منهل

فصاحب هذه الحال مشكل الحال ، ملتبس الوقت ، لا تهجم على

---

(٩) عن اغر مزينة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : انه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة . اخرجه مسلم وابو داود والنسائى وفى رواية لمسلم : « توبوا الى ربكم ، فو الله انى لأتوب الى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة » .

(١٠) فى ط (ليس) له قياس وهذه الزيادة خطأ من الناسخ .

(١١) فى ك و ط (**مشكل**) بضم الميم وسكون الشين وهى صواب ايضا فهى مثل (**شكل**) فى المعنى ، بفتح الشين وكسر الكاف .

(١٣) يقصد بـ (من هو على جانب من هذا الحديث) اى الذى له صلة بهذا العلم ، علم التصوف بمقاماته وأحواله وكشوفاته ومعارفه .. الخ .

(٠) بضم الحاء وكسر الفاء .

(١٢) هكذا فى ك و ط وهى فى س (مجوزات) القياس ، والكلمتان وان اختلفتا فى الرسم الا ان الفهم الدقيق لأحوال جمع التكسير وصوره المتعددة التى تستعصى فى بعض الأحيان على القياس .

(٠٠) بضم الدال .   (٠٠٠) بضم التاء .

محله جوامع[١٤] القياس ، ولا تشرف[...] على غوامض نعتــه ثواقب التقدير[١٥] ٠

---

(١٤) هكذا فى ط و ك وهى فى س (التدبير) ومع انه كان من الواجب ان نختارها على اساس أن المتصوفة يرون التقدير لله والتدبير للعبد الا اننا آثرنا هنا اختيار (التقدير) فى ضوء تذوقنا للعبارة أن المقصود هو : اعطاء الناس (قدراً) لمثل صاحب هذه الحال لا يكون صائباً — لجهلهم بشأنه — مهما كانت (تقديراتهم) ثاقبة .

(...) بضم التاء .

(١٥) (والتقدير) فى هذا المجال اصطلاح نحوى مقبول ووارد ، فان تعريف جمع التكسير كما يذكره النحاة : هو الاسم الدال على اكثر من اثنين بتغيير ظاهر أو (مقدر) .. وربما كان هذا التنظير الدقيق من مرامى الشيخ .

فصـــل [١٣] :

من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالواو، ونصبها بالألف ، وكسرها بالباء ، وهى ستة أسماء : أبوك وأخوك وهنوك وحموك وفوك وذو مال .

الإشارة : كذلك من الناس من خُص(٠) عن أمثاله ، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله :

قال أحدهم : ليس كل بَشَر بِشْراً(١) .

أى باين حكمه حكم من سواه ، وانفرد عنهم فى معناه(٢) .

---

(١) بشر — الأولى بفتح الباء والشين . والثانية بكسر الباء وسكون الشين والمقصود (ببشر) هنا هو (بشر الحافى) بكسر فسكون فقد وردت هذه العبارة عنه فى بعض التراجـــم التى تحدثت عنه وانظر : ترجمة بشر الحافى فى الرســالة القشيرية ط : الحلبى .

(٢) (باين حكمه ... الخ) هذا السطر غير موجود فى ط و ك وجاء فى س ، وهو يضيف أو يوضح المعنى أن بشراً وان استوى مع بقية اقرانه من البشر الا انه مختلف عنهم فى جوهره ، ومباين لهم فى الخطوة والمكانة .

(٠) بضم الخاء .

فصــل [١٤] :

الأفعال على ضربين : لازم ومتعدّ(.)(١)

وفى الإشارة كذلك : أفعال العبد على قسمين : لازم ومتعــد ، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصـورة ، والمتعدى ما تتعدى خيراته إلى الغير .

والفعل المتعدى على أقسام : منها ما يتعدَّى(..) إلى مفعول واحد ، ومنها ما يتعدى إلى مفعولين ، ومنها ما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل .

والإشارة : كذلك العبد قد تتعدى بركاته(٢) إلى عالم من الناس حتى قال الشيوخ : لو أن وليا من أولياء الله اجتــاز ببلد لغفر الله لأهل هذا البلد .

وفى الأثر : لو أن محزونا(٣) بكى فى أمّة(...) لرحم الله تلك ~~وفى الأثر : لو أن محزونا(٣) بكى فى أمة لرحم الله تلك الأمة~~ الأمة ببكائه(٤) .

---

(١) فى ط (متعد ولازم) ونسق الكلام بعد ذلك يقتضى البدء باللازم .

(.) بتشديد الدال وكسرها . (..) بتشديد الدال وفتحها .

(٢) فى ط (افعاله) .

(٣) فى ك تشبه ان تكون (مجذوباً) وليس فى مصنفات القشيرى — فى حدود علمنا — استعمال لهذه اللفظة .

(٤) فى س يقع ترتيب الأثر قبل مقولة الشيوخ ، وفى ب يوجــد الأثر ولا توجد مقولة الشيوخ .

وعلى كل حال فالمقولة « لو أن محزونا ... » لسفيان بن عيينة . الرسالة القشيرية ص ٧١ .

(...) بضم الهمزة وتشديد الميم .

فصـــل [١٥] :

خمسة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون ، ونصبها وجزمها(١) بسقوط النون وهى : يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وأنت(٢) تفعلين .

وفى الإشارة كذلك : من الأفعـــال ما يكون مخصوصا ، ولا تقبـــل إلا بزيادة تقترن بهـــا ، فيؤتى بهـــا بشرط قِران(.) ينضم إليهـــا(٣) : كرمى الجمار مثلا : لا يكون طاعة إلا فى الحج ، كما أن السعى بين الصفا والمروة لا يكون عبادة إلا فى الحج والعمرة ، فمن قيض(..) لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولى لنفع له منه حتى إذا مضى وقت ذلك الشـــيخ فلا قَدْر(...) لذلك الشخص(٤)

---

(١) فى ك (وحذفها) وهى خطا من الناسخ ومصححه فى الهامش تصحيح مراجعـــة .

(٢) ورد ضمير المخاطبة فى ط و ك ولم يرد فى س .

(٣) فى س (فهى يؤتى بها لأصول تنضم اليها) ويمكن تقبلها على أساس ان الفعل أصل ، وأما ثبوت النون او حذفها فزيادة **وقارنته قرانا اى صاحبته،** وقرن بين الحج والعمرة يقرن قرانا أى جمع بينهما والمقصـــود من (شرط القران) هنا شرط مصاحبته الألف والواو والياء فهذا هو الأصـــل فى تركيب الأمثلة الخمسة التى هى موضوع الفصل .

(٤) ابتداء من (فمن قيض الى نهاية الفصل) ساقط فى ك و ط و ب وثابت فى س .

(.) بكسر القاف .

(..) بضم القاف وتشديد الياء .

(...) بفتح القاف وسكون الدال .

فصــل [١٦] :

الأفعال على أقسام : صحيح ومعتل ومضاعف(١) .

الإشارة : كذلك أفعال المكلفين على أقسام(٢) : صحيح ومعتل ، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلة فالصحيح من أفعــال العباد ما سلم من صنوف العلة . وحروف العلة ثلاثة :

الواو والألف والياء ، وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة(٣) .

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى ، كذلك فإن بعض صنوف علل(٤) الأفعال ألطف(٥) وبعضها أبدى(٠)(٦) .

ومن الأفعال ما يكون حرف العلة فى أوله وهو المثال، كذلك من أفعال العبــد ما كانت العــلة فى أوله وهو ألا يكون الدخــول فيه على حــد الإخلاص(٧) .

ومنها ما هو أجوف .. وهو الذى حشوه حرف علة ، كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله زلة كالغيبة والغفلة(٨) .

---

(١) (ومضاعف) موجودة فى س و ب وغير موجودة فى بقية النســخ وهى مقبولة بل ضرورية اذ أن القشــيرى يتحدث بعــد ذلك عن الصحيح والمعتل .

(٢) هكذا فى س وهى فى بقية النسخ (قسمين) .

(٣) فى ك (والساكن) وهى خطأ من الناسخ .

(٤) فى س (على) وهى خطأ من الناسخ .

(٥) أى أخفى .

(٦) فى ط و ك (**اجلى**) وكلاهما بمعنى .

(٧) (ومن الأفعال .... الاخلاص) موجود فى ب بعد المضعف وغير موجود فى النسخ الأخرى ، وقد آثرنا وضعهما هنا فى المقدمة حسب الترتيب المألوف فى كتب النحو .

(٨) (كالغيبة والغفــلة) موجودتان فى ب وغير موجودتين فى بقيــة النسخ .

(٠) بسكون الباء وفتح الدال .

ومنها ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة ، كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذى تعقبه آفة ، فإن قبـول القرب(٩) موقوف على وفاء العواقب .

ومن الأفعال ما هو لفيف ، وهو الذى اجتمع فيه حرفان من حروف العـلة إما مقترنين أو مفترقين(١٠) ، كذلك من الأفعال ما تتوالى عليـه الآفات ، فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الإعجاب .

ومن الأفعـال ما هو مضـعف(٠) ، وذلك ما اجتمع فيه حـرفان متجانسان(١١) فادغم أحدهما فى الآخر ، كذلك من أفعال العبد ما ضوعف لصاحبه أجره ، أو ضوعف عليه وزره وذلك ما اجتمع فيه حق(٠٠) الحق وحق الخلق فضوعف حكمه فى الأجر والوزر(٠٠٠) .

---

(٩) فى ك (العدل) وهى خطأ من الناسخ ، وربما كانت (العمل) لأن الأعمال بخواتيهما كما يريد السياق ، والقرب ، بضم القاف .

(١٠) فى ك (مقرنتين ومفترقتين) وتاء التأنيث فيهما زائدة لأن الكلام عن الحرفين .

(٠) بتشديد العين .

(١١) مشتبهة فى ط وواضحة فى بقية النسخ .

(٠٠) بتشديد القاف .

(٠٠٠) بكسر الواو وسكون الزاى .

فصــل [١٧] :

الإدغام الإخفــاء ، فالحرفان فى التقدير موجودان وإن كانا على اللسان بوصف الانفراد . وفى هذا إشارة إلى ما يقوله القوم فى وصف الجمع وجمع الجمع(١) .

والمدغم من الحــروف قد يكون له حال بروز(٢) فى بعض أحــوال التصريف(٣) .. كذلك صاحب الجمع له رجوع وردّ(.) فى بعض الأحايين إلى عين الفرق .

ومن أقســام الفعــل المهمــوز(..) .. والهمــزة مدٌّ(٤)(...) فى الحلْق(....) .. كذلك قد يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول .

---

(١) فى ك (وعين جمع الجمع) أنظر القسم الثالث من هذا الكتاب .

(٢) فى ط (بروز) بدون نقط ولكنها واضحة فى ك و س .

(٣) فى ك و ط (فى بعض الأحوال) فقط .

(٤) هكذا فى ك و ط وهى فى س (أثر) وفى ب (نبر) وكلاهما مقبول فى السياق ولكننا آثرنا **(مد) فالمد** زيادة وعندئذ يقوى الانسجام فى التنظير بين النحو والاشارة .

(.) بتشديد الدال . (..) بضم الزاى .

(...) بتشديد الدال مع التنوين .

(....) بسكون اللام .

فصـــل [١٨] :

الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدراً[١] للإخبار عنه ، مجرداً عن العوامل اللفظية ٠

وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر ، فإذا سلم من العوامل الظاهرة سلم له صدر الخطاب ٠ فكذلك من ســلم من تأثير الأطماع فيه ، ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم ، ومن أسرتْه(٠) المنى والمطالبات تسفّل(٠٠) فى الأعقاب ، ووقع فى صف النعال[٢] ٠

---

(١) بتشديد الدال . فى ط (مرصـــداً) ولا معنى لها ، فان المبتدأ حقه التصدير وكذلك بدليل ما سيأتى (سلم له صدر الخطاب) .

(٢) مشتبهة فى ط ، ك ، وهى هنا تعطى معنى انحدار قيمة العبد الى مرتبة (النعال) التى تخلع قبل الدخول على بساط القرب على عتبات الأبواب (للقشيرى تصور لدرجات الداخلين يتضح فى الشروح من هذا الكتاب) .

(٠) بسكون التاء وضم الهاء .

(٠٠) بتشديد الفاء .

فصــل [١٩] :

العوامل على قسمين : لفظى ومعنوى ، فالاسم المبتدأ : العامل فيه معنى الابتداء ، وهو غير لفظى ، وإنما هو وقوعه مبتدأ .

كذلك فى الإشارة : العامل فى العبد(١) نوعان : ظاهر يهتــدى إليه كل أحد ، ومســتور لا يظهر إلا بعد مدة ، قال الجنيد(٢) رحمــه الله : « من أراد أن يضع سراً(٠) عند أحد فليضعه عند رويم(٣) ، فإنه صحبنا كذا وكذا سنة(٤) وفى قلبه حب(٠٠) إلينا (٥) ولم نبصره فيه » .

---

(١) (فى العبد) غير مذكورة فى ط و ك .

(٢) الجنيد هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة وامامهم ، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وكان أبوه زجاجاً ولذا قيل له القواديرى ، وكان فقيهاً على مذهب ابى ثور صحب السرى السقطى والحارث المحاسبى والقصاب ومات سنة سبع وتسعين ومائتين من الهجرة .

(٣) هو ابو محمد رويم بن احمد بغدادى النشأة وكان فقيهاً على مذهب داود توفى سنة ٣٠٣ هـ .

(٤) فى س (كذا سنة) فقط .

(٥) فى ب و س (الدنيا) وهى خطأ فى النسخ لأن السياق يتطلب انه احب الجنيد ومجلس علمه حباً مكتوماً ، وقد سيق الشاهد دليلا على العامل الخفى .
(راجع قضية الافصاح والكتمان عند الصوفية فى كتاب نشأة التصوف الاسلامى ط دار المعارف لابراهيم بسيونى) .

(٠) بتشديد الراء . (٠٠) بتشديد الباء .

فصـــل [٢٠] :

ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتـــدأ بالرفع ــ وهو أقوى الحركات ــ لمصادفته حل لجام التكلم(١) كذلك فى الإشارة من تخلص من تأثير المطالبات فيه ، وتحرر من الإرادات قوى فى حاله فخُصّ(.) بأقوى الأثقال(٢) ، وحُمِّل(..) أثقل الأمور لأنه يحمله بقوة ، فأقواهم حالاً يخص بأثقل الأمور ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »(٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل (هائمة)(٤) لا تكاد تجد فيها راحلة »(٥) .

وكان الشـــبلى يقـــول : « أشـــعر(...) أنى مأخـــوذ (٦) بجرائم الخلق(....) » .

---

(١) (حل لجام التكلم) واضحة فى س ومشتبهة فى بقية النسـخ .

(٢) ابتداء من (كذلك فى الاشـارة ... حتى الأثقـــال) موجود فى س وغير موجود فى بقية النسـخ .

(٣) آية ٥ سورة المزمل .

(٤) بياض فى س .

(٥) والحديث غير موجود فى بقية النسـخ اى انه فى س وحدها وبعده اضافة : الراحلة هى الناقة التى يحمل عليها ما يعجز عنها كل ابل .
ورواية الشيخان والترمذى : « انما الناس كالابل الهائمة ، لا تكاد تجد فيها راحلة » .

(٦) هكذا فى ك و ط وهى فى س (المؤاخذ) .

(.) بضم الخاء وتشديد الصـاد .

(..) بضم الحاء وتشديد وكسر الميم .

(...) بسكون الشـين وضم العين والراء .

(....) بفتح الخاء وسكون اللام .

فصـــل [٢١] :

لابد للمبتدأ من الخبر[١] •• والخبر ما تتم به فائدة الخطاب ، فإذا حصل الابتداء فلابد مما تتم به فائدة الخطاب وإلا كان لغواً[٢] .

كذلك الابتداء فى العرفان ، فلابد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء ، فإذا حصل الابتداء بالطاعات فلابد من تمامها : قال صلى الله عليه وسلم : « الأمور بخواتيمها »[٣] .

وكذلك على لسان الجمع : إذا حصــل منه (سبحانه)[٤] ابتــداء القسمة[٥] بالرحمة فلابد[.] فى الانتهاء والمآل[٦] من المنة والنعمة ، وإذا سبق منه الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه فى الانتهاء ، ولذلك قيل :

إن الكريم إذا حبــاك بــودِّه[..] ستر القبيــح وأظهر[٧] الإحسانا
وكذا المـلول إذا أراد قطيعـــة ستر المليح وقــال كان وكانا[٨]

---

(١) وفى ط (لابد للمبتدأ فى الأسماء من الاخبار) والمعنى واحد .

(٢) (والا كان لغواً) موجــودة فى س وغير موجودة فى بقية النســخ والسياق يتدعم بها .

(٣) ولهذا جرت عادة الألسنة بقولها « واختم لنا بخاتمة الســعادة اجمعين » .

(٤) (سبحانه) زيادة من عندنا وجدناها ضرورية لتوضيح المقصود .

(٥) فى ك (القسم) ويمكن تقبلها بشرط كسر القاف حتى تكون صيغة جمع .

(٦) فى ك و ط تأتى العبارة على هذا النحو (فلابد فى الانتهاء باكمال المنة والنعمة) وسياق الكلام لا يرفضها .

(٧) هكذا فى ط وهى فى ك و س (واكمل) وقد رشحنا (واظهر) لتقابل (ستر) .

(٨) البيت الثانى غير موجود الا فى ب وان كانت (المليح) قد وردت خطأ (القبيح) .

(.) بضم الباء وتشديد الدال . (..) بتشديد الدال وكسرها .

فصـل [٢٢] :

خبر(١) المبتدأ على أقسام وبالكل(٢) تحصل فائدة الخطاب .

كذلك لو سلكت للحق طريقا ، أو ابتدأت بأمر فلا تنصرف ما لم تتم ذلك سواء كان سلوكك سبيل العبـادة ، أو طريق الإرادة(٣) ، أو طريق العلم ، أوطريق الزهد فإن قدْر(.)(٤) الأموربالاستقامة فيها ، فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لا تتم الفائدة(٥) إلا بإتمامه .

تجرّد(..) إلى الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد(..)(٦)

---

(١) من هنا تبدأ النسخة ت بعد المساحة الساقطة منها .

(٢) هكذا في النسخ الأربع وهي في س (وبالجميع) .

(٣) (أو طريق الارادة) غير موجودة في ط وموجودة في بقية النسخ وهي ضرورية حسبما جرت عادة القشيري في هذا المجال .

(٤) في ط زحفت الدال على الراء فأصبح الرسم (قلد) ولا معنى لها ، اما في ك فهي (قلة) والخطأ واضح من الناسخ اما في ت فهي (قلب) أي هناك نقطة تحت المد .. ومن كل ذلك رشحنا (قدر) الواضحة في س لأنها ملائمة للمقصود في نظرنا .

(٥) سقطت (الفائدة) في ت .

(٦) هذا البيت موجود في ب وغير موجود في بقيـة النسخ ، ومع انه يحتمل ان يكون زيادة من عند الناسخ لتوضيح الأمر لنفسه الا أن السـياق لا يرفضه ، ويقوى ذلك كلامه عن (التجرد) في الفصل القادم .

(.) بسكون الدال .

(..) بتشديد الراء وفتحها .

فصـــل [٢٣] :

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك : زيد(*) منطلق . ويكون جملة إما فعلا وفاعلا ، أو شرطا وجزاء(١) ، أو ظرفا .. وبجميع ذلك تحصل فائدة الخطاب .

كذلك إذا ابتدأت بامر فيكون تمامه بتجردك لذلك الأمر كما ابتدأت به ، فتكون اليوم فيه كما كنت بالأمس(٢) .وقد(٣) لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى ، إذ لو لم تُضفها(**) إلى ما سبق منك بالأمس لا تحصل الفائدة .

---

(١) واضحة فى س و ك و ت و ب ومشتبهة فى (ط) .

(٢) اى من حيث التجرد لذلك الأمر ، ولكن تبقى بعـــد ذلك اضافات جديدة لكى يستمر الطموح الى الاتمام .

(٣) هكذا فى النسخ الأربع وهى فى ت (وهنا لا تحصل) .

(*) برفع المبتدأ والخبر .

(**) بضم التاء .

فصـــل [٢٤] :

الفاعل مرفوع(١) ، وقيل : علة الرفع مشابهته للمبتـــدأ ، وقيل : لقوة حاله خص(٠) باقوى الحركات ٠

وقيل : للفرق بينه وبين المفعول ـــ والرفع(٢) أقوى الحركات ٠

وفى الإشارة : استحقاق الرفعة والعلو للحق سبحانه وتعالى ، لأنه الفاعل على الحقيقة ، وليس لغيره قدرة على الاختراع ٠ ولأن الابتداء فى الأمور منه فهو الأول السابق ، واستحقاق الرفعة(٣)وا لعظمة له ٠

---

(١) فى ت و س (**رفع**) . بضم الراء وكسر الفاء ٠

(٢) (والرفع اقوى الحركات) زيادة فى س ٠

(٣) فى س (الرتبة) وفى بقية النسخ (الرفعة) وهى اليق بالسياق اذ الكلام يدور حول الرفع) ٠

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد ٠

فصــل [٢٥] :

المفعول منصوب ، والنصب أخف من الرفع ، والمفعول أنقص رتبة من الفاعل فخص(*) بما هو الأخف من الحركات .

كذلك الخلق هم المفعولون ، فلهم حالة العجز والنقص ، لأنهم في أسر القدرة وتصريف القبضة .

وقيل :

فاصــبر لِمُــرِّ(**) العنــاء
فقد خُلْقت(***) مَمرّ(****) القضاء(١)

---

(١) هذا البيت غير موجود الا في ب .

(*) بضم الخاء .

(**) بكسر اللام وضم الميم وتشديد الراء .

(***) بضم الخاء وسكون القاف .

(****) بفتح الميم وتشديد الراء .

فصــل [٢٦] :

المفعول على أقسام : مفعول مطلق ، ومفعول به ، ومفعــول له ، ومفعول فيه ، ومفعول معه ٠

كذلك المفعولات على أقسام : فالجمادات مفعولات على الإطلاق ، والحيوانات مفعول بها ، تجرى عليهــا أحكامه ـ سبحانه ـ فى النفــع والضر ٠ والمكلفون مفعول لهم ، خلق(١) لأجلهم الجنة والنار ٠ وأحوال(٢) المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصى والطاعات فيها ٠ والبلاء مفعول معه لأن بنى آدم خلقوا(٣) والبلاء والعنــاء معهم ٠ قال الله تعــالى : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »(٤) ٠

ويصح أن يقــال : الأرزاق مفعول معــه لأنها لازمة لأوليائه ، فلا يكون لله وَلِى(٠) إلا وهو مُكْفى(٠٠) الشغل ، قال الله تعالى :

« وهو يتولى(٠٠٠) الصالحين »(٥) ٠

---

(١) بفتح الخاء واللام ، ســـقطت (خلق) من ط وهى موجودة فى بقية النسخ ، ومن الضرورى اثباتها حيث ترتبط بقضية كلامية هامة هى (هل الجنة والنار حادثتان أم غير حادثتين ؟) .

(٢) هى فى س (أفعال) ونرجح ما اثبتنا لقربها الى السياق ٠

(٣) هذه العبارة موجودة فى ط هكذا : (والبلاء مفعول معه لأبناء آدم ، تلقوا العناء والبلاء معهم) ٠

(٤) آية ٤ سورة البلد ٠

(٥) آية ١٩٦ سورة الأعراف ٠

(٠) بفتح الواو وكسر اللام ٠

(٠٠) بفتح الميم وسكون الكاف ٠

(٠٠٠) بتشديد اللام المفتوحة ٠

فصـــل [٢٧] :

ما لم يسم فاعله مرفــوع ، لأنه لم يذكر فاعله فأقيم المفعــول مقــام الفــاعل ، فأعــرب إعراب الفــاعل ، لأن الفعــل لابد له من فاعل ، فيقــال : ضُرِبَ(.) زيــد .

الإشارة : إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نَســبوا(..) الأفعــال إلى المفعولين فتوهموا للمفعــول اســتحقاق رتبــة(١) الفاعل فيضيفون الكائنات إليهم ، لأن العلم ــ بأن هذه الحوادث لابد لهــا من محــدث على الجملة ــ ضرورة .

فإذ(٢) لم يثبتوا الصانع توهموا الفعــل من المفعــولين ، فواحــد أقام الطبع مقام الفاعل فى التوهم ، وآخر النجم ، وآخر الفلك ، وآخر الجَد(...) والبخْت(....) ، وآخر الدولة(٣) وآخر(٤) الدهر وآخر زيدا ، وآخر عمروا ...

فكما أن إعراب الرفع للذى لم يســم فاعله ليس بحقيقــة كذلك توهّم(.....) أن الحادثان من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له .

---

(١) فى ط (زينة) .

(٢) فى ط (فاذا) والصواب ما اثبتناه لأنها بمعنى (فحيث) .

(٣) سقطت فى ط وموجودة فى بقية النسخ (بتشــديد الدال وضمها وفتح الواو) .

(٤) غير مذكورة فى ب وتوجد واو العطف فقط قبل لفظة (الدهر) .

(.) بضم الضاد وكسر الراء .

(..) بفتح النون .

(...) بفتح الجيم .

(....) بسكون الخاء .

(.....) بضم التاء وتشديد الهاء وكسرها .

فصـــل [٢٨] :

المضاف إليه له الخفض ، تقول : دار زيد(٠) .

والإشارة : أن الخفض أضعف الحركات : عنــدما كان الاســم مفرداً ، كان له أقــوى الحركات ، فلمــا جاءت الإضــافة صــارت له أضعف الحركات . كذلك العبــد مادام مجــرداً فله أقوى الحــالات ، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات(١) .

---

(١) فى س (الى أضعف الحركات والحالات) ونظن ان الحركات هنا زائدة ، وهى غير موجودة فى بقية النســخ ، وقد آثرنا الاكتفاء (بالحالات) لأن انتقال الشيخ الى الاشارة يتطلب التنويه بما فى الطريق من (أحوال) ، وبتعبير آخر نؤثر أن تبقى (الحركات) لنحو الظاهر وتبقى (الحالات) **لنحو** القلوب .

(٠) بتنوين الدال بالكسر .

فصـــل [٢٩] :

كان وصار ... إلى آخر هذه الأفعـــال الفـــاظ ترفع الأســماء وتنصب الأخبـــار ، تقول : كان زيـــد قائماً ...

فهذه مشبهة(.) بأفعال وليست بأفعال محضة .

والإشارة : أنها لمـــا ضارعت الأفعـــال أجريت مجرى الأفعـــال الحقيقية ، فكما أن الفاعل رفع والمفعول به نصـــب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب ، ولكن ينادى(..) عليها(١) أنها(٢) ليست بأفعال محضة ، فكذلك من تشـــبه بقوم يجرى مجراهم ، ويحـــكم له — فى الظاهر — بحكمهم ولكن ينادى عليه بأنه متشبه(...) بهم وليس منهم حقـــاً .

قال الشاعر فى هذا المعنى :

إذا انســـكبت دموع فى خـــدود

تبين(....) من بـــكى ممن تبـــاكى(٣)

---

(١) فى ت (ولكن ينادى عليه) .

(٢) (فيقال ليست بافعال محضة) هكذا فى ت ، ولا خلاف فى المعنى .

(٣) فى س (اشتبكت دموع) ، وجاء الشطر الأول للبيت فى ك على هذا النحو (اذا غرقت عيون فى دموع ..) .

اما فى ت فيأتى الشطر الثانى (تبين من بكى أو من تباكى) وكلها وجوه مقبولة من ناحيتى المعنى والعروض .

(.) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الباء وفتحها .

(..) بضم الياء .

(...) بتشديد الباء وكسرها .

(....) بتشديد الياء وفتحها .

فصل [٣٠] :

الحروف التى تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة(١) وهى : إن وأن وكان ولكن وليت ولعل .

وعمل هذه الحروف — فى الحقيقة — فى الأسماء دون الأخبار(٢) ، لأن الأخبار باقية على ما كانت عليه ، وإنما تساهل النحويون فيه ، فهذه الحروف أشبهت كان وأخواتها التى تعمل فى الاسم والخبر جميعا ، ولما كانت هذه الحروف مشبهة(٠) بالمشبه ضعفت عنه فى العمل فعملت فى الاسم دون الخبر(٣) .

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق(٤) وأقرب من التلزيق والتلفيق كان أضعف فى التأثير ، وأخس(٥) فى المقدار .

---

(١) (معدودة محصورة) هكذا فى س ، وفى ط و ك (محصورة) فقط ولم ترد (معدودة) ولا (محصورة) فى ت .

(٢) (دون الأخبار) سقطت فى ك ولكن جاء بها (لأن الأخبار) ويبدو انه اشتبه على الناسخ رسم (دون) فظن هناك تكراراً ، ولكن السياق يتطلب الاثبات على نحو ما جاء فى بقية النسخ ، اذ يقصد القشيرى الى ان عمل الحروف الناسخة اقل قوة من عمل الأفعال الناسخة ، وهذا ركن اساسى فى استنباط الاشارة (انظر الشرح والدراسة فى هذا الكتاب) .

(٣) وقع تكرار فى بعض النسخ فى هذه العبارة مما جعلها منبهمة وقد قومناها على نحو مفهوم .

(٤) فى ك (الحق) ثم حدث تصويت لها .

(٥) فى ك (احسن) وهى خطا من الناسخ ، وهى فى س (اخف) وربما يتقبلها السياق .

(٠) بتشديد الباء وفتحها .

فصـــل [٣١] :

الفعـــل الماضى مبنى على الفتـــح نحـــو : ضرب ، والفتـــح أخف الحركات ، فلمـــا كان الماضى بمضيه(١) له أضعف الحـــالات خض(٢) بأضعف الحركات .

والإشارة : أضعفهم استحقاقا أبخسهم نصيباً .

قال الشيوخ : « إن لله عبـــاداً لم يرهم أهلا لمعرفته فشـــغلهم بنوع من عبادته »(٣)

---

(١) مشتبهة فى ك وواضحة فى بقية النسخ . (بتشديد الياء وكسرها) .

(٢) غير واضحة فى ط .

(٠) بضم الخاء .

فصـــل [٣٢] :

الفعل المضـــارع مرفـــوع لمضـــارعته الاسم ، فأصل اســـتحقاق الإعراب للاســـم .

والإشـــارة : من(.) تشـــبه بقوم فهو منهم ، ومن(١) أحب قوماً حشر معهم .

وقال الشيوخ : هم القوم لا يشقى بهم جليس(٢) .

وقالوا : من(.) تحقق بحاله لم يحل(..)(٣) عنه حاضروه .

---

(١) (ومن أحب قوماً حشر معهم) موجـــودة فى ب وغير موجودة فى بقية النســخ .

(٢) هكذا فى ب وهى فى بقية النســخ (لا يشــقى جليســهم) والمعنى واحد .

(٣) حال الى مكان آخر يحول حولا وحولا بكسـر الحاء وفتح الواو اى تـحول ، وهى فى س (لم يمل) بالميم .

(.) بفتح الميم .

(..) بضـم الياء وفتح الحاء وسـكون اللام .

فصـــل [٣٣] :

الحروف التى تجزم الفعل المســتقبل معــلومة(١) وهى :

لم ولما واخواتهما • والتى تنصبه معلومة وهى :

أن ولن وكى وإذن •

والإشارة منه : أن الفعل المضــارع مادام منفرداً كان له أقوى الحركات ، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن اســتحقاق أقوى الحركات ، وآل(٢) إلى حال الضعف •

وكذلك العبــد عند تجرده(٣) فهو بنعت اســتقلاله وقوته ، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما رد إلى الضعف ، فبعدما كان بالله مســتقلا(٤) صــار أســير حظ وصريع(٥) نصيب(٦) ، ثم ••• بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لــكل قاصــد ، وبعض العوامل فيه تجزمه فتنقطع عنه الفوائد •

---

(١) مذكورة عند ارباب العلوم تقديما للكلام فى ذلك عند أرباب القلوب.

(٢) فى س تشبه (قال) وهى خطأ من الناسـخ .

(٣) فى ت (تجره) بسقوط الدال ، والدال واضحة فى بقية النســخ وهذا هو الصـواب .

(٤) فى ت (مشتغلا) والمعنى وان كان يتقبلها ، الا ان الكلام عن (الاستقلال) بالله عن (الغير والسـوى) .

(٥) فى ك و ت (سريع) بالسين وهى خطأ .

(٦) بعد (نصيب) حدث سقوط هائل فى ك امتد الى منتصف الفصل الثامن والثلاثين عند قوله : (استشهدوا بهذا البيت :

عجبت لســعى الدهر ••••)

ومن حسن الحظ أن يكتمل النقص فى بقية النسـخ .

فصـــل [٣٤] :

الأمر مبنى على الســكون ، نحو قولهم : اذهب • والنهى مجزوم نحـــو : لا تفعـــل •

والإشارة : الســكون يشــير إلى الــدوام ، كمــا أن الحــركة تعنى[1] الــزوال ، فالأمر على الوجوب واللــزوم ، والنهى مجــزوم إذ النهى عن الشىء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت[٠] به ، وتقف عما نهيت عنه •

وجواب الأمر وجواب النهى مجزومان ، إذ ليس للمأمور ولا للمنهى لســان الاعتراض ، وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر أو النهــى ، فنعت المعارضة من المــأمور والمنهى مجــزوم ، وغير[2] الانقيــاد والخضــوع منهما معــدوم •

---

(١) فى س و ت (عين) وهى فى ط (تعنى) •

(٢) هكذا فى س ولكنها فى ت و ط (وعن) والمعنى يرفضها ويتقبل (غير) بناء على خبر المبتدأ (معدوم) فيكون المعنى أنه لا حيلة للمأمور أو المنهى فيما أمر به أو نهى(٠٠) عنه ، وينعدم منهما أى شىء غير الامتثال .

(٠) بضم الهمزة .

(٠٠) بضم النون وكسر الهاء .

فصل [٣٥] :

النعت تابع للاسم ، فإن كان الاسم مرفوعاً فالنعت مرفوع ، وإن كان منصوباً أو مخفوضاً فالنعت مثله(١) .

والإشارة من الاسم إلى السر(٢) ، ومن النعت إلى الوصف(٣) ، وإن ما(٤) يلوح على الظاهر ما يلقى به عن(٥) السر ، سألوا : من(٠) العارف ؟ فقال : «لون الماء من لون إنائه»(٦) .

وأنشدوا :

كيفما دارت الزجاجة درنا(٠٠)

يحسب الجاهلون أنا جننا(٠٠٠)

ولما كان النعت تابعاً كان حكمه حكم متبوعه ، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه .

---

(١) فى س (كمثلى) وربما كانت (كمثله) .

(٢) فى ت (الشيء) وهى خطأ من الناسخ بدليل ما بعدها .

(٣) فى س (النفس) وهى مرفوضة اذ المطلوب (وصف) السر والوصف يتبع الاسم ، انظر آخر الفقرة .
(حكم كل تابع انما هو حكم متبوعه) .

(٤) فى س (وانما) وقد آثرنا ان نجعلها (ان ما) لأن ذلك يظهر المقصود ويقويه .

(٥) هكذا فى ت و ط و هى فى س (من) والمعنى لا يرفضها ، فالمهم فى الأمر ان الظواهر تنم عن السرائر .

(٦) هذه العبارة للجنيد (انظر رسالة القشيرى ص ١٥٦) .

(٠) بفتح الميم . (٠٠) بضم الدال .

(٠٠٠) بضم الجيم وكسر النون الأولى .

فصــل [٣٦] :

الشرط والجــزاء مجزومان ، وللشرط والجــزاء حروف نحــو : إن(.) ومن(..) ... وما أشبههما نحو قولك : إن تضرب أضرب .

والإشارة : الجزاء لا(...) يستحق إلا بحصول الشرط سواء بسواء كذلك فى الشرع علق أشــياء من أفضاله على أشــياء من أفعالك ، فإن وفيت(....) بالشرط استوجبت الجزاء ، لذا قالوا(١) :

إن وجــدنا لمــا ادعيت شــهوداً
لم تجــد عنــدنا لحق جحــوداً

وقال الله عز وجل : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم »(٢) .

---

(١) لا يوجد فى ب بعد (قالوا) هذا البيت الشعرى ولا الآية الكريمة انما يوجد بيتان آخران هما :

بقدر الكــد تكتســب المعــالى ومن طلب العلا ســهر الليــالى
تنــام الليــل ثم تــروم عــزا يغوص البحــر من طلب اللآلى

وربما كان البيتان فى الأصل ، أو هما زيادة من الناسخ لتذكير نفســه بالمقصود .

(٢) آية ٤٠ سورة البقرة .

(.) بكسر الهمزة وسكون النون . (..) بفتح الميم .

(...) بضم الياء . (....) بفتح الفاء وسكون الياء .

فصـــل [٣٧] :

حـــروف العطف عشرة : الفـــاء والـــواو وثـــم وأخواتهـــا • وحكم المعطوف فى الإعراب حـــكم المعطوف عليه •

الإشارة : لمـــا اشتركا فى المعنى تشـــاكلا فى صورة الإعراب • كذلك : من صحب قوماً ، ووافقهم(١) ، وانخرط فى سلكهم ، وعدّ(٠) من زمرتهم فما استقبلهم اســـتقبله (٢) ، وما يفتح لهم به يفـــرد(٠٠)(٣) له منه نصيب •

وفى الأثر : « جلساؤكم شركاؤكم » •

(١) هكذا فى ت و س وهى فى ط (ووافاهم) ولا ضير منها فى السياق أيضاً •

(٢) يوجد بعـــدها فى س و ت زيادة هى (وما استعملهم اســـتعمله) وربما كانت فى الأصل على معنى : وما أثر فيهم من (عامل) يمتد تأثيره اليه بوصفه مشاركاً لهم فى السراء والضراء •

(٣) فى ت (يفوز) ونرجح أنها ربما كانت (يفرز) أى يستخلص له — مما رزقوا — نصيب •

(٠) بضم العين وتشديد الدال وفتحها •

(٠٠) بضم الياء •

فصـــل [٣٨] :

همزة الوصل تلحق بالأســـماء والأفعال فى أحـــوال مخصوصة ، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها .

والإشارة منه : أن العبد ينصب(·) لمقام — والمقصود(١) غيره ، فإذا زال ذلك المعنى ، وحصـــل ذلك المقصـــود رد هـــذا المنصــــوب إلى ما يستحقه ، وهذه محنة للأكبـــاد مفتتة(··) ، وفى معناه استشهدوا(٢) بهذا البيت :

عجبت لســـعى الدهر بينى وبينهـــا

فلمـــا انقضى ما بيننـــا ســـكن الدهر

وقال غيره :

ســـكنوا فى ديارهم ثم قالـــوا   ما لك — اليوم — عندنا من جواب

أطعمـــــونا حتى إذا ما طعمنـــا   وجرت بيننـــا عرى الأســـباب(٣)

وقد يمتحنون(٤) بالتغافل عنهم ، فبعد طول الغيبة ينشـــدون :

أدرجت(···) فى أثـــواب نســـيانكم   حتى كأننى ألف الوصـــل

---

(١) فى س (والمراد) ولا بأس بها فى المعنى .

(٢) من هنا تعود النسخة ك بعد السقوط الهائل الذى بدأ فى الفصـــل (٣٣) هامش رقم (٦) .

(٣) فى ط يأتى الشطر الثانى هكذا : (وجرى فى نفوسنا الأسباب) .

(٤) سقطت فى ت .

(·) بضم الياء . (··) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد التاء وكسرها.
(···) بضم الهمزة وسكون الجيم .

ولمـا لم تكن ألف الوصل(٥) أصلية لم تبق على دوام الأوقات ، كذلك من لم تسـبق قسـمته بالجميـل(٦) فإلى محتـوم(٧) الأزل ينـول(٨) أمره .

---

(٥) فى ك (صحة) ألف الوصل وهى خطأ من الناسـخ ، وفى ط الف (الوصال) وفى ط (صاحبه) وكلاهما خطأ أيضاً .

(٦) فى ت (بالجهل) وهى خطأ من الناسخ .

(٧) فى س (المحكوم) .

(٨) فى ط (يصير) وتحتها (يئول) فهى زيادة تفسيرية من الناسخ .

فصــل [٣٩] :

الحروف التى تخفض الأســماء(١) محصورة نحو : من وإلى وفى والباء الزائدة والكاف الزائدة ٠٠ وأخواتها ، وهذه الحروف تدخل على الأســماء وعملها الخفض ٠

كذلك : من الأسباب(٢) الداخلة على العبــد ما يعمل فيه الكسر والخضوع والوضع ، فمن(٠) داخله الطمع والحرص والتمنى والشــهوة وأمثالها من الخصــال المذمومة والأخلاق الدنيئة أوجبت(٠٠) له ضعة(٣) الحال ونقصان الرتبــة وخساسة المنزلة ٠

---

(١) نالك فى س و ت زيادة بعدها وهى (وترفع الأخبار) وهى خطأ من الناسخ ٠

(٢) وهى فى س هكذا ولكنها فى بقية النسخ (الأسماء) ولكن بناء على تذوقنا لأسلوب القشيرى نؤثر (الأسباب) ٠

(٣) هى هكذا فى ك وهى ايضاً هكذا فى ط وان كان يقابلها فى الهامش (صغر) ويمكن ان تقرأ بكسر الصاد وفتح الغين ، أما فى ت فهى (ضعف) وهى مقبولة فى السياق ولكننــا آثرنا (ضعة) لتتمشى مع ما بعــدها من (النقصان) و (الخســاسة) ٠

(٠) بفتح الميم ٠

(٠٠) بفتح الهمزة وسكون التاء ٠

فصـــل [٤٠] :

ومن الحروف ما يدخـــل على الاسم المبتـــدأ ولا يغير معنـــاه ، ولا يوجب له تغير الإعـــراب وهى مثل : إنمـــا ، وكأنما وليتما ، ولعلما وغيرها .

والإشارة : أن من النـــاس من لا تؤثر فيـــه الواردات بحـــال ، فهو فى حال ما دخل عليه مثله فى حال تجـــرده عنها .

دخل أحدهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاه(٠)(١) فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى ولـــكنه رآه لا يؤثر فيـــه شىء من ذلك ، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت(٢) فقال : « فديت(٠٠)(٣) من لا تؤثر فيه الجبال والرواسى » !

فقال ذلك الشيخ : « يا فلان ، إنا قد جردنا(٤) عن رق(٠٠٠) الأشياء فى الأزل » .

---

(١) مشتبهة فى ط وهى فى ك و ت (ماء آسن) وهى فى س (ملاه) وهى التى اثبتناها لأن السياق يقتضيها ، فضلا عن ان القصة واردة بكاملها فى الرسالة (ص ٣٥) والشيخ فى القصة هو ابو بكر القحطى وكان ابنه هو الذى (يتعاطى ما يتعاطاه الشباب مع اقرانه) .

(٢) (من الوقت) ســـقطت فى ط و ك و ت . ومثبتـــة فى س . وقد أوردناها فى المتن تمشيا مع اسلوب القشيرى فى هذا الصدد (انظر اصطلاح الوقت فى رسالته) وانظر أيضا قسم الشرح والدراسة من هذا الكتاب .

(٣) مشتبهة فى ط وهى فى ك (تقدمت) .

(٤) هكذا فى ك ، وهى فى ت **(حررنا)** وفى ط (تحررنا) وهما مقبولان فى السياق .. فالتحرروالتجرد هنا بمعنى واحد .. خاصـــة وأن (التحرر) نقيض (الرق) ولكننا فى النهاية آثرنا التجرد اعتماداً على حرف الجر (عن) ، **اما** التحرر فكان يتطلب (من) .

(٠) بفتح الميم وتنوين الهاء المكسورة . (٠٠) بفتح الفاء وضم التاء .

(٠٠٠) بتشديد القاف وكسرها .

فصـــل [٤١] :

جواب الأمر والنهى والدعاء والاستفهام والجحـــد والعرض[١] والتمنى — بالفاء منصوب ، ويجزم عند حذف الفاء[٢] .

الإشارة : لمـــا حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشـــياء أخرج[.] الجواب عن واجب استحقاقه إلى[٣] صفة أخرى[٤] . فكذلك شرط الواسطة : تغير[..] حكم المدخول[٥] عليه . فمن عاش مع الله تعالى بواســطة المعلوم تغير عليه حكم ما وجب له عند التجرد عن المعلوم .

أما[٦] العيش مع الله بلا علاقة فيبقى[...] العبد على ما يحب[٧] — من تحقيق الوصل — فى الأصل .

---

(١) والعرض بفتح العين وسكون الراء لم ترد فى (ط) ووردت فى بقية النسخ وهى لازمة .

(٢) اخطأ الناسخ فى س فقال (وبحذف الفاء منصوب) لأن الجواب فى هذه الأحوال حقه الجزم .

(٣) فى ط (الا) وهى خطأ من الناسخ .

(٤) سقطت (اخرى) فى ت .

(٥) هكذا فى ت وهى فى ط (المدلول) وفى س (الدخول) والصـــواب ما اثبتناه .

(٦) اضفنا (اما) من عندنا ليتماسك المعنى ويزيد وضوحاً .

(٧) هكذا فى النسخ جميعها ما عدا س فهى مشتبهة فضلا عن انهـــا ذات نقطة تحت الجيم (يجب) ، وهى على هذا تكون مرفوضة لأن مذهب القشيرى الأشعرى يرى انه لا (وجوب) على الله سبحانه .

(.) بضم الهمزة . (..) بفتح التاء والغين وتشديد الياء وضمها .

(...) بضم الياء وكسر القاف .

فصـــل [٤٢] :

المنـــادى على أقسام : فللمفرد المعرفة وصف ، وللمضاف وصف ، وللنكرة وصف •

كذلك من كان من العبـــاد مفرداً ينادى(.) على وصف غير وصف ما ينادى(..) وهو مضاف •

وكذلك من كان بوصف النكرة • والمفرد المعرفة من الأسماء مبنى على الضمة ــ والضـــمة أقوى الحركات •• وكذلك من كان أبداً بنعت التفريد كان فى(١) أعلى الحالات وأقوى الصفات(٢) •

والمنادى المضاف منصوب ، وكذلك من أضيفت إليه العلائق فهو فى أضعف الحالات ــ كما أن النصب أضعف الحركات •

والنكرة من الأسماء خص (...) بعلم آخر ، كذلك صاحب النكرة وسم(....) برقم آخر •

---

(١) فى س (على) أعلى .

(٢) (أقوى الصفات) سقطت فى ك و ت .

(.) بفتح الدال . (..) بضم الياء وفتح الدال .

(...) بضم الخاء وتشديد الصاد .

(....) بضم الواو وكسر السين .

فصـــل [٤٣] :

ويقع فى النـــداء الترخيم ، وهو حـــذف بعض الاســم(١) من آخره على جهة الإيجاز ، ولذلك فى مســائل النحو شرح .

الإشارة : إلى أنه قد يكون فى نحــو القلب ترخيم المنــادى ، وهو أن ينادى(.) بالإشارة ، فيحذف(..) بعض(...) التفسير(٢) ويقتصر على ما هو المعلوم بين الأحباب .. قال عز وجل لنبيــه :

« يس(٣) » ، جاء فى بعض التفاســير أن معناه : ياسيد ، وذلك على سنتهم فى الحذف(٤) والاختصــار كما قال قائلهم :

قلت لها : قفى فقالت : قاف(٥) :

والاقتصار ــ على شطر(٦) الكلام ــ فى مذهب الأحباب أبلغ من الإتمــام .. ولهذا قال بعضهم :

ليس من الظرف(....) امتحان(٧) الحبيب بالوصف .

---

(١) فى س (الأمم) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يقصد هنا الايضــاح .

(٣) لم يرد الاستشهاد بالآية الكريمة الا فى النسخة س .

(٤) فى ط (الستر) وهى مقبولة فى السياق أيضاً ، لأن المقصــود (بالحذف والاختصار) حسب راى الشيخ هو التخــاطب بين الأحباب بلغة يفهمونها دون سواهم امعانا فى كتم الأسرار . ويؤيد ذلك ما يقوله فى لطائف الاشارات فى السياق نفسه « على سنة الأحباب فى (ستر) الحال واخفاء الأمر على الأجنبى من القصة » لطائف الاشارات جـ ١ ص ٦٦ .

(٥) قالت قاف ــ أى انى واقفة ، فاستغنى بالحــرف عن الجملة . وفى س (لى قاف) .

(٦) فى ك (شرط) وهى خطأ فى النسخ .

(٧) الحاء تبدو فى س كالهاء وربما كان القصد ان الخروج على هذه القاعدة (امتهان) .

(.) بفتح الدال .

(..) بضم الياء والفاء .

(...) بضم الضاد .

(....) بتشديد الظاء وفتحها .

فصـــل [٤٤] :

من الأفعـــال ما ليس(١) يتصرف تصرفا تاماً مثل :

نعم(٠) وبئس وعسى ولذلك أبواب فى النحو وأحكام .

والإشارة منه : أن من الأفعـــال ما ليس بتـــام ، فلا يتمـــكن العبد من التصرف فيه على حسب ما أراده ، وبعضـــها به وإليه، فمن ذاك فتح(٠٠) الجفن ، والإصـــغاء(٢) ، إذ الادراك ــ وهو البصـــر(٣) والســـمع ــ ليس بمكتســـب العبـــد ، فإذا أتى بالإصـــغاء وفتـــح الجفـــن خلق الله الإدراك على مجرى العـــادة ... فذلك فعل ناقص التصرف فيـــه ، فيرد(٠٠٠) به الأمر والنهى ، ويحصـــل عليـــه الثـــواب والعقـــاب .

---

(١) فى س (ما لا يتصرف) وهى صحيحة أيضاً .

(٢) فى ك و ط (النظر والاســـتماع) وفى ت (النطق والاســـتماع) وهناك خطأ من الناسخ فى (النطق) لأن نسق الكلام يسير حتى فى النسخة ذاتها على (الرؤية والاستماع) .

(٣) فى ك (النظر) وهى مقبولة ايضاً .

(٠) بكسر النون وسكون العين .

(٠٠) بفتح الفاء وضم الحاء .

(٠٠٠) بفتح الياء وكسر الراء وضم الدال .

فصـــل [٤٥] :

ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولهـــا معان كثـــيرة كقولهم : « ما » فيكون صلة ويكون للنفى ويكون بمعنى الذى ، وبمعنى من(·)·· وغـــيره ·

ويكون مشبها(··) بالمشبه بالفعل(١) فيقولون ما زيد قائما·إذيشبهونه بليس · وقوم يرفعـــون خبره ، وقوم ينصبونه ·

ويتبـــين الفرق بين « ما » « وليس » فى تقـــديم الخبر وذلك لنقصان « ما » عن « ليس » ·· كذلك الملتحق بالمتحق لا يبأغ شاو(···) المتحقق(٢) ·

اما الخيـــام فإنهـــا كخيـــامهم
وأرى نســـــاء الحى غير نســـائها

وفى قريب منه(٣) قالوا :

فـــذر(····) عينيـــك وشـــانيهما
أصـــبحت مشـــــفولا بمشـــغول

والمشغول بالمشغول أشدهم محنة ، كذلك المتشبه(·····) بالمتشبه اضعفهم حـــالة ·

---

(١) المشبه بالفعل هو كان واخواتها والمراد هنا (ليس) على وجـــه التحـــديد .

(٢) فى ط (لا يبلغ شيئاً كالمتحقق) ولـــكن الذى اخترناه اكثر دقة للوفاء بالمراد .

(٣) ابتداء من (وفى قريب منه) الى آخر الفصل ورد فى س وحـــدها دون بقية النسخ .

(.) بفتح الميم . (..) بتشديد الباء وفتحها .

(...) بفتح الشين وسكون الهمزة وفتح الواو .

(....) بسكون الراء. (.....) بتشديد الباء وكسرها وضم الهاء.

فصـــل [٤٦] :

الاســـم المنفى بلا مبنى على الفتـــح(١) ، لأن « لا » نقيض(٢) « إن » ، فلمــا كانت « إن » ـــ التى للتحقيق ـــ تنصـــب الاســـم فالمنفى بـــ « لا » يبنى على الفتح ٠٠٠٠ وهذا باب فى النحو يجرى(٠) على المعنى(٣) حـــكم نقيضـــه ٠

والإشارة أنه يوجد فى الأحوال ذلك : فإن غاية الحـــزن توجب الضحك ، ونهـــاية الســـرور توجب البكاء ، وغاية الهجـــر تكون بترك العتـــاب ، وحقيقـــة الود(٤) تكون بالتجنى وكثرة العتاب ٠٠ وأنشدوا :

ترك(٠٠) العتـــاب ـــ إذا استحق(٥) أخ

منك العتـــاب ـــ ذريعـــة(٠٠٠) الهجـــر

وأنشـــدوا :

ولمـــا غـــدت عيســـهم للنـــوى وظلت بأحداجهـــا ترتك(٠٠٠٠)(٦)

ضحـــكت من البـــين مستعجباً وشـــر الشـــدائد ما يضحـــك

وقيل : إن يعقوب عليه السلام لما رأى يوسف عليه السلام بكى ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ذاك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور ٠

---

(١) فى س و ك و ت على (الفتحة) .

(٢) فى س (نقيضة) .

(٣) فى ب (المبنى) والصواب (المعنى) لأن القاعدة يراد لها العموم فى النحـــو .

(٤) (وحقيقة الود ... العتاب) مذكور فى س و ت وحدهما ، وهى فى ت وحدها (وحقيقة المحنة) ، وربما كانت (المحبة) .

(٥) فى ط (استخراج) وهى خطأ من الناسخ .

(٦) البيت الأول ساقط فى س .

والحدج بكسر الحاء وسكون الدال : الحمل . ومن مراكب النساء يشبه المحفة ، والجمع أحداج وحدوج . والراتكة من النوق التى تمشى وكأن برجليها قيداً وتضرب بيديها ، فاذا لاحظتها وجدت فى مسيرتها اهتزازاً .

(٠) بضم الياء .

(٠٠) بسكون الراء وضم الكاف . (٠٠٠) بضم التاء .

(٠٠٠٠) بفتح التاء وسكون الراء وكسر التاء وضم الكاف .

فصــل [٤٧] :

ومن الألفاظ التى تقــع على معــان مختلفــة : « كم » ، فإنه يكــون بمعنى الاســتفهام فينصــب(١) • ويـــكون بمعنى « رب » فيخفض • والفــرق(٢) بين « كم » و « رب » اختصــاص « كــم » بالتكثــير « ورب » بالتقليــل ، ويتميز أحدهمــا عن الآخر بالقرينــة والعلامة(٣) •

والإشــارة : كذلك من الناس من هو فى صــورة غيره ، ولــكن بالقرينــة والأمارة تتميز(٤) المقــادير ، فالزاهــد فى صــورة الواجد ، لكن(٠) هذا قصده ــ من الحق ــ عطاؤه ، وهــذا موجب اســتقلاله بقــاؤه(٥) •

وقد يجمع الطريق(٦) سالكين(٠٠) ولكن بالمقصد تتفاوت المقادير ، فواحد يرجع إلى قصر(٠٠٠) مملوك له ، وآخر إلى حجرة بكراء(٠٠٠٠) •

---

(١) (فينصب) موجودة فى س وغير موجودة فى ط وت وك .

(٢) (والفرق . . . . بالتقليل) سقطت فى س .

(٣) فى ط (والعلاقة) والصواب (والعلامة) بالميم لأن المقصود علامة الاعراب فى الاستعمالين .

(٤) فى ط (تتمادى) وربما كانت (تتمايز) أو (تتماز) .

(٥) فى ط (نقاؤه) وربما قبلت فى السياق على اساس انه (النقاء) من طلب الأعواض .

(٦) يقصد الطريق الصوفى .

(٠) بتشديد النون . (٠٠) بسكون الياء .

(٠٠٠) بفتح القاف وسكون الصاد .

(٠٠٠٠) بكسر الباء والكاف .

فصـــل [٤٨] :

حروف القســـم تجـــر المقســـم به بإضمار فعـــل ، فقول القائل : بالله أى يمينى(١) بالله أو حلفت بالله(٢) ٠

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفا وأعم دخـــولا(٣) كالباء ، وبعضها أقل كالتـــاء والواو ، وواســـطة بين القليل والكثير ٠٠٠ والكل حـــروف للقســـم ٠

والإشارة : الجميع من جملة الخدم ، ولـــكن منهم من(٠) يدخـــل الدرا ويتمكن فى الصدر ، ومنهم من حده(٠٠) أن يحضر البـــاب ويقف من البعـــد ، قال تعـــالى :

« قد علم كل أناس مشربهم »(٤) ٠

---

(١) فى ط (مبنى) وفى ك (يمنع) وكلاهما خطأ فى النسخ .

(٢) (أو حلفت بالله) موجودة فى س وت وهى ضرورية لتوضيح قوله فيما سبق (باضمار فعل) .

(٣) فى ط وك و ت (فعلا) وقد آثرنا (دخولا) لأن السياق أكثر قبولا لها حيث ان التنظير يراعى فيمـــا بعد مراتب القوم وهم (يدخلون) الدار .

(٤) آية ٦٠ البقرة ، وآية ١٦٠ الأعراف .

(٠) بفتح الميم .

(٠٠) بفتح الحاء وتشديد الدال وضمها .

فصـــل [٤٩] :

الظرف على ضربين(١) : ظرف زمـــان وظرف مــكان ، وكلاهما منصوب ، لأنهما مفعول فيهما .

وفى نحو القلب : الظرف أيضاً على ضربين : ظرف الزمان وظرف المكان ، فالزمان هو الوقت ، والوقت ما أنت فيه ، ولـــكن ظرف الزمان فى نحـــو القلب مختلف باختلاف(٢) ما فيه ، فإن كان الذى فى الوقت وفاق(٠) الأمر فظرف صاحبه على الضمة ، لأن الضمة أقوى الحركات . وإن كان الذى فى الوقت خلاف الأمر فظرف صاحبه مكســـور — لأن الكسر أرق(٣) الحركات . وإن(٤) كان الذى فى الوقت المباحات(٠٠) فظرف صاحبه مفتوح — لأن الفتحة أخف الحركات ، والمباح أخف الحالات .

وأما ظرف المكان : فإن كان الحق — سـبحانه — بنعت الرضـــا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصـــوب ، وإن كان صـــاحبه برقم(٥) الحظ(٦) فظرفه مكسور . فإن لون الماء لون(٠٠٠) إنائه(٧) .

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب .

---

(١) فى س (على قسمين) .
(٢) فى ط (لاختلاف) .
(٣) فى س (لأن الكسر مادون الحركات) .
(٤) (وان كان الذى فى الوقت المباحات .... الحالات) وردت فى س ولم ترد فى بقية النسخ ، ونرجح وجودها فى الأصـــل لكى تتم أنواع الظرف .
(٥) هكذا فى النسخ ما عدا س فهى (بنعت) .
(٦) بحظوظ نفسه وليس بحقوق مولاه .
(٧) سقطت عبارة (فان لون الماء ......) من س وهى شـــاهد قوى يوضح المعنى جدا .
(٠) بفتح القاف . (٠٠) بضم التاء .
(٠٠٠) بفتح اللام وسكون الواو وضم النون .

فصـــل [٥٠] :

من أبواب النحو(١) الاستثناء ، وهو إخـــراج بعض ما تنـــاوله اللفظ — بدليل(٢) متصل — منه(٣) •

نحو : جاء القوم إلا زيداً ، وغير ذلك •

فلو لم يعقب(٠) لفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقتضى للمستثنى دخوله فى جمــلة الأشياء المخبر عنها •

والإشارة : أنه قد يجمع الوقت(٠٠) والطريقة قوما لو لم يتعقب ما يميز(٠٠٠) البعض(٤) لاشترك الجميع فى الحال ، ولكن جاء الحــكم فأخرج البعض من الــكل :

إن الأحبــة شــمروا(٠٠٠٠) وبقينــا(٥)

كذلك قال الشــيوخ : إن فى كل عصر ووقت(٦) يدخل فى هــذه الطريقة من لا نهاية لهم ، ثم يخرج الأكثرون عند حصــول الابتــلاء والامتحــان ، ويبقى(٧) القليــل منهــم ، ولقــد قال الشيوخ : هم الأكثرون — وإن قلوا ، ومواضع الأنس(٠٠٠٠) حيث حلوا(٠٠٠٠٠) •

---

(١) لم ترد (من ابواب النحو) فى س •

(٢) فى س (بلفظ) بدلا من (بدليل) •

(٣) فى ط (فيه) والأصوب ما اثبتناه على اساس ان الاستثناء (اخراج من ...) •

(٤) ابتداء من (البعض) الى (الحكم) ساقط فى س وموجود فى بقية النسخ وسلامة السياق تقتضيه •

(٥) كتبناها منفردة لأنها شطر من بيت ، وربما كانت بيتا كاملا •

(٦) سقطت (ووقت) فى س •

(٧) مشتبهة فى س • (٠) بضم الياء وتشديد القاف وفتحها •

(٠٠) بضم التاء • (٠٠٠) بتشديد الياء وكسرها •

(٠٠٠٠) بتشديد الميم وفتحها • (٠٠٠٠٠) بضم الهمز •

(٠٠٠٠٠٠) بضم اللام وتشديدها •

وينقسـم الاسـتثناء إلى قسـمين : اسـتثناء الشيء من غير جنسـه ، ويقـال له الاسـتثناء المنقطع ٠

واستثناء من جنسـه ٠

وفي الإشارة : من كان ضداً(٠) غير مجانس فلا بأس بسقوطه ، ولا مبالاة بخروجه ٠

ومن كان محرماً(٨) للقوم٠٠فإن نفي(٠٠)(٩) عنهم ، وأخرج من بين جملتهم فالحسرة أشد ، والحياة أصعب(١٠) ٠

---

(٨) بضم الميم وكسر الراء . أي يشعر (بالحرمة) والتجلة لهم وربما كانت (**محترما**) يقول القشيري في ذلك : (ومن شرط المريد اذا زار شيخاً أن يدخل عليه بالحرمة وينظر اليه بالحشمة) الرسالة ص ٢٠١ .

(٩) القشيري هنا متأثر بما حدث له وللامام البيهقي من نفي وتشريد على يدي الكندري ، فأصابهما ولفيف من الأئمة بمحنة عظيمة .

(انظر الشرح ، وانظر سيرة القشيري عند بسيوني في الامام القشيري وآثاره وتصوفه ط مجمع البحوث الاسلامية) .

(١٠) في س (فالمحنة أصعب والحسرة أشد) وهي مقبولة أيضاً .

(٠) بتشديد الدال وفتحها . (٠٠) بضم النون وكسر الفاء .

فصـــل [٥١] :

من الحروف ما يلحق بغيره ، والمقصـــود منه تمييز ذلك الغـير مما ســواه • كالواو الملحقــة بعمرو فى الخط لتكــون فرقاً بين عمرو وعمر(.)(..) • وهذا الإلحاق لا يدوم عند الاستغناء عنه ــ وهو مثل همزة الوصل فيما ذكرنا من قبل •

والإشــارة : أن من الناس من(..) يلحق بالطريق(١) لأجل الغير ، ثم يطرح(...) •

وقد قال الشيوخ : إن الله قيض لهؤلاء القوم أحــد رجلين : إما مؤمناً موافقاً(٢) وإما منافقاً مسخراً(....) •

وانشــدوا :

أيهــا المدعى ســليمى هواهــا لســت منهــا ولا قلامة ظفــر
إنمــا أنت فى هــواها كـــواو ألحقت(.....) فى الهجاء ظلماً بعمرو

(١) فى ت (بالطريقـــة) وهى صحيحة ايضـــاً والمقصـــود الطريق الصوفى .

(٢) فى س بعدها (موافقاً موفقاً) .

(.) بضم العين وفتح الميم . (..) بفتح الميم .

(...) بسكون الطاء وفتح الراء .

(....) بتشديد الخاء وفتحها . (.....) بضم الهمز .

فصــل [٥٢] :

الأسمــاء على ضربين : منها ما ينصرف ــ وهو الاســم المتمكن ، ومنها ما لا ينصرف وهو الناقص التمكن ، فالذى ينصرف يجرى بوجوه الإعراب ، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب .

الإشارة : كذلك الخلق(٠)، منهم من(٠٠) هومجدود(١) فى القسمة ، يحظى بكل النعم(٢) ، من إقبال ووصال ، وتحقيق آمال ،وزكاءأفعال ، وصفاء أحوال ، بالنهار له توفيق ، وبالليل لوصله تحقيق . يجرون على البساط كما يريدون :

« ولا يرهق وجوههم(٠٠٠) قتر ولا ذلة »(٣) .

ومنهم من هو منحوس الحظ ، إن قبل بالنهــار أذيق(٤) بالليــل طعم الرد ، وإن وافى بالليل لحــكم(٥) الاتفاق تجــرع(٠٠٠٠) بالغــد كاس الصــد .

---

(١) فى ك (محدود) والصحيح ما أثبتناه .

(٢) هكذا فى ط وهى فى س (نعيم) .

(٣) آية ٢٦ ســورة يونس .

(٤) مشتبهة فى ط .

(٥) فى ك (بحكم) والمعنى يتقبلها ، وربما كانت العبارة كلها فى الأصل (وان وافى بالليل حكم الاتفاق .... الخ) .

(٠) بفتح الخاء وسكون اللام . (٠٠) بفتح الميم .

(٠٠٠) بفتح الهاء الأولى وضم الثانية .

(٠٠٠٠) بتشديد الراء وفتحها .

فصــل [٥٣] :

إذا صغرت(٭) اسما ثلاثيا زدت ياء فيه وضممت أوله ، فتقول فى تصغير حجر حجير . كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد فى الرتبة زاد له شغلا(٭٭) ، فيتوهمه ذلك البائس نعمة وفضــلا ورفعة على أشكاله(١) ، وهو فى الحقيقة إذلال له ، ونقصان لحاله ... وعلى هذا النحو تقاس أقســام التصــغير .

---

(١) فى ط و ت (اشكالا به) والمعنى يتقبلها حيث ان النعم الممنوحة له فى هذه الحالة من قبيل الامتحان والابتلاء .

(٭) بتشديد الغين وفتحها . (٭٭) بضم الشين .

فصـــل [٥٤] :

يقال فى التعجب : ما أحســـن زيداً !

وأحســـن بزيد !

وزيد ما أحسنه !

فتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول :

ما احسن زيداً ! أى : اى شىء حسن(·) زيداً .

والإشـــارة : النصب اضعف الحـــركات ، فإذا(١) دخل التعجب على الاسم خص بالفتح الذى هو أضعف الحـــركات ، كذلك إذا دخل الإعجاب على المرء آل إلى أضعف(٢) الحالات ، فإن الإعجاب اشد(··)(٣) الآفات .

---

(١) (فاذا دخل التعجب .... الحركات) مستدركة فى هامش ت .

(٢) فى ك (ضعف) وهى خطأ من الناسخ .

(٣) فى ك (ابتداء) وفى بقية النسخ (اشد) وهذه هى الأقرب .

(·) بتشديد السين . (··) بتشديد الدال وضمها .

فصـــل [٥٥] :

الحال منصوب .. تقـــول : جاء زيد فرحاً ، ففرحاً نصـــب على الحال ، واستحق(١) النصب لأنه مفعول . والحـــال تأتى بعد تمـــام الكلام ، فلما أتى بعـــد تمام الكـــلام(٢) صـــار كالمستغنى(٠) عنه ، فنصـــب(٠٠) .

والإشـــارة : المستغنى عنه له أضعف الحركات ، وأقل نصيب من الاستحقاق ، ولهذا قيـــل : علامة المخلوق أوصـــــاف النقص ، لأن المخلوق مستغنى(٠٠٠) عنه ، قال تعالى :

« والله الغنى وأنتم الفقراء »(٣) .

وأنشـــدوا :

وبعين مفتقر(٠٠٠٠) إليك نظرتنى فحقرتنى ورميت بى من حـــالق

والحال لا يكون إلا نكرة . (ولذلك)(٤) فإن صـــاحب الحال من القوم يجب ألا ينظر(٠٠٠٠٠) لحاله ، لأنه إذا عرف حاله لا حظها ، وإذا لاحظها أعجب بها ، وإذا أعجب بها تلاشت . وكان الأســـتاذ أبو على الدقاق(٥) يقول : « أخص الأحوال(٦) ما استترت(٧) عن صاحبها » .

(١) فى ت (واستحسن) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) (فلما أتى بعد تمام الكلام) زيادة فى ت وهى مقبولة .
(٣) آية ٣٨ سورة محمد .
(٤) زيادة من عندنا ليتماسك السياق .
(٥) أبو على الدقاق شيخ القشيرى وصهره : كان لسان وقته وامام عصره أخذ عن النصراباذى، وله كرامات ظاهرة (الكواكب الدرية للمناوى).
(٦) فى س (الأوقات) والسياق يتقبل (الأحوال ليتضح) .
(٧) فى ك مشتبهة وربما كانت (سترت) .
(٠) بفتح النون . (٠٠) بضم النون وكسر الصاد .
(٠٠٠) بتنوين النون . (٠٠٠٠) بتنوين الراء وكسرها .
(٠٠٠٠٠) بفتح الياء .

فصل [٥٦] :

التمييز(١) يوجب النصب ، تقول : عشرون درهما .. تشبيها بالمفعول حيث(٢) أتى بعد تمام الكلام .

والإشارة : أن المفعول — لنقصانه عن الفاعل — خص(٠) بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة .

---

(١) سقطت (التمييز) من ك .

(٢) فى ط (متى) وهى مقبولة ايضاً .

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد .

فصــل [٥٧] :

الهاء تلحق بعـــدد المذكر فيما دون العشرة ، وتحذف من عـــدد المؤنث ·· تقـــول : ثلاثة رجال ، وخمس نســـوة ، وتضيف العـــدد هاهنا إلى المعـــدود ·

واعتبر هذا نوعاً من المعادلة(١) ، فلمـــا كان المؤنث أثقل من المذكر حذفت العـــلامة من لفظ عـــدده ، ولمـــا كان المذكـــر أخف من المؤنث زيدت الهاء فى لفظ عـــدده فقالوا : ثلاثة رجال ـــ والإنصـــاف فى كل شىء عزيز(٢) ، فإن كان فى أحد ضعف يجب أن يقوى(·) بغيره ، وإن كان فى شىء قوة(··) حمل(···) ما يحتمله ، ولهذا أمر فى الشريعة بمواساة الفقراء ، وكذلك تحميل العاقلة فى الدية(٣) ·

وقد(٤) يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم : أحد عشر رجلا ، والتفسير يأتى بعد تمـــام الكـــلام فأشبه ما ذكرنا (من المفعول)(٥) ·

---

(١) فى ت (المعتادات) وفى ك (المعاداة) وهما لا معنى لهما فى السياق اذ ينصرف السياق الى (الانصاف) فى (المعادلة) .

(٢) فى ك (عسرون (وربما كانت (عسر) ثم ضـــم اليها فى الكتاب الواو والنون اللتين فى (وان) بعدها .

(٣) ارجع الى كتاب العقول ص ١٨١ فى موطأ مالك جـ ٢ ومن أمثلة ما يمكن ايراده هنا قوله : الكبير والصغير اذا قتلا رجلا جميعاً عمداً أن على الكبير أن **يقتل** وعلى الصغير نصف الدية .

(٤) (وقد يفسر ... ذكرنا) سقط هـــذا فى س وموجود فى بقيـــة النســـخ .

(٥) (من المفعول) زيادة من عندنا تعريجاً على ما ذكرناه فى الأبواب الســـابقة .

(·) بتشديد الواو وفتحها .   (··) بتنوين التاء المرفوعة .

(···) بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة .

فصـــل [٥٨] :

من الأســـماء ما هو اسم موصول(١) لا تتم الفـــائدة إلا بصلته نحو : ما ومَن(.) والذى وأى .

والإشـــارة : كذلك من النـــاس من لا(٢) يســـتقل بتـــدبيره ، ولا يكون له بدّ(..)(٣) من غيره ، ثم إن أراد الله(٤) بهخيراً سدّ(...) عليه طريق المخلوقين ، وفتح عليه طريق(٥) شهود الحق ســـبحانه .

وإن أراد به سوءاً فالحال(٦) بالضد(....)(٧)(٨) .

---

(١) وردت (موصوف) فى ب وهى خطأ من الناسخ .

(٢) سقطت (لا) فى س والسياق يتطلبها .

(٣) فى ط (يد) بالياء وهى مرفوضة .

(٤) فى ك (عز وجل) بدلا من لفظ الجلالة .

(٥) سقطت طريق من ت .

(٦) فى ك (فالمال) ونرجح أنها (المآل) بالمد ، وعندئذ فهى مقبولة .

(٧) فى ك (بالضد) اى غير كاملة الرسم ، وهى فى ت (الضد) بدون الباء ، وهى مقبولة .

(٨) السطران الأخيران بكاملهما ساقطان فى ب . وبدونهما لا تكتمل الاشارة المستنبطة .

(.) بفتح الميم . (..) بضم الباء وتشديد الدال مع التنوين .

(...) بفتح السين وتشديد الدال .

فصــل [٥٩] :

إذا نسبت اسماً إلى اسم زدت فى آخره ياء مشددة واقر(.)(١) الأول بحاله ، تقول فى النســب إلى جعفــر جعفــرى ، وإلى عمــر عمرى ... وكذلك حروفه واقسامه .

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه ، وقيمة كل منســـوب ما ينسب إليه ، وإنما ينسب الشىء إلى الشىء إذا كان بينهما اختصاص .

والإشارة : يجب أن يطالع كل إلى ماذا ينسب(..) ؟ إن كان رجل ينسب إلى الدنيا يقال له(٢) دنياوى(٣) فقيمته الدنيا(٤) .

وإن كان الغالب عليه حديث(٥) الآخرة نسب إلى الآخرة ، فقيمته الآخرة .

كذلك جميع ما هو الغالب عليــه ، فلينظر(...) كل(٦) غالبــه(٧) يعرفه(....) قــدره(.....) .

---

(١) اى (وابقى) او (وابقى) وهى فى ك (وامر) .
(٢) فى س (يقال فلان دنياوى) .
(٣) فى س (دنيوى) .
(٤) (فقيمته الدنيا) فى س وليست موجودة فى بقية النسخ .
(٥) سقطت (حديث) فى س .
(٦) سقطت (كل) فى ت .
(٧) هى فى س (عالمه) بفتح اللام . وهى مقبــولة على اساس ان الحديث عن الدنيا والآخرة ، ولكننا رشحنا (غالبه) على اساس ان الكلام عما (يغلب) على المرء .
(.) بضم الهمز وكسر القاف وتشديد الراء .   (..) بضم الياء .
(...) بسكون الراء .   (....) بسكون الفاء .
(.....) بسكون الدال وفتح الراء .

فصـــل [٦٠] :

الجموع مختلفـــة ، فمن جمع هو أقل الجمع ، ومن جمع هو جمع الكثير ، وأقسام الجمع تكثر(١) . كذلك أحكامه .

والجمع إنما يكون لأشكال تزدوج(٢) ، وأمثال تجتمع ، ثم يخبر(.) عن المجتمعات باسم واحد .

والإشـــارة : الإنسان(٣) اسم شـــامل(٤) لجملة مخصوصة لهـــا بنية(..) مشهورة . فمن(...) كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل ، ومن(٥) كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير ، وباختلاف أحكامه ، اختلاف مقداره ومقامه .

والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، فهذه فصول فى نحو القلوب أنشأناها على وجه الإيجاز ، وبالله توفيق الخلق أجمعين ، وعليه التكلان ، والحمـــد لله رب العالمين ، وصلى الله على ســـيدنا محمـــد وآله وصحبه وســـلم(٦) .

---

(١) فى ط (تكسر) وربما كانت (تكسير) فالفصل كله يتحدث عن جمع التكسير .

(٢) فى ط وحدها (تزدرى) ولا معنى لها ، وربما قصد من (تزدوج) اشارة الى قوله تعالى : **« ومن كل جعلنا زوجين اثنين »** بدايـــة للتـــكاثر والتناسل .

(٣) واضحة فى س ومشتبهة فى بقية النسخ ، وقد رجحنا (الانسـان) فمهما تعددت الأشكال والألوان فما هية الانسانية تجمعها .

(٤) (اسم شـامل) سقطت فى س وموجودة فى بقية النسخ وهى هامة فى توضيح السياق .

(٥) فى ت (وان) وهى مقبولة ايضاً .

(٦) تنتهى س عند (والمآب) ، وتنتهى ط بهذه النهاية كلها اى ابتداء من (فهذه فصول ..... وسلم) أمات فتنتهى بسطر مشطوب وتتوقف عند كلمة (ومقامه) أماب فيؤرخ الناسخ لعمله (بشعبان المبارك— دامت بركته — لسنة ثمان وسبعمائة من الهجرة .

(.) بضم الياء وفتح الباء . (..) بكسر الباء وسكون النون .

(...) بفتح الفاء والميم .

القسم الثاني

شرح الكتاب ودراسته

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل [١] :

النحو بين الظاهر والباطن

[الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ٠

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ــ رحمه الله :

النحو (فى اللغة) هو القصد إلى صواب الكلام ، يقال :

نحوت نحوه ، اى قصدت قصده ٠

(وهذا النوع فى العربية يسمى نحواً لأنه القصد إلى صواب الكلام) ٠

وأما نحو القلب فهو : القصد إلى حميد القول بالقلب ، وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب ، وينقسم ذلك إلى :

المناداة والمناجاة : فالمناداة صفة العابدين ، والمناجاة نعت الواجدين، المناداة على الباب ، والمناجاة على بساط القرب] ٠

التعريف عند أهل العبــارة

كثيراً ما تزخر مطولات النحــو فى بداياتها بتعريفات شتى للنحو تعبر عن اهتمام أصحابها بشىء أو بأشياء دون غيرها ، فيبقى التعريف غالباً قاصراً عن بلوغ وصفه بالجامع المانع • ومع أن الشـــيخ لا يريد إضافة كتاب جديد فى نحو أهل الظاهر إلا أنه أفاد فائـــدة عظيمة حين اختار هنا تعريفاً انتقائياً يكفى للدلالة على المهمة الأساس من ناحية ، ويكفى ـــ رغم اختصاره ـــ ليكون مدخـــلا للإشارات التى يستنبطها الشيخ فى كنفه • ولكى ندرك اتجاهه فى هذا الخصوص نرانا مضطرين إلى فتح الباب أمام بعض التعريفات المشهورة لنتبين أن الشيخ قد اختار من جملة الآراء المعتمدة هناك الركيزة الثابتة المحددة المعالم التى رآها كافية لتحديد ماهية هــذا العلم من ناحية ، وتستلزم فى الوقت ذاته الانطلاق منها إلى معارف فى علوم (أخرى) لها طابعها الخاص ولكنها تتكامل ضرورياً لخدمة السياق ـــ من ناحية أخرى • وهذا التصور لعلم النحو يمنع من التداخلات •• كما أنه يكفى لإطلاق الإشارة ـــ للغرض المنشود من وضع هذا الكتاب •

ولكى نوضح الأمر •• فإن التعريف بـــ (صواب الكلام) يدعو على الفور إلى سؤال : وهل كل صواب الكلام يحقق المقاصد ؟ والجواب لابد أن يكون هذا الكلام الصائب موافقاً لمقتضى الحال ـــ وهنا يبرز دور علم البلاغة ؟ هل استوفى هذا الكلام الصواب المقاييس الفنيـــة الدلالية والصوتية ؟ وهنا يبرز دور العلوم النقدية ••• وهكذا •

نعود فنقول : فى الوقت الحاضر يكفى الشيخ أن يختار مادة كافية للتنظير • فصواب الكلام فى نحو الظاهر قضية يحكمها العقـــل والمنطق اللذان يشرعان قواعد ضابطة تتحكم فى أواخر الألفاظ •• من هنا يصح له أن ينطلق نحو نحو الإشارة ليبدأ حواره وتنظيره •

ولنتوقف قليلا مع نحو الظاهر فى المطولات ، ولنلحظ قصور بعض التعريفات عن إدراك القاسم المشترك الأعظم للتعريف بالماهية .

يرى الجرجانى : « أن النحو علم بقوانين تعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما . فهو علم بأصول تعرف بها صحة الكلام وفساده »(١) .

أما ابن دريد فيذهب إلى : « نحوت الشىء أنحوه إذا قصدته»(٢) .

على حين يذهب صاحب اللسان إلى أن : « نحا الشىء ينحوه إذا حرفه . والنحو يسمى كذلك لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب»(٣) .

ويقول ابن سيده : « الانتحاء اعتماد الإبل فى سيرها على الجانب الأيسر ، ثم صار الانتحاء الميل والاعتماد فى كل وجه »(٤) .

ويتجه ابن جنى إلى أن « النحو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره ، كالتثنية والجمع ، والتحقير والتكثير والإضافة والنسب .. إلى غيره » .

وفى شرح الأشمونى على الألفية يقول : « إن النحو : هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى أحكام أجزائه التى ائتلف منها »(٥) .

---

(١) التعريفات ص ٢١٤ .
(٢) الجمهرة جـ ٢ ص ١٩٧ .
(٣) اللسان مادة ن ح و .
(٤) الخصائص جـ ١ ص ٣٤ ط دار الكتب .
(٥) الأشمونى جـ ١ ص ١٥ .

ويعلق الصبان على الأشمونى بأنه « علم يبحث فيه عن أحوال آخر الكلمة » .

وننهى هذا الموضوع برأى للسكاكى حيث يقول : « النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلمة »(٦) .

التعريف عند أهل الإشـــارة

هو القصد إلى حميد القول بالقلب فى المناداة والمناجاة ونتوقف عند كل لفظ فى التعريف لنلقى الضوء على المرامى البعيدة للشـــيخ من هذا العلم ، ومن التنظير بينه وبين نحو العبارة .

حميد القول بالقلب : ونبدأ بملاحظات لها أهميتها فى الصياغة :

١ ــ حميد هنا يقابلها صواب هناك .

٢ ــ استخدم القشيرى هنا لفظ « القول » وتجنب لفظ «الكلام».

٣ ــ القلب هنا يناظره اللسان هناك .

معنى هذا أننا أمام متناظرين : صواب الكلام باللسان هنـــاك ، وحميد القول بالقلب هنا .. وهذا تنظير دقيق ، لأنه إذا كان الأول علماً مكتسباً وضعياً يقعد القواعد الضابطة لحفظ الكلام مفرداً ومركبا من الخطأ والوقوع فى الفســـاد ، فإن الثانى نطق بالقلب غايته ذكر الله سبحانه بالقول الحميد من خلال المناداة والمناجاة .

فإذا كان « اللسان » فى نحو الظاهر هو عمدة الأمر ، ومناط الأمل. فإنه فى نحو القلب يأتى فى درجـــة أدنى من ملكات أخرى هى القلب

---

(٦) مفتاح العلوم ص ٤١ .

والروح والسر(*) وسر السر .. على نحو ما نفصل فى مواضع مختلفة من الشروح . وآية ذلك ما يقوله الشبلى :

ذكرتك — لا أنى نسيتك لمحظـة

وأضعف ما فى الذكر ذكر لسـانى

ويقول الجنيد : « التوحيد قول القلب » :

وينظر الشيخ زكريا الأنصارى إلى ما يجرى على اللسان عند هذه الطائفة بأنه من قبيل المجاز ، أما الحقيقة فهى لهذا الكلام النفسى الذى ينطق به القلب . ولماذا نذهب بعيداً والدين يرشدنا إلى أن « الأعمال بالنيات » والنيات — بطبيعة الحال — موضعها القلب ، وهى إذا انعقدت على شىء دفعت بالبدن كله إلى ممارسة الفعل .. فهى الأسبق وهى الأخطر .

لماذا تجنب الشيخ استخدام لفظ « الكلام » فى نحو القلب ؟

هذا سؤال يطرح نفسه ..

القشيرى عالم من علماء الكلام ، وهو يدرك أن « الكلام » على الحقيقة صفة إلهية قديمة قدم الذات كالوحدانية والسمع والبصر والإرادة والعلم والحياة .

ونحن لو تتبعنا دوران مادة (ك ل م) فى القرآن الكريم لوجدناها تتحدث فى غالبية المواضع التى وصلت إلى الخمسين موضعاً إما عن الله سبحانه أو عن إنسان فى موقف غير عادى مألوف ، أو أن يكون مأذوناً به من الرب سبحانه ، أو للموتى .. ونحو ذلك من المواقف

(*) بتشديد الراء .

غير المألوفة فى الطبيعة . لأجل هذا احترز القشيرى فى استخدامه لفظ البديل واختار قول القلب أو نطق القلب .. ولا ضير على أهل النحو التقليدى أن يستعملوا اللفظ كما جرت أعرافهم .. أما هنا فالدقة واجبة .. لأن التوجه هنا نحو المولى سبحانه ، وظاهرة انتقاء الكلمات هنا بعناية فائقة ملمح من ملامح التأليف فى هذا الكتاب .. لأن الاحتشام مطلوب فى مقام الملوك !

هنا .. فى كثير من الأحيان يكون الصمت أولى من الكلام ، بل تكون العبادة تأملا مديداً فى أرجاء الكون — يقول الحلاج :

فلما رآنى الوجـد أنك حاضرى شـهدتك موجوداً بـكل مـكان
فخاطبت موجـودا بغير تـكلم ولاحظت معلوما بغير عيـان(٧)

ويقول القشيرى : « إذا ورد كشف **خرست** العبارات عند ذلك ، وإنما يؤثر أرباب المجاهدات **السكوت** .. لأنهم علموا ما فى الكلام من الآفات وحظ النفس ، والميل إلى التميز عن الأشكال »(٨) .

والفصاحة هنا مخبأة ، وليست مكشوفة يزهو بها اللسان :

سر الفصاحة كامن فى المعدن
لخصائص الأرواح لا للألسن(٩)

الإيل عن القصد فى الحالين :

اشترك النحوان فى لفظ « القصد » ، وأوضحنا ذلك وشرائطه فيما

(٧) تاريخ بغداد المجلد ١٤ ص ٣٩٠ .
(٨) الرسالة ص ٦٣ .
(٩) قوانين حكم الاشراق ط الشروق .

سبق •• والآن نبحث مدى ما يحدث إذا أصيب كل منهما بما يبتعد به عن القصد •

الميل عن القصد فى نحو الظاهر يؤدى إلى اللحن ••• وهو خطأ أما فيما يختص بنحو القلوب •• فهو خطيئة ، لأن المسألة هنا تتصل بأذكار للمولى سبحانه ، استمع مثلا إلى قول القشيرى عند الآية الكريمة :

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » •

: (سبحان من تعرف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرفهم(•) أنه هو وبأى وصف هو ، وما الواجب فى وصفه وما الجائز فى نعته وما الممتنع فى حقه وحكمه ، فإن العقول محجوبة عند الهجوم بذواتها لما يصح إطلاقه فى وصفه •• وأما قوله « الذين يلحدون » فالإلحاد الميل عن القصد وذلك إما بالزيادة أو بالنقصان ، فأهل التمثيل زادوا فألحدوا وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا »)(١٠) •

والقشيرى يقصد أن المثلة والمشبهة فسروا القرآن على ظاهره فتصوروا الله أيد وأرجلا ووجها وعيوناً •• الخ لذلك قبحهم الله •

وأما المعطلة فهم الذين جردوا الذات من الصفات ــ إشارة إلى بعض المعتزلة ــ حتى لا تكون هناك إلا الذات زاعمين أن ذلك هو التوحيد المطلوب فى حقه تعالى •

بين المناداة والمناجاة :

قبل أن نفهم معانيهما الاصطلاحية نوضح الجانب اللغوى لهما فإن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الاصطلاح واللغة •

(•) بتشديد الراء .

(١٠) لطائف الاشارات تحقيق د. بسيونى جـ ١ ص ٥٩١ .

المناداة من النداء •• وهو رفع الصوت وظهوره • وأصل النــداء من الندى أى الرطوبة ، ويقال صوت ندى أى رفيع •

وناداه مناداة أى صاح به •

والمنتدى مجلس القدم وموضع حديثهم •

أما المناجاة : فهى من النجوى أى الحديث الخفى ، وناجيته أى ساررته ، وأصله أن تخلو به فى نجوة من الأرض ، ومن النجاة أى تعاونه على ما فيه خلاصه •

وتنجو بسرك من أن يطلع عليه أحد •

قال تعالى :

« ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم •••• »

فالنجو السر بين اثنين ، وكذا ناجيته •

أما فى الاصطلاح :

فالمناداة : الصلاة المطلوبة من كافة المسلمين ، فهى فى جوهرها تبدأ بالنداء (الأذان) وينادى المصلى ربه طوال قيامه وركوعه وسجوده • فإذا زدنا الاصطلاح تحديداً وجدنا أن المقصود بها هنا « المقامات » • فالتصوف مقامات وأحوال •

المقامات هى تلك الجهود الكسبية التى يمارسها العبد فى المراحل الأولى من الرحلة الصــوفية كالتوبة والزهد والورع والتوكل والصبر والرضا • وإذا كانت (المقامات) كلها من الجهود فإن (الأحوال) من عين الجود ، أى من فضل الله وبه •• وسنتحدث عنهما كثيراً جداً فى هذا الكتاب •• ولهذا نكتفى هنا بهذا القدر •

فنسمح لأنفسنا أن نقول إن الشيخ هنا يريد أن يحـــدد تعريف النحو بقوله : « وحميـــد القول مخاطبة الحق بلســـان القلب بالمناداة والمناجاة » .

أى ملازمة القول الحميد فى المقامات والأحوال ..

وهذه هى القاعدة الأساس للوصول إلى التوحيد ــ كما سنرى ، ذلك لأن المناجاة تبدأ من طرف العبد ثم يأتى وقت يكون الرضا الإلهى قد وصل إليه ، فتجرى الأمور فى المناجاة على شكل خطاب وجواب ، أى منن إلهية تنثال على عبـــده من الرجاء والخـــوف والأنس والهيبة والبسط والقبض .. الخ .

ويجب أن يلتزم العبد أدب (السكون) والصمت عنـــدما تتجلى (الهيبة) فلا يكون منه أو فيه حس ولا خبر(١١) . لأنه لم يعد هنـــاك إلا (واحد) .

وإذا كانت المناداة محددة بمواقيت ومنازل ومراتب فإن المناجاة لا تخضع لشىء من ذلك لأنها مرتهنة بأفضال الله فى البداية وفى الإيقاف وفى الاستمرار .. وأحياناً ــ وهذه نكبة عظمى على أصحابها ــ يصدر الأمر بزوالها فترة قد تطول وقد تقصر .. وقد تتلاشى !

ومع أننا سنعود إلى حديث « المناداة والمناجاة » فى فصل قادم إلا أننا نشعر بضرورة الإفاضة هنا فى هذا الموضوع حتى يكتمل فهم الفصول التالية مباشرة .

وقد اجتمعت المناداة والمناجاة فى قوله تعـــالى حاكياً عن موسى عليه السلام :

« وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا » .

---

(١١) ترتيب السلوك للامام القشيرى تحقيق بسيونى .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

ويفسرها القشيرى هكذا : « للنجوى مزية على النــداء ، وجمع لموسى الوصفين ، النـــداء فى بدايته ، والنجوى والسماع فى نهايته ، فوقه الحق وناداه ، وفى جميع الحالين تولاه »(١٢) •

ومن العبارة الأخيرة يتضح صواب ما استنبطناه من إشارة الشيخ هنا فى هذا الفصل : فالمقصود بالمناداة والمناجاة : المقامات والأحوال •

والأحوال تعنى أن العبد فى كنف مولاه ، هو الذى يسبغ عليـــه بمقدار استحقاقه ، فعلى قدر الجهود يكون الجود •

والمناجاة وسيلة الصادقين إذا اشـــتدت بهم البلوى فهم يفزعون إلى الوقوف عند محلها على نحو ما يفصل الحلاج واصفاً هذا الحضور الدائم :

والله ما طلعت شمس ولا غربت — إلا وحبـــك مقـــون بأنفـــاسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش — إلا رأيت خيالا منك فى الـــكاس
ولا خلوت إلى قـــوم أحـــدثهم — إلا وأنت حديثى بين جلاسى(١٣)

هذه الملازمة أصبحت مبعث راحتهم ومناط آمالهم بل هى شفاؤهم وعلاجهم :

إذا ما تمنى الناس روحا(٠) وراحة — تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا •

وهم فى ســـبيل تحقق هـــذه المناجاة يجتهدون غاية الاجتهاد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، وتراهم ــ رغم لعو أقدارهم ــ ينزلون فى السؤال والدعاء منزلة العصاة ، ويقفون موقف المعتـــذر ، ويخاطبون بلسان الاستغفار والتنصل :

وما رمت(٠٠) الدخول عليه حتى — حللت محله العبد الذليل •

(١٢) اللطائف ج ٢ ص ٤٣٣ •
(١٣) ديوان الحلاج المقطعة رقم ٣١ •
(٠) بسكون الواو • (٠٠) بضم التاء •

وهذه رابعة — بعد أن ملأت الليل كله بالدعاء والاستغفار — يعلو صراخها قائلة : « ما أحوج استغفارى إلى استغفار » ذلك لأنها قد تشعر فى بعض الأوقات بدبيب خفى يتسرب إلى أعطافها فيجعلها تشعر أن عملها هو الذى أوصلها إلى شىء ما ، فهى تسرع لكى تطارد هذا الدبيب الخفى ، وتسقط عن نفسها التدبير ، وتمتلىء بحقائق وأفضال التنوير • فالفضل الإلهى — وحده — هو مناط الرجاء فى الوصول ، وعمل الإنسان — وإن كان مطلوباً وضرورياً — إلا أنه عند أهل المناجاة ليس ذا بال • فالمسافات بعيدة لا يكفى عمل العبد وحده لقطعها ! إنهم حتى لو طمعوا فى الجنة فليس لما فيها من متاع بل لأن الحبيب هناك ينتظر الوجوه الناضرة التى ستبقى إلى ربها ناظرة • تقول ريحانة — وهى زاهدة عظيمة الشأن عاصرت إبراهيم بن أدهم :

بوجهك لا تعذبنى فإنى — أؤمل أن أفوز بخير دار
وأنت مجاور الأبرار فيها — ولولا أنت ما طاب المزار(•)

فإذا ما سارت المناجاة فى طريقها على هذا النحو ضمنت للعبد ألا يتسرب إليه — وهو يحث خطاه — نسيان أو طغيان ، أو تنتابه غفلة أو عصيان ، ويكون المنتهى كما قلنا منذ قليل الوصول إلى التوحيد : « فإذا كوشف العبد بالتوحيد شهد أن القائم عليه والمجرى عليه والممسك له والمتنقل(••) إياه من وصف إلى وصف — واحد لا يشاركه قسيم ولا يضارعه نديم • ومن علم أنه بالله علم أنه لله ، فإذا علم أنه لله لم يبق فيه نصيب لغير الله ، فهو مستسلم لحكم الله ، لا معترض على تقدير الله ، ولا معارض لاختيار الله ، ولا معرض عن اعتناق أمر الله »(١٤) •

(•) بسكون الراء •

(••) بضم الميم وتشديد القاف وكسرها •

(١٤) اللطائف المجلد الثانى •

وليكن بعد ذلك ما يكون ، فإذا كانت المثـوبة فبها وإلا فمرحى بعقوبة المحبوب لحبيبه :

أريدك ، لا أريـدك للثـواب ولـكنى أريـدك للعقـاب
فـكل مآربى قد نلت منهـا سوى ملذوذ وجدى بالعـذاب

الوجـد والواجـد :

يفرق الشيخ فى رسالته بين (التواجد والوجد والوجود) فالتواجد استدعاء الوجد بضرب اختيار ، وليس لصاحبه كمال الوجد ، إذ لو كان لكان واجداً • وباب (تفاعل) أكثره على إظهار الصفة والتكلف •

أما (الوجد) فهو يصادف قلبك ، ويرد عليك من حزن أو طرب بلا تعمد أو تكلف • والمواجيد ثمرات الأوراد ، فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله تعالى لطائفه (والمواجيد جمع وجد على غير قياس كما يرى الشيخ زكريا فى هامش الرسالة) عند الموضع ذاته •

أما (الوجود) فهو الارتقـاء عن الوجد ، إذ لا يكون (وجود) الحق إلا بعد خمود البشرية كما يخمد ضوء العين فى ضـوء الشمس ، ولا تكون الغلبة إلا لضوء الشمس كذلك تخمد البشرية عند ظهور سلطان الحقيقة(١٥) •

فالتواجد بداية ، والوجد واسطة والوجود نهاية • وترتيبها كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر •• اللهم اجعلنا من الغارقين!

فالمسألة على الترتيب التالى : قصود ثم ورود ثم شهود • ويحسن أن نضيف هنا رأى الكلاباذى فى الوجد : الوجد بشارات الحق بالترقى

---

(١٥) الرسالة ص ٣٦ .

إلى مقامات المشاهدة ، ونحس ذلك عن قرب من قول الجنيد (والحظ(٠) المناجاة والوجد فى النص) :

وتحققتك فى سرى (فناجاك) لسانى
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعانى
إن يكن غيبك(٠٠) التعـ ـظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك(٠٠٠) الوجد من الأحشاء دانى(١٦)

وقبل أن نغادر هذا الموقع علينا أن ننبه الى :

مقصود الشيخ بالباب والبساط كما جاء فى المتن ، فنقول إن ممارستنا الطويلة لأسلوبه فى مصنفاته تكشف عن تصوره أن مراحل الدخول والتمكين تتدرج من الباب إلى البساط إلى العقوة أو الساحة ثم إلى السد(٠٠٠٠) (انظر مثلا لطائف الإشارات)(١٧) وهو تصور يراد به إفهام المريدين والمتذوقين .. لا أكثر حتى يعرف كل منهم موقعه فى الخدمة ، فلا ينبهر ولا يتجاوز .. بل يتأدب ويقف عند حده .

(١٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ١٣٥ .
(١٧) لطائف الاشارات المجلد الثانى ص ١٥ .
(٠) بسكون اللام وفتح الحاء .
(٠٠) بتشديد الياء وفتحها .
(٠٠٠) بتشديد الياء وفتحها .
(٠٠٠٠) بضم السين وتشديدها .

فصــل [٢] :

أقسام الكلام ــ اسم ــ فعل ــ حرف

[الكلام اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى :

وفى نحو (القلوب) : الاســم هو الله والفعــل ما كان من الله ، والحرف إما يختص بالاســم فيوجب له حكمــا ، أو يختص بالفعــل فيقتضى له نسبة ، وكما أن الحرف إذا دخل على الاســم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره ، فالوصف الذى هو العلم يوجب لله حكم العالِم(·) ‥ وكذلك القدرة والحياة وسائر صفات الذات .

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم فى الخلق] .

(·) بكسر اللام .

ربما يشعر القارىء غير المتمرس بأسلوب القشيرى بشىء من عسر الفهم لهذا الفصل ، وقد يسرع فيتهم الشيخ بالإلغاز ، والحقيقة تخالف ذلك ، فالشيخ هنا يضع دستوراً للذكر الصوفى وأبعاده إذا ارتبط بالتفكر فى الأسماء والصفات الحسنى .. على النحو التالى :

١ — (الله) هو اسم الذات ، وهو للتعلق دون التخلق ، أى ليس لأحد من المخلوقين أن يتسمى به ، وكذلك (الرحمن) « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » .

٢ — صفات الذات ، وهى تلك الصفات القديمة التى قامت بهـا الذات الإلهية منذ الأزل وهى : القدم والقدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام والسمع والبصر .

٣ — صفات الفعل ، وهى تلك الصفات المعبرة عن فعله سبحانه فى الكون : كالخالق والوهاب والرزاق والمحيى والمميت والهادى والمنعم .. ونحوها ، فهى تتجلى فى الكون والعباد ، وتنعكس آثار التجليات حسبما تقتضى الصفة من المعانى ، فليس فى الكون والطبيعة إلا مخلوق بيد الخالق ، مرزوق من قبل الرازق ، حى(٭) أحياه المحيى .. الخ .

ومادام الفاعل فى الكون هو (الله) وحـــده ، فإن الاسم — على الحقيقة — اسمه ، قال تعالى معلماً نبيه ﷺ كيفية الذكر : « واذكر اسم ربك » ، وقال تعالى مذكراً نبيه ﷺ رد(٭٭) كل فعل لفاعله الأصيل **« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقال « فلم تقتلوهم ولـــكن الله قتلهم »** .

وقد اجتمع اسم الذات واسم الفعل فى أول آية نزلت من القرآن الكريم : **« اقرأ باسم ربك ... الذى خلق »** الأولى عن الذات ، والثانية

(٭) بتشديد الياء .   (٭٭) بتشديد الدال وفتحها .

عن الصفات ، وهكذا فإنه إذا كان الاسم ــ على الحقيقة ــ هو (الله) فإن الفاعل على الحقيقة هو سبحانه والفعل على الحقيقة له سبحانه ، فإذا صرفنا إلى الإنسان فعلا فى الكون فهذا من قبيل التسمية النسبية باعتبار الإنسان العلة القريبة أو السبب القريب ، أما لو تغاضينا عن هذه النسبية لأرجعنا الأمر كله لله ، **« فكل شىء له وبه ومنه وإليه »** ــ كما يقول القشيرى • وأرجو القارىء ان يعيد قراءة هذه الجملة الأخيرة ليتضح له كيف تقوم (الحروف) بدور (الرباطات) كى تؤدى المعنى المراد الذى ينبغى استحضاره فى كل لحظة • والمتصوفة بطبعهم يتذوقون هذا جيداً فتراهم لا يحثون المريدين على القول : هذه لى أو منى أو بى •• ونحوها ، لأنها فى نظرهم تشير إلى دعوى النفس وأن العبد يأتى منه شىء ، والمفروض أن يتخلص أحدهم من كل دعوى وادعاء ، لأن الدعوى والادعاء فى نظرهم من قبيل الشرك الخفى(١) ، فالمريد ــ على الحقيقة ــ من ليس له إرادة ، لأن : **الارادة بالكلية لله وحده ، ولهـذا فإن لفظ « الحق » أكثر الأوصاف جريانا على ألسنة الطائفة** • وبهذا التوضيح تظهر لنا أهمية الرؤية الصوفية للموضوع من كل جوانبه ، وهم يحرصون على هذه الرؤية فى سـلوكهم ونصائحهم ووصاياهم لأنفسـهم وفى تفسيراتهم الإشارية لكتاب الله الكريم •

ونشعر أن هذه النظرة الخاصة التى يتفرد بها الصوفية عن غيرهم من المفكرين كالمتكلمين والفلاسفة مثلا بحاجة إلى متابعة وتأصيل • ففى رأينا أن ذلك من أجلِّ(•) الإضافات التى تقدمها الحقيقة للشريعة لكى يتدعما فى نهاية الأمر ، على عكس ما يظن البعض بدافع الجهل أو الغرض أو المرض من وجود تنـافر بينهما ، وذلك الاتهام الموجـه للصوفية زوراً وبهتاناً •

---

(١) انظر (التحبير فى التذكير) تحقيق بسيونى . طبعة عالم الفكر .
(•) بتشديد اللام وكسرها .

ولنبدأ بتوضيح ذلك فيما يختص (بالذكر الصوفى) : أطواره ومذاقاته ـ ـ وعندئذ سيصبح معنى الفقرة واضحاً • إذا ما خلا الصوفى إلى ربه ، ولزم الصمت ، وبدأ التأمل المديد ، والتفكر والتدبر •• انطلق بلا حدود فى سياحة لا نهائية ، وأخذ يقفز ببصيرته متنقلا فى أرجاء الكون والطبيعة والإنسان ، يتابع عظمة الخالق المدبر الوهاب المنعم •• فيما خلق ودبر ووهب وأنعم ••• ، وهنا تكون الطبيعة أقرب إليه مما بعد الطبيعة ، والمتاح أقرب من البعيد المنال • معنى هذا بكلمات أخرى تتفق مع كتابنا هنا : أن العبد يبدأ بمتابعة تجليات صفات (الفعل) الإلهى للفاعل (الحق) سبحانه •

ولكن التركيز ينتهى بهذه السياحة التأملية عند (صفة) واحدة فقط ولتكن (صفة) (المنعم) مثلا ، وهنا تنحصر الدائرة فى : إنعام الله •• ما أكثر نعم الله على عباده فى السماء وفى الفضاء وفى الماء وعلى الأرض وتحت الأرض •• أشياء لا تقع تحت حصر ولا حد •• ثم إنعام المنعم على الإنسان نفسه •• أفضال متلاحقة مع كل نفس يتردد فى الصدر ، بل إن هذا النفس فى حد ذاته نعمة كبرى لأنه الحياة نفسها ، بل هناك نعم أخرى تغيب عن وعى الكثيرين ، وليست من قبيل المنح بل من قبيل المنع ، ولو تفكر الإنسان لعرف أن نعم المنع أكثر عدداً من نعم المنح ، فمثلا : أنا هنا فى هذا المكان ، وكنت أزمع أن أصل إلى المكان الفلانى ، ولكن شيئاً ما صعب على الانتقال إلى هناك ، فأصابنى الجزع والضيق ، ثم ما لبثت حتى جاءت الأخبار بوقوع حادثة هناك أو فى الطريق إلى هناك •• حمداً لله •• لقد نجوت من الكارثة ! إن الإنسان بطبعه يفرح لما يصيبه من نعمة المنح •• كالصحة والولد والمال ولكنه قليلا ما يفطن إلى ما جنبه ربه من ويلات •• وإذاً فينبغى عند أهل الصفوة الشكر لله فى كل حال مهما كانت الحال : منحاً أو منعاً •

ونعود إلى هذا العبد الذاكر فنجده قد مضى فى الدروب إلى نقطة

أبعد ، إنه يتذكر (مصدر) هذه النعم ، إنه (المنعم) ، (ذاته) ، ويتلبث وقتاً طويلا غارقاً فى هذا (الوصف) ، ويبقى كذلك ما شاء له الله أن يبقى فى الذكر والتأمل والتفكر •• ما معنى هذا كله ؟

معناه أن (صفات الفعل) تؤخذ هنا لا كما تؤخذ عند الفلاسفة أو المتكلمين حيث يثيرون جدلا نظرياً فيه مهارات العقل ولكن فيه برودة الرخام ، مناهج من التفكير لا تجدى فى إنعاش الوجدان وتدفئة العاطفة •

إنها هنا أسلوب حياة ، فالجماليات تؤدى إلى (الجميل) سبحانه ، والجلاليات توصل إلى (الجليل) سبحانه ، والأرزاق تنتهى إلى (الرزاق) سبحانه ، والبدائع التى لا حصر لها تتصل (بالبديع) سبحانه •• وهكذا يرتبط الذكر بالسلوك • فإذا تحقق ذلك على وجوه تتضمنها تعاليم الصوفية وأورادهم انثالت الأنوار على خاطر المتأمل الذاكر المتفكر ، وانفتحت له المغاليق ، وجملته أجنحة نورانية إلى عوالم شفيفة لا قبل له بها ، وسمع وأبصر من وراء الغيب ما لم يخطر على قلب أو أذن أو عين ، وعلى الجملة أصبح كل شىء (للحق) ، وأصبح (الفاعل) الحقيقى (لفعل) هذا الإنسان الواصل المتصل هو (الحق) ، هو السند وهو الوكيل ، وهو القائم وهو المتصرف ، لقد ذابت الإرادة الإنسانية فى الإرادة الإلهية ، ولم يعد هناك إلا واحد •• له الأمر كل الأمر • وعندما يصل الذاكر إلى هذا الموقع « يجد له حلاوة فى فيه وفى حلقه ، ويجد منبع هذه الحلاوة فى أصول أسنانه فيطبق فاه على هذا الشراب وهو حينئذ لا يخاف إلا من حائل يحول بينه وبين هذا الشراب الذى يمتد إلى كل الجوارح »(٢) •

(٢) ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى تحقيق بسيونى ص ٣٥ .

نماذج للذكر ومبنـــاه :

يقول النورى متذكراً وذاكراً (قدرة القادر) :

تأمل بعـــين الحق إن كنت ناظراً — إلى (صفة) فيهـــا بدائع فاطر
ولا تعط حظ النفس منها لمـــا بها — وكن ناظراً بالحق قـــدرة قادر[٣]

ويتحدث ذو النون المصرى عن استحضارهم الدائم (لصفة الفعل) فيقول : « ما هممت بمعصـــية فذكرت (جـــلال) الله إلا استحييت منه »[٤] .

وقالوا : « الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية (المنعم) »[٥] .

ويقول القشيرى عند قوله تعالى : « لن تنـــالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » : « إن كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك وهو المال فمتى تصل إلى (البار) وأنت تؤثر حظوظك ؟ »[٦] .

وتتضح أهمية احتلال قضية (الذات وصفات الذات وصفات الفعل) فى تفسيرهم الإشارى على نحو أخاذ فى منهج القشيرى فى « لطائفه » .

فيقول : « خوف[٠] العوام بأفعاله فقـــال (واتقوا يوماً) و (اتقـــوا النار) موصولتين بوصـــفى العزيز ذى الانتقـــام ، وخوف الخواص بصفاته : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وقال (وما تكون فى شأن ... إلا كنا عليكم شهوداً) ، وأما خاص الخاص فخوفهم بنفسه (ويحذركم الله نفسه) » .

---

(٣) طبقات السلمى ص ١٥٥ .

(٤) التعرف للكلاباذى ص ٨٢ .

(٥) التعرف للكلاباذى ص ١١٩ .

(٦) اللطائف جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٠) بفتح الخاء وتشديد الواو وفتحها .

ويكاد القشيرى فى أحد المواضع يضع صياغة لورد من أوراد الصوفية ينبغى على ترديد (الاسم) الذى هو (الله) بصورة تهز مجامع القلب ، وترتفع بالخواطر إلى آفاق بعيدة كل البعد ، سامية كل السمو .. استمع إليه فى كنف بسملة (آل عمران) :

و (الله) لفظ لو قرع أسماع أهل المعرفة لم تذهب (فهو(.)مهم) ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه ، وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب ، فإذا قال بلسانه (الله) أو سمع بآذانه شهد بقلبه (الله) . وكما لا تدل هذه (الكلمة) على معنى سوى (الله) لايكون مشهود قائلها إلا (الله) ، فيقول بلسانه : (الله) ويعلم بفؤاده (الله) ، ويعرف بقلبه (الله) ، ويحب بروحه (الله) ، ويشهد بسره (الله) ، ويتعلق بظاهره بين يدى (الله) ويتحقق بسره (الله) ويخلو بأحواله (الله) وفى الله ، فلا يكون فيه نصيب لغير (الله) ، وإذا أشرف على أن يصير محواً فى (الله) (لله) (بالله) تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله (الرحمن الرحيم) استبقاء لمهجتهم أن تتلف ، وإرادة(..) فى قلوبهم أن تنقى ، فالتلطف سنة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية »(٧) .

فإذا تم انشغال الذاكر باسم الله الأعظم دون سواه على هذا النحو أفاد الله عليه من أنواره وخيراته ففى حديث قدسى « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »(٨) .

ونتابع القشيرى وهو يؤصل — تحت ظلال القرآن الكريم — هذه

(.) بضم الفاء والميم .

(٧) بسملة آل عمران اللطائف جـ ١ ص ٢٢٩ ومعنى (المحو) فى الله حسب المنهج القشيرى المحو فى ارادة الله فقد جلت الصمدية عن ان ينمحى احد فيها وسنعود لتوضيح هذا المعنى فى مواضع كثيرة من شروحنا هنا .

(..) بفتحتين على التاء .

(٨) التعرف ص ١٢٤ .

القاعدة الأساسية فى (دستور الذكر) فنجده عند قوله تعالى

« ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .

يقول : « رزق الأشباح والظواهر من طيبات الغذاء ، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء ، وحقيقة الشكر على هذه النعم تكون بالغيبة عنها بالاستغراق فى شهود المنعم » .

وعند تفسير لفظة (السائحون) التى جاءت فى سورة التوبة يقول : « السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكر فى جوانبها ومناكبها ، والاستدلال بتغيرها على منشئها ، والتحقق بحكمة خالقها بما يرون من الآيات فيها ، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوت فيجدون روح(٠) الوصال ، ويعيشون بنسيم الأنس ، والتحقق بشهود الحق »(٩) وهو يرتب درجات أهل الذكر فى الوصول إلى الله على هذا النحو :

« الترقى من شهود آياته إلى إثبات ذاته ـ سبحانه ، فالتحقق بالآيات التى هى (أفعاله) ومراعاة ذلك وهى الأولى ، ثم إثبات صفاته وهى الثانية ، ثم التحقق بوجوده وذاته وذلك غاية الوصول » وهو يتناول المعنى نفسه من حيث (المدد) الإلهى المنثال على الذاكرين طبقاً لمراتبهم فيقول : « تعرف سبحانه إلى الخلق بآياته الظاهرة على قدرته وأفعاله ، وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله ، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية التى هى جماله وجلاله .... فشتان بين قوم وقوم » بل نراه وهو يستخرج لطائفه من

---

(٩) اللطائف المجلد الثانى ص ٦٧ .
(٠) بسكون الواو .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

معجزات الأنبياء عليهم السلام يطبق المنهج ذاته ، فهو يتدرج مع معجزة موسى عليه السلام مثلا بحيث يجعلنا نلاحظ أن ما حدث لعصاه سبق ما حدث ليده وهى تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء ، « لأن العصا — وإن كانت معه من زمن — إلا أن يده أخص(٠) به لأنها عضو له ، فكاشفه أولا برسم من رسمه ، ثم أشـــهده من ذاته فى ذاته ما عرف أنه أولى به منه ، فلمارأى انقلاب وصف(٠٠) فى يده علم(٠٠٠) أنه ليس بشىء من أمره بيـــده » .

وهنا نلحظ كيف تتصل المكاشفة أولا بالصفات ثم بالذات ، ونلحظ ثانياً التأديب الإلهى لنبيه حتى لا يصيبه الغرور ، وأنه ينبغى عليـــه أن يرد كل شىء الله ســبحانه . ونلحظ أخيراً التــدرج من الفرق إلى الجمع — حسب المنهج الصوفى فى الأحوال . دقة فى الفهم والتــدرج نلحظها على المستوى العام فى كل مصنفات شيخنا — رضوان الله عليه .

---

(٠) بتشديد الصاد وضمها .

(٠٠) بتنوين الفاء وكسرها .

(٠٠٠) بفتح العين وكسر اللام .

فصـــل [٣] :

تتمـــــة فى
الاســـم والفعل والحـــرف

[والاسم فى نحـــو القلب ما يكون مخبراً عنه فى مخاطبة الحق ، والفعل ما كان خبراً فى مخاطبة العبد مع الحق .

والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب] .

***

فصـــل [٤] :

الــكلام المفيـــــد

[والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً ، أو فعلا واسماً وما عداه من الأقسام غير مفيد .

كذلك فى نحو القلب مفيد وغير مفيد ، فغير المفيد ما ليس لله ، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب(•) به الحق ، وما سواه فلغو .

ويقال(١) : إن المفيد إما دل على الذات ، أو أشار إلى الصفات ، أو كان عبارة عن المصنوعات .. هذا هو التقسيم الحاوى لجميع المعانى ، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذى هو مفيد] .

(•) بفتح الطاء .

(١) هذه عادة القشيرى عندما يسوق رأيا جـــديداً ، وليس معناها بالضرورة ايراد رأى لآخرين .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

رأينا أن نضم الفصلين حتى يكتمل المراد ، ويتضح ما قد يبدو فى أولهما من غموض فى ضوء ثانيهما •

ولنبدأ ــ كالعادة ــ برأى أصحاب نحو العبارة فى معنى كل قسم من أقسام الكلام ، ثم نشرح القصد عندهم من (الكلام المفيد) وبعدئذ نفرغ لرأى شيخنا فى مذهبه الإشارى المستنبط من ذلك ، ولهذا فإننا لن ندخل فى تفصيلات كثيرة بل سنكثف الاهتمام على ما هو هام فى استنباط الإشارة •

فالاسم ما دل على معنى فى نفسه ، غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة ، وهو ينقسم إلى اسم عين أى ذات : (الله) أو اسم معنى (القدرة) والاسم أصل لأنه يستغنى بنفسه عن الفعل ، والفعل فرع عن الاسم • والاسم أخف من الفعل ، فهو **أى الاسم يستتر فى الفعل ،** والفعل لا يستتر فى الاسم ، ولهذا نجد صاحب الإنصاف يجعل المصدر أصلا لأن المصدر اسم (مستغن بنفسه ولا يفتقر إلى غيره ، وما هو كذلك يكون أصلا لما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره)(٢) •

أما الفعل (فهو ما دل على معنى فى نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة ، وهو لا بد له من الاسم وإلا لم يكن كلاماً)(٣) •

وأخيراً •• فإن الحرف ما دل على معنى فى غيره • فإذا اختص بالأسماء عمل فيها الجر ، وسميت بحروف الجر لأنها تجر معانى الأفعال إلى الأسماء أى تضيفها وتوصلها إليها • وذهب الكوفيون إلى تسميتها بحروف الإضافة ، وهذا العمل يناظره فى نحو القلب قول الشيخ (إن الحروف رباطات) وقو أوضحنا بعض هذا المراد فيما سبق وسنزيد الأمر إيضاحاً بعد قليل •

---

(٢) الانصاف ٢٣٧/١ •

(٨) الكتاب لسيبويه ٦/١ •

وننتقل إلى الإشارة :

فغير خاف مدى التوفيق الذى ناله القشيرى وهو يصرف (الاسم) من البداية إلى (الله) سبحانه . فهو بهذا قد جعله أصلا لا فرعاً ، وهو غير مشتق من شىء سبقه[٤] لأنه لم يسبق بما يشتق منه ، وهو قد جعله متحرراً من الزمانية بل فوق الزمانية ، وبهذا ازداد اقتناعنا بتصوره لأسبقية (الاسم) . ولم يكتف بذلك بل جعلنا نثير قضية استتار الاسم فى الفعل .. وهذه فى الحقيقة ذات دلالات عميقة ، (فالله) خارج عن الكون بذاته لأن المطلق متسام عن التداخل فى النسبى ولكنه داخل فيه بصفاته أى بتجلياته فى الخلق والنعمة والرحمة والجمال والجلال والإحياء والإماتة — ... الخ كما سبق أن شرحنا .

أما (الفعل) فهو تعبير عن الكون وما فى الكون أى عن المخلوقات ، وما يجرى عليها من تصاريف إلهية مرتهنة بأزمان ومرتهنة بمقادير ومرتهنة قبل ذلك كله بعلم أزلى قديم يقدره (الاسم) بحكمته ، فالملك ملكه ، وله أن (يفعل) فيه ما يشاء (وقتما) يشاء ، وهذا هو ارتباط (الفعل) بالزمانية وإن شئت الدقة بالزمنية .

ومما سبق نفهم قول النحاة (الاسم يستتر فى الفعل) فالحق خارج عن الكون بذاته متصل فيه بصفاته ... الخالقية والإبداع والرازقية والإحياء والإماتة والهداية .. الخ .

أما الحروف فهى (رباطات تتم بها فوائد نطق القلب) فإذا قال الله سبحانه : منى ولى وبى .. تحققت الفائدة لأن الربط هنا على

---

(٤) انظر كتابنا (البسملة بين اهل العبارة واهل الاشارة) . ط الدار القومية .

الأصل ، لأن الإضافة منسوبة ــ حقــاً وحقيقة ــ إلى من(*) يجب أن تضاف إليــه •

أما إذا قال العبد : منى ولى وبى لم تتحقق الفائــدة لأن الربط هنا على غير أصله ، بل هنا بلغة الصوفية دعوى نفس ، أى ادعاء نسبة • فلا فاعل فى الكون غيرالله ، وليس لأى غير أو سوى حق فى الفاعلية أو الملكية •• إن فى ذلك عدواناً ، فهو بهذا (لغو) وليس فيه فائدة عند نحاة القلوب !

ولو طلب إلينا أن نجمع كل هذه المعانى التى يريدها الشــيخ من وراء الأقسام الثلاثة لقلنا فى كلمة واحدة : التوحيد ، هو الهدف البعيد المرجو تحقيقه ، وأما وسيلته فهى المناداة والمناجاة ، ويكون الشيخ فى فصول كتابه الأولى قد حدد(**) الإطار العــام الذى يعمــل فيه نحو الإشارة توحيد المحبوب •

* * *

(•) بفتح الميم •

(١) انظر : نحو القلوب الصغير . للقشيرى ص ٨٧ و ١٣٨ تحقيق : احمد علم الدين الجندى •

(••) بفتح الأول وتشديد الثانى •

وينتقل الشيخ بعدئذ إلى الجملة فيقول : [والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً أو فعلا واسما ، وما عداه من الأقسام غير مفيد] .

أى هناك نوعان للجملة : جملة اسمية من مبتدأ وخبر
وجملة فعلية من فعل وفاعل

وتتحقق الفائدة من الإسناد الحاصل بين طرف كل منهما .

ويختلف النحاة فيما بينهم فى أسبقية كل منهما عن الأخرى ، وإذن القضية تطرح بشكل آخر أيهما أسبق الاسم أم الفعل ، ويشتد الخلاف بينهم ليشغل مساحات كبيرة من مصنفاتهم .

وفى رأينا أن هذا الخلاف يمكن أن ينفض لو أدخلنا فى الاعتبار المتكلم ورغبته ، فهو وحده الذى يعرف ما يريد إبرازه ، فلو كان قاصداً للثبات واللزوم استخدم الجملة الاسمية لخلو الاسم من الزمن ، ولو كان قاصداً إلى التحول والتغير استخدم الجملة الفعلية لتحمل الفعل للزمن.. ولسوف نعود إلى معالجة هذا الموضوع فى فصول قادمة من الكتاب إن شاء الله .

وحينما تنقل القضية إلى نحو القلوب فإنها تتكيف بحسب المناخ الصوفى وتصبح (الفائدة) و (اللغو) و (مقتضى الحال أو المناسبة) ذات دلالات سلوكية ومعرفية لخصها الشيخ فى :

[نحو القلوب فيه مفيد وغير مفيد ، فغير المفيد ما ليس لله]
وبهذا التلخيص يكون الشيخ قد أرسى فى حزم قاطع القواعد الأساسية للموضوع كله .. وبهذا فتح لنا الباب للشرح والدراسة :

يميز الصوفية بين شيئين : حقوق الله ، وحظوظ العبد . فلو أراد العبد أن تتحقق له (الفائدة) فى هذه الرحلة السنية ، وأن يخطو أول خطوة فى (القصد) إلى الله على نحو سديد فإن عليه أن يرفع هذا

الشعار نصب عينيــه من أول الطريق إلى منتهاه : مراعاة حقــوق الله بأقصى ما فى استطاعته ، والتجافى عن حظوظ النفس والدنيــا والهوى بأقصى ما فى استطاعته ٠وأى تحيف(٠)فى هذا ينذربخراب كل شىء ، وكل غفلة عنه ينبغى تداركها على الفــور ، وإلا ولج الشــيطان من أضيق المنافذ ، وبدد كل محصول ، ولم تعد هناك (فائــدة) ترجى حتى على مرأى العين !

إن النفس — فى اصطلاح القوم مركز المعلومات : كالحسد والكذب والرياء والخيانة والإعجاب والمساكنة والكبر ٠٠ ونحو ذلك ٠ والقلب مركز المحمودات المنجيات من كل ذلك ، والصراع من البداية قائم بين الطرفين قصداً إلى تنقية القلب — خــلال المقامات — من كل الكدورات وتنحية قطاع الطريق وتجنب آفات العلائق ٠٠ وهكذا يستشرف القلب المنيب السليم من مرحلة (الروح) التى هى **مركز المحبة ، لأنها جبلت** منذ يوم الميثاق على الاعتراف بربوبية الرب « ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » ، وعلى **حبــه ،** وعلى العودة إليه مبرأة من كل كدر ٠ وهــذه (الروح) بدورها تنقى خلال الأحوال : كالرجاء والخوف ، والأنس والهيبة ، والبسط والقبض ، والفناء والبقاء٠٠٠الخ لتستعد للاستشراف من منطقة أعظم ارتفاعاً فى المعراج الروحى هى (السر) ثم (سر السر) حيث البصيرة الكاشــفة ، وحيث الأنوار المتتالية ، وحيث المشــاهدة والعرفان ٠٠ وأخيراً فوق قمــة القمم : التوحيد ٠ وهــكذا نعود إلى التوحيد مرة أخرى حتى يزداد القارىء تمكناً من إدراك غاية الغايات عند أهل الصفاء ٠

هذه فى اختصار علامات على الطريق نضعها فى بداية شروحنا ، ولنا إليها عودات كثيرات فى ثنايا الكتاب حسبما تقتضيه الأحــوال ٠

---

(٠) بتشديد الياء وضمها ٠

وبهذا نستطيع الآن أن نميز بين (المفيد) و (غير المفيد) فى نحو القوم• ولكى يكون موقفناسليماً نبدأ من البداية الصحيحة ، فإذا استعرنا لغة أهل نحو الظاهر فإن (الابتداء) هنا هو (بالله) •

إنها بداية تختلف بالقطع عن سائر العلوم ، فعلى حين تحتاج تلك العلوم إلى مهارات عقلية أو رياضية أو فنيــة أو لغوية ••• إلى آخر ما نعرف من الاستعدادات الإنسانية المعينة على التخصص فى لون من ألوان المعرفة — فإن البداية هنا هى بهذا (الاسم) الكريم •• ونحن نبنى تصورنا للبداية على هذا النحو على أساس موضوعى علمى مستمد من طبيعة العلوم الصوفية فى أصولها ووسائلها وغاياتها •

فــ (الله) هو الذى يجتبى العبد المراد لكى يشق الطريق إليه ، و (الله) هو الكفيل — حتى فى المقامات التى هى جهود كسبية كالتوبة والصبر والتوكل — بتوفيق التائب إلى توبتــه والصابر على صــبره والمتوكل فى توكله • فالله فى البــداية هو الوســيلة •• وفى النهــاية هو الغاية •

و (لله) هو صاحب الأمر فى تقليب قلب العبد فى (الأحــوال) : تلك الثنائيات التى لا تكاد تحصر ، بل هى كما يرى أبو عبد الله الانصارى الهروى بعدد أنفاس الخلق(•) •

و (الله) هو الحفيظ لعبده حتى وهو فى أعلى درجات الوصول ، فهو الذى يرده مثلا إلى حال (الفرق الثانى) وهو فى قمة الجمع وجمع الجمع كى يؤدى الفرائض التى تتطلبها الشريعة ، لأن الحقيقة ما جاءت لتنال من الشريعة ، بل هى مؤيدة لها ، عاصمة لها ، ناصرة لها • ذلكم هو (الكلام المفيد) فى عرف أرباب القلوب •

ذلكم هو (خبر المبتــدأ) الذى يحقق (الفائدة) عنــد أصحاب

(•) بفتح الأول وسكون الثانى .

المواجيد • وهى عندهم ليست نزهة هينة لينة بل هى معركة شاقة مضنية ربما استغرقت العمر كله •• ولكن أو ليست الآمال الكبيرة فى حاجة إلى قلوب كبيرة وهمم كبيرة ! وأى غاية أعظم وأروع من انتصار الإنسان على نفسه ، ودنوه من الأنوار الكاشفة لبصيرته ، وصعوده إلى زمان فوق الزمان ، ومكان فوق المكان !

ولكن : أحقاً يستطيع القلب الإنسانى خوض هذه المعركة ، وتحقيق هذه (الفوائد) الجليلة ؟

قلنا من قبل إن القلب مناط الأمل فى الانتصار على النفس ، ونضيف هنا شيئاً آخر •• إن القلب وريث (العقل) فى المعرفة ، ذلك لأن العقل بطبيعة اتصاله بالحواس والمادة وتحقيق المعرفة عن طريقهما سيجد نفسه فى لحظة ما لا يستطيع الخوض فى غيب بعد غيب ، وهذه طبيعة تختلف عن طبيعته ، فالحصان ليس مخلوقاً ليركض فوق ثبج الماء ، والسفينة ليست مصنوعة لتمخر فوق اليابسة — كما يقول الصوفى الفارسى جلال الدين الرومى •

القلب مزود بطاقات الذوق والعاطفة والاستشفاف والتركيز فى (الواحد) ، وهذه أمور لا قبل للعقل بها ، ونكتفى هنا بذلك ، ونورد بعض أقوال الشيوخ فيما نحن بصدده •

فابن القيم يعبر عن استطاعة القلب إغاثة العبد بأخذ ما هو (مفيد) وطرح ما هو (غير مفيد) فيقول :

« فى القلب قوتان : قوة العلم والتمييز ، وقوة الإرادة **والحب** ، ولهذا كان (الكمال) والصلاح باستعمال هاتين القوتين فيما (ينفعه) ويعود بصلاحه وسعادته ، فكما له باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل • واستعمال قوة الإرادة **والمحبة**

فى طلب الحق ومحبتــه وإيثاره على الباطل »(٥) .

ويبدأ القلب رحلته بالتيقظ ، والاعتزام على نبذ الماضى والفرار من دواعى الدنيــا والشيطان ــ كما أوضحنا . « فإذا صح صــدق فراره منهما ــ كالصبى الذى يفزع مما يفزع منه الصبيان ، فلا يهتدى إلى غير أمه ، فإذا أتى إليها آوته إلى نفسها ، وضمته إلى نحرها وألصقت خده بخدها ــ كذلك العبد إذا صدق فى ابتهاله إلى الله ورجوعه إليه عن مخالفته آواه إلى كنف قربته ، وتداركه بحسن لطفه »(٦) .

ويعبر سمنون المحب ــ وهو من أجلة شيوخ الصــوفية عن هذه اللحظات .. لحظات بداية التعلق بمحبوبه الأسنى فيقول :

وكان فؤادى خاليــاً قبــل حبــكم ... وكان بذكر الخلق(٠) يلهــو ويمــرح

فلمــا دعــا قلبى هــواك أجـــابه ... فلســت آراه عن فنــائك يبـــرح

وإن كان شىء فى البـــلاد بأسرها ... إذا غبــت عن عينى بعينى يملـــح

فإن شئت واصلنى وإن شئت لا تصل ... فلست أرى قلبى لغيرك يصــلح(٧)

* * *

بقى أن نوضح الرأى فيما هو (غير مفيــد) : الســهو والحشو واللغو والبعد والكفر : وقد وردت كلها بمعانيها عند شيخنا فى تفسيره لقوله تعالى :

« والذين هم عن اللغو معرضون » .

---

(٥) اغاثة اللهفان لابن القيم ص ١٣ .

(٦) اللطائف ص ٣١٠ .

(٧) تاريخ بغداد المجلد التاسع ص ٢٣٧ .

(٠) بسكون اللام .

فيقول : « ما يشغل عن الله تعالى فهو سهو ، وما ليس الله فهو حشو ، وما ليس بمسموع من الله • أو بمعقول مع الله فهو لغو ، وما هو غير الحق سبحانه فهــو كفر ، وما ليس بتقريظ الله ومدحـــه من كلام خلقه والتعريج على شيء مما سبق ذكره فهو بعد(٠٠) وهجر »(٨) •

الخلاصة عن تمام (الفائدة) وحصول (المفيد) :

كما أنه فى نحو الظاهر تتم (الفائدة) بإسناد الخبر إلى المبتدأ أو (بإسناد) الفعل إلى فاعل يتقدمه •• هنا أيضـــاً تنبنى الطريقة على أسس مفيدة ، وتضر(٠) بها وبصاحبها أشياء غير مفيدة ، وكلها تدور حول (الذكر) الذى هو عماد هذا الطريق من بدايته وفى وسطه وعند غايته • (فالمناداة والمناجـــاة) تأتلف من أذكار وأدعيـــة ، ومقامات وأحـــوال موضوعها جميعاً (الاسم) الأعلى وصفات (الذات) وصفات (الفعل) ولا ينبغى أن تخرج عن هذا بحال من الأحوال **فالإسناد كله لله** •

(الله) سبحانه هو المبتدأ وهو الخبر وهو الفاعل • وتجلياته فى الكون هى (أفعاله) وأفضاله ، والعلاقة به يجب أن ترتبط على أساس أنه **(الحق الواحد المحبوب)** ولنضرب من أقوال الشيخ ونظرائه أمثلة للتطبيق ننهى بها هذا الفصل •

الخطاب والجواب « إذا (خاطب) العبد الحق سبحانه بلســـان (نجواه) إما سائلا أو داعياً أومثنياً أو شاكراً أومتنصلا(٠٠) أومبتهلا قام فى محل (التفرقة) • وإذا أصـــغى بسره إلى ما (يناجيه) به مولاه ، واستمع بقلبه ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه أو عرفه(٠٠٠) معناه ، أو

(٠٠) بضم الباء وسكون العين .

(٨) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٦٧ .

(٠) بفتح التاء وضم الضاد .

(٠٠) بضم الميم . (٠٠٠) بتشديد الراء .

لوح لقلبه وأراه ، فهو يشاهد الجمع »[٩] .

وعند هذه اللحظات النادرة يكون الحال « اقتراب (حال الهيبة) وعنده يلزم العبد السكون التام ولا يأتى منه شيء كى تتحقق الفوائد »[١٠] .

وليس هناك أوضح من وصف المناجاة وما تحتويه من خطاب وجواب من ذلك .

ولكنها حال نفيسة لا تتاح إلا (لمن يخرجون من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية)[١١] .

وهى فى الواقع إشارة : (وعلامة صدق الواصل أن يسمع من الحق بسره ثم ينطق — أى العبد — بلفظه)[١٢] وآية هذا الصدق فى التوجه أن يحفظ الله (لسانه) عن كل ما ينال منه ، وهل تعرف لغة الأحباب غير ذلك ؟

أما القشيرى ذلك المفسر الإشارى فيجد فى قصة يوسف ما يماثل هذا الموقف فعند قوله تعالى : **« ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب »** وإثر هذا التمدح نودى فى سره : « ولا حين هممت ! » (فأجاب) على الفور : « وما أبرئ نفسى »! [١٣] وهذا نمط فى الهمس لا يعرفه إلا المحبون .

---

(٩) الرسالة حال الجمع .
(١٠) ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى ص ٦١ .
(١١) اللمع للسراج ص ٤٩ .
(١٢) اللطائف جـ ٢ ص ٣٨٢ .
(١٣) اللطائف جـ ٢ ص ١٩٠ .

فصـــل [٥] :

الإعراب والبنـــاء

يقول الشيخ عن نحو الظاهر :

[الكلام ينقســـم إلى معرب ومبنى ، والإعراب تغير آخر الكلمـــة لاختلاف العامل إما بحركة أو سكون أو حذف ٠

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون] ٠

ويستكمل الشيخ حديثه عن نحو الظاهر فى بداية الفصل السادس فيقـــول :

[وجوه الإعراب أربعة : الرفع والنصب والخفض والجزم] ٠

فى الإعراب والبنـــاء
عنـــد نحـــاة الظـــاهر

تمهيـــــد :

تقتضى سلامة المنهج أن نفصل الكلام فى الإعراب والبناء فى نحو العبارة على حدة حتى إذا فرغنا من ذلك دخلنا إلى نحو الإشارة • وقد اتبعنا هذا المنهج حتى يصبح هذا الملمح بمثابة مرجع لكل بقية فصـــول الكتاب فنتحاشى بقدر الإمكان الوقوع فى التكرار ، لأن هذه الفصول تعتمد فى الأساس على البناء والإعراب •

والواقع أننا نستمده من دراسة أعدت فى عام ١٩٧١ لتكون بين أيدى طلاب بكالوريوس اللغة العربية • ولم نكن نتصور أن نجدها تطل برأسها مرة أخرى فى كتاب عن التصوف ، وهـــذا إن دل على شىء فإنما يثبت هذه النظرية التى ننادى بها دائماً فى الجامعة وفى المؤتمرات وفى الصحف وأدوات الإعلام أن التصوف فى صميمه لغة وأدب وفن •• هكذا يجب أن يؤخذ ، وهكذا عليه أن تترعرع الدراسات اللغوية والأدبيـــة والنقدية فى كنف التصوف والمتصوفة •

ونعاهد القارىء أن تبسط له الموضوع تبسيطا يجمع بين الوفاء العلمى بأطراف الموضـوع الهامة وبين التيســـير المتجنب للتعقيدات والتفريعات •• وبكلمة أخرى الحصول على قدر ثقافى ضرورى لا غنى عنه للقارىء الذى يحتاج إلى ذلك •

***

(الإعراب) فى اللغة الإظهار والإبانة ، وفى اصطلاح النحاة هو هذا التغير الحادث فى أواخر الكلمة تبعاً لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً • وبهذا يكون الإعراب إعرابياً أى تبييناً للمعانى المختلفة التى يقصدها المتكلم ، وهذا مأخوذ من قولهم : أعرب الرجل عن مراده

أى أوضحه وبينه . ومن قوله ﷺ : « الثيب تعرب عن نفسها » أى تبين وتوضح .

وارتباط التغير بالإعراب يجىء من قولهم : عربت معدة الناقة أى تغيرت(١) .

أما البناء لغة فهو وضع الشىء على جهة يراد بها الثبات واللزوم . واصطلاحاً : لزوم آخر الكلمة حالة واحدة لغير عامل ولا اعتلال .

وللإعراب والبناء علامات أو ألقاب . وقد آثر الشيخ أن يسميها (وجوهاً) .

فالمعرب من أقسام الكلام هو الاسم ، ومن الأفعال الفعل المضارع . والمبنى هو قلة من الأسماء ، والفعلان الماضى والأمر . وكذلك الحروف .

والحق أن (الإعراب ضرورة تقتضيها أغراض المتكلمين والتمييز بين المعانى . فلو قال قائل : ما أحسن زيداً غير معرب أو ضرب عمر زيد غير معرب فإننا لا نستطيع أن نقف على مراده .

أما إذا قال ما أحسن(.) زيد ، أو ما أحسن زيد(..) ، أو ما أحسن زيداً أبان الإعراب عن المعنى الذى يريده .

وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرها ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها عن المعانى)(١) .

و (هذا الإعراب يفيد فى الأدلة على المعانى ويجعلهم يتسعون

---

(١) الصاحبى لابن فارس (ط المؤيد سنة ١٣٢٨) ص ١٦١ .

(.) بتشديد الياء وبالفتح .

(..) بتنوين الدال مع الضم .

(...) بتنوين الدال والكسر .

في كلامهم ،ويتصرفون بالتقديم أو بالتأخير عن احتياجاتهم)(٢) .

١ — وعلامات الرفع أربع هى الضمة (وهى الأصل) والواو والألف والنون .

٢ — وعلامات النصب خمس هى الفتحة (وهى الأصل) والألف والياء والكسرة وحذف النون .

٣ — وعلامات الجر ثلاث هى الكسرة (وهى الأصل) والياء والفتحة .

٤ — وعلامات الجزم ثلاث هى السكون (وهو الأصل) وحذف الآخر وحذف النون .

والفعل المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب ، والجزم بالسكون أو بحذف حرف العلة أو بحذف النون فى الأفعال الخمسة جزماً ونصباً .

والاسم المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب والجر .

وتنقسم هذه الوجوه إلى ثلاثة أقسام :

١ — قسم تشترك فيه الأسماء والأفعال : وهو الرفع والنصب .

٢ — وقسم تختص به الأسماء وهو الجر .

٣ — وقسم تختص به الأفعال وهو الجزم .

وقد استعمل شيخنا مصطلح « الخفض » — وهو مصطلح كوفى — بدل الجر عند البصريين وهو حين لجأ إلى هذا المصطلح لم يفعل ذلك مجاراة للكوفيين ، وإنما قصد — كما نظن — ليقابل به المخفوض قدراً فى نحو الإشارة — على نحو ما سنرى فى موضعه .

يقول الشيخ فى المتن : **[والمبنى أن يلزم آخر اللفظة إما حركة**

(٢) الايضاح فى علل النحو للزجاجى ص ٦٩ وما بعدها .

أو سكون] فآخر المبنى على حالة واحدة لا تتغير مهما تغيرت العوامل المتقدمة عليه •

وعلامات البناء الأصلية هى الكسر(هؤلاء) والضم (حيث وكتبوا) والفتح (كتب وأين) والسكون (أكتب ولم) •

وهناك علامات فرعية تنوب عن الأصلية •

وهناك ملحوظة لها أهميتها فى الإشارة بعد قليل أن المعرب والمبنى يشتركان فى ظاهرة واحدة أنهما يتعلقان بآخر اللفظة لا بصدرها أو أحشائها •

الحركات بين دلالات الصوت والمعنى :

كرس الشيخ رحمه الله نصيباً كبيراً من عنايته عند وضع هذا الكتاب على الربط بين صوتيات الحركات والوظائف المعنوية التى تؤديها فى نحو الظاهر، ثم الانطلاق بعدئذ إلى التنظير بينها وبما يقابلها فى نحو الباطن •

ويمكن استخدام هذه المحاولة فى تفسير ظواهر لغوية ونحوية كانت العادة تجرى على قبولها بلا إمعان فى مناقشتها ، وإنما يغلب أن يعاد بها إلى السماع عن العرب ، ولكن البحوث الحديثة تحاول إخضاعها للتفسير على طريقتها الخاصة •• وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الشيخ حيث التفت فى كتابه هذا إلى هذا الجانب فإنما يعد رائداً فى خوض مجال غير مطروق اللهم إلا على استحياء ، وليس هذا بمستغرب على متذوق إشارى ، له تفسير ضخم يعتمد فيما يعتمد عند استنباط الإشارة على ما بين الجرس والمعنى ••• وقد أبدينا إعجابنا به فى مواضع جمة من « لطائفه » ومن كتابه (نحو(*) القلوب الصغير) ، ونبهنا

(*) حققه وعلق عليه ونشره : د. احمد علم الدين الجندي .
ط تونس ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

إلى ضرورة الالتفــات إلى ذلك عند معالجــة النص الأدبى وتحسس المواضع الفنية فيه .

وننبه إلى بعض الالتفاتات الصوتية الهامة ذات الأثر البعيد : —

١ — الضم والكسر ثقيلان ، والضم أثقل لأنه فى حاجة إلى جهد عضلى أكثر من الكسر إذ يتم بتحريك أقصى اللسان بينمــا يتم الكسر بتحريك أدنى اللسان — وهو أيسر .

٢ — السكون — وهو الأصل — ويسمى وقفاً فيه خفة لأنه يدل على توقف الحركة بين الاتجاه إلى أعلى والاتجــاه إلى أســفل فكأنه اللاحركة .

أو أن السكون يدل على القطع أى قطع الصوت، ويتجلى هذا القطع بوضوح عند حذف حرف العلة وقطع الاستمرار الصوتى : لم يدع لم يسع ، لم يجر .

٣ — والألف التى هى الاستمرار الصوتى الممتد للفتحة — أخف الحروف .

ويستنتج سيبويه أن (الفتحة والألف كانتا أخف عليهم ، ألا تراهم يفرون إلى الألف من اليــاء والواو إذا كانت العــين قبل واحدة منهما مفتوحة ، وفروا إليها فى قولهم قد رضى(٠) ونهى)(٣) .

ولخفة الفتحة أعطيت لما هو كثير فى الاســم ، وأعطيت الضــمة لما هو قليل . فالفعل لا يحتاج إلى أكثر من فاعل واحد بينمــا يتطلب مفعولا وأحيانا اثنين أو ثلاثة .

ويمكن أن يقال إن الرفع أعطى لما هو عمدة فى الكلام ، والعمــدة ما كان أحد ركنى الإسناد كالمبتدأ وخبره والفاعل ونائبه . وعلى هــذا

(٣) الكتاب لسيبويه ٢/٢٩٠ .

(٠) بضم الأول وفتح الثانى .

يمكن القول إن الضمة علم الإسناد ، ويؤسس بعض النحاة على ذلك أن الرفع أول الإعراب(٤) .

أما الجر فهو لا يخرج عن نطاق الإضافة ، ولهذا يمكن أن يكون علماً لها . أما النصب فعلامة على كون الكلمة فضلة ، والفضلة ما ليس أحد ركنى الإسناد كالمفاعيل والحال والتمييز والمستثنى ، ولهذا فالفتحة علم ما ليس بإسناد ولا إضافة .

وإلى شيء من ذلك يذهب إبراهيم مصطفى(٥) فى استقراءاته مذهباً بعيداً حيث يقصر الحركة على اثنتين فقط هى الضمة بوصفها علم الإسناد والكسرة بوصفها علم الإضافة ، أما الفتحة فيجعلها علامة استراحة واسترخاء ، ففى رأيه أن العرب كانوا يستريحون بها كما نفعل نحن فى لهجتنا المصرية حين نستريح بالسكون : رحت له(..) ، وجيت من الجامعه(...) .

ولو تابعنا القشيرى فى مصنفاته لأدهشنا أن نجده يوظف التقلب بين الحركات للحرف الواحد فى الكلمة نحو آفاق عجيبة . انظر مثلا :

(العزيز من صفاته سبحانه وهو إما من عز(.) يعز أو من يعز أو يعز أى بكسر العين أو فتحها أو ضمها .. ويترتب على فهم كل واحدة آداب وسلوك فإن قلنا إنه من يعز بكسر فالمعنى ....)(٦) .

---

(٤) الايضاح ١٢٤ .
(٥) احياء النحو لابراهيم مصطفى .
(٦) التحبير فى التذكير للقشيرى تحقيق د. بسيونى . طبعة عالم الفكر .

(.) بتشديد الزاى .
(..) بسكون الهاء .
(...) بسكون الهاء .

كيف تمت معرفة المعربات ومعرفة المبنيات ؟

هذا سؤال يفرض نفسه ، وله أهمية خاصة فى نحو القلوب أيضاً الشىء البدهى أن العرب اضطرت إلى الإعراب لأن ذلك ضرورة فرضها العجز عن الوقوف بالساكن على أواخر الكلمات ، ولهذا استعانت بالصوت لتميز معانى الكلمات وأدوارها فى سياق التحدث والخطاب ، ثم تطور الأمر ونضج ، وأخذت المسألة شكلها الأخير عبر عصور طويلة . أما بالنسبة لنا فقد أصبح (السماع) عن العرب هو الفيصل فى التمييز بين المعربات والمبنيات ، وليس لنا الحق فى تبديل أى قرار فى هذا السماع — وهذه نقطة لها أهميتها فى الإشارة كما سيتضح .

ولكن هذا لم يمنع الباحثين نتيجة الاستقراء من التماس تفاسير لهذه الظواهر .

فالاسم معظمه معرب ، وذلك لكثرة دورانه فى الاستعمال فى مواقع مختلفة من الجملة ، وفى معان متنوعة ليست فى قدرة الفعل ، وعلى هذا يمكن أن يقال دون حرج إن الاسم معرب على الأصل ومن هنا لسنا بحاجة إلى أن نتساءل عن علة إعرابه .

أما الفعل فهو — من هذه الناحية — أولى بالبناء ، ولهذا بنى الماضى والأمر . وفيما يتصل بالمضارع فهو كما يتضح من اسمه يضارع الاسم ، إذ يتنقل فى حرية لا حدود لها عبر الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله ، فلم يكن هناك مفر من إعرابه لتوضيح أبعاد هذه الحركة الطليقة . وأما الحرف فهو مبنى دائماً ، وهذا بدهى ، لأن الحرف لا يعتوره من المعانى ما يحتاج معه إلى إعراب ، بل إن مشابهة الاسم للحرف كافية فى رأى ابن مالك لبنائه :

والاسم منه معرب ومبنى   لشبه من الحروف مدنى
كالشبه الوضعى فى اسمى (جئتنا)   والمعنوى فى متى وفى هنا

فإذا عدنا إلى الموضوع لننظر إليه بمنظار جديد : وهو مدى نصيب كل من الاسم والفعل من الثقل والخفة — وهى رؤية لا تخلو من أهمية فى استنباط الإشارة — لرأينا الزجاجى يعلل لثقل الفعل ولخفة الاسم على النحو التالى :

« إذا ذكر الاسم دل على مسمى تحته نحو : رجـــل وفرس •• ولا يطول فكر السامع فيه • أما الفعل فإذا ذكر لم يكن بد من الفكر فى فاعله لأنه لا ينفك منه ، ويستحيل وجوده من غير فاعل • وقال آخرون : إنما خف الاسم لأنه لا يدل إلا على مسمى تحته ، وثقل الفعل لدلالته على الفاعل والمفعول والمفعولين والثلاثة والمصدر والظرفين من الزمان والمكان •

وقال الكسائى والفراء : الاسم أخف من الفعل لأن الاسم يستتر فى الفعل والفعل لا يستتر فى الاسم »(٧) •

وقال أكثـــر الكوفيين : « لم تخفض الأفعال لثقلهـــا ، ولم تجزم الأسماء لخفتها ليعتدل الكلام »(٨) •

معنى هذا فى تصورنا : أننا بإزاء مجتمع حى(٠) يتألف من الأسماء والأفعال والحروف ، وأن لكل منها دوراً يؤديه فى نطاق هذا المجتمع ، وهنا يكتسب أهميته من كثرة دورانه فى الاستعمال أو توسطه أو ندرته ، فتعلو قيمته كلما مست(٠٠) الحاجة إليه ، وكلما تبوأ فى الجملة العربيـــة لا مكاناً فقط بل مكانة أيضاً ، وكما تخيل أفلاطون مدينته من طبقات : أعلاهـــا فى القمة المفكـــرون (وهم من عنصر الذهب) والجيش وهم (من الحديد) وهكذا إلى أن نصـــل إلى الرقيق (وهم من المعـــادن

(٧) الايضاح للزجاجى ص ١٠٠ — ١٠١ •

(٨) المرجع السابق ص ١٠٦ •

(٠) بتشديد الياء والتنوين •

(٠٠) بتشديد السين •

الخسيسة) لأنهم خدام المجتمع يمكن أن نتخيل فى ضوء هذا الفهم الأفلاطونى مجتمع الألفاظ العربية ، فمن الأسماء ما هو عمدة كما ذكرنا ، وذلك حين يكون عضواً فى التركيب الإسنادى فهذا حقه (الرفع) ومنها ما لا يقوم بذاته بل يسبقه الحرف وهذا نصيبه (الخفض) أما الفضلة الذى يمكن الاستغناء عنه دون حدوث ارتباك ملحوظ فهذا حقه (النصب) .

وسنرى بعد قليل .. كيف استخدم الشيخ رضوان الله عليه هذه النظرة فى مواقف السلوك والعرفان حسب الطريق الصوفى ، ثم توظيف ذلك فى مدارج السالكين الذاكرين إلى أن يصل إلى مراتب الموحدين المحبين .

بقيت فى خاتمة هذا اللمح عن الإعراب والبناء حاشية موجزة لا تخلو أيضاً من ملاحظ فى الإشارة عند الشيخ :

وهى أن الإعراب على ثلاثة أقسام :

١ — لفظى وهو أثر ظاهر — وهذا هو الأصل .

٢ — تقديرى وهو أثر غير ظاهر ، وتكون الحركة مقدرة لأنها غير ملحوظة ويكون ذلك فى الاسم المقصور مثل (ليلى) وفى المنقوص مثل (القاضى) ، وفى المضاف لياء المتكلم ، وفى المضارع المعتل الآخر .

٣ — محلى وذلك حين يقع أحد المبنيات موقع المرفوع أو المنصوب أو المجرور أو المجزوم فيكون رفعه أو نصبه أو جره اعتبارياً ، ويسمى الإعراب المحلى مثل : فاز من(...) توكل على الله : من : فاعل مبنى على السكون فى محل رفع .

(..) انظر : نحو القلوب الصغير للقشيرى . تحقيق د. أحمد علم الدين الجندى ص ٧٩ فما بعدها ، ص ١٢٧ — ١٣٠ . الدار العربية للكتاب .

(...) بفتح الميم .

. . . .

والآن ..

نعود إلى الفصلين الخامس والسادس .. لنتحدث هذه المرة عن الإشارة : يقول الشيخ فى الفصل الخامس :

[ونطق القلب إما بلفظ يراعى فيـه توقيف الحق ، أو قالة أذن فيها الحق تصريف الخلق ، فالأول ما تسـمع بقلبك فتقف عنـد ذلك بلا تكلف منك ، والثانى ما تناجى به مولاك على مقتضى ما تجـد فيه من إشارة البسط ، فأحدهما حال جمع والثانى حال فرق] .

نطق القلب فى نحو الإشارة يناظر (الكلام المفيد) فى نحو العبارة . وكما أن هناك عند العبـاريين متكلماً وكلاماً فعند الإشـاريين السالك والطريق .. فلنتناول الثلاثة بالإيضاح والدراسة :

أولا ـ الصوفى السـالك :

وضح مما سبق أن استقراء كلمـات العربية يشـير إلى أن هذه الكلمات لا تخضع جميعها بدرجة متساوية لنظام إعرابى واحد ، بل منها ما يخضع ويسمى معرباً ، ومنها ما لا يخضع ويسمى مبنياً .

ثم إن المعربات تلتقى فى داخل النظام الإعرابى على هيئة فصائل لها إعرابها الخاص وهكذا أيضاً يلتقى المريدون حول الشيوخ حسـب مناهج وطرق .

وكما أن النحاة يجدون أنفسهم فى مواطن كثيرة وقد توقفوا أمام آحاد من الألفاظ يلزم دراسة نظام مستقل بـكل منها ينمـاز عن بقية الأتراب (مثلا : باب المنصوبات فصل ظرف الزمان وظرف المكان) كذلك أمر السالكين لطريق التصوف .. فهم جميعاً سائرون على درب الرحلة إلى الحق ، ولكنهم ليسوا فى لحظـة واحدة على درجـة متساوية فى

الاستعداد الفطرى ولا فى التخلق ولا فى التذوق ولا فى التحقق ، ولا فى مدى تذويب الإرادة الإنسانية فى الإرادة العليا ، ولا فى مدى الصبر والمثابرة على البلاء والفقد ، ولا فى الجنوح إلى التخفى أو الظهور ، ولا فى الاستمساك بالطاعة أو التواضع ، ولا فى التوبة أو الزهد .. والخلاصة أنهم — كأية مجموعة بشرية تمارس نشاطاً ما — مختلفون فيما بينهم . ومع ذلك فهم يلتقون مثنى وثلاث ورباع وخماس — كما تلتقى فصول المعربات أو المبنيات فى نحو الظاهر فى تجمعات تكثر أو تقل .

ولهذا يجب على الشيوخ باديء ذى بدء أن يتفهموا هذه الفروق الفردية حينما يكلفون الجماعة بواجب أو حفظ ورد(٠) ونحو ذلك ، كما ينبغى مراعاة العدل فى الإثابة والعقوبة ، فمنهم من يصلحه الإشفاق ومنهم من لا يصلحه إلا التعنيف ، ومنهم من يأتى منه شيء إذا قرب(٠٠) بعبارة مشجعة .. وأخيراً منهم من يلزم إبعاده (وحذفه) على الفور . وبكلمات أخرى منهم (المرفوع) و (المنصوب) و (المخفوض) .. لأنه إذا صح ذلك فى (الألفاظ) فهو فى مجتمع (الإنسان) أولى .

ثانياً — الطريق الصوفى ذاته :

إذا كان (الكلام المفيد) فى نحو العبارة لا تتحقق منه نتائج إلا إذا استوفت (أواخر) ألفاظه النهايات الصحيحة والسليمة فكذلك الطريق الصوفى ، فإن المريد لن تتحقق له (فائدة) إلا إذا سلك سبيله مرحلة بعد مرحلة خلال المقامات والأحوال ، ولا يتسنى له الانتقال نقلة جديدة إلا إذا استوفى شرائط ما هو عليه فى (الآن) أو على حد تعبيرهم

(٠) بكسر الأول وسكون الثانى .
(٠٠) بضم الأول وتشديد وكسر الثانى .

فى (الوقت) فالصوفى ابن وقته . معنى هـذا أنه كما لا تتحقق فائدة من الـكلام إلا إذا كان كله صحيحاً ، وأن الفائدة المحققة مرجـأة إلى الوصول إلى (تمام) الكلام . كذلك فإن العبرة فى الطريق (بالخواتيم) لأن أى خلل فى جزئية ولو هينة قد ينسف الجهد كله ، ويفسـد مجمل النظام . مثال ذلك ما يراه القشيرى فى لجوء المريد إلى الرخصة ، لأن الرخصة للكافة والمستضعفين ، أما القوم فليس لهم شغل إلا مولاهم . — فمن استرخص فقـد فسخ عقـده مع الله — على حد تعبـيره فى « الرسالة » .

ثالثاً — نطق القلب :

عندما يصل العبد الواجد إلى مرتبة (الوجود) التى هى حسب مصطلحه أعلى قدراً من حالتى التواجد ثم الوجد تكون الإرادة الإنسانية قد ذابت بالكلية فى الإرادة الإلهية ، وهنا تتالى الأنوار من طوالع إلى لوامع إلى متوع النهـار وتشرق شمس الشموس وهذه حالة لهـا من الانبهار ما قد يوقع فى أخطار ، لأن (القلب إذا نطق) عندئذ بما يسمع وبما يشاهد فقد يتجاوز (اللسان) حدود (نطق القلب) . ولكن رحمة الله بعبده تحفظه من الوقوع فى الاستشكال ، ومن كان صادقاً فى توجهه حفظه الله بمقدار صدقه عن الوقوع فى المظنة ، وهذا هو ما عناه الشيخ فى المتن بقوله « بلفظ يراعى فيه توقيف الحق » وبقوله « فتقف عند ذلك بلا تكلف منك » . وهذه الحالة تعرف عند أرباب الطريق بحال الجمع ويناظر القشيرى بينها وبين (المبنى) فى نحو الظاهر .

ولكن العبد قد يرد(*) من الجمع إلى (الفرق) فيسمح له بأن يعبر عن الوجد الذى يغمره بكلمات تجرى على لسانه قصداً للمناجاة والدعاء والابتهال والتنصل والاستغفار ، ويكون فى هذه الحالة أشبه (بالمعرب) .

(*) بضم الأول وفتح الثانى .

فما هو بتوقيف الحق يشبه (المبنى) وما هو مأذون به من لدن الحق يشبه (المعرب) . وكما تختلف المبنيات والمعربات بحسب أواخرها نتيجة مواقعها فى التركيب اللفظى تختلف أحوال الواجدين بحسب أنصبتهم وبحسب جهودهم وصدقهم ، وبالتالى تختلف (خواتيم) الرحلة بين عبد وعبد . وسيقوم القشيرى بشرح ذلك كله فى الفصول التالية .

ونكتفى هنا بالوقوف مع القارىء عند حدود المناجاة المسموح بها ، وبضرب أمثلة مفيدة ومقتضبة لها ، وسبيلنا إلى ذلك تعقب الموضوع خلال مصنفاته ، يقول فى لطائفه (ومن آداب المناجاة أن تعلم وأنت بين يدى مولاك من أنت ؟ ومن تناجى ؟ ومن الرقيب عليك ؟ ومن القريب منك ؟)(٩) .

ثم استمع إليه وهو يقول فى كنف :

« ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » .

« أى بما شاء من معلوماته . والمعنى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه ، فأى طمع فى الإحاطة بذاته وحقه سبحانه ؟ وأنى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه فى عزه أحد ، ولا يدركه أحد »(١٠) .

وهذا كلام هام جداً وواضح جداً ، لأنه يخرس كل المزاعم ويحذف كل التجاوزات ، ويغلق الباب على من يتطاول فى حق الصمدانية تحت أى ادعاء ، وهو أخيراً يدافع عن الصوفية أمام أعدائهم ، لأنه يرسم الحدود لمنتهى طموحاتهم .

وقد حفظت لنا المصادر أمثلة كثيرة من المناجاة ، ولكننا نكتفى هنا بمثلين فقط :

---

(٩) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٥٠ .
(١٠) اللطائف الجزء الأول ص ٢٠٩ .

الأولى : فى حلية الأولياء[11] تستغرق نحو خمس صفحات ، وهى لعون بن عبد الله بن عتبة (تابعى) ، ونكتفى هنا ببعض سطورها :

— ويحى(.) إن حجبت(..) يوم القيامة عن ربى فلم يزكنى ولم ينظر إلى(...) ولم يكلمنى ، فأعوذ بنور ربى من خطيئتى .

— يا نفس لم تكرهين الموت ؟ لم لا تذعنين وتحبين الحيـاة ؟ لم لا تصنعين ؟ تقـولين فى الدنيـا قول الزاهدين وتعملين فيها عمـل الراغبين !

— ويحى .. كيف أغفل ولا يغفل عنى ؟ ! ويحى .. وهل أضرت غفلتى أحداً سـواى ، ويحى .. كأنه قد تصرم(.) أجلى ثم أعاد ربى خلقى(..) كما بدأنى .

— بأى وجه ألقـاك ؟ وبأى قدم أقف بين يديك ؟ وبأى لسـان أناطقك؟ وبأى عين أنظر إليك ؟ فامنن على(...) بطاعتك وبترك معاصيك.. أبداً ما أبقيتنى .. سبحانك فاقبل توبتى واستجب دعوتى .

— رب لا تسـلطها على .. رب إن نفسى لم ترحمنى فارحمنى رب إنى أعذرها ولا تعذرنى .. إنه إن يك خيراً أخذلها ولا تخذلنى ، وإن يك شراً أحبها وتحبنى ، رب .. فعافنى منهـا وعافها منى حتى لا أظلمها ولا تظلمنى ، وأصلحنى لها وأصلحها لى فلا أهلكها ولا تهلكنى، ولا تكلنى إليها ولا تكلها إلى ..

---

(11) حلية الأولياء — لأبى نعيم الاصفهانى جـ ٤ ص ٢٥٥ — ٢٨٠ .
(.) بسوكن الياء .
(..) بضم الأول والتاء .
(...) بتشديد الياء .
(.) بتشديد الراء وفتحها .
(..) بتسكين اللام .
(...) بتشديد الياء .

وإذا صح أن تكون هذه المناجاة لأرباب المقامات ، فلنستمع إلى مناجاة أليق بأرباب الأحوال ، وهى لشهيدة الحب الإلهى رابعة العدوية :

إلهى •• أغرقنى فى حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك •

إلهى •• أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه •• وهذا مقامى بين يديك •

إلهى •• هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر •• فليت شعرى أقبلت(••••) منى ليلتى فأهنأ ؟ أم رددتها على فأعزى(•••••) •• فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك •

إلهى •• اجعل الجنة لأحبائك والنار لأعدائك أما أنا فحسبى أنت !

***

والآن •• وبعد التنظير بين المبنيات والمعربات فى كلا النحوين نتوقف عند بعض آراء القشيرى فى بقية مصنفاته لنعرف مدى التغيرات الطارئة على العبد السالك ، ومن الذى يقوم بها على الحقيقة ، ونترك للقارىء أن يناظر بين الموقف العبارى والموقف الإشارى وهو يقرأ هذه الآراء :

« العبد مادام فى الترقى فصاحب تلوين ، يصح فى نعته الزيادة والنقص فى الأحوال ، فإذا وصل إلى (الحق) بانخناس البشرية مكنه الحق بألا يرده إلى معولات النفس فهو متمكن فى حاله على حسب (محله) واستحقاقه ، ثم ما يتحفه الحق سبحانه فى كل نفس(•) فلاحد

(••••) بفتح التاء .

(•••••) بتشديد الزاى وفتحها .

(•) بفتح الأول والثانى .

لقدوراته فهــو فى الزيادات متلــون بل ملون(..) وفى أصــل حــاله متمكن »(١٢) .

ويقول فى موضع آخر : « ما يكون كسباً للعبد فى إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل(...) الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان (على مقتضى ما يجد فيه من البسط) فهو جمع . فإثبات الخلق من باب التفرقة ، وإثبات الحق من نعت الجمع . ولابد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة(....) له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له » .

ويحرص الصوفية ــ مع كل ذلك التقسيم بين ما للرب وما للعبد ــ أن ينسبوا كل شىء الله سبحانه ، فهو وحده سبحانه القائم بالفضل حتى فى الجهود الكسبية ، وهو وحده الذى (ينطق(.....) قلبه) بما يقتضيه (الوقت) .. ولنستمع إلى ذلك :

يقول يحيى بن معاذ :

« اللهم إنى أتقرب إليك ، وبك أدل عليك(١٣) .

ويقول ذو النون :

« عرفت ربى بربى . ولولا ربى ما عرفت ربى »(١٤) .

---

(١٢) الرسالة ص ٤٥ .
(١٣) اللمع للسراج ص ٣٣١ .
(١٤) الرسالة ص ١٥٦ .
(..) بضم الأول وفتح الثانى وتشديد الثالث وفتحه .
(...) بكسر الأول وفتح الثانى .
(....) بفتح التاء .
(.....) بضم الياء وكسر الطاء .

ويقول أبو يزيد : « إنى لا أفهم عنك إلا بك » .

ويقول الكلاباذى :

« لا يعرف الله سبحانه إلا من تعرف الله إليه »(١٥) .

وهذا بالضبط ما عناه الشيخ فى المتن : **« إلا بإذن من الحق »** .

وقوله : **« وأن تسمع بقلبك وتقف عند ذلك بتكلف منك »** فكل شىء منه وبه وله ــ سبحانه ــ ، وهذه هى جبرية الحب ، وما أروعها من جبرية ! إنها كل السعادة .

(١٥) التعرف للكلاباذى ص ٣٧ .

فإذا انتقلنا إلى نحو الإشارة فى الفصل السادس نجد :

[وجوه الإعراب أربعــة : الرفع والنصب والخفض والجزم • وللقلوب هذه الأقسام •

فرفع القلوب قد يكون بأن ترفــع قلبك عن الدنيــا ــ وهو نعت الزهاد ••••] •

أقسام الإعراب فى نحو القلوب

أولا ــ الرفــع

ملاحظة على المنهج :

تستوقفنا قبل الدخول فى الشرح والدراسة ملحوظتان هامتان فى تعبير الشيخ •

١ ــ أنه استعمل لفظة « وجوه » بالنسبة لنحو العبارة واستعمل لفظة « أقسام » فى نحو الإشارة ، وفى رأينــا أنه كان موفقاً إلى حــد بعيد ، لأن كلمة أقسام مرتبطة بالقسمة ، والقسمة مرتبطة باجتباء الله سبحانه وهذه بداية ينبغى أن يتفهمها كل من له صلة بالتصوف العملى ، فإن البداية هنا تختلف عن بقية العلوم ، إن لله عباداً يختارهم من بين خلقه لكى يكونوا أحباءه ، وييسر لهم سـبيله ، ويوفقهم فى أعمالهم ، ويسدد كل خطاهم •• إنهم مرادون لا مريدون •

٢ ــ إن الشيخ تجاوز نهائياً عن كل حديث عن « النفس » ، ودخل بنا إلى (رفع القلب) مرة واحدة • وهذا توفيق فى التعبير نحمده له ، لأن (النفس) مركز المعلولات و (القلب) مركز المحمودات ، ولو كانت النفس قد انتصرت لمــا كان هناك صوفى ولا تصوف ولا بداية لطريق

بأى شكل من الأشكال . إنما هو يفترض هنا أن (القلب) قد انتصر فى معركته مع النفس ، وبدأ الكلام فى (رفع) هذا القلب .

ويمكن تلخيص الهدف الأول من هذه الفقرة فى أنه يطالب العبد بالوقوف إلى جانب قلبه ، ومؤازرته بعد هذا النصر ، لأن الشيخ وهو الخبير المجرب يعلم أن هذا النصر محفوف بالخطر فى مراحل البداية ، فالإنسان بشر ، والحنين إلى الماضى وما تركه وراء ظهره من أعراض الدنيا ومتاعها قد يتجاذبه من حنين إلى حنين ، فالمطلوب الآن معاونة (رفع) القلب فى مقامات الزهد والتواضع والصبر والتوكل والرضا ، لأجل اقتلاع كل بقايا النفس من جذورها ، ولعل القارىء يحس بالارتباط القوى بين ما تكلمنا عنه من (ثقل الرفع) فى نحو العبارة وبين (ثقل الرفع) فى نحو الإشارة ، فالمعركة هنا ضارية مستمرة ، والطريق وعر ، والنضال متوقد .. إن البداية الصحيحة تؤدى إلى النتائج الصحيحة ، ولهذا .. فإن اليقظة فى (رفع) القلب لابد أن تبلغ حدتها على الدوام ، لتأخذ بالعبد نحو المنجيات وبعيداً بعيداً عن المهلكات .

وكما استحق الفاعل والمبتدأ والخبر وكل منها (عمدة) فى الجملة مرتبة (الرفع) استحق المريد هنا أثقل (الحركات) ، لأن المهام الكبيرة تحتاج إلى الكبار . هذا هو المريد قد تهيأ للرحلة .. فماذا يطلب منه الشيخ ؟

[أن ترفع قلبك عن الدنيا ـ وهو نعت الزهاد]

يفطن الشيخ إلى أن الزهد أوسط المقامات ، فطبقاً لأكثر الآراء ذيوعاً فى البحوث الصوفية فإن بدايتها مقام التوبة ثم الورع ثم الزهد ، ويأتى بعد الزهد : الصبر والتوكل والرضا .. معنى هذا أن الإنسان حينما يكون زاهداً فإنه قد تجاوز منتصف الطريق ، واستعد لنصفه

الثانى ، فهـو قد تمرس بالتجربة ، وعرف مقاساتها ومكابداتها ، وهو يستعد الآن للمزيد • ولكن •• ما هذا الزهد ؟

إذا كان الزهد فى الحرام واجباً بحكم الشريعة ، فإن الزهد هنـا ينصرف إلى معظم الحلال •

يقول القشيرى : « الحلال ما كان مأذونا فيه ، والحلال الطيب أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضلا وليس لك استحقاقاً • والحلال الصافى ما لم ينس(٠) الله فيه وهو الذى لا يكون صاحبه عن شهود ربه — عند أخذه — غافلا »(١٦) •

وهذا توضيح هام ، لأن الباحث عن السـلام الداخلى فى أعماقه ينظر نظرة اشتباه إلى معظم حلال هذه الدنيا ، وإذا كان الله سبحانه قد سمى الدنيا بأسرها متاعاً قليلا •• فأى زهد يكون فى هذا القليل ؟ لابد إذاً من التشدد ، ومن الجدية فى تمييز الأشياء ، يروى عن الحارث المحاسبى أنه « كان إذا مد يده إلى طعام فيه شـبهة ضرب على رأس إصبعه عرق»(١٧) والحارث هذا « تنـازل عن ثلاثين ألف دينـار هى ميراثه من أبيه لأنه غير مطمئن إلى كل هذا المال »(١٨) •

ولندع القشيرى وشيوخ الطريق يزيدون هذا المعنى تأكيداً :

« فإن الأكل على الغفلة حرام فى شريعة الإرادة »(١٩) •

---

(١٦) اللطائف المجلد الأول ص ٦٣٩ •

(١٧) الرسالة ص ٥٩ •

(١٨) التعرف ص ١٧٥ •

(١٩) اللطائف المجلد الأول ص ٤٤٤ •

(٠) بضم الياء •

ويسأل الشبلى فى زهد الدنيا فيجيب « ويلكم .. أى مقدار الأقل من جناح بعوضة حتى يزهد(.) فيها »(٢٠) .

ويبين مالك بن دينار أثر قوة هذا الزهد فى طرد الشيطان فيقول :

« إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين فاحْتل(..) فى كل حين أن تغلب شـــهوات الدنيا ، فإن من يغلب شهوات الدنيا يَفرِق(...) الشيطان من ظله » .

ولا نريد أن نغرق القارىء فى هذا البحر الزاخر من أسانيد الشيوخ ولكننا نكتفى هنا بالقول بأن الحلال ليس هو ما لا يُعصى(....) الله فيه وحسب بل هو ما لا ينسى الله فيه قط .. أو ليس الزهد بعـــد كل ذلك (رفع وارتفاع) ؟ !

« وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات والمنى ــ وهو نعت العباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد » .

العبادة من العبودية ، وبمقدار شعور العبد بعبوديته يتعالى الرب فى ألوهيته.وليس أشرف لمقام العبودية من أن النبى صلوات الله وسلامه قد وصف بها وهو فى أعلى مقام له فى هذه الدنيا ، وكان ذلك ليلة الإسراء .

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام .. » .

وقوله تعالى : **« فأوحى إلى عبـــده ما أوحى » .**

---

(٢٠) مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد الثالث ص ٨١ .

(.) بضم الياء وفتح الهاء .

(..) بسكون الحاء .

(...) بفتح الياء وكسر الراء .

(....) بضم الياء .   (.....) بضم الياء .

ولو أتيح لرضيع أن ينطق وهو ما زال فى المهد صبياً لنطق كما نطق عيسى عليه السلام : « إنى **عبد الله** » .

وفى سبيل تنمية هذا الشعور بالعبودية يقع عبء جسيم على كاهل العبد ، « فهو لا يفتر عن عبادته آناء الليل والنهار ، إنه فى الظاهر بنعت المجاهدات ، وفى الباطن بوصف المكابدات ، يتحمل المصاعب ويركب المتاعب » .

فإذا كانت الصلوات المفروضة والعبادات المطلوبة واجبة على مستوى الكافة فإن قيام الليل والناس نيام ، وقراءة الأوراد والأدعية ، والذكر الدائم بالقلب ، وتأمل الفكر العميق فى جنبات هذا الكون .. كل أولئك ونحوه (رفع وارتفاع) .

إن توديع المنى والشهوات فى معارك التخلية والتحلية ينبغى أن يأخذ شكل الاستدامة ، بحيث لا تكون هناك رجعة ألبتة إلى أيسر شىء من مغريات الدنيا ، إن القلب (بارتفاعه) يمتلىء بالله ، حتى لقد رأوا أن أى دبيب خفى يساوره بعدئذ هو من قبيل الشرك .. أرأيت ؟ لماذا ؟ لأنه يكون قد اتخذ من هواه إلهاً !

وعند ما يصل القلب إلى هذه الدرجة من التشبع تتلون الحياة بعاطفة **الحب** الجياشة ، وهذه بشرى خير وفير .. استمع إلى يحيى بن معاذ وهو يغرد بلفظة « **الحب** » خمس مرات فى أربع أبيات ، لتشعر أنه أصبح فى خفة طائر يحلق نشيطاً فى الآفاق العليا :

طرب الحب على الحب ... مع الحب يدوم
عجبا ممن رأينا ... ه على الحب يدوم
حول حب الله ما عشـ ... ـت مع الشوق أحوم
وبه أقعد ما عشـ ... ـت حياتى وأقوم[٢١]

---

(٢١) حلية الأولياء جـ ١ ص ٦١ .

[وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجيء منك شيء — وهذا نعت أصحاب الانكسار ، وأرباب الخضوع والافتقار] .

صحيح إن عمل الإنسان شيء هام وأساسي .. ولكن التعويل ينبغي أن يكون دائماً على الفضل الإلهي فالله هو الكفيل الوكيل الهادي الناصر.

فعليك أن تكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل — كما عبر سهل التستري ، وعليك أن تعتقد في رسوخ أنه لا توبة إلا إذا تاب عليك ، ولا هدى إلا إذا هداك .. وهكذا ، أسقط(٭) نفسك من حسابك ، وأسلم إلى المولى كل قيادك ، فالمريد — على الحقيقة — من ليست له إرادة ، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد هلك ، وبمقدار الشعور بالانكسار والخضوع والافتقار (يرتفع) السالك إلى منزلة يعبر عنها إبراهيم بن أدهم بقوله :

« لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه » .

والواقع أن هذه النظرة إلى النفس منحتهم شجاعة أدبية في مواجهة كل ظلم اجتماعي ، لأن ما هم فيه من عز في جنب الله صغر(٭) لهم شأن الدنيا بأسرها ، وساعدهم على قولة الحق في وجه السلطان الجائر ، استمع مثلا إلى قول الزاهد عمرو بن عبيد لجعفر المنصور :

« إعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك ، وإني أحذرك ليلة تتمخض صيحتها عن يوم القيامة .. إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، واتق الله فإن من وراء بابك نيراناً تأجج(٭٭)

(٭) بفتح الهمزة وكسر القاف .
(٭) بتشديد الغين وفتحها .
(٭٭) بتشديد الجيم الأولى وفتحها .

من الجور ، ما يعمل(..) فيها بكتاب الله ولا بسنة رسوله »(٢٢) .

وقد أهلتهم هذه البسالة الناجمة عن تهوين شأن الدنيا إلى أن يكونوا بحق أشبه بضمير الأمة اليقظ .

وفى سبيل إماتة دعاوى النفس وكسر شوكتها والاعتماد أنه لا يجىء منها شىء نرى مدرسة فكرية تظهر فى نيسابور — مدينة القشيرى — فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى تعرف « بأهل الملامة » أو الملامتية ، وتتلخص دعوتها فى إماتة كل ادعاء للنفس ، ووضعها موضع التأنيب ، وجلب الانتقاد والمذمة بدلا من استجلاب المدح والزهو .. دون أن تقع فى شىء يخل بأدب العقيدة والشريعة بطبيعة الحال . وقد تأثر القشيرى إلى حد كبير بتعاليمها ، وبخاصة عند تكوين رأيه فى « النفس » ، فروى عن كثير من شيوخها أمثال أبى حفص والواسطى وغيرهما ..

وتروى المراجع الصوفية فى باب كسر النفس وقتل دعواها نماذج كثيرة نكتفى منها بالقصة المعروفة : حين عيّر(.) أبو ذر بلالا بالسواد ، فشكاه إلى المصطفى صلوات الله عليه وسلامه فقال : يا أبا ذر .. إنه بقى فى قلبك من كبر الجاهلية شىء .

فحلف أبو ذر ألا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه .

ومن شبيه ذلك ما حدث للكتانى حين طلب إلى رجل كان يستثقله أن يضع رجله على خده ، وألا يرفعها إلا أن يزول عنه هذا الشعور .

[وقد يكون برفع القلب إلى الحق ، وتصفيته عن شهود الخلق] .

---

(٢٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٠٧ .
(.) بتشديد الياء .

ما كان لنفسك فهو من الحظوظ ، وما كان لله تعالى فهو من الحقوق .

ومطلوب منك لكى تفلح فى (رفع) قلبك أن تكون (مبتدئا) بالتنازل عن حظوظك ، وهذا (الابتداء) لا (تتم الفائدة منه) إلا (بالخبر) وهو المراعاة الدائمة لحقوق الله ، وقد وضع الحارث المحاسبى كتاباً بهذا المعنى أوضح فيه كيفية هذه المراعاة .

ومنطقى أن الذى يتخلى عن حظوظ نفسه لابد أن يمتثل لتعريف التصوف الذى تبدأ به معظم مصنفاته وهو : « قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق » . إن الارتماء فى أحضان الدنيا يستتبع تمريغ الكرامة ، وفى هذا مهانة لا يقبلها من أراد (الارتفاع) بشخصيته عن المنصب والمال والجاه .. فكلها أعراض زائلة . أما من يتوكل على الله فهو حسبه ، وهو شرف له ما بعده شرف ، وهو أولا علامة الإيمان : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » والعبد إذا تعلق بالمنهج الصوفى الأصيل عاش متأملا وعاملا بالآداب المستنبطة من أوصاف الفعل الإلهى : الوكيل والرازق والعليم .. وما فى معناها ، وعندئذ يفرغ قلبه لحقوق الله ، وتكون عودته فى كل أموره وما يشكل عليه إلى هذه الآداب عودة سهلة ميسرة لا عناء فيها ، كما يعود الطفل إلى ثدى أمه فى دعة واطمئنان ، ويعبر الجنيد عن ذلك بعبارة دقيقة : « إذا كان العبد لله كما لم يكن — أى بحظوظه — كان الله له كما لم يزل » أى وكيلا ووهابا ورزاقاً ومنعما ..

ويتدرج شيخنا بالعبد فى هذه التربية السامية على خطوات فى (الرفع) : —

[أن ترفع يدك عن الحرام ،

ثم ترفع ما تضمره من إثبات الأنام ،

ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات ،

ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة حتى تكون بالله لله ، تمحو ما سوى الله] .

تعبر المراحل الأربع الأولى عن (الابتداء) فى الرفع ، وتأتى الخامسة لتكون (الإخبار) المتمم الفائدة ، وبتعبير آخر إذا كانت البدايات سلوكية من لدن العبد على النحو السابق فإن النتائج من لدن الحق تأتى بمثابة تتويج لهذه الجهود ، وهكذا الطريق الصوفى : استيفاء فى (الحال) لكل متطلبات الوقت وثمار فى (الاستقبال) تأتى من عين الجود . والشيخ هنا يوضح طريقة التخلى عن الحظوظ الذى ذكره آنفا ... بل أكثر من ذلك .. فإن الحظوظ لم تعد قاصرة على التعلق بالحياة الدنيا وإنما امتدت لتشمل كل حظوظ الدارين ، أو بالتعبير الإشارى خلع النعلين ، فلم تعد الهمة موجهة إلى خوف من النار أو طمع فى الجنة ، وإنما ارتقى الهدف وسما أعظم ما يكون الارتقاء والسمو .. ففى هذه الدنيا لم يعد الشغل الشاغل للمحب سوى محبوبه الأسنى .. كما يقول الحلاج :

مكانك من قلبى هو القلب كله ... فليس لخلق(.) فى مكانك موضع
وحطتك(..) روحى بين جلدى وأعظمى ... فكيف ترانى إن فقدتك أصنع(٢٣)

أما فى الآخرة فيكفيك أن تسمع قول المصطفى صلوات الله عليه :

« ... وأسألك لذة النظر إليك »(٢٤) .

---

(٢٣) ديوان الحلاج المقطعة ٣٥ .
(.) بفتح الخاء وسكون اللام .
(..) بتشديد الطاء وفتحها .
(٢٤) وردت فى دعاء طويل رواه النسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه عن عمار بن ياسر .

هذا هو التجرد فى الحب الذى عناه الشيخ بقوله فى المتن :

[ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة حتى تكون بالله] .

إن (تجرد) العبد من كل الأغراض والأعواض نتيجة (الرفع) ، ويمكن أن نناظر بين هذه الحالة وبين الفعل المضارع الوحيد المعرب — كما قلنا — الذى يستحق (الرفع) عند (تجرده) من الناصب أو الجازم .

(ولولا حظ العبد أن أفضال الله سبحانه معلولة بالحركات والسكنات التى يمارسها لعد(·) ذلك من قبيل ملاحظة النفس التى هى شرك(··) خفى)(٢٥) .

ويقول يحيى بن معاذ فى هذا التجرد الخالص :

إن ذا الحب لمن يفنى له — لا لدار ذات لهو وطرف
لا ولا الفردوس — لا يألفها — لا ولا الحوراء من فوق غرف(٢٦)

وإذاً فمن علامات **[إحكام المحبة]** إسقاط كل مطمع ، وترك الأمر كله لله ، فهو وحده الذى يختار لعبده ، ولن يكون إلا الخير ، وهكذا تكون :

ليلى على دين قيس — فحيث مال تميل
وكل ما سر قيساً — فعند ليلى جميل

خلاصة القول : إن كل ذريعة فى الوصلة قد سقطت بل سقطت كل

(٢٥) اللطائف ص ١١٧ .
(٢٦) مصارع العشاق ص ٢٤٧ .
(·) بضم العين وتشديد الدال .
(··) بكسر الشين .
(···) بضم الطاء وفتح الراء .

السوى ، ومن بين هذه السوى نفس الإنسان وإرادته ، كل شيء أصابه **[المحـــو]** ولم يبق إلا الله •

هذا هو الفناء وهذا هو البقاء •

فالمحب قد شرب من كأس المحبوب حتى فنى فى شهود أنوار من يحب • ونسرع فنوضـــح ذلك حتى لا ينبرى أعداء التصوف بقـــذف اتهاماتهم ، المسألة فى غاية البساطة : إنه فنـــاء إرادة المتوكل فى إرادة الوكيل ، إنه سقوط كل الأوصاف البشرية المذمومة والبقـــاء بالأوصاف المحمودة • ليس هنا مثلا •• حلول أو اتحاد •• فقد جلت الصمدانية عن كل ذلك • ليس هنا فناء طبيعى على نحو ما نجد فى الفناء الهندى •

إن المعادلة هنا تتركب فى بساطة من وصـــول الإرادة الإنسانية والأخلاق الذميمة إلى درجة الصـــفر ، فتكون كل الحـــركات بالإرادة الإلهية وبالأخلاق الفاضـــلة •• وهذه هى التى لخصها المتن بقـــوله : **[بالله لله]** •

هذا هو حال (الرفع) والارتفاع الذى تطمح إليه كل سطور بل كل كلمة فى هذا الفصل من الكتاب :

ومن المناسب أن أنقل هنا تجربة صادقة دافئة ، نتابع من خلالها تدرج (الارتفاع) حسب انثيال الأنوار الإلهية الكاشفة للبصيرة : إنها تجربة سيدنا إبراهيم عليه السلام أنقلها كما وردت فى تفسير الشيخ :

قال تعالى :

« فلما جن عليه الليـــل رأى كوكبا قال هذا ربى فلمـــا أفل ••• قال هذا ربى •• إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » •

يقول الشيخ : « أحاطت بإبراهيم عليه السلام سجوف الطلب

ولم يتجل له بعد صباح الوجود ، فطلع (نجم) العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان قال هذا ربى ، ثم يزيد فى ضيائه ، فطلع له (قمر) العلم فطالعه بشرط البيان فقال هذا ربى • ثم أسفر الصبح ومتع (النهار) فطلعت شموس العرفان من برج شرفها ، فلم يبق للطلب مكان ولا للتجويز حكم ولا للتهمة قرار (يا قوم إنى برىء مما تشركون) إذ ليس بعد العيان ريب ، ولا عقب الظهور ستر • فهو حين شاهد الكواكب والشمس والقمر لاحظ الآثار والأغيار بالله ، ثم رأى الأشياء لله ومن الله ، ثم طالع الأغيار محواً فقال « إنى وجهت ••• » أى أفردت قصدى لله وطهرت عقدى من غير الله ، وحفظت عهدى فى الله لله ، وخلصت وجدى بالله ، فإنى لله لله بل محو فى الله الله الله الله »[٢٧] •

وهكذا يلحظ معنا القارىء أننا ونحن نشرح مذهب الشيخ فى المرفوعات •

أننا كنا نستحضر فى الذهن :

١ — المبتدأ وخبره وكيف تتم الفائدة •

٢ — المضارع المتجرد من الناصب والجازم •

٣ — وانتهينا إلى « الفاعل » ذلك العبد البادىء باجتياز الطريق ، الذى ينتهى به الأمر — على الحقيقة — إلى أن يتخلى عن فاعليته ويسلم القياد إلى ربه ، حيث لا تصريف إلا تصريفه « فالصوفى مقهور بتصريف الربوبية ، مستور بتصرف العبودية ، وهو لا يتغير ولا يتكدر »[٢٨] •

وربما التفتنا إلى شىء من ذلك ونحن ندرس المجاز العقلى فى علم

---

(٢٧) اللطائف المجلد الأول ص ٤٨٥ .

(٢٨) الرسالة ص ١٤٠ .

البلاغة ، حيث تعتبر من قبيل هذا المجاز قولنا : أنبت الربيع البقل ثم نشرح ذلك بقولنا : إن الإنبات لله ، ولكن التعبير هنا عن زمن الإنبات فلا فاعلية للربيع ولا للزارع — على الحقيقة ، ونسب الفعل إلى الربيع بعلاقة الزمانية فقط .

ثانيـا — النصـــب

[وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن على بســاط الوفاق ، ثم بانتصاب القلب فى محل الشهود بحسن الإطراق ، ثم بانتصاب السر بوصــف الانفراد ، والتنقى عن دقائق الافتراق . وقد يكون العبــد منصوباً لجريان حكم المقادير من غير أن يكون له اختيار ، ولا له فيمـا هو به إيثـــار .....] .

إذا كان النصب فى نحو الظاهر ليس للعمدة فى الكلام بل للفضلة فيه ، وإذا كان النصــب هنالك علامة الاستئناس والراحة — فى بعض الآراء لأنه حركة ولا حركة حيث هو وسط بين طرفين .. فإنه هنا يؤدى الدور نفسه ، ويتجه إلى الغاية نفسها .

ونحن نتساءل : ماذا يملك (المفعــول به) أمام (الفاعل) إلا الامتثال والاستجابة ؟ ماذا يملك العبد أمام سيده ومولاه إلا الطــاعة والوفاق وحسب الإطراق ؟

أرأيت إلى أم موسى حينما أوحى إليها أن تقذف بالتابوت إلى اليم حاملا رضيعها ، فامتثلت (منتصبة) تحقق إرادة مولاها ؟ كانت النتيجة أن كبر موسى وكان من أمره ما كان .

وأى أب يمتثل (منتصباً) لتنفيذ أمر ربه فيمســك بإحدى يديه برقبة ابنه وبالأخرى السكين ليبدأ ذبح فلذة كبده .. مثلما فعل إبراهيم ؟

ثم هذا هو المصطفى صلوات الله عليه يمتثل لأمر ربه ويظل فى

مكة ثلاث عشرة سنة يحتمل فيها ما لا تحتمله قوة بشرية بسبب العنت والسخرية والهذيان والإيذاء حتى جاء يوم ارتفعت فيه كلمة الحق ..

وهكذا نجد الأسماء الباقيات على الزمان (نصبها) الحق لإعلاء إرادته ، وتمت من بعدئذ الراحة والسكينة والقرار حينما جاء الفرج من (فتحة) الغيوب .

ولنعد إلى المتن .. فقد أصبح من اليسير تناوله بعد هذه التقدمة :
سبق أن ذكرنا فى بداية شرح هذا الكتاب أن المناجاة على بساط القرب تكون بداية التحقق ، وألفينا الشيخ ينبه إلى أنه غيرمسموحللعبد أن يتفوه عند البسط إلا بما يأذن به الحق ـــ سبحانه ، وأن يلتزم (الموافقة) فيما ينبس به قلبه قبل أن يندفع شىء من ذلك إلى لسانه ، ولهذا ينبغى توخى جانب الحذر ، و (حسن الإطراق) لأن المقام مقام سماع لا مقام كلام ، وهذا السلوك مفيد للمخالطين حتى لا تحدث فتنة ، ومفيد للعبد نفسه حتى لا يصل به الأمر إلى الادعاء والتكبر .. وفى ذلك كل امتثال مريح يعبر عنه ذو النون بقوله :

إذا ارتحل الكرام إليك يومـــا ليلتمسوك حـــالا بعد حـــال
فإن رحالنـــا حطـــت رضـــاء بحكمك عن حـــلول وارتحـــال
أنخنـــا فى فنـــــائك يا إلهى إليك مفوضـــين بلا اعتـــلال
فسسنا(٠) كيف شئت ولا تكلنا إلى تدبيرنا ياذا المعـــالى(٢٩)

وإذا كنا قد طالبنا هنالك ـــ فى كنف الشيخ ـــ بالتركيز والاستغراق فى صفات الفعل الإلهى ، وضربنا مثلا هناك بصفة المنعم ، فنزيد الأمر توضيحاً بالحديث عن صفة (الجمال) حتى نوضح ثمار (الوفاق وحسن الإطراق) .

---

(٢٩) اللمع للسراج ص ٣١٨ .
(٠) بفتح الأول وضم الثانى وسكون الثالث .

إن الإنسان لكى يدرك الجمال المعنوى الكامن وراء الجمال الحسى لابد أن يكون هو نفسه جميلا ، بمعنى أن يكون خالياً من الشـوائب والكدورات وتعقدات الدنيا ، وأن يستعد بصفاء وصدق لتقبل ما يفاء عليه ، إنه ساعات تأمله المديد ••• سيجد أن هـذا الكون الواسـع الفسيح حافل بالتناسق والنظام والجمال على نحو ينتهى به إلى نقطة مريحة ، وهى أن من خلف كل ذلك صانعاً مبدعاً جميلا ، تنطق الجمادات والأحياء بجمال صنعه وروعة إبداعه • وعند ذلك سيسمع من الطبيعة لغة عجيبة ولكنهـا مفهومة لديه ، ويستطيع تذوقهـا ، والتصـاعد مع ارتفاعاتها شيئاً فشيئاً ، فالأفعال الجميلة من ورائها الأفكار الجميـلة ، وتتجمع هذه الأفكار فى الفكرة الجمالية الكليـة التى تنبثق فى كل حنايا الكون •

[ثـم بانتصـاب السر بوصـف الانفـراد والتنقى عن دقائق الافتـراق] •

السر عند أهل التصوف : « لطيفـة مودعة فى القلب كالأرواح ، وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة كما أن الأرواح محل المحبـة ، والقلوب محل المعارف • ومقتضى أصـولهم السر ألطف من الروح ، والروح أشرف من القلب »(٣٠) •

ويضيف القشيرى إلى السر سر السر أو عين السر ، وأيا ما كان فإن السر وديعة الحق لدى الخلق ، إنه العدسة الكاشفة التى تتلقى الأنوار المشرقة على الحنايا • وكل الرحلة مكرسة لتنقية السر من كل الأغيار ، وأن تشرق فيه شمس التفريد والتوحيد • فإذا كان العبد فانيا — ومرة أخرى ننبه وسنظل ننبه إلى أنه فناء إرادة — فإن البقاء لله وحـده ، فالعبـد كان بائن ، وكائن من حيث هو شخص ،بائن من حيث جوهره

(٣٠) الرسالة ص ٤٨ •

(•) بتشديد الراء •

وبصيرته . هذا هو **معنى التوحيد** هنا فالنطق بالشاهدة **توحيد قالة** ، ونطق الكون بوحدانية الخالق **توحيـد دلالة** .. وهنا يصبح العبـد العارف بالله الواصل المتصل الفانى عن نفسه الباقى بإرادة ربه موحداً **توحيد حالة** ، متنقياً عن كل غير وسوى(٠)، قد زالت عنه كل التناقضات ، وانعكس ذلك على سلوكه وعلاقاته ، ويبقى على هذه الحال (منصوباً) لجريان حكم المقادير الإلهية ، لا يبغى عنها حولا ، وهكـذا تحدث له (الراحة) التامة من كل مشـاغل الحاضر والمستقبل ، وتستقر كل ذرة فيه عند الثقة المطلقة فى الله وحده ، فلايستعجل شيئاً لأن كل شيء بحكمة وبقـدر(٠) وبمقيات : « لأن الفقير إذا تطلع إلى المستقبل وتجـاوز ما هو عليه فى الوقت لا يجيء منه شيء »(٣١) ـ تلكم هى خصائص أهل الله وأوليائه :

[ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم ، فهم غياث(٠٠) الخلق ، قائمون للحق بالحق] .

لقد سقطت حظوظهم فى الدنيا والآخرة ، وتركزت همتهم فى مراعاة حقوق الله سبحانه . وعندئذ يكونون للناس بمثابة البصائر الكاشفة ، وتمتد بركاتهم إلى من حولهم فى المـكان والزمان ، وتلك هى الكرامات التى يسبغها الله على الصفوة من عبـاده لأجل عباده ، فهم وسـائل توصيل الخير إلى الكافة . ذلك لأن كرامة الولى فرع على معجزة النبى الذى يتبعه هذا الولى ، لأنه لم يصل إلى ما وصـل إليه إلا بعد أن (توالت) طاعاته حسبما اقتضت شريعة النبى . وتفترق هذه الكرامة عن المعجزة فى أنها غير مضادة لطبائع الأشياء فهى مثلا من قبيل « إجابة

---

(٠) بكسر السين .

(٣١) الرسالة ص ٢٠٣ .

(٠) بسكون الدال .

(٠٠) بكسر الغين .

دعوة ، أو إظهار طعام فى أوان فاقة ، أو حصول على ماء فى زمن عطش ، أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة ، أو تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف ونحو ذلك »(٣٢) .

وهم على ذلك أشبه (بمفاعيل) تجرى عليها أفعال (الفاعل) سبحانه ، لأنهم قائمون له وبه ، (منصوبون) بكل همتهم لطاعاته ، ولتوصيل الخير للناس ، والله أعلم حيث يضع رسالاته ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . والله سبحانه وتعالى أكرم الكرماء .

ثالثاً — الخفض

[وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل ، واستدامة الوجل ، ولزوم الذل ، وإيثار الخمول ، وملازمة الخشوع ، وإلقاء النفس فى ذبائح الجهاد] .

ليس أسوأ من أن يتحول (المرفوع) إلى (مخفوض) !

فهذا الذى ينبه إليه شيخنا تذكرة للذين قطعوا فى الرحلة إلى الحق — سبحانه — أشواطا ، ثم جد فى مسعاهم شىء من الوهن أو الغفلة أو الزلة فانجرفوا إلى (خفض) فى المنزلة بعد (ارتفاع) ، وهذا آية على أن عبادتهم كانت على (حرف) ، وما أسرع ما (جر) هذا الحرف عليهم موقفاً نكداً ! وأدوات الجر هنا تنحصر فى النفس والهوى والشيطان .. فكل واحد منها متربص بالعبد كى (يعمل) فيه بأسلوبه الخاص .. ولنستمع إلى شىء من ذلك بإمعان شديد « من قارف الزلة فهو من خطئه على يقين، فإذا تاب فإنه من القبول على شك ، ولاسيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقاً لمحبة الحق ، وإلى أن يبلغ العاصى محلا يجد فى

(٣٢) الرسالة ص ١٧٥ .

أوصافه أمارة محبة الله إياه مسافة بعيدة فالواجب إذن على العبد إذا علم أنه ارتكب ما تجب منه التوبة دوام الانكسار ، وملازمة التنصل والاستغفار وقد قالوا : استشعار الوجل إلى الأجل »(٣٣) .

ويقول الشيخ فى رسالته فى موضع آخر « سئل المشايخ عن الإسلام فقالوا : ذبح النفس بسيوف المخالفة »(٣٤) .

قلنا من قبل إن النفس عند القوم مركز المعلولات ، وإن القلب مركز المحمودات . فإذا انتصرت النفس من البداية فلا أمل فى شىء ، أما إذا انتصر القلب فالمعركة لا تنتهى بانحسام ، بل تبقى دواعى الخوف على هذا القلب محتدمة ، لأن ارتداده عما صار إليه من (رفع وارتفاع) محتمل فى أية لحظة .

فالخوف من (الخفض) عمل إيجابى ، لأنه بمثابة سهر على وليد محتاج إلى الرعاية والعناية ، ويكون ذلك بالخجل والوجل والذل لله والخمول والخشوع .. وقد تبدو هذه الكلمات مجموعة من السلبيات فى عرف الناس ولكنها هنا لأنها فى جنب الله ، ومكرسة للدفاع ، فهى حصن الأمان والمنعة من الثالوث البغيض : النفس والهوى والشيطان ، وهى كفيلة بالسباحة ضد التيار الشديد المعاكس المتلون بألوان شتى .. فلو استبسل الصوفى فى الدفاع فإن رحمة الله منه قريبة على الدوام . معنى هذا بعبارة أخرى أن ذل القلب فى كنف الله عز ، واستشعار الخجل صمود ، واستدامة الوجل أمان ، وإيثار الخمول كرامة ، وملازمة الخشوع أنس .. وأخيراً .. فإن إلقاء النفس فى ذبائح الجهاد بداية النجاة والخلاص .

---

(٣٣) الرسالة ص ٥٢ .

(٣٤) الرسالة ص ٧٧ .

[وقد يكون بخفض الجناح ــ لكل من طالبك بشى •
ليس فى الشرع له نُكْرٌ(٠) ــ من غير رد ولا نزاع •
ولا إبرام واستكراه] •

يمكن أن تنصرف الفقرة بكاملها نحو :

(أ) اتجاه عام يمس التربية الصوفية عموماً •

(ب) اتجاه خاص يمس علاقة المريد بشيخه •

فإذا صرفناها فى الاتجاه الأول فإن المطلوب أن يكون الصوفى لين الجانب ، مستعداً للصفح عن العثرات ، فهو كما يصفونه أشبه بالأرض يُطرح(٠٠) عليها كل قبيح ومع ذلك لا تنتج(٠٠٠) إلا كل مليح •

أو كما يصفه الجنيد : لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البار والفاجر ، أو كالسحاب يظل كل شىء ، أو كالمطر يسقى ما يحب وما لا يحب •

ويصفه أبو تراب النخشبى : العارف لا يكدره شىء ويصفوا به كل شىء • وهكذا تلتقى نصائح الشيوخ عند كلمة لها فى العرف الصوفى عطر أخاذ وهى كلمة « الفتوة » • وهى فى نظرنا أفضل النماذج للخلق الإسلامى الأصيل •

ومن آيات (الفتوة)(٠) التى تتفق وما جاء فى المتن هنا : ألا يملك الصوفى

(٠) بضم النون وسكون الكاف .
(٠٠) بضم الياء . (٠٠٠) بضم الأول .
(٠٠٠٠) بضم الياء .
(٠) انظر : ما جاء عن (الفتوة) فى كتاب : نحو القلوب الصغير ص١٦ . للامام القشيرى . تحقيق : احمد علم الدين الجندى .

شيئاً لنفسه يحبسه عن إخوانه ، بل يبذل لهم بل لجميع الناس بمقدار ما فى وسعه ، وألا يجادل أو يناقش فى مطلب طالما لم يكن مما ينكره الشرع ، وأن يتغاضى عن العدو والصديق فى سخاء مهما شق عليه الأمر ، وبذلك لا يكون خصماً لأحد ، ولا يرى لنفسه فضلا على أحد ، وألا يدخر أو يعتذر .. كل ذلك من غير تبرم أو كراهية بل عن طواعية وسعادة . وعلى الجملة فهى نموذج للتربية ينبنى على الإيثار ، وعلى التنازل ، وعلى العطاء .. قال تعالى :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وقال ﷺ :

« السخى قريب من الله تعالى قريب من الناس قريب من الجنة » .

أما إذا صرفنا الفقرة فى الاتجاه الثانى : أى عن علاقة المريد بشيخه ، فإنها تقصد ألا يحاول المريد مجادلة شيخه ، « لأن من قال لشيخه لم ؟ لا يفلح » بل واجبه الامتثال للأمر طالما أن هذا الأمر تتضح موافقته لأحكام الشرع . وعندئذ ينبغى ترك الاعتراض على الشيوخ ، وحمل ما يبدر منهم أو يبدو فيهم على وجه جميل ، وتلقى أحوالهم بالإيمان من غير رد ولا نزاع ، ولا تبرم أو ضيق ، فإذا كانت للمريد عينان فلتكن إحداهما ناظرة إلى الشيخ بالود والأخرى ناظرة إلى نفسه هو بالاتهام . وهكذا يكون خفض الجناح و (خفض) النفس وخفض (الأنا) من وسائل تربية المريدين وصقل إرادتهم .

ومن طريف ما يروى فى هذا السياق ما يذكره القشيرى عن صلته إبان كان مريداً لشيخه أبى على الدقاق : « لم أدخل على الأستاذ أبى على فى وقت بدايتى إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب

مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً منه أن أدخل عليـــه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز فى إبرة مثلا لعلى كنت لا أحس بها ثم إذا قعدت لواقعـــة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة لأنه كلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى • وغير مرة رأيت منه هذا عيانا • ولا أذكر أنى فى طول اختلافى إلى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض إلى أن خرج رحمة الله تعالى عليه من الدنيا »(٣٥) •

[وهكذا العارف يستقل أعقابَ(٠) الكافة مستحقراً لقـــدره(٠٠) ، مستقذراً لنفسه وفعله فى عاجلة وآجله] •

إذا كان (الجر) فى نحو الظاهر ينتج عن (الإضافة) ، فإن إضافة أى فضل هنا لنفسك هو دعوى وادعاء يرفضهما التصوف رفضاً تاماً ، لأن المطلوب كما قلنا وكما سنقول : التجرد من كل علائق النفس وكبح جماحهـــا حتى « تســـقط كل اليـــاءات » : لى وبى ومنى •• الـــخ و« إن ملاك المجاهدة فطم النفس عن مألوفاتها ، وحملها على خلاف هواها فى عموم الأوقات ، فإذا استحلت(٠٠٠) شراب الرعونة فضاقت إلا عن إظهار مناقبها ، والتزين لمن ينظر إليها ويلاحقها فمن الواجب (كسر) ذلك عليها ، وإحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها بحقارة قدرها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها فهى سفير الشيطان فى كيان الإنسان » •

وفى إحدى الوصايا يقول الشيخ للمريدين : « إذا خطر ببال المريد

---

(٣٥) الرسالة ص ١٤٧ •

(٠) بفتح الباء •

(٠٠) بفتح القاف وسكون الدال وكسر الراء •

(٠٠٠) بسكون الحاء •

أن له فى الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة أو على بسيط الأرض أحداً دونه لم يصح له فى الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ليحصل لنفسه قدراً ، وفرق بين من يريد الله تعالى ومن يريد جاه نفسه إما فى عاجله وإما فى آجله » .

على المريد إذاً ألا يفتعل لنفسه تقدماً أو تصوراً بل عليه أن يلازم التواضع والانكسار واتهام النفس .

عمل إبراهيم بن أدهم بعد أن طلق إمارة (بلخ) بستانياً بل حارساً لبستان ، وكان صاحب البستان يضربه على رأسه فكان يزيد فى انحناءة رأسه ويقول له : اضرب .. اضرب رأساً طالما عصى الله ! وترك الحارث المحاسبى ثلاثين ألف دينار ورثها عن أبيه ليحيا حياة الافتقار إلى الله والتوكل عليه(٣٦) .

فإذا تم « الافتقار إلى الله على هـذا ، وتم الصـبر فى الله على مقاساة الذل وضع الله على رأس الفقير قلنسوة العرفان »(٣٧) .

ذلكم أخيراً .. هو التجرد التام عن كل (إضافة) فى نحو القلوب.

رابعـا ــ الجــزم

[وأما جزم القلوب ، فالجزم القطع ، ويكون بحـذف العلائق ، والسون تحت جريان أحكام الحقيقـة من غير إخلال بشىء من آداب الشريعة] .

الجزم فى نحو الظاهر (قطع) الحركة عن الكلمة ، ثم جعل منـه

---

(٣٦) التعرف ص ١٧٥ .

(٣٧) اللطائف جـ ٢ ص ٥٦١ .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

ما كان (بحذف) حرف العلة أو نون الأفعال الخمسة • وهكذا يجمع الحذف بين حذف الحركة وحذف الحرف •

ويقول المازنى : « الجزم قطع الإعراب ، فمعنى جزم الفعل المستقبل قطع الإعراب عنه ، وذلك لأن الفعل المستقبل إنما يعرب إذا وقع موقع اسم ••• ، ولكنك إذا قلت : زيد لم يقم ، فقد وقع الفعل موقعاً لا يقع فيه الاسم فرجع إلى أصله وهو البناء »(٣٨) •

هذه المعانى فى نحو الظاهر واضحة والتنظير هنا فى نحو القلوب تمام الوضوح • فالقضية هنا — لحسن الحظ — **محصورة فى الفعل المضارع فقط** •

وهذا الفعل المضارع قوى •• أولا لأنه أقرب الأفعال إلى الاسم ، وثانياً لأنه سائح فى الزمنية ، فهو يعبر عن الحال والاستقبال فى صورته العادية — أى عند التجرد من النواصب والجوازم ، وهو أيضاً يعبر عن الزمن الماضى إذا دخلت عليه (لم) • فهو بكل هذه الأوصاف أفضل الأفعال للتعبير عن حالات العبد السالك المريد الزاهد العارف الواصل المتصل • والموقف هنا •• هو موقف (الجزم) • والشيخ لا يضيع وقتاً بل يدخل بنا مباشرة إلى القطع ، والحذف •• ثم إلى السكون •

ونتحدث عن (القطع والحذف) فى نحو القلب ، فهو قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق — وهذا هو تعريف معروف الكرخى (ت ٢٠٠) للتصوف ، وفى تقديرنا أن هذا التعريف المبنى على قضية القطع والحذف يجمع فى جوهره عدة تعريفات للتصوف كما اعتادت المصنفات أن تبسطها فى مقدماتها • فأنت تستطيع دون عناء كبير أن تعيد صياغة التعريفات التالية باستعمال لفظتى (القطع والحذف) •

---

(٣٨) الايضاح للزجاجى ٩٣ — ٩٤ •

يقول سهل بن عبد الله التسترى : « الصوفى من صفا من الكدر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر »(٣٩) .

ويقول أبو الحسين النورى (ت ٢٩٥) :

« الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا فى الصف الأول والدرجة العليا مع الحق ، فلما تركوا ما سوى الله صاروا لا مالكين ولا مملوكين » .

ويقول أيضاً :

« التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها » .

ويقول الجنيد (ت ٢٩٧) :

« التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى ، ومفارقة أخلاق الطبيعة ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة نزوات النفس » .

ويقول أيضاً :

« هو أن تكون مع الله بلا علاقة ، أى بلا علاقة دنيوية أوظلمانية» .

ويقول الجريرى :

« التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى» .

ويقول الشبلى : « الصوفى (منقطع) عن الخلق متصل بالحق » .

وهكذا **نتمثل الفعل المضارع** ونحن نرقب هذا العبد الذى يصفه عند تجرده من كل (العوامل) بأنه : لا يكدره شيء ويصفو به كل شى — يقصد الصوفى .وما هذا السكون هنا فى نحو القلب ؟

---

(٣٩) الرسالة (تعريفات التصوف) .

استمع إلى النورى : نعت الصوفى السكون عند العدم والإيثار عند الوجود (العدم والوجود معناهما هنا الفقر والغنى) .

ويعبر الشبلى بصدق مقنع عن هذا (السكون) فيقول :

« التصوف هو الجلوس مع الله بلاهم ، فالصوفى لا يتعبه طلب ولا يزعجه سبب » .

وهو — فى رأى الروزبارى — « الإناخــة على باب الحبيب وإن طرد عنه » ولكن .. لماذا يحترز الشيخ فى وصف هذا (السكون تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال بشىء من آداب الشريعة) كما جاء فى المتن ؟

هنا نستشعر من تحذير الشيخ ألا يحدث إخلال بآداب الشريعة عن طريق (السكون) وبكلمات أخرى نرانا ملتزمين بعرض قضية هامة من قضايا التصوف لها شــأن فى داخل بيئتهم وفى خارجها ، بل كثيراً ما امتد الحديث عنها طوال العصور .

فبداية .. إن من علامات الامتثال لطاعة الله ألا يخرج العبد قيد أنملة عما تريده الشريعة من الاحترام والاحتشام فلا تصدر عنه كلمــة أو كلمات فيها رائحة المروق والخروج عن الجادة ، ولا يصدر عنه فعل أو أفعال فيها تحيف — ولو ضئيل — على أدب من آداب الشريعة ، ففى الحالين يجب (السكون) عند الحدود الضامنة لحفظ القول والفعل فى نطاق المقبول فى شريعة الله ، ومن الظلم للتصوف والصوفية الخروج عن هذا (السكون) ... وكمثال على ذلك يطالعنا القشيرى فى مستهل رسالته بعض أوصاف أولئك المنحرفين [ادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو ، وليس لله عليهم فيمــا يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ،

. . . .

وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية .... فاستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وقلة المبالاة بتعاطى المخطورات](٤٠) .

معنى هذا أن الإمام القشيرى قد استفاد من فكرة (السكون) عند النحاة لكى (يتوقف) هؤلاء الأعداء الدخـــلاء عند حدودهم ، ونقوله للذين لا يحلو لهم عندما يشنون الحرب على التصـــوف وأهله إلا أن يلتقطوا هذه النماذج المريضة فيجعلوا من ضربهـــا له ولهم وقود هذه الحرب الزائفة ! .

ويتصل بذلك بطريق مباشر ما يعرف فى مجالس الصوفية بمجالس « السماع » حيث ينشد القوالون أشعاراً ومدائح ، ويتلى القرآن الكريم وتعلو الأصوات بالأذكار والأوراد .. الخ .

والصوفية بطباعهم ذوو رهافة فى الحس ، فكأنهم أشبه بعدسات مفتوحة فى جهاز للتصوير أو للصـــوت المسموع . وسرعان ما يصـــاب البعض بانقلاب نفسى أو تغير عضوى فيطرب ويهتز وقد يرقص ثم يبكى ثم يتشنج وأخيراً قد يزعق ويشهق ، ويرغى ويزبد .. وفى بعض الأحيان يقع مغشياً عليه وقد تذهب روحه فى نوبة من تلك النوبات ..

سمع سمنون المحب شيئاً فى مجلس السماع فأنشد :

إن كان يرجـــو ســـواك قلبى فكيفمـــا شـــئت فاختـــبرنى
فليس لى فى ســـــواك حـــظ لا نلت(٠) ســـؤلى ولا التمنى

وسريعاً ما أصابه على الفور احتباس البول ومرض(٤١) .

---

(٤٠) مفتتح « الرسالة » القشيرية .
(٠) بضم التاء .
(٤١) طبقات الصوفية ص ٤٥ نشر الشرباصى .

وهنا نجد كبار القوم يلزمون (السكون) لأن أقدامهم راسخة وأفئدتهم ثابتة مع أن فى أعمق أعماقهم جيشان لا يعلم مقداره إلا العليم الخبير .... المحبوب . ولقد سئل الجنيد عن سبب هذا (السكون) وعن قلة اضطرابه عند السماع فقال :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر(٠) السحاب »(٤٢) .

ويعلق السراج على ذلك قائلا : « ألا ترى أحدهم يكون (ساكناً) فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو أقوى منه (ساكناً) فى وجده لا يظهر منه شىء من ذلك » .

وفى رأينا أن المسألة كلها مسألة صدق وإخلاص ، وليست من قبيل الدعوى والادعاء ، فالرب سبحانه عليم بكل خلجة فى كل خلية من خلايا أبدان مخلوقاته ، فإذا علم المحب أن تعامله مع الخالق لا مع المخلوقين التزم حدوده التى (يقف) عندها دون زيادة أو نقصان .

ويرتبط بهذا كله ارتباطاً وثيقاً ما يعرف فى التصوف بظاهرة « الشطح » فالشطح يظهر فى النهر إذا زاد ماؤه عن حوض مجراه فيفيض على جانبيه والصوفى الواجد يمتلىء قلبه بحب مولاه امتلاء لا يتسع له الصدر ولا الحنايا .. فهل يفصح أو يكتم ؟

اختلف الصوفية ــ حتى أكابرهم ــ فى الإجابة عن هذا السؤال الذى يشبه المعادلة الصعبة .

والمحافظون منهم ــ خوفاً على شيوع الادعاء الكاذب كما أسلفنا ــ يعتبرون هذه الأشياء من قبيل الأسرار فيصرحون :

---

(٤٢) اللمع للسراج ص ١٢٨ .

(٠) بفتح الأول وتشديد الثانى .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

« أسرارنا بكر لا يفضها وهم(•) واهم » •

وينصحون « **لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستوراً منك** » • ويحذرون « الناس جميعاً ليسوا مؤتمنين على حفظ السر بدرجات متساوية ، وليس كل المؤتمنين على درجة واحدة من الفهم والوعى والإدراك ••• فالخير فى (السكون) وعدم الشطح » •

أما غير هؤلاء من الشيوخ فإنهم يرون أن هذا الحب الكبير أجل وأعظم من أن تتسع له طاقة البشر ، فالتعبير أو الافصاح نوع من الإقرار بالضعف البشرى أمام الطوفان الإلهى الجارف الذى يهدم كل السدود ••• فما حيلة العبد ؟

أما غير هؤلاء وأولئك فقد ذهب فى الموضوع إلى حد أبعد •• هو ستر الحب بادعاء الجنون ! فعرفت البلاد الإسلامية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى آحاداً من الناس كثيرة الجولان والتطواف ، لا يقر لهم قرار ، سائحين هائمين ، وسجلت لهم المصادر — أقوالا وأشعاراً وحكايات غاية فى الطرافة والجمال وغاية فى الدفء والروعة •

ومن الناس من رأى ستر ذلك بفعل ما يوجب الملامة •• وقد تحدثنا عنهم آنفاً حديثاً مقتضباً •

وفى النهاية •• فإن الشيخ قد وضع لنا مقياساً نضبط به كل ذلك وهو « **من غير إخلال بآداب الشريعة** » •

ولو رفع هذا الشعار لا نحسمت كل المواقف ، فذلكم هو المقياس الذى يتوجه — أو ينبغى أن يتوجه — به وفى ضوئه كل (سكون) وكل (حركة) •

« **ويكون جزم القلوب قطعها عن خطوات المنى(••) فإنى الأمانى**

(•) بفتح الأول وسكون الثانى •

(••) بضم الميم وفتح النون •

والمعانى متضادة ، فيقطع أعنــاق المطالبات والإرادات والاختيــارات بســيوف اليأس ، ثم ليســكن بالله لله مع الله ، فإن رجع إلى ابتغــاء الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة » •

يمكن أن نطلق على هذه الفقرة اصطلاح :

« جزئية من علم الفقه الصوفى » وهى النظرة إلى الرخصة •

فمن المعلوم أن التصوف مشتغل أساسا بالإرادة ، وأن هذه الإرادة تدخل فى امتحان بعد امتحان كى تنصقل وتتهذب حتى تصــبح جديدة بالذوب فى إرادة المولى ، بمعنى الخروج من علائق الدنيــا ، ومن كل المطالبات والاختيارات والمنى ، والترفع عن الأعراض والأغراض •• كل ذلك وسيلة وهذا العبد لتحقيق الهدف الأسمى والأسنى • وإن أى شغل يبتعد بالوسيلة عن الهدف هو التناقض المرفوض ، لأن معناه أن العبد مازال بنفسه ، وأن قلبه ليس فارغاً لله • وهنا يكون التضاد بين المبانى والمعانى ، ولا يمكن الجمع بين شقيقتين على حد تعبير على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى وصفه لمن يطلب الدنيا والآخرة فى آن واحد •

إن غاية الأمر هنا ألا يكون فى القلب إلا واحد — سبحانه • ذلكم هو الفرق بين المعرفة العقلية والعرفان القلبى ، فالمعرفة العقلية ربما كان من أسس بداياتها الثنائيــة فى التفكير فى معظم الأحيان فأنت حينمــا تتحدث عن « الصدق » مثلا تستحضر « الكذب » على الفور كى تميز الشىء عن ضده •• وهكذا ، أما هذه العلاقة الثنائية فى العرفان القلبى فهى موقوته بالمقامات • ولــكن عنــد الدخول فى الأحــوال : **الحب والفناء •• فالتوحيد** هام جداً ، ومن آيات اكتمال هــذا التوحيــد فى السلوك إبعاد كل غير(•) حتى لا يبقى إلا واحد •• وهذا الواحد سبحانه هو الذى يقوم فى عبده بكل التصريف وبكل أحكام القــدرة ، فالمريد

(•) بالتنوين .

فى الحقيقة من ليس له إرادة ! وعلامة ذلك بقاء العبد ساكناً بالله لله مع الله .

ولا نتوقع من عباد الله الذين اصطفاهم أن تكون نظرتهم إلى ممارسة الشريعة — التى هى للكافة — بنفس الدرجة وبنفس الرؤية وبنفس الجهود ، فالصلاة بعدها صلاة ، والصوم بعده صوم ، والنوافل تؤدى وزيادة .. بمعنى أن هناك ارتقاء وتشدداً .. أينما وكيفما وجد المرء إلى ذلك سبيلا .

فهل نتوقع منه أن يسترخص ، أو أن يجنح إلى الأسهل ؟

لنستمع إلى شيخنا وهو يجيب عن هذا التساؤل : —

« إذا أحكم المريد بينه وبين الله تعالى عقده فيجب أن يحصل من علم الشريعة — إما بالتحقيق وإما بالسؤال عن الأئمة — ما يؤدى به فرضه ، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء **يأخذ بالأحوط** ، ويقصد أبداً الخروج من الخلاف ، فإن الرخص فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل :

« إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى »(٤٣) .

بل إن الشيخ هنا — فى نحو القلوب الكبير — يعتبر هذا الفاسخ لهذا العقد مشركاً ومرتداً !!

ذلك فى نظرنا لأنه يعود إلى هواه ، ومعنى ذلك امتلاء القلب بغير الله ، وهذه الغيرية فى نظرهم هى الشرك بعينه . والتماسه التسهيل على نفسه عن طريق الرخصة — هى فى نظرهم — انتكاسة وارتداد عن

(٤٣) الرسالة ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

الاتجاه الذى اختاروه ، وسنوا له رياضات شاقة تفوق التدين العادى •

والعلاج •• هو (قطع) كل دبيب للأمانى من بداية الرحلة إلى منتهاها ، و (حذف كل علة) تصيب الإرادة الصاعدة المتنامية •

ونختتم هذا الموضوع بتتمة من (لطائف الإشارات) حتى نوضح أن هذه النقطة شغلت الشيخ عبر كل مصنفاته مما يدل على أهميتها فى مذاهبه يقول فى اللطائف : (•• ومن ذلك إرسال القلب فى أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة ، ومن ذلك الرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق ، ومن ذلك استشعار محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه ، **ومن ذلك الجنوح إلى الرخص** فى طريق الطلب بعد حمل النفس على ملازمة الأولى والأشق » •• كل ذلك عند الشيخ يأتى إشارة من قوله تعالى : **« ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها »** •

ولا ينسى الشيخ فى موضع آخر من « اللطائف » أن يعايش ويشجع الذى استرخص ذات مرة : فيأخذ بيده حتى لا يدفعه الإحباط إلى مزيد من التنازلات فيهمس فى أذنه قائلا فى سماحة « المربى الواعى » •• فبالجنوح إلى الاستعاذة والاستغفار يتلقى العبد التائب من ربه الاغتفار ، والعودة إلى التنصل تبيح التفضل ، وفى معناه قالوا :

اناس أعرضوا عنا ... بلا جرم ولا معنى
أساءوا ظنهم فينا ... فهلا أحسنوا الظنا
فإن كانوا لنا كنا(.) ... وإن عادوا لنا(...) عدنا
وإن كانوا قد استغنوا(..) ... فإنا عنهم أغنى

(.) بضم الكاف وتشديد النون .

(..) بسكون الواو .

(...) بضم العين .

فصل [٧]

وجـوه البنـــــاء

« وجوه البناء فى النحو أربعة : الضمة والفتحة والكسرة والسكون • والبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام •

فضم الأسرار صونها عن الأغيار ، وفتحة القلوب تنقيتهـا من الكروب بمفاتحات الغيوب ، وكسرة القلوب سجودها عند بغتة الشهود ومفاجآت الالتقاء ، وسكون البواطن سـكونها(٠) الى الحق بنعت الاستئناس على وصف الدوام فى عموم الأحوال » •

---

(٠) بضم النون •

. . . .

وضع الشيخ أيدينا فى هذه الفقرة عند تمامها على المنطقة التى يجدر أن تكون موضع اهتمامنا فى الدراسة ونعنى بها منطقة « الأحوال »

والأحوال — كما قلنا من قبل — هى هذه الثنائيات الوهبية التى تنثال على العبد من لدن الحق بعدما اجتاز منطقة « المقامات » أى الجهود الذاتية الكسبية فيصبح مستحقا للمكافآت على ما قام به • وأوضحنا فى مواضع سابقة أن أقرب الأشياء الى مفهوم المقامات هى « المعربات » فى نحو الظاهر : الاسم ، والفعل المضارع لأنها تتغير وتتلون ، وتزيد وتنقص •• الخ وبلغة الصوفية : المعربات فى مراحل التلوين • أما (المبنى) فهو أقرب إلى مراحل التمكين ، لأنه موقوف بأوامر الله ، وبالأحكام الخارجة عن أنيته حيث يصل الى حال السكون تحت مجارى القضاء آنساً راضياً بما يصار اليه بواسطة الإرادة الإلهية •• تماما كما يلازم (المبنى) شكلا واحداً لآخره لا يريم عنه • فهو فى يد القبضة لا يملك لنفسه فى نفسه شيئاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله والله ومن الله •

ونحن نعلم أن القلب بعد تصفيته من كدوراته إبان معركته مع النفس يصعد فى المعراج العرفانى إلى (الروح) وهذه بدورها تتصاعد إلى (السر) •

الروح موطن المحبة ، والسر محل المشاهدة — وليس لغير الحق عليه اطلاع غــ (ضم الأسرار صونها عن الأغيار) ذلك لأن الله سبحانه إذا رضى عن عبده حرس سره أن يسنح فيه خاطر غير ما يتفضل به الحق ، وأبعد عنه كل ما يعكر الصفو حتى يتم الصفاء فتكون المرآة مجلوة ومستعدة للمشاهدة والكشف • وهذه المشهودات المكشوفات تراها عين البصيرة شفيفة لطيفة •• فى حال (الجمع) حيث (تَضَم)(٠) الإرادة

---

(٠) بضم الأول وفتح الثانى •

الإنسانية لتذوب بالكلية فى الإرادة الإلهية وعندئذ لا يكون — على الحقيقة — متصرف ولا مريد سوى الله .

وتحدث عند هذا (الضم) (فتحة) و (كسرة) بفعل المشيئة الإلهية ، وعلى هذا يكون العبد أشبه باللفظ (المبنى) الذى لا حول له فى نفسه .

وأما **(فتحة القلوب بتنقيتها من الكروب بمفاتحات الغيوب)** (الفتحة) — كما ذكرنا — علامة الاستواء والراحة وهى هنا بتلك الفتوحات الإلهية التى يفتح الله بها على هذا العبد .

أجل .. فان هذا العبد الذى كان إبان الطلب (مضارعاً معرباً) يتلون ويتغير فإنه مازال ينمو ويتّصاعد(*) فوق الدرج الروحى أياماً وشهوراً وأعواماً يتقلب بين الوجد والفقد والرجاء والخوف ، والهيبة والأنس حتى يصبح (مراداً) يبسط الله لقلبه من الدقائق والرقائق ما لم يكن يخطرله بال..والنتيجة أن تنجاب كروبه،ويصفو مشربه،وتنطرح عنه كل هموم السوى(**) ، ويسعد بالسلام فى أعماقه . وتزداد عليه المنح والفتوحات كلما أقبل مقرباً(***) من هذا العالم اللانهائى الذى تسطع فى سماواته شمس الشموس !

وما أن تحل عليه **(بغتة الشهود ومفاجآت الالتقاء)** — إن كانت فيه بقية — إلا أن يخر ساجداً ، لأنه قد أصيب بالانحناء و (الانكسار) فى قلبه أمام مشهوداته . وهذه الحال الشريفة تصل فى أرقى صورها إلى ما أصاب رسولنا المصطفى صلوات الله عليه وسلامه ليلة إسرائه ، فمنه تعلمنا هذا الدرس فى (الانكسار) أمام الملأ الأعلى !

وسيظل (انكسار) القلب الإنسانى والبدن البشرى جوهر الاتصال

(*) بتشديد الصاد وفتحها .

(**) بتشديد السين . (***) بضم الميم .

المجيد بين الأرض والسماء ، بين الإنسان وعظمة العظمة •• إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها — فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد • وستظل رحلة روح الإنسان إلى غيب الغيوب باقية فى أصلاب هؤلاء الصفوة الممتازين من أتباع محمد •• فكلهم منه مقتبس ، وهم يتوارثون هذه القطفة النورانية فيظهر الله فى كل عصر **(آحاد)** يقتدى بهم فى الصلاح والورع •• هم غياث الأرض والناس والحياة •

تتمـــــــــة

« وفى المعرب والمبنى إشارات أخر •

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل ، والمبنى ما يكون على صيغة واحدة • وكذلك صفات العبد ، منها ما يقبل التغيير والتأثير : وهى ما كان مجموعاً بتصرفه(•) وتكلفه(••) ، ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهى موضوعات الحق — سبحانه فيه •• من أخلاقه • ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه ، وكذلك من أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه ، فمن شقى نفذ بالرد قضاؤه(•••) ، ولم ينفعه كده وعناؤه • ومن سعد مضى بالقبول حكمه فلم يخرجه عن محكوم السعادة جرمه » •

الواقع أن هذه الفقرة متصلة اتصالا وثيقا بموضوعات علم الكلام ، وقد جىء بها هنا لتوضح أموراً تؤرق بعض الناس فى البيئة العامة ، ومن الممكن أن يمتد أثرها إلى لفيف من المبتدئين والمريدين السالكين طريق التصوف فتشغل بالهم — ولو إلى حين •

وجد الشيخ المربى أن يلتمس الطريق إلى ذلك بوصفه متكلماً حتى

(•) بتشديد الراء وكسر الفاء .

(••) بتشديد اللام وكسر الفاء .

(•••) بضم الهمزة .

يصدح بدايات الإيمان لدى هذه الطائفة بحيث لا يبقى العقل فيما بعد موزعاً تتقسمه سوانح مشتتة ، الأمر الذى قد يعوق المسيرة .

يؤمن القشيرى بحرية الإنسان وبإرادته فى التصرف لأن الحساب فى الآخرة يرتبط بذلك ، ذلكم هو (المعرب) من (الأسماء) و (الأفعال) فى عمر الإنسان على هذه الأرض ، وتحدث له التغيرات بحسب (العوامل) التى تطرأ على قلبه .. هذا شيء .

والشيء الثانى — وهنا يعود القشيرى المتكلم إلى أشعريته التى لا تعرف حـرية الإنسان المطلقة فى التصرف على نحو ما يراها أهل الاعتزال — فيصرح أن هذه الحرية مرتبطة بأصول تنبغى معرفتها ، وهى أن الإنسان ليس فاعلا ثانياً فى الكون وإلا تعدد الفاعلين ، فالفاعل على الحقيقة هو الله وحده ، والله سبحانه بوصفه (العليم) قدخطط فى سابق الأزل لكل امرىء حظه ومساره الذى سيسلكه فى كل ثانية من عمره مما طال هذا العمر أو قصر ، وتلك هى (أقسام) قسمت(٠) ، وأرزاق وضعت و (مبان) شيدت ، لا قبل للعبد أن ينصرف عنها أو يحيد لأنها(لا تقبل التحويل والتبديل)ذلك لأن الملك ملكه وللمالك والملك(٠٠) أن يفعل فى ملكه ما يشاء ، **وأحـكامه فيه لا تخضع لعلة** ، ولا يمكن لعقولنا القاصرة أن تحيط بتعليل لكل حكم إلهى .. وبالتالى فهو لا يسأل عما يفعل .. فهو « يضل من يشاء ويهدى من يشاء » ولهذا : « فمن شقى نفذ بالرد قضاؤه ولم ينفعه كده وعناؤه ، ومن سعد مضى بالقبول حكمه فلم يخرجه عن محكوم السعادة جرمه » .

وقد تسبب لنا هذه النقطة بعض الحيرة لبعض الوقت لأننا قد جرينا على أن نتوقع المكافأة حينما نصنع الجميل والنافع لغيرنا فى علاقاتنا

(٠) بضم القاف وكسر السين .
(٠٠) بفتح الميم وكسر اللام .

العادية ، ولكن هنا يطرح سؤال نفسه : هل طاعة العبد تلحق الإله زيناً(...) ، وهل معصيته تلحقه شيناً ؟

لا هذا ولا ذاك ..

ثم .. هل يصح من الناحية الأخلاقية أن نستخدم لفظ (يجب) على الله أن يثيب المطيع وأن يعاقب العاصى ؟ . من ذا الذى (يوجب) على الله ؟ أنا أو أنت أم الناس جميعاً . .كل ذلك مرفوض شكلا وموضوعاً لأنه عندئذ لن يكون إلهاً . حاشا لله .. الحق أنه (لا يسأل عما يفعل) و (هم يسألون) .

إن حرية الإنسان تبقى مكفولة .. ولكن فى داخل دائرة من القيود

« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض .. فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

وعمل الإنسان وجده واجتهاده ، وكده وعناؤه .. كل أولئك مطلوب ومأمور به . ولكن إذا لم يرتبط ذلك كله بالشعور الجارف المقتنع أولا بفضل الله ، وأن هذا الفضل هو كل المأمول من عمل الإنسان ، وبدون هذا الفضل لا يتحقق شيئاً حتى لو ملأ العبد حياته بالأعمال الصالحة مقدار ماء البحر . ولو تسرب دبيب خفى إلى القلب يوهم بأن الإنسان قد بلغ بعمله وحده شأوا يستحق عليه الشكر .. فقد انهار كل شيء .

واذاً فإن (الحسنات لا تغير الأقسام من الشقاوة والسعادة)[1].

والخلاصة : أننا نظلم أنفسنا إذا قسنا العلاقة بين العبد والرب على

(...) بفتح الأول وسكون الثانى .

(١) الرسالة ص ١٤٨ .

العلاقة بين العبد والعبد ، لأنه حتى العمل الخير الذى ينهض به العبد ما كان يمكن أن يتم لولا توفيق الله وتسديده **(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)**(٠) أى كان منك الرمى ولكن كان منا تسديد الإصابة .. التى هى جدوى الفعل وجوهر العمل .. إن فضل الله — فى الواقع — وسيلة بمقدار ما هو غاية ، وذلك هو الفرق الكبير بين علاقتنا بالله وعلاقتنا مع أنفسنا ، ومن الخطأ إجراء المقايسة بين العلاقتين .. وإلا وقعنا فى خطأ جسيم .

استمع إلى سيد الأنام وهو يقول فيما روى عنه صلوات الله عليه :

« ما منكم من أحد ينجيه عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ولا أنا .. إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

وهو — صلوات الله عليه — قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومع ذلك يقول : « لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم » ولو كان جائزا له أن يقول فى وصف نفسه ما نعلم لقال : أعلم أنى رسول الله ، وأنى معصوم ، وأن ربى أدبنى فأحسن تأديبى ، وأن خلقى القرآن ، وأن .. وأن .. وهو لا محالة يغفر لى ، ولكنه قال :

وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ليعلم أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ، وله أن يفعل بعباده ما يريد .

واذا كان القشيرى يعالج الموضوع هنا فى حسم قاطع فى ضوء (أشعريته) فهو فى موضع آخر فى لطائف الإشارات يعرضها فى سماحة (صوفيته) فيفتح أبواب الآمال على مصاريعها ، ويجذب القلوب والعقول إلى الرحب والسعة ، استمع إليه وهو يستخرج الإشارة من قوله تعالى : **« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم »** : هذه الآية توجب حسن الرجاء وقوة الأمل لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبة شيئين اثنين : الشكر والإيمان وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان ، فالشكر

(٠) بفتح الميم .

قائة والإيمان حالة فهون(*) بهما السبيل على العبد كى يصل إلى مرفأ النجاة •

ويقول عند قوله تعالى : **« فسأكتبها للذين يتقون »** •

الجنـــة للأتقياء من هذه الأمة معدة لهم ، والرحمة للعصاة من المسلمين مدخرة لهم • الجنة لطف من الله تعالى ، والرحمـــة وصف لله تعالى ، الجنة اذا كانت فى عرض السموات والأرض فالرحمة أكبر لأنها وسعت كل شىء •

على أن هذا الموضوع برمته سيظل بوجهه فى ثنايا الكتاب مرات كثيرة إحساساً من المصنف بأنه يشغل البال من حين إلى حين •

« ومن أقسام البناء ما بنى على الكسر ، فصاحبه أبداً مكسور لا ينجبر كسره ، ولا يتغير فقره ، ولا يزول ضره ، ولا يصلح قط أمره • صباحه بلاء ، ورواحه شـــقاء • وجده منكوس وحظه ، منجوس ونجمه منحوس وقصده معكوس • إن ورد نهراً غيض ماؤه ، وإن وجد دراً قرب فقده » •

نذكر هنا مما سبق أن شرحناه فى موضوع البناء ، وكيف أنه فى نحو الظاهر يراد به وضع الشىء على جهة يراد بها الثبوت واللزوم ، وعلامة ذلك المعنى ثبات آخر الكلمة على حال واحدة لا تتغير ، فكأنها أصل وملازمة للأصل •

ويقول أهل اللغة : إنه سماع عن العرب منذ نطقوا به • وبرؤية صوفية هذا حظه ونصيبه فى الوجود ، وهذه (القسمة) له بدورها ذات (أقسام):مبنى على الكسر أو على الفتح أو على الضم أو على السكون•

وهذا هو صنيع الشيخ : الربط بين المبنيات وبين الأحكام السابقة فى المشيئة الإلهية منذ الأزل •

(*) بتشديد الواو وفتحها •

. . . .

وبدأ بالمبنى على الكسر ، فاضطلعت ببسط حاله فقرة تعبر عن ذلك المسكين المردود المرفوض ، فهو مستبعد من دائرة القبول ، مشئوم فى بدايته ونهايته ، خسر الدنيا والآخرة ..

لقد علم(•) من الأزل أنه سيكون من أتباع الهوى والشيطان ، وكما أن إبليس اللعين سيظل ملعونا إلى الأبد فقد وقعت اللعنة على أتباعه إلى يوم البعث وغير خاف أن وضع آدم عليه السلام مختلف تماماً،لأنه حينما تاب وصلحت توبته اجتباه ربه وقبله .. وكذلك أبناء آدم الذين يتوبون يقبل الله توبتهم ..

وهكذا اتضح الفرق بين من هو من النار • فينطفىء إذا وقع الماء عليه ، وبين من هو من الطين الذى ينجبر كسره إذا نزل عليه ماء العناية — وهكذا تسقط الحجة التى تذرع(••) بها اللعين عند لجاجه رفضه الأمر بالسجود •

ليس أدق — نحوياً — من وضع هذا المسكين الملعون فى إطار (المبنى على الكسر) فهذا الوضع الماثل سيستمر لاحقاًفيتجمد ويتداعى حتى يهوى كما هو فى قرار سحيق ! ولن تفيده أنوار الهداية أو تقبل عثرته ، فالنور عنده والظلام سيان ... هكذا **(قسمه) و (قسمته)** •

وما انتفاع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم(•••)

« ومن ذلك ما بنى على الفتح ، فصاحبه لا يزول نعيمه(••••) ، ولا يبرح من الخير مقيمه ، ويسطع من البعد نسيمه ، ويسعد على القرب نديمه ، لا يتكدر بغيبته مشربه ، ولا يتغير — بطول حجبته — مذهبه •

الصدر له فارغ وإن أبطأ حضوره • الشمس ظلام عند تلألىء نوره، والبدر يخجل لفجأة ظهوره » •

(•) بضم العين وكسر اللام •

(••) بتشديد الراء •

(•••) بضم الظاء وفتح اللام •

(••••) بضم الميم •

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

هذه الفقرة تحتاج منا إلى وقفة أطول •• فهنا مناط الأمل فى رحلة العرفان •

وبصفة إجمالية نقول إنها مختصة بمن هو مغمور فى أنوار الأحدية بالكشوفات • ولكى نقدر هذه الأنوار حق قدرها ــ نتابعها من بداية أمرها خلال معظم مصنفات شيخنا حتى نكتشف رؤيته فى نظرية المعرفة وسعادة العارفين •

العقل عنده هو أساس البداية ومهمته تصحيح الإيمان بكل الوسائل المتاحة من علوم الظاهر ، وكل ما فى حوزة العقل من الأدلة والبراهين •• وهو قبل الالتحاق بعلوم التصوف يناط به الخوض فى رحلة المعرفة ، أما هنا عند الصوفية فوظيفته فى مرحلة البداية فقط ، ثم يحجم(*) وضعه فيما تلا ذلك من مراحل الصعود ، بمعنى أنهم ــ أى الصوفية ــ لا ينكرون دوره ولكنهم يضعونه فى حجم لا يزيد عنه ، لأنه لس جديرا بالاستمرار فى المراحل اللاحقة الصاعدة •• لماذا ؟

لأن العقل بطبيعة وظيفته يعتمد كثيراً على الحس والحواس ، على حين أن الموضوع الذى نحن بصدده كله غيب فى غيب •

المنهج العقلى يبدأ من المشاهد الى الغائب ، والمنهج العرفانى لا غائب هنا أو هناك فهو مشهود وحاضر عند القوم •

العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله •

العقل آلة العبودية وليس للإشراف على الربوبية •

العقل يعتمد على الفروض والتجويزات والاحتمالات والموضوع الذى نحن بصدده هو اليقين •• كل اليقين •• إنه عين اليقين •

(*) بضم الأول وتشديد الثالث وفتحه .

العقل قد يصاب بالتقليد أو بالتأويل المغرض للمنفعة • وهذه من أسباب الحيرة والضلال •

وهكذا فإن طبيعة العقل ووظيفته لا تسمحان له بالخوض فى وسط مخالف لطبيعته ووظيفته •• فأنّى(٠) للسفينة أن تمخر فوق اليابسة ! وأنى(٠) للحصان أن يركض فوق الماء ! كما سبق القول •

إن الإنسان بعقله وحده لا يستطيع أن يدرك كل شىء عن كيانه فأنى له أن يدرك الملكوت الأعلى •• أو كما يقول أبو عبد الله الجـلاء (ت ٣٠٦) :

كيفية المـرء ليس المـرء يدركها فكيف كيفية الجبار فى القدم(٢)
هو الذى أحـدث الأشياء مبتدعا فكيف يدركه مستحدث النسـم

وينتهى المتصوفة إلى أن العقل فى حساب الأنوار يشبه الشمعة ، والشمعة لا قيمة لها إذا استضاء المصباح والمصباح لا قيمة له عندما يطلع النجم ، والنجم لا فائدة منه إذا هل القمر ، والقمر لا جدوى منه إذا طلعت الشمس و **(الشمس ظلام عند تلألىء)** شمس شموس التوحيد •

وهذه الشمس العظمى لا تظهر للعبد طفرة واحدة بل تسبقها لوائح وطوالع ولوامع •• يوضحها الشيخ بقوله :

« هذه ألفاظ متقاربة المعنى ، وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب •

إذا أظلمت سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنح لهم فيها لوائح

---

(٢) شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٤٩ لابن العماد الحنبلى .
(مكتبة القدسى ١٣٥٠ هـ) .
(٠) بتشديد النون وفتحها .

. . . .

الكشف وتلألأت لوامع القرب .. فهم فى زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح كما قال قائلهم :

يأيها البرق الذى يلمح   من أى أكناف السما تسطع

فتكون أولا لوائح ثم لوامع ثم طوالع .

اللوائح كالبروق ما تظهر حتى تختفى ، واللوامع أظهر منها وليس زوالها بتلك السرعة ، والطوالع أبقى وقتا وأقوى سلطانا وأنفى للتهمة لكنها موقوفة على خطر الأفول ، وأحوال أفولها طويلة الأذيال .

ومن ذلك أيضا (البواده والهجوم) ، فالبواده ما (يفجأ) قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، إما موجب فرح أو موجب ترح . والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك ، ويختلف فى الأنواع حسب قوة الوارد وضعفه . فمنهم من تغيره البواده وتصرف الهواجم .

(ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة أولئك سادات الوقت)

وقيل :

لا تهتدى نوب(٠) الزمان إليهم   ولهم على الخطب(٠٠) الجليل لجام(٣)

وتتم المشاهدة إذا صحت سماء السر عن غيوم الستر ، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف ، ، وتتالى أنوار التجلى على القلب من غير أن يتخللها ستر أو انقطاع :

---

(٠) بضم الأول وفتح الثانى .

(٠٠) بفتح الخاء وسكون الطاء .

(٣) الرسالة ص ٤٣ و ٤٤ .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

ليـالى بوجهـك مشرق وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

وينهى الشيخ الفقرة المتصلة بظاهرة البناء على (الفتح) فى نحو الظاهر ، وأنها تناظر (الفتوحات الإلهية) فى نحو الباطن ، وكيف يعيش العارفون فى سعادة لا مثيل لها ، سعادة تغمرهم وتمتد إلى كل من يتصل بهم ، فالعارف سيد وقته ، بعيد عن كل ما ينغص عليه حياته ، لأنه بعيد عن كل (العوامل) التى تقلق (راحته وأنسه) •

« ومن ذلك ما بنى على الضم وصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار ، غير معاتب على اختلاف الأطوار ، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار » •

إذا كان الضم فى المعرب — كما قلنا من قبل — هو أثقل الحركات ، فما بالك بمن يلازم الضم مدى عمره بسبب (البناء) عليه ؟ وحتى إذا غابت الضمة فإن شيئاً ما ينوب عنها ويقوم مقامها (كما فى حالة المنادى العلم المفرد الذى يكون مثنى أو جمع مذكر سالم) •

وهنا فى نحو القلوب اختار الشيخ لمن يمثل هذه الحالة ذلك المحب المأخوذ المصطلم الذى ذابت إرادته فى إرادة مولاه تماماً ، ولم تعد منه بقية ولا تكلف ولا اختيار ، فهو متمكن غير متلون (المتلون هو المعرب) تجرى من حوله الدنيا صاعدة هابطة ولا شأن له بها ، وتقع عليه الأحوال من وصل ومن فصل ، وقرب وبعد ، وبسط وقبض ، وفرق وجمع •• وهو هو •• لا يبدو عليه شىء ولا يبدر منه شىء ، لأن قوة الواردات عليه لا تدع له — مهما اختلفت الأطوار — أية فرصة للآثار ، ثابت كالجبل الأشم ، « لقد وصل فاتصل ، وأمارة أنه اتصل أنه عن نفسه بالكلية أنه عن كليته بطل :

• • • • • • • • • • • • • • • • •

مازلت أنــزل فى ودادك منزلا
تتحــير(•) الألباب دون نزوله

هذا منزل اختير له وأحل(••) فيه ، ولم يعد يملك عنه فكاكا •• **إنه حالة توحيد** ، فالتوحيد هنا (ضم) لا تفــرقة فيــه إنه حــال (جمع الجمع) • وتوضحها رسالة القشيرى :

« من أثبت نفسه وأثبت الخلق(•••) ولكن شاهد الكل قائماً بالحق فهذا جمع ، وإذ كان مختطفاً عن شهود الخلق ، مصطلماً عن نفسه ، مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكل غير بما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة فذاك جمع الجمع »(٤) •

« فالعتب عنه مرفوع ، والعذر عنه موضوع ، فلا له عقل فيلزمه تكليف ، ولا له أو منه — فى الشرع — فعل فيتوجه عليه تعنيف » •

هؤلاء بأسر(••••) القدرة ، مشكل بين الورى حديثهم ، ملتبس — على الكافة — أمرهم » •

مرة أخرى مازال الحديث يستطرد حول (المبنى على الضم) ، هذا الذى هو بأسر القدرة •• ما حيلته — وقد فقد كل حيلة ؟ ما مسئوليته وقد تلاشت إرادته ؟ ماذا ينتظر منه وعقله غائب وذائب فيما يشهد من الأنوار الغالبة عليه ؟

إنها حقاً المعادلة الصعبة !

---

(٤) الرسالة ص ٣٩ •
(•) بتشديد الياء وفتحها •
(••) بضم الهمزة وكسر الحاء •
(•••) بسكون اللام •
(••••) بسكون السين •

. . . .

ومن أمثلتها العملية ما حدث للشيخ أبى الخير الأقطع (ت سنة نيف وأربعين وثلثمائة) حينما وقع مريضاً وقد أصابت ساقه (غرغرينا) ، ورأى الطبيب ضرورة قطعها فوراً ، فأشار تلاميذه عليه أن يقوم بذلك عندما يكون شيخهم فى حال المحو ، وتمت العملية الجراحية دون أن تظهر على المريض العظيم دلائل الجزع أو تصدر عنه آهة التوجع .

وقد نبهنا القشيرى إلى هذه المعادلة الصعبة بعبـــاراته الدقيقة (مشكل بين الورى حديثهم)(٠) .

هذا عبد بدأ كمن يسير بجوار البحر ثم سبح فى البحر ثم غرق فى البحر ، وهو فى هذه الحالة الأخيرة فى كنف الرحمة الإلهية ، لا يملك لنفسه شيئاً ، وهو غائب فيما يشهد من التجليات ، وهو فى ذات الوقت لم يفقد وسيلته التعبيرية الإنسانية المعروفة .. (اللسان) ، فما الأمر فى خروج أشياء عن هذا العبد لتجرى على اللسان قسراً ودون إرادة ، وطبعى أن هذا الذى سيجرى على اللسان سيكون صـــادراً عن وجود يختلف عن الوجود العادى : وجود (الورى) و (الكافة) .. وليس الأمر أمر تعبيرات جارفة قد تكون مخالفة بل ربما صدرت عنه أيضاً وهو فى هذه الحال تصرفات وسلوكيات على نفس القدر من الغرابة .. أرأيت إلى العبد الصالح المرافق لموسى عليه السلام فى سورة الكهف : من خرق للسفينة ، وإقامة لذلك الجدار المنقض ، وقتل للغلام ! . تلك أفعال بدت لموسى — مع جلال قدره — غير مقبولة ، لأنها لا تستقيم مع المنطق الظاهرى .. حتى جاء الوقت الذى عرف فيه موسى علل هذا كله حسب منطق آخر .. بعيد عن عالم الظواهر والمظاهر .

وأحاديثهم هذا كما وصفها الشيخ (مشكلة) و (ملتبسة) — على الناس العاديين . هذا حق .. وهو ما يعرف « بالشطح » ومع أننا قد سبق أن تناولنا ذلك فى مواضع مختلفة إلا أننا مضطرون هنا إلى مزيد

---

(٠) بضم الثاء .

. . . .

من الضوء على المسألة ، ونكتفى بما أورده السراج فى « اللمع » تعريفا لهذا الشطح :

« إنه كلام ظاهره مستشنع وباطنه سليم » .

وهو تعبير عن أزمة يمر بها الوالهون ، لأنهم فى لقاء من نوع فريد ، الحق والخلق (٠) . واللغة لم تحسب حساب هذا الموقف ، ولم تضع له مفرداته وتراكيبه ، والعبد بشر لم ينسلخ عن بشرتيه مهما قيل فى وصفه فالمتوقع أن تصدر عنه كلمات مبهمة بلا قصد ، وربما مسرفة بلا عمد .. ولكنها فى عرف أهل الجواهر متناغمة ومنسجمة مع الباطن المحتدم !

تلك مسألة تقتضى فهماً للموقف وتذوقاً للتعبير وحسن نية فى التماس المعاذير .

وقل فى الناس من هو مستعد لكل ذلك حيال هؤلاء الذاهبين . وهذا بالضبط ما حدا الصوفية إلى اتخاذ بعض المواقف الإجرائية ، فنادوا بأنهم من الخواص ، ونادوا بأن أسرارهم بكر ، ونادوا بأن الدخلاء يفسدون عليهم خلواتهم .. وأخيراً حاولوا وضع تفاسير وشروح لألفاظهم .. التى ليست شيئاً آخر غير ألفاظ اللغة العادية ولكنها حين جلبت إلى بيئتهم ، ووصفوا بها أحوالهم حملت من الشحنات النفسية ما جعلها ذات دلالات جديدة يفقهها أوساطهم ، شأن أى بيئة ذات نشاط خاص ولغة خاصة ... فهل فى هذا ضير !! ؟ أليس من المحزن أن يلقى الصوفية فى بعض العصور مصارعهم حينما يكون أحدهم فى حال **(المبنى على الضم) !**

ومن الأمثلة العملية على ذلك الحسين بن منصور الحلاج الذى ما كان إلا والها مأخوذاً عند هذه الحال فاقتادوه إلى المقصلة المنصوبة له فى بغداد عام ٣٠٩ ومضى نحو المقصلة يغنى :

---

(٠) بسكون اللام .

. . . .

اقتـــلونى يا ثقـــاتى   إن فى قتلى حيـــاتى

وقبل أن يقتلوه راحوا يسألون الشبلى — أحد كبار الطائفة — فى أمره فأجاب فى شجاعة : أنا وابن منصور شىء واحد ولكنه أظهر وأنا كتمت !

ولو أعـــدنا صياغة عبـــارة الشـــبلى (**بلغة نحو القلوب**) لقلنا : أنا وابن منصـــور كلانا (مبنى على الضـــم) وأن الحلاج قد حول (**المبنى إلى معرب**) حين تجـــرأ و (**أعرب**) عن حاله ، وتلك إحدى نهايات (المشكل) (الملتبس) كما تصورها الشيخ •

* * *

ويختتم الشيخ موضوع (البناء) قائلا :

« ومن ذلك ما بنى على السكون فصاحبه على مكانه موقوف ، ومن قصوره مصروف ، لا يغنى عن جِده(٠)، ولا يسعده جَده(٠٠)، يطول به الزمان وتتوالى عليه الحدثان وهو من أول حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص ، ولا يخرج إلى صورة الانتقاص » •

هنا — فى هذه الفقرة — يعرض القشـــيرى لذلك **المبتـــدىء** الذى فكر فى التخلى عن العادة والدخول فى طريق العبادة تحت تأثير دوافع معينة وبذل فى ذلك بعض الجهد والوقت •• ولكنه سرعان ما تردد ثم توقف وأخيراً انتكس ، وعاد إلى المحاولة من جديد مرة بعد مرة ، ولكنه فى نهاية الأمر لم يفلح فى شىء •

وهكذا (وقف) فى مكانه لا يريم • فانصرف أو صرف عن القصد

---

(٠) بكسر الجيم •
(٠٠) بفتح الجيم •

. . . .

بعدما استبان له أخيراً أن اجتهاده من النوع الذى لا جدوى منـه (فما أغناه جِده(٠) ، وما أسعده جَده(٠٠)) •

والإشارة فى الفقرة إلى (عدم تجاوزه سورة الإخلاص) دقيقة جداً ، فهى من ناحية تدل على أنه لم يجاوز قصار السور أى كان عند حـدود البداية فقط ، وهى من ناحية ثانية تشـير إلى أنه مع كل ما حدث له من انتكاس إلا أنه مازال يؤمن بالأحدية • إيماناً يبعده عن الخب فى تيار التوهم والتصور ، ولم يقع فيما يقع فيه آخرون من جدل فارغ حول الكيفية بصورة توشك أن توقع فى التشبيه ، وظل إيمانه لا يتزعزع بأن :

« قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفواً أحد » تعالى الله عن الأضداد ، والأنداد ، ليس كمثله شيء •

وكل ما يصـوره الوهم فالله بخلاف ذلك •• سـبحان الله •

❊❊ هذا هو فى تقديرنا ما أراد الشيخ أن يوضحه وأن يحدده ، من واقع تجربته الذاتية ، وتمرسه بالطريقة وأهلها ، واكتشافه عن كثب لبعض عناصر المبتدئين ، كيف يقتمحون ويتحمسون •• ثم يخمـدون وينصرفون •

فأراد أن يشخص هنا هذا الموقف وكيف أنه (وقفة على السكون) وجمود فى الخطوات الأولى على الدرب •

ولكن ماذا يعنيه ويعنينا ودن هذه المحاولات الفجة التى لا تفيض استمراراً على الدرج العرفانى ؟

(٠) بكسر الجيم •
(٠٠) بفتح الجيم •

الإجابة •• إن الشيخ لم ينوه بذلك عبثاً وإنما هو هادف إلى مرام بعيدة نستبطنها على النحو التالى :

١ — يريد أن يميز بين هذا الموصوف (بالبناء على السكون) وبين من(٠) لازم (البناء على الكسر) الذى استهل به موضوع البناء وأخرجه حتى من زمرة المهتدين وألحقه بإخوان الشياطين •

٢ — يريد أن يفضح بعض المبتدئين الذين يدخلون الطريقة غير جادين ، فيشيعون بين الأصحاب الكثيرمن الأباطيل التىقد توهن العزائم فيكونون عبئاً على القوم •• فمن الخير اجتثاثهم قبل أن يستفحل وباؤهم •

٣ — أن الجهد الإنسانى إذا لم يكن مصحوبا بالفضل ، والاختيار الإلهى لا يأتى منــه شىء مهما تكررت المحاولات (ومهما طال الزمان وتوالت الحدثان) •

٤ — إنه يريد أن يقول للكافة من المتدينين أن هذا الطريق خاص ، وليس بالضرورة أن يكون كل الناس فى كل الأزمان كلهم من الصوفية •• فكل ميسر لما خلق له •

٥ — أنه يوجه — بطريق غير مباشر — نصيحة إلى الشيوخ وكيفية تعاملهم مع المبتــدئين ، وفرز آحادهم بعين دقيقة فاحصــة • فمرحلة البداية خطرة •• لأنها انتقال من العادة إلى العبادة ، من الخلق(٠٠) إلى الحق ، فهى مليئة بالارتباطات والجواذب والصراع •• وكل ذلك فى حاجة إلى يقظة الشيوخ ، وواجبهم ألا يتركوا الأمور تجرى على سجيتها حتى لا تختلط الأمور •

ونسوق هنا بعض هذه النصائح التى توخى الشيخ أن يهمس بها

---

(٠) بفتح الميم .   (٠٠) بفتح الخاء .

. . . .

فى آذان الشيوخ فى مثل هذه الأحوال ، وأن يقرع ناقوس الخطر أمام المريدين :

« إذا مال المريد فى البداية إلى (وقفة) فعلى الشيخ أن يجربه عن طريق تلقينه ذكراً من الأذكار حسبما يراه ملائماً له ، ويأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ثم يأمره أن يسوى قلبه مع لسانه ، ثم يقول له : اثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبداً بقلبك ، ولا يجرى على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك ، ثم يأمره أن يكون أبداً فى الظاهر على الطهارة ، وألا يكون نومه إلا غلبة ، وأن يقلل من غذائه على التدريج شيئاً بعد شىء حتى يقوى على ذلك . ولا يأمره أن يترك عادته بمرة فإن فى الخبر « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة ، ويجعل اجتهاده فى هذه الحالة لا محالة فى نفى الخواطر الدنية والهواجس الشاغلة للقلب ..... وعلى المريد أن يلازم موضع إرادته ، وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق ، فقبل الوصول بالقلب إلى الرب فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل .

وعلى المريد أن يكون سبيله احترام الشيوخ والخدمة للأصحاب ، وترك الخلاف عليهم ، والجهد ألا يستوحش منه قلب شيخ .

ويجب أن يكون المريد فى صحبة الفقراء أبداً خصماً مضاداً لنفسه ونزوعه ، وأن يرى لكل واحد منهم قدراً ولا يرى لنفسه واجباً على أحد »(٥) .

بهذه التربية الواعية يظهر معدن المبتدىء إبان فترة الانتقال ، فإن استجاب زيدت عليه مقادير من الرياضات والتوجيهات تؤدى به إلى مرحلة أرقى .. وإلا فهو **(موقوف عند السكون)** كما نصت الفقرة ،

---

(٥) الصفحات الأخيرة من الرسالة .

. . . .

وكان من الخير إبعاده نهائياً من زمرة القوم ، لأنه سيكون عظمة في الحلقوم ، ونغماً نشازاً وسط هذا الإيقاع الهادئ .. وسينعكس هذا بدوره على المريدين النشيطين الذين يترسمون الطاعة للشيخ ، والانضباط في الطريق .

ويختتم الشيخ هذا الباب الكبير « باب الإعراب والبناء » بهذه العبارة :

« كذلك الأحكام : مختلفة الأقسام والأقدار ، متفاوتة الأدوار » .

أى كما اختلفت أقسام الكلام إلى اسم وفعل وحرف فى (نحو اللسان) وكما نال كل نصيبه من التأثير والتأثر ، وكما انطبع آخر كل منها بخاتم خاص يمنحه الثبات (فى البناء) أو التغير فى (الإعراب) .

وكما تفاوتت الأدوار التى يؤديها كل فرد منها فى تحقيق الإبانة عن غرض المتكلم من أجل تحقيق الفائدة .

وكما أن أى قصور أو نقص فى جزئية من الكلام تحول دون الفائدة المرجوة ..

فكذلك فى **(نطق القلب)** وفى كل منطقة يكون النظير فى علم الباطن حيث نطالع نفس الأحكام والأقسام والأقدار والأدوار .. فليعلم كل(٠) موقعه ودوره فى القصة بكاملها .

ولله وبالله الأمر فى كل الأحوال .

* * *

هـذا ..

وتبقى فى الإعراب والبناء ملاحظات أخرى تذكر فى أماكنها من الأبواب التالية ، تستكمل بشروحها .. وبالله التوفيق .

---

(٠) بالتنوين .

فصل [٨]

المعرفة والنكرة

« الأسماء على ضربين اسم معرفة واسم نكرة .

وفى الإشارة : الخلق كذلك فمن صاحب (.) معرفة ، ومن صاحب نكرة .. ولكل حد(..) ووصف .

فالاسم النكرة يصير معرفة ولا رتبة فوق أن صار معرفة ، كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان .

قال المشايخ : ما رجع(...) من رجع إلا من الطريق أما من وصل فمارجع » .

(.) بالكسر مع التنوين .

(..) بتشديد الدال مع التنوين .

(...) بفتح الميم .

النكرة — فى الظاهر — ما عبر عن شىء شائع فى جنس • وليست دالة على محدد أو معين مثل رجل وفرس ، والمعــرفة ما دلت على معين محدد مثل : الرجل والفرس •

يقول ابن مالك فى علامات النكرة والمعرفة :

نـــــكرة قابل (ال) مؤثرا   أو واقع موقع ما قد ذكـــــرا
وغيره معـــــرفة كهم وذى   وهند وابنى والغلام والـــذى

أى أن علامات النكرة أن تقبل (ال) أو تقع موقع ما يقبلها ، فالأول كرجل ، والثانى ذو بمعنى صاحب — وهذه تقبلها فتقول : الصاحب •

وتكتسب النكرة التعريف أيضاً إذا أضيفت إلى معرفة وهى حسب قول ابن مالك : الضمير ، واسم الإشارة والعلم والموصول والمحلى بأل •

« ولام التعريف إذا دخلت على النكرة المنون حذفت تنوينه ، وذلك لأن اللام للتعريف ، والتنوين من دلائل التنكير فلما ترادفا على الكلمة تضادا فكان الحكم لطارئهما وهو اللام »(١) •

ويتجه السيوطى إلى أن (أصل الأسماء أن تكون نكرات ، ولذلك كانت المعرفة ذات علامة وافتقار إلى وضع لنقلها عن الأصل)(٢) •

* * *

نعود إلى نحو القلوب عند الشيخ •• فنحس وهو يقول « فالاسم النكرة يصير معرفة ، ولا رتبة فوق أن صار معرفة ، كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان » •

أنه منصرف بذهنه نحو العــارف ورتبة المعرفة فى طريق السالكين ،

(١) الخصائص لابن جنى ٢/٦٢ •
(٢) الأشباه والنظائر للسيوطى ٢/٣٤ •

وهما عنده قمتان فى المنهج •• فالعارف الموحد(*) هو الولى ، ولا رتبة بعد الولاية ، (ولا رجوع عنها) • إنما الرجوع كما أوضحنا منذ قليل يكون للمبتدئين فهم المعرضون للانتكاس والعودة إلى الدنيا •• فإذا عادوا عادوا (نكرات) دون أن يرتدوا رداء (آل) فقد تم تجريدهم من هذا الوسام •

وفى اللطائف وصف مفصل لهذا العائد الذميم (إلى مألوفاته ، وينحط إلى ذميم عاداته ، مرتداً عن سلوك الطريقة متردياً فى ظلمة الغفلة ، ويصير وقته ليلا مظلماً ، ويتطوح فى أودية التفرقة ، ويوسم الطرد ، ويسقى شراب الإهانة ، وينخرط فى سلك الهجر) أما من استمر فى طريق (المعرفة) فإنه مشمول (بأنوار اليقين التى تنفى ظلمة الشك ، وبنور العلم الذى ينفى تهمة الجهل ، وبنور (المعرفة) الذى ينفى أثر (النكرة) وبنور المشاهدة الذى ينفى آثار البشرية »[٣] •

لأجل هذا لا نتصور أن من مقاصد الشيخ أن تكون (آل) هى رداء الصوف أو الخرقة أو أى مظهر من المظاهر وإلا لاحتوى المبتدئين والأدعياء السابق ذكرهم •• فما أسرع ما يتحلون بهذه الشكليات دون الجواهر ، وإنما نتصور أن المقصود برداء (آل) هو ذلك التغيير الشامل الكامل النافذ إلى أعمق أعماق الحياة الرحية •• وبهذا يكتسب (التعريف) فى أقوى صورة ، حتى لو كان فقيراً خاملا ، ومن أجلى صفات هذا (المعرف) أن لديه من الشجاعة الأدبية ما يقوى بها على مواجهة أعلم الأعلام فى عصره حتى لو كان سلطاناً متقلداً سيفه •• استمع مثلا إلى الحسن البصرى الزاهد العارف وهو يخاطب والى العراق : « يا عمر بن هبيرة •• إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، ولا يعصمك يزيد من الله عز وجل •

(٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٢٢٤ و ص ٣٩٦ .

(*) بتشديد الحاء وكسرها .

يا عمر •• لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا ــ والله ــ على الدنيا وهى مقبلة أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهى مدبرة •

يا عمر •• إنى أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى •

يا عمر •• إن تك مع الله فى طاعته كفاك بائقة يزيد ، وإن تك مع يزيد على معاصى الله وكلك إليه(٤) •

ولكى نصف سجايا وأحوال هذا (العارف) (المعرفة) نستدعى للشهادة واحداً من خارج البيئة الصوفية •• هو ابن سينا الفيلسوف الطبيب الذى أتيح له مرة أن يخالطهم وأن يحاورهم ، فخرج من ذلك بفكرة مختلفة عما كان يراهم بها من قبل ، وأثبت فى آخر كتابه العظيم (الإشارات والتنبيهات) صفحات طوالا فى وصف المعرفة والعارف •• يعترف هو نفسه بأنها أجل ما كتب ، وسنسمح لأنفسنا أن نستمع طويلا إلى هذا الشاهد المتميز وهو يدلى بدلوه فى موضوع من أخص خصائص أهل القلوب ــ وهو بعيد عن بيئتهم :

«المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص(٠) باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوها يخص باسم العابد ، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق فى سره يخص باسم العارف ، وقد يتركب بعض هذه مع بعض •

العارف يريد الحق الأول لا لشىء غيره ، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه وتعبده له فقط ، لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه •

إذا بلغت الإرادة بالعارف حداً ما عنت(٠٠) له خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض إليه • ثم تخمد عنه ــ وهو المسمى

---

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ٢ ص ١٤٩ •

(٠) بضم الأول وفتح الثانى • (٠٠) بتشديد النون وفتحها •

. . . .

عندهم أوقاتاً،وكل وقت يكتنفه وجدان : وجد(٠٠٠) إليه ووجد عليه،ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض حتى **ليكاد يرى الحق فى كل شىء** . ولعله إلى هذا الحد إنما تتسنى له هذه المعرفة أحياناً ثم يتدرج إلى أن تكون له متى شاء حتى يصير سره مرآة مجلوة محاذياً بها شطر الحق فيغيب عن نفسه ويلحظ جناب القدس فقط ، وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة لا من حيث هى بزينتها...وهناك يحق الوصول ».

لاحظ إصرار ابن سينا على بقاء الاثنينية(= العبد عبد والرب رب) حتى فى أعلى درجات الوصـــول والاتصـــال .. فلا تداخل ولا حـــلول ولا امتزاج .

ويمضى ابن سينا فى صفحاته الطوال عن ذات الموضوع فيقول :

« العارف هاش باش بسام .. يبجل(٠) الصغير من تواضعه مثلما يبجل الكبير ، وينبسط من الخـــامل مثلمـــا ينبسط من النبيه ، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شىء فإنه يرى فيه الحق !؟

وكيف لا يسوى بين الجميع والكل عند سواسية ؟ !

العارف له أحوال لا يحتمل فيها الهمس من الحفيف فضلا عن سائر الشواغل الخالجة . أما إذا شغله الحق عن كل شىء فهو أهش خلق الله ببهجته » .

ويردف ذلك ببعض التنبيهات مثل :

تنبيـــه : العارف لا يعنيه التجسس والتحسس ، ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمـــة فإنه

(...) بسكون الجيم .

(.) بضم الياء وفتح الباء وتشديد الجيم وكسرها .

مستبصر بسر الله فى القدر(..) ، وإذا أمر بالمعروف أمر
برفق ناصح لا بعنف معير(...) •

تنبيـه : العارف شـجاع •• وكيف لا ؟ وهو بمعزل عن تقية
الموت • العارف جواد وكيف لا ؟ وهو بمعزل عن محبة
الباطل • صفاح •• وكيف لا ؟ ونفسـه أكبر من أن
تجرحها زلة بشر ، نساء للأحقاد •• وكيف لا ؟ وذكره
مشغول بالحق •

ويختم ابن سينا هذه التنبهات الروائع بإشارة لها مقاصد بعيدة :

« إشارة : جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا واحد بعد واحد •• ولذلك فإن ما يشتمل عليه هذا الفن ضحكة للمغفل(.) وعبرة للمحصل•• فمن سمعه فاشمأز عنه فليتهم نفسه لعلها لا تناسبه •• وكل ميسر لما خلق له »(٥) •

❋ ❋ ❋

ولو أتحنا لأنفسنا هنـا أن نختار أحد أنواع (المعـرفة) وهو «الضمير»،ولو أجزنا لأنفسنا أن نتأثرمنهج الشيخ فى استنباط الإشارات لأحسسنا بغبطة ونحن نقارن فى الواعية بين أوصاف « الضمير » فى نحو الظاهر وأوصاف نظيره فى نحو الباطن •• استمع وتأمل الكلمات : ضمير (مستتر) و (منفصل) و (متصـل) و (ومخاطب) و (غائب) •• ونحوها •

(..) بفتح القاف و الدال •
(...) بتشديد الياء وكسرها •
(.) بضم الميم وتشديد الفاء وفتحها •
(٥) آخر كتاب الاشارات و التنبيهات لابن سينا •
(فصل المعرفة و العارف) •

. . . .

ثم إن هذا « الضمير » وهو من أعرف المعـــارف مأخوذ لغوياً من قولهم : أضمرت الشيء فى نفسى إذا سترته وأخفيتـــه ، أو من قولهم قوس ضامر •• فالضمور النحافة والهزال •• « وضمير » نحو الظـــاهر غالباً ما يكون قليل الحروف ، والمتصل منه أخصرمن المنفصل مثل : نعبدك مقارناً بـــ (إياك) نعبد • ويعبر عنـــه بالكناية أو المكنى لأنه يكنى به (أى يرمز به) عن الظاهر اختصاراً لأن اللبس مأمون مع الضـــمير • والضمير المتصل هو الذى لا يصح أن يبدأ به الكلام ، ولا يقع بعـــد « إلا » فى الاختيار • والضمير المنفصل هو ما يصح أن تبدأ به الـــكلام ويصح أن يقع بعـــد إلا • وتاء المتكلم خصت بالضـــم فأعطيت أقوى الحركات لأن أكثر ما يخبر به الإنسان عن نفســـه ، وللتفرقة أعطـــوا المخاطب التاء ذات الفتحة وأخذت الأنثى التـــاء ذات الكسرة •• ففى الكسر رقة(٦) •

---

(٦) توسعنا فى « الضمير » دون غيره من المعارف لأن القشـــيرى لم يفرد له حديثا خاصا ، فأردنا أن نكمل باجتهادنا المتواضع شيئا فى الموضوع حتى نتمم الفائدة .

فصــل [٩] :

المفــرد والمثنى

(أ) « الاسم المفرد إذا ثنيته(٠) ألحقته ألفا فى حال الرفع ، وياء فى حالى النصب والجر ، ونونا بعد الألف واليــاء .

ونون التثنيــة مكسورة وهى تسقط عند الإضافة .

(ب) والإشارة منه : أن الواحد لا تثنية له من لفظ الواحــد . والاثنــان لا واحد له من لفظه ، فلا يقال من الواحد واحدان ، ولا من اثنين اثن ... فهذا محال فى التقدير .

(جـ) كذلك الذى هو « واحد » فى الحقيقة يستحيل أن تزول عنــه وحدانيته تقديراً ووجوباً .

والذى يصح أن يكون اثنين فمن المحال أن يصير فرداً لا ثانى له — تقديراً قال الله تعالى :

« ومن كل(٠٠) خلقنــا زوجين اثنين » .

---

(٠) بتشديد النون وسكون الياء .

(٠٠) بتشديد اللام مع التنوين .

القاعدة (أ) بسيطة جداً (ألف ونون للمثنى فى حال الرفع وياء ونون مكسورة فى حالى النصب والجر) وبالنسبة لجمع المذكر السالم واو ونون مفتوحة فى حال الرفع، وياء ونون مفتوحة فى حال النصب الجر .

ويفسر بعض النحاة ذلك على أساس أن المفرد هو الأصل فتم إعرابه بالأصل وهو الحركة . أما المثنى والجمع ففرعان على الأصل فأعربا بالفروع التى هى الحروف .

ويرجع بعضهم كسرة النون فى المثنى إلى أن المثنى خفيف والكسر ثقيل فلا مانع من اجتماع الثقيل مع الخفيف لإحداث التعادل .

والجمع السالم ثقيل والنون المفتوحة خفيفة فيحدث التعادل(١) .

وفى جميع الأحوال يبقى المفرد من حيث بنيته التركيبية على حالها دون أن تمس ، ثم تأتى الزيادات الدالة على المثنى أو جمع المذكر السالم بلا إصابة تعتور المفرد .

فإذا انتقلنا إلى (ب) فإننا نواجه الإشارة المستنبطة من مجمل القواعد السابقة ، فالشيخ يلفت نظرنا إلى ظاهرة طريفة حقاً ، فهو يستحضر فى ذهنه وحدانية الله سبحانه ، ويريد أن ينزهها عن الشريك بطريقة فيها حبكة شديدة فى التنظير بين العبارة والإشارة ، ومن هذا المنطلق فكأنى به يقول :

الله واحـــد .

فإذا أردت أن تضيف إليه شريكاً مثله ويطابقه فى كل شىء لعجزت تماماً عن ذلك ، لأنك بمقاييس اللغة لا تستطيع أن تثنى (واحـد) إلى

(١) حديث التعـادل سيعاد طرقه فى باب تمييز العدد بهـذا الكتاب بتفصيل .

. . . .

(واحدان) فمرفوض إذاً أن يكون هناك (واحد) آخر يشابه أو يماثل (الواحد) الأول •• وبهذا تنتفى الندية والمشابهة والقدم عن الواحد المجلوب (الثانى) • وإذاً فالأديان والمذاهب التى تأسست على الثنوية فى الألوية كالزرادشتية والمانوية والمزدكية مرفوضة •• وأولى من ذلك تلك التى تتأسس على التثليث •

ومن ذلك فلنتمش مع الفرض أنهما فى التثنية : واحد — اثنان فهيا نستخرج من هذه الأخيرة مفردها حسب السياق المطرد : (اثنان) تصير (اثن) بعد حذف علامات التثنية •• (اثن) هذه لا وجود لها فى اللغة ولا فى النحو ولافى القاموس ولا فى كلام العرب ، إذاً فقيامها وحدها مستحيل ، وإذاً فوجودها باطل فى أساسه ، ولا يمكن أن نقرأها ذات معنى إلا داخلة فى تركيب (اثنان) •

وتلك هى الأشياء الكونية المخلوقة ومعنى قوله تعالى :

« **ومن كل**(•) **خلقنا زوجين اثنين** » فعلى حين ترفض (اثنان) فى (الخالقية) فإنها ضرورة للحياة والنظام الكونى فى (المخلوقية) • وبنفس المقدار تقبل (واحد) فى الخالقية بينما ترفض (واحدان) فيها • ولا انتظام للثانية إلا إذا (توحدت) الأولى •• وسبحان الله فى علائه وتوحده ، ليس كمثله شىء •• تفرد بالملك فلا شريك يسامه ، وتوحد بالجلال فلا نظير يقاسمه ، فهو الواحد بلا قسيم فى ذاته ، ولا شريك فى مخلوقاته ، ولا شبيه فى حقه وصفاته •

ويعود القشيرى إلى هذه المعانى كثيراً فى مواضع مختلفة من مصنفاته ، لأن التوحيد هو قضية الإسلام الأولى — كما نعلم ، فالقرآن ألح عليها إلحاحاً قوياً •

ومن أمثلة ذلك قوله فى اللطائف (لو كان له شريك لوجب أن يكون

(•) بتشديد اللام والتنوين •

. . . .

له ند(٠) مضاه(٠٠) ، وفى جميع الأحوال له مواز ، ولم يجد (٠٠٠) التمييز بين فعليهما .

وكذلك لو كان له ند فإن إثباتهما شيئين اثنين يوجب اشتراكهما فى استحقاق كل وصف ، وأن يكون أحدهما كصاحبه مستحقاً له .. وهذا يؤدى إلى ألا يعرف(٠٠٠٠) المحل .. وذلك محال)(٢) . ويقول فى موضع آخر (إثبات الواحد ضرورة ، وقدرة الاثنين محصورة)(٣) .

---

(٠) بكسر النون وتشديد الدال .
(٠٠) بتنوين الهاء وكسرها .
(٠٠٠) بضم الياء وسكون الجيم .
(٠٠٠٠) بضم الأول وفتح الراء .
(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٢٢٣ .
(٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٣٠١ .

فصـل [١٠] :

تتمـة فى المفرد والمثنى

« ومادام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته فى حروفه ، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع فى التغير ، فمرة مرفوعاً بالألف ، ومرة منصوباً أو مخفوضاً بالياء — كذلك العبـد مادام بقلبه مفرداً(٠) مجرداً(٠) فهو فى أسمى نعوته ، فإذا حصلت علاقة المواصلات وقع فى التلوين فمرة ومرة » .

---

(٠) بتشديد الراء .

قلنا فى شرح الفقرة السابقة إن المفرد أصل والمثنى فرع . وإن المفرد يعرب بالأصول (الحركات) والمثنى يعرب بفروع لهذه الحركات أى (بالحروف) .

وكذا المنفرد ببنيته الأصلية محافظ على كيانه ، فإذا ما أدخل(*) فى عالمه الانفرادى قوى خارجية فإنها تتجاذبه يمنة ويسرة ، وربما تفقده انفراديته الشريفة المستقلة بالله ، وتوقعه فى صراعات النفس والهوى والشيطان والخلائق .. كل ذلك نتيجة (الاثنينية) وما يصاحبها من تغيرات وتوجهات . ولو سارت الأمور على طبيعتها السليمة فإن هذه التوجهات لو كانت لله سبحانه كان المقام (الرفع) ، أما إذا مالت أو جنحت إلى ما هو غير الحق أصيب العبد (بالخفض) أو (النصب) وكلاهما بالياء أى بحرف يميل نحو التسفل ، ولا أمان بعد ذلك من مظاهر (التلوين) والبعد عن (التمكين) .

معنى ذا فى كلمات قصار : أن (القلب المفرد المجرد مرفوع) وأن (القلب الموزع بين العلاقات مشتت حائر) لا أمامه ولا تحت أقدامه ، إنه أشبه بالغريب الذى يتطوح فى مطارح الشتات .

ولعل حال المنافقين من أكثر النماذج ملاءمة لحال التوزع هذه ، فهم لا يستطيعون الجمع بين صحبة المسلمين وعشرة الكفار ، فهم يقولون لكل فريق نحن بجانبكم ، فيعيشون فى وقت واحد بين إضمار وإظهار . وهذا وحده مدعاة لصراع باطنى محتدم لا يجلب الراحة أو القرار فضلا عن أنه مبغوض عند الله من البداية وعند الناس أوان انبلاج الحقيقة وأفتضاحهم ، فينفون عن هؤلاء ، وأولئك.ويلحق القشيرى بهم المترددين بين العادة والعبادة فى الطريق فيقول فى لطائفه عند قوله تعالى :

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » .

(*) بفتح الهمزة .

(كذلك من رام الجمع بين طريق الإرادة وطريق أهل العادة فإن ذلك لا يلتئم ، فالضدان لا يجتمعان ، و « المكاتب عبد ما بقى عليه درم » وإذا ادلهم الليل من هاهنا أدبر النهـــار من هاهنا • فمن كان له فى كل ناحية خليط ، وفى زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق ينتابه كل قوم ، فقلبه أبداً خراب ، لا يهنـــأ بعيش ، ولا له — فى التحقيق — رزق من قلبه ، قال قائلهم : —

اراك بقية من قوم موسى   فهم لا يصبرون على طعام »

ويؤكد المعنى نفسه فى موضع « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون(٭) » فيقول (لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين ، والكون — فى حالة واحدة فى محلين ، فالعبد إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ ، وأما حصول الأمرين فمحال)(٢) •

ولهذا كله يقول شيخنا **« ونون التثنية أبداً مكسورة ، كذلك صاحب العلاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح »** •

هذه النون فى نهاية المثنى (مكسورة) أشبه بالجناح (المكسور) على الدوام •• بل إنه من العجيب أن هذا الجناح المكسور ربما يصاب بالبتر و (الحذف) عند الإضافة أى عند مزيد من العلاقات المتراكمة •• فهى **« تسقط عند الاضافة لأنها بدل التنوين فى الواحــد • والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان • كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة • فالصــفة التى فى مقابلتها تكون مغمورة مستورة ، فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور ، وإذا كان الغالب**

---

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٧٦ •

(٢) اللطائف المجلد الأول ص ٩٧ والحقوق للحق سبحانه والحظوظ من قبل العبد •

(٭) البقرة / ٤٢ •

عليه البسط فقبضه مغمور ، وإذا كان الغـالب عليه الأنس(٠) فالهيبة كالمقابل ، وإذا كان غالبه الهيبة فالأنس كالزائل .

وعلى هذا النحو جميع أوصافه » .

نقل الشيخ إشاراته إلى أحوال العرفان .

والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبه كيفما شـاء وعلى العبد الامتثال .

وفى تلك الأحوال تكتسح الحال اللاحقة الحال السابقة وتحل محلها وتبقى الغلبة لها ، .. وهكذا ، والعبد ينزل على حكم الوقت وإلا ناكده وتحول عليه إلى مقت .

كذلك فى نحو الظاهر يجرف شىء شيئاً آخر : (كالإضافة) حينما تزيح (التنوين) فهما لا يجتمعان .

وضرب الشيخ مثالين للأحوال ، كالقبض يزيح البسط والعكس ، والأنس يزيح الهيبة والعكس .. ونتريث قليـلا عندهما لزيادة تفهم المقصود : **القبض والبسط** تسبقهما فى السـلم(٠٠) العرفانى حالاتا : الخوف والرجاء .

وهما مرتبطتان بالمسـتقبل كالخوف من فوت محبـوب أو هجوم محذور ، وكالرجاء بتأميل محبوب أو بتطلع إلى زوال محذور أو كفاية مكروه قد يقع .

أما القبض والبسط فهما متصلان **بواردات الوقت ، فعندما يرد** وارد من عتاب أو رمز لاستحقاق تأديب مثلا ينقبض الخوف لا محالة .

وعندما يكون الوارد إشارة إلى تقريب أو إقبال أو ترحيب ينبسط القلب لا محالة .

والعارف لا يسىء الأدب فى الحالين ، بل يستسلم لحـكم الوقت

---

(٠) بضم الهمزة .

(٠٠) بتشديد السين وضمها .

لأنه بحكم تجربته يعرف أن البسط يأتى على حسب القبض ، والقبض يأتى على حسب البسط ..

ونختار قطعة من **النثر الصوفى الرائع** المعبر عن هذه المعانى ما يقوله الجنيد : « الخوف من الله يقبضنى ، والرجاء منه يبسطنى ، والحقيقة تجمعنى ، والحق يفرقنى .

إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى على(٠)، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى ، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فغطانى عنه ، فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى ، وموحشى غير مؤنسى .. فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى ... فليته أفنانى عنى فمتعنى ، أو غيبنى عنى فروحنى » ! (٣)

الهيبة والأنس وهما فوق القبض والبسط فى السلم العرفانى فالهيبة أعلى من القبض ، والأنس أتم من البسط . وحق الهيبة الغيبة فكل هائب غائب ، وحق الأنس صحو فكل مستأنس صاح .. فمثلا قد تبدأ المناجاة فى هاتين الحالين : أنا الرب لا إله إلا أنا ..

... وأنا عبدك خاشع متذلل بين يديك هكذا .. وعلى هذا المنوال تسرى لغة الحب حتى إذا **تتالت الأنوار** وتجلى الحق بالهيبة سكن العبد سكونا تاماً ، وامتلأ السر بهيبة المولى سبحانه ولم يعد هناك من العبد لنفسه فى نفسه .

ولكون هذه الأحوال مرتبطة بالتغيرات النفسية المتعاقبة والتى تنثال بمقادير دقيقة فإنها فى ذات الوقت إثراء للغة القاموسية ، لأنها اكتسبت طابع المصطلحات المتفق عليها بين القدم ، وتلك إحدى جلائل المعطيات التى أفرزتها علوم الصوفية ، وعادت بالنفع على الأدب واللغة بعامة .

---

(٣) الرسالة ص ٣٦ .

(٠) بتشديد الياء .

فصـــل [١١] :

الجمـــع

« الجمع على ضربين : جمع سلامة وجمع تكسير » .

وفى الإشارة كذلك : ما يسميه القوم « الجمع » على قسمين : — جمع سلم صاحبه — وهو ما حفظ عليه الشرع فى وقت غلبات الجمع . وجمع صاحبه مكسور الصحة وهو ما لا يُحفظ(.) على مدّعيه(..) آداب العلم .

والفرق بين جمع أقسام النحو فى الخطاب وبين أقسام جمع نحو القلوب أن : كل الجمع فى الخطاب — أى فى مسائل النحو — صحيح . وفى نحو القلوب أحدهما صواب والثانى غير صواب .

والإشارة : جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد ، وكذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة ، والفعل من البدعة ، والنفس من الشـــهوة ، والقلب من الغفـــلة والغيبـــة ، والسِّر(...) من الحجبـــة .

وجمع التكسير ما تكسر(....) فيه لفظ الواحد .. كذلك المدخول من جمع القوم ما يزول عن عقود الحقيقة ، ويزيغ عن حدود الشريعة » .

(.) بضم الياء .

(..) بتشديد الدال .

(...) بتشديد السين مع كسرها .

(....) بتشديد السين وفتحها .

يتركز نظر الشيخ فى كلا الجمعين : السالم والتكسير على مصير المفرد ، فالمفرد يبقى على حاله دون أن تعتور بنيته تغييرات ، وما عليك إلا زيادة الواو والنون أو الياء والنون فى حال المذكر ، والألف والتاء المفتوحة فى حال المؤنث .

أما عند جمع التكسير فإن تكسيرات تحدث غالب الأحيان فى بنية المفرد . وقبل أن نتناول بالشرح وقع الإشارة عند شيخنا فى هذا الخصوص نقف قليلا فى مجال نحو الظاهر لنستفيد بعض الفوائد لعلها تكون ذات قيمة فى تذوق إشارته الآن وفيما بعد .

ليس كل مفرد قابلا لأن يجمع جمع سلامة ، بل لابد أن يكون هذا المفرد فى حال جمع المذكر السالم علماً ، أو وصفاً لعاقل ، فإذا كان علماً ينبغى أن يكون مذكراً عاقلا خالياً من تاء التأنيث ، غير مركب تركيباً إسنادياً ولا مزجياً ، وألا يكون من باب أفعل الذى مؤنثه فعلاء ، ولا فعلان الذى مؤنثه فعلى ، ولا مما يستوى فيه المذكر والمؤنث (كصبور وجريح) ولا وصفاً لمؤنث .

أما جمع المؤنث السالم فإنه لأعلام الإناث ، وما لا يعقل من مصغر(٠) المذكر ، وأوصاف المذكر لغير العاقل .

وعندئذ يحق لنا أن نقول إن الله قد ميز العقلاء على سائر المخلوقات فخصهم بالجمع السالم ، وقد يحق لنا — وبتحفظ شديد — أن نقول على استحياء إن قاعدة جمع المؤنث لا تتطرد مع قاعدة جمع المذكر السالمين لأنه ربما — فى الإشارة — النسوان مبعدات عن جماعات الذكور « أنظر وصية الشيخ فى ذلك »(١) . والقصد طبعاً اتقاء الفتنة ومنعاً للأقاويل المشوشة .

(١) الرسالة ص ٢٠٣ .

(٠) بضم الميم وتشديد الغين وفتحها .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

وأما جمع التكسير فهو مكسر(•) للصحة البنيوية للمفرد ، وسيتضح بيان ذلك بعد قليل ، وسيفرد له الشيخ الباب الأخير من هذا الكتاب •

نظن الآن أن الإشارة أصبحت على مرأى العين ••

ففى طريق القوم يوجد من يسلك الرحلة من البداية إلى النهاية وهو ثابت كالطود لا يتأثر رغم الزيادات الطارئة عليه ، والدالة على انتقاله من التفرقة (حال الإفراد) إلى الجمع (حالى الجمع وجمع الجمع) •

ويفترض أن تكون المحافظة على أمور معينة من ألزم اللوازم فى هذا السياق ويأتى فى مقدمتها ـ كما ألحمنا وراء الشيخ غير مرة ـ حفظ آداب الشريعة •

ونص الشيخ على حال الفرق الثانى فى وسط حال الجمع من أجل العودة إلى التكليف والقيام بالفرائض فى أوقاتها المعلومة ••

فعندما يخرج بعض المرضى والأدعياء والنهازون عن هذا الخط (السليم) ويمارسون الرذائل بدعوى أنهم مأخوذون بما هم فيه من (جمع) فهذا فى نظر الشيخ خروج عن (السلامة) بل هو من قبيل (الخطأ) و (الخطيئة) • وكم يعلق على مشجب الحقيقة من أباطيل وترهات عددها الشيخ فى الفقرة : شبهات العقل ، والبدعة ، والشهوة ، والغفلة ، والحجبة •

ووزعها على الجوارح الباطنية توزيعاً يصلح أساساً **لدراسة أعماق النفس** الإنسانية حيث شخص العلة ، ومكانها •• وأدواءها عند قوله :

« وجمع السلامة فى هذا الطريق ما يسلم فيه العقل من الشبهة

(•) بضم الميم وتشديد السين وكسرها •

والفعل من البدعة والنفس من الشهوة ، والقلب من الغفلة والغيبة ، والسر من الحجبة » •

وهنا ننبه إلى أن الغزالى قد خصص القسمين الثالث والرابع من « إحيائه » للمهلكات والمنجيات ، فلمن يريد التفصيل فى ذلك أن يعود إليه •

ونكتفى هنا بتلخيص مذهب شيخنا فى هذا الخصوص ــ كما ورد فى الفقرة ــ فى سطور هامة : ــ

١ ــ الأصل أن العقل ملكة وهبها الله للإنسان ، ومطلوب منها أن تقوم بكل ما فى الاستطاعة لأجل تصحيح الإيمان وتدعيم اليقين ، حتى إذا سلم العقل من كل (شبهة) انسحب إلى الوراء بعيداً بعد أداء دوره ، وأسلم الراية للقلب كى يبدأ دوره العاطفى التذوقى الوجدانى فى رحلة الصعود ، ولن يظهر العقل بعد ذلك أبداً •• لأنه لحظتئذ يكون قاطع طريق !! أما عن (البدعة) فيصفها الشيخ فى كتاب آخر له(٢) بأنها « قول أو فعل لم يسبق إليه قائله أو فاعله ، وهى كل ما ليس له أصل فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وعلاجها الاقتداء برسول الله ﷺ فى كل قول وفعل ، قال عليه السلام « من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام » •

ويحذر ابن عباس قائلا « ما يأتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدعة وتموت السنة » •

وإذا كان الابتداع خارج بيئة التصوف مرفوضاً فهو هنا أولى بالرفض لأنه هنا أشد خطورة ، ذلك لأن المريد ــ سواء أراد أم لم يرد ــ

---

(٢) التحبير فى التذكير للقشيرى ص ٩٢ و ٩٣ تحقيق د• بسيونى • طبعة عالم الفكر •

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

يعيش حياة كلها تقليد لمن سبقوه من السالكين والشيوخ ، ولهذا فإن وزر صاحب البدعة مضاعف ، ففى عنقه وزر ابتداعه ووزر من وقع فى اتباعه.

أما (شهوة النفس) فتعـود إلى ما سبق أن ذكرناه فى أكثر من موضع بأن النفس مركز المعلولات وأنها الأمارة بالسوء ، ونسوق هنا سطوراً للشيخ تصلح أن تسـاق مثالا **للنثر الفنى عند المتصوفة** ... يقول فى « لطائفه » فى مواضع مختلفة « إن من وطن النفس على الدنيا وبهجتها غرته بأمانيها ، وخدعته بالأطماع فيها ، وهى تخفى الصاب فى شرابها، والحنظل فى عسلها، تعد ولا تفى بوعودها.وتوفى(..) آفاتها على خيراتها ، نعمها مشوبة بنقمها ، وبؤسها مصحوب بأنسها ، وبلاؤها فى ضمن عطائها ، والمغرور من اغتر بها » .

ولهذا .. فإن أول قدم فى القصـد إلى الله الخروج عن النفس ، ولا يكون قتلها إلا بالتبرى عن حولها وقوتها أو شهود شىء منها ، ورد دعاواها إليهـا ، وتشويش تدبيرها ، وتسليم الأمـور إلى الحق — سبحانه — بجملتها ، وانسلاخها عن اختيارها وإرادتها ، وامتحاء آثار البشرية .

وينبغى على العبد إذا ظفر بنفسه ألا يبقى(...) فى انتفاش شوكها بقية ، فالحية إن بقيت فيها بقية من الحياة فمن وضع إصبعه عليها بثت سمه فيه .

ومن علامات من ماتت نفسه زوال آفاته ، وسقوط شهواته ، وقيامه بحقوق ربه وما فيه رضاه ، وتباعده عما فيه حظوظ نفسه ومناه ، فيعيش مع الحق بالصدق ومع الخلق بحسن الخلق »(....)

(.) بتشديد الطاء .
(..) بضم التاء وتشديد الفاء وكسرها .
(...) بضم الياء .
(....) [illegible]

أما الغفلة والغيبة فهمـا متصلتان بالقلب بعـد أن يتحرر من رق النفس ، فهو يستيقظ فى وطنه الجديد سليماً منيباً مستعداً للامتلاء بإرادة المولى ولاستقبال الأنوار •• ولكنه يبقى مهـدداً على الدوام من جانب عدوه الأصيل « النفس » فهى سرعان ما تناوشه من جديد ، وتنقض عليه غير مرة • ويحدث ذلك عند ظهور أول بادرة من بوادر الغفلة أو الغيبة للقلب ، ومثال ذلك أن يتسرب إليه بطيئاً شعور بإحباط عن تحقيق المطلوب لبعده النائى ، أو أن يحدث له نوع من القلق العارض ، أو يصيبه العجز عن الاستمرار فى المجاهدات المطلوبة ، أو يشوش عليه بعض المستضعفين الذين كشفنا ــ مع الشيخ ــ ما يحدثونه من أزمات •• كل ذلك يدعـو إلى (غفلة) ! وعليه عندئذ أن يهب من فوره لينقذ البناء من التداعى ، ويتسلح بالثقة فى الله لإعانته فى هذه الوثبة المخلصة الخالصة ، وسرعان ما تنثال المنن وتنهال العطايا •• وتشرق الأنوار من جديد •

ومرة أخرى نسوق **نموذجاً لنثر الشيخ** فى هذا الخصوص •• ففيه من الدقة والمتعة ما يخفف عنا العناء :

« قد تقع للسالك فترة ، وللمريد وقفة ، وللعارف (حجبة) وللمحب فرقة••وتلك محن عظيمة ومصائب فجيعة ، فما هو إلا أن تكسف شمسهم، وينطفىء فى الليلة اللظماء سراجهم(*)، ويتشتت من السماء ضياء نجومهم، ويصيب أزهار أنسهم وربيع وصلهم إعصار(**) فيه بلاء شديد ، وعـذاب أليم •• ذلك لأن آثار سخط الملوك موجعة ، وقصة إعراض السلطان موحشة •• هنالك تنسكب العبرات ، وتنشق الجيوب ، وتلطم الخدود ، وتعطل العشار ، وتخرب المنازل وتسود الأبواب ، وينوح النائح :

---

(٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٣١٧ •

(*) بضم الجيم •

(**) بضم الراء المنونة

. . . .

وأتى الرســـول فأخبـــ ـــر أنهــم رحــلوا قريبــا
رجعـــوا إلى أوطـــانهم فجــرى لهــم دمعى صبيبــا
وتــركن نــاراً فى الضــلوع وزرعن فى رأسى مشـــيبا(٢)

أما (الحضور) فيكون العبد حاضراً بالحق بمقـــدار ما يغيب عن الخلق لاستيلاء ذكر الحق عليه .

وينهى القشـــيرى الفقـــرة بالتنظير بين (جمع التكســـير) وبين « **المدخول من جمع القوم** » ... والمدخول من الدخل بســـكون الخاء وفتحها أى العيب والريبة ومن أمثلة ذلك الناقض لأحكام الشريعة ، أو اللاجىء للرخصة .. ونحو ذلك « ممن يســيئون الأدب على البســـاط فيردون إلى الباب ، ومن لم يحكم الأساس فى بنيانه سقط السقف عليه بجدرانه » .

(..) بسكون الكاف .

فصــل [١٢] :

تابع (الجمــع)

« إذا جمعت اسماً مذكراً جمع السلامة فيما يعقل ألحقت بآخره واوا فى حال الرفع ، وياء فى حالى النصب والخفض ، ونوناً بعد الواو والياء — وهى مفتوحة — وتسقط عند الإضافة .

والإشارة : إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع فى كل هذا التلوين والتغيير فمرة ومرة من زيادة ونقصان ، وتبديل وتحويل .

كذلك صاحب الجمع زال حكمه عن نفسه ، فمرة يظهره الحق فى صورة التقريب ، ومرة ينصبه فى نعت الإبعاد ..

.. وهو محو الاختيار « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » .

خرج الشبلى يوماً فى زى رث(.) فقيل له فى ذلك فقال :

فيوما ترانا فى الحديد نجــره ويوما ترانا فى الحديد عوابسا
ويوما ترانا والثريد نلتــه(..) ويوماً ترانا نأكل الخبز يابسا

* قال صلى الله عليه وسلم مرة :

« إنى لست كأحدكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

ومرة أخرى قال : « أنا ابن امرأة تأكل القديد » .

* وحكم مرة لعشرة بالجنة :

ومرة أخرى قال : « إنه ليغان(...) على قلبى » .

(.) بتشديد الثاء .

(..) بتشديد التاء .

(...) انظر : صحيح مسـلم (باب استحباب الاستغفار ص ٢٠٧٥ ومسند أحمد ٤/٢١١) .

. . . .

مرة أخرى يعرض المصنف ــ رضى الله عنه ــ للتغيرات التى تحدث (للمفرد) أى للصوف السالك طريقه فى الرحلة إلى الله ، وهى هنا فكرة مكررة ، وبالتالى فلن نكلف أنفسنا أو القارىء مشقة التكرار .. ومع ذلك فلن نحرم أنفسنا من انطباعات عما هو جديد هنا :

١ ــ لأول مرة فى الكتاب يطالعنا قدر كبير نسبياً من الأسانيد عن رسولنا صلوات الله عليه وعن الشيوخ فضلا عن الاستشهاد بآى الذكر الحكيم ..

وهذه واحدة فى الإشارة ربما تكون مقصودة : أى أن التصوف مستند إلى كل هذه الأصول أولا وأخيراً ... حتى لا ينسى القارىء هذه النقطة فى منهج الشيخ .

٢ ــ ما يذكره الشيخ من أحوال نبينا صلوات الله عليه (فيما يتلون) منها يمكن أن تكون وسيلة إقناع بما يحدث للعارفين .فالنبى ﷺ فى حال من (البسط) بحيث يقول إنه يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه ، ثم هو فى حال أخرى من (القبض) بحيث لا يرى نفسه أكثر من ابن امرأة من قريش تأكل القديد .

وهو يبدو فى حال من (التمكين) حين يبشر عشرة من الرجال بالجنة، بينما نراه فى حال من (التلوين) حينمايقول : إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة(*) » .

ألا نقتنع بعد أن للعارفين أسوة فى المصطفى صلوات الله عليه فيما يقع لهم من (التغير) فى الأحوال بين (الإفراد) و (الجمع) ؟

وهكذا يمكن أن نعالج الفقرة التالية فى ضوء هذا الفهم :

(*) انظر : نحو القلوب الصغير ١٧٠ للامام القشيرى . حققه . د/ احمد علم الدين الجندى . ط : تونس .

« كذلك صاحب الجمع زال حكمه عن نفسه ، فمرة ...... »

فكما أن الجمع — فى نحو الظاهر — خاضع (للرفع والنصب) ، متأثر فيهما بعوامل خارجية ، وكما يلحقه نتيجة لذلك بعض التغير .. كذلك العبد (المجموع) بكليته فى قبضة الحق يكون بين تقريب (رفع) وبين إبعاد (**نصب وخفض**) .

وكما تسقط (نون الجمع) فى النحــو الظاهرى عند (الإضافة) كذلك تسقط عن هذا العبد (المجموع) فى النحو الإشارى صلاته(٠) بنفسه وأمانيه ، فلا يأخذ وضعه الحقيقى إلا (مجردا) من كل الدوافع الذاتية دلالة على حق بلا خلق ، واستهلاك بالكليــة فى مشـــهوده لأنه آنئذ **(محو عن الاختيار)** ولنتوقف قليلا عند هذا **(المحو) الذى هو صميم عمل هذا (النحو)** !!

المحــو والإثبــات :

« المحو (رفع) أوصاف العادة ، والإثبات إقامة أحكام العبادة ، فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة ، وأتى بدلها بالأفعال والأحــوال الحميدة فهو صاحب محو وإثبات »(١) .

ثم يزيد الشيخ المسألة إيضاحاً بعد إيضاح فيقول :

« وينقسم إلى : محو الذلة عند الظواهر، ومحو الغفلة عن الضمائر، ومحو العلة عن السرائر .

وأما حقيقة المحو والإثبات فهى أنهما صادران عن القدرة ، فالمحو

---

(١) الرسالة ص ٤٢ .

(٠) بكسر الصاد .

ما ستره الحق ونفاه ، والإثبات ما أظهره الحق وأبداه . فهما مقصوران على المشيئة ، قال تعالى :

« يمحو الله ما يشـــاء ويثبت » .

يمحو الله عن قلوب العارفين ذكر(٠) غير الله تعالى ، ويثبت على ألسنة المريدين ذكره .. ولكل أحد ما يليق بحاله .

قال رجل للشبلى : مالى أراك قلقاً .. أليس هو معك وأنت معه ؟

فأجاب الشبلى : لو كنت أنا معه كنت أنا ولكنى محو فيما هو !

والمحق فوق المحو ، لأن المحو يبقى أثراً ، والمحق لا يبقى أثراً .. وغاية همة القـــوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ، ثم لا يردهم إليهم بعد ما محقهم عنهم(٢) .

وبعـــــد ..

فمن هذه النقطة الأخيرة .. هل نجوز لأنفسنا تخريجاً يمر بالذهن الآن .. أن على الذين يجادلون حـــول اســـتحالة اجتماع الاضداد فى شخصية واحدة لأنه يعنى اضطراباً فى ذاتية الموصوف .. فنقـــول إن لكل حال وصفاً يطلق بحسب الغالب فى (الآن) .. وبكلمات أوضح .. قد نرى ذلك رداً ضمنيا على من يتجادلون على الأوصـــاف الإلهية فى المباحث الكلامية : كالغفـــار والمنتقم ، والقابض والباسط ، والمانع ، والمانح ، والمحيى والمميت .. ونحوها (راجع تمييز الجرجانى بين الصفة والنعت فصل ٣٥) .

فما بالك بأهل الاعتزال .. الذين ينفون الأوصاف الإلهية أصلا ؟ !

---

(٢) الرسـالة ص ٤٢ .

(٠) بفتح الراء .

« وجمع السلامة له قياس ، وأما جمع التكسير فكثير الفنـون ، مختلف القياس ، شكل المبانى ..

كذلك من حفظ(..) بوصف العلم فهو مقاماً سيد(...) وقته ، وإمام زمانه . والذى هو فى هذه الطريقة جمع تكسير هو صاحب بلاء ، لا يهتدى إليه أحد ، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة ، لكنه مستور — فى الحقيقة — أمره — وهو فى عين التشريف .

ومن هو على جانب من هذا الحديث يظنه من أهل التكليف :

ألوانها شتى الفنـون وإنمـا
تسقى(...) بماء واحد من منهل

فصاحب هذه الحالة مشكل الحال ، ملتبس الوقت ، لا تهجم على محله زوائد القياس، ولا تشرف(....) علىغوامض نعته ثواقب التقدير».

لا مشكلة فى جمع السالم ، إنما المشكلة الضخمة فى جمع التكسير ، فهو متعدد الصيغ المسموعة والقياسية ، يقبل مفرده تغييرات بعضـها ظاهر وبعضها مقـدر (انظر الباب الأخير من الكتاب) ، وهى تغيرات لا تخضع لناموس .. ولهـذا فهو باب فى النحو صعب المزاج عسـه التناول .. وقد أحسن الشيخ فى وصفه بأنه (مختلف القياس شـكل المبانى) .

والإشارة من هذا كله أننـا لو تصـورنا مريدين(.....) عابدين (يجمعهما) طريق واحد من البداية،فهما على العتبات الأولى فى رحلة الإرادة

(..) بضم الحاء وكسر الفاء .
(...) بضم الدال .
(...) بضم التاء .
(....) بضم التاء .
(.....) بسكون الياء فيهما .

(فرد) و (فرد) وهما يخطوان الخطوات الأولى متماثلين أو قريبين من التماثل ، وهما يتجشمان نفس القدر من الجهود الكسبية التى ربما يأمر بها شيخ واحد ، وما أن ينتقلا إلى منطقة الأحوال التى هى وهبية من لدن الحق إلا نلحظ تغيرات تصيب أحدهما لا تطرأ بنفس القدر أو الدرجة على الآخر ، فأحدهما **يعب من شراب المحبة** ويلقى الأنس والحبور ، ويعايش تجربة الصيام الروحى على نحو ما ، والآخر لا يتم له ذلك على نحو مماثل .

وهنا يبرز عنصر هام قل أن يلتفت إليه أحد .. ذلكم هو الفضل الإلهى — وهو أهم أسرار هذا الطريق .. فبهذا الفضل السابق على كل شىء يختار الله من خلقه عباداً مخصوصين له منذ الأزل :

وله خصائص يكلفون بحبه — اختارهم فى سالف الأزمان
اختارهم من قبل فطرة خلقه(٠) — بودائع وفوائد وبيان(٣)

إن الذى (كجمع السالم) واضح أمره للناس ، لا يلتبس حاله على أحد ، والحكم عليه من الخارج سهل ميسور .

أما الذى (لجمع التكسير) فصاحب بلاء ، فالحكم عليه مضطرب لا مطرد ، فأنت لو حكمت العين المجردة التى لا تستطيع فى الجوهر نفاذاً لعجزت رصد أحواله ، وسبر أغواره ، والحكم عليه .

ربما كان فى داخله يغلى كالمرجل .. ثم تأتى وتستكثر عليه كلمة شاطحة .. ظاهرها مستشنع دون أن تدرى أن باطنها سليم .. وهكذا يعيش هذا العبد بين من يعرفه ومن لا يعرفه ... غير مفهوم ! **(وحديثه مشكل)** .

---

(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ١٠ ص ٧٩ .
(٠) بفتح الأول وسكون الثانى .

وذلكم هو سر بلائه بين الورى ، فالذين يفقهونه يحاسبون على أدنى تقصير فى الشريعة والحقيقة •• هم له بالمرصاد ، والذى يجهلونه سرعان ما يحيطونه بالتخرصات والأباطيل •• بل يرمونه بالتجديف أو الهلوسة •• إنه فى عين (التشريف) بينما يطالب أن يكون دائما فى إسار (التكليف) •

وفى رأينا أن هذه هى **مأساة هذا الحب الكبير** ، فكل حب كبير يقاس بمقدار عنصر الصراع والمأساة فيه •

فهذا (المجموع) المستهلك فيما سواه ، الغارق فى الأنوار المحدقة به من كل جانب (يتكسر) فى داخله ، وينهد كيانه •• ولا يعلم حقيقة أمره إلا عين (التشريف) !

ذلك شأنه مع زملائه (فى القياس) وفيما يصدر عنه من (السماع)! وكما أنه لا حيلة لنا فى (جمع التكسير) إلا الحافظة التى تعى (الأقيسة والسماع) كذلك ليس لنا ازاء هذا العبد هنا إلا تذوق حاله •• وقل(*) فى الناس من يتمتع بهذه الخاصية •

(*) بفتح القاف .

فصـــل [١٣] :

الأســـماء الستـــة

« من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالواو ، ونصبها بالألف ، وكسرها باليـــاء . وهى ســـتة أسماء : أبوك وأخوك وحموك وهنوك وفوك وذو مال .

الإشارة : كذلك من الناس من خص(٠) عن أمثاله ، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله .

قال ذاك الرجل : ليس كل بشر بشراً(١) ، باين حكمه حـــكم من سواه ، وانفرد عنهم فى معناه » .

---

(١) الأولى بفتح الباء والشين والثانية بكسر الباء وسكون الشين .

(٠) بضم الخاء .

. . . .

ملاحظة على المنهج : —

اختار الشيخ رأى البصريين : وهو إعراب هذه الأسماء من مكان واحد ، وهى هذه الحروف الإعرابية : الواو والألف والياء .

ويرى بعض النحاة أن الإعراب بحركات مقدرة على هذه الحروف ، تتلاءم معها . أما الكوفيون فيذهبون إلى أن الإعراب من مكانين : الضمة والواو جميعاً علامة الرفع ، والفتحة والألف جميعاً علامة النصب ، والكسرة والياء جميعاً علامة الجر .

ونحن نميل إلى الرأى القائل بأنها حركات مشبعة ، فالضمة صارت واواً ، والفتحة صارت ألفا ، والكسرة صارت ياء .

ويبقى أنها أسماء مخصوصة بهذا الطراز الإعرابى تحت شروط معينة :

١ — أن تكون مضافة .. وأن تكون هذه الإضافة لغير ياء المتكلم من اسم ظاهر أو ضمير .

٢ — أن تكون مفردة .. أى غير مثناة أو مجموعة .

٣ — أن تكون غير مصغرة .

وإن فقدت شرطاً واحداً من هذه الشروط زالت عنها هذه (الخصوصية) .

بقيت مسألتان هامشيتان : بالنسبة لـ (ذو) فهى ملازمة للإضافة لغير الياء فلا حاجة لاشتراط ذلك ويجب أن تكون (ذو) بمعنى صاحب وليست اسم موصول .

والفم إذا فارقته الميم .

والإشارة : من هذا كله كما يرى شيخنا مستمدة من هذه

(الخصوصية) التى تميز هذه المرة لا فرداً — بل مجموعة من الأفراد كأنهم قبيل واحد — بسمات خاصة ، لهم أحكام خاصة لا تنسحب على غيرهم • وإن سقوط وصف واحد من هذه السمات أو الأحكام يخرج بالفرد من نطاق هذا القبيل (المخصوص) إلى المستوى العام العادى • مع ملاحظة أن هناك فروقاً فردية ضئيلة — شأن المجاميع البشرية — بين بعض أفراد هذا القبيل الصغير ، إلا أن الإطار الخاص يظل يحيط بهذا المجتمع المتميز •

على أن الشيخ وهو يستنبط الإشارة لجأ إلى حكم عام فلم يحدد فى (الخصوصية) شيئاً معيناً ، ولذا فمن حقنا أن نتصور — مع القارىء — عدة توجهات يمكن أن تتصرف إليها المعانى :

١ — يحتمل أن يكون ذلك متصلا بتوزيع الأرزاق على البشر ، فهم لا يتساوون جميعاً فى المال أو فى الولد أو فى الصحة •• وغير ذلك من النعم •

٢ — يحتمل أن يكون مقصده : الشريعة للعموم ، والحقيقة للخصوص •

٣ — وترتيباً على ذلك يمكن أن يكون فى داخل مجتمع « الحقيقة » نفسه آحاد متميزون عمن سواهم •• وتلك اجتباءات إلهية لا دخل لأحد فيها •

٤ — يمكن أن يكون الكلام خاصاً بطرق صوفية تشبه كل طريقة (أسرة) خاصة ترتبط بروابط متميزة عن غيرها •• والهدف العام واحد•• ولكن كل ميسر لما خلق له •

٥ — يمكن أن ينصرف الكلام إلى مجموعات (الصحبة والأصحاب) فى داخل النظام التربوى الواحد التابع لشيخ واحد ، ونحن نعلم أن القشيرى مهتم بهذا الموضوع وعقد له فصلا ممتازاً فى رسالته يعد من أفضل كتاباته • ومع كل ذلك فإننا بعد كل هذه الاحتمالات نرجح أنه

يقصد (العارفين) — فهم مجموعة من الشامخين تجمعهم آصرة واحدة تميزهم عمن سواهم هى (المعرفة بالله) ولكن تبقى فروق بينهم طبقاً لدرجة الوصول والاتصال • أو قل تجمعهم بالعامة ارتباطات الشريعة ولكن تبقى لهم خصوصياتهم التى يندر أن يتطامن إليهـا فرد عادى ، أو قل إن العارف يخالط البشر ويؤاكلهم ويشاربهم •• ولـكنه فى واقع الأمر كائن بائن ، أى كائن بين الناس ، ومفترق عنهم بعلاقاته الخاصة ، ومعاملاته الباطنة « وليس من نصب(•) بالبـاب من حيث الخدمة كمن مكن(••) من البساط من حيث القربة ، وليس نعت من تكلف نفاقاً كوصف من تحقق وفاقاً ، بينهما لون بعيد » •

وخير من يحدثنا عن هذه الخصوصية تلك القصة الممتعة التى نؤثر أن نختم بها هذه الفقرة ••

كان ذو النون المصرى يسير فى أحد طرق الشام فلقى امرأة صالحة عرفها بسيماها فسألها :

— من أين أقبلت ؟

— من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع •

— وإلى أين ؟

— إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله •

— أيمكن أن تصفيهم ؟

— قـوم همومهم بالله قد علقت

فمـا لهم همم تسـمو إلى أحـد

(•) بضم النون .

(••) بضم الميم وتشديد الكاف مع كسرها .

(•••) بكسر الثاء .

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم
يا حســـن مطلبهم للواحـــد الصـــمد

ما إن تنازعهم دنيـــا ولا شرف
من المطـــاعم واللـــذات والولـــد

فهـــم رهـــائن غدران وأوديـــة
وفى الشـــوامخ تلقاهم مع العدد[1]

(١) عوارف المعارف للسهروردى ص ٤٤ .

ومن البيت الأخير نلحظ كيف أن الصوفية فرسان النهار ورهبان الليل .

فصـــل [١٤] :

اللازم والمتعــدى

« الأفعال على ضربين : لازم ومتعد(•) .

والإشارة : كذلك أفعال العباد على قسمين : لازم ومتعد ، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة ، والمتعدى(••) ما تتعدى خيراته على الغير .

والفعل المتعدى على أقسام :

منها ما يتعدى إلى مفعول واحد ، ومنها ما يتعدى إلى مفعولين ، ومنها ما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل .

والإشارة : كذلك العبد قد تتعدى بركاته إلى عالم من الناس ، حتى قال الشيوخ : « لو أن ولياً اجتاز ببلدة لغفر الله لأهل تلك البلدة ».

وفى الأثر « لو أن محــزونا بكى فى أمة(•••) لرحم الله تلك الأمة ببكائه » .

(•) بتشديد الدال وكسرها .

(••) بتشديد الدال وفتحها .

(•••) بضم الهمزة وتشديد الميم .

الفعل ثلاثة أنواع :

١ ــ ما لا يوصف بتعد ولا لزوم وهو كان وأخواتها .

٢ ــ وهو ما تجاوز حدثه الفاعل إلى المفعول به ويسمى أيضاً (الفعل الواقع) أى الواقع على المفعول به وهو على أربعة أقسام :

(أ) قسم ينصب مفعولا واحدا ــ وهو كثير مثل : لبس محمد الثوب .

(ب) قسم ينصب مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبر كأعطى وسأل.

(ج) قسم ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر وهو ظن وأخوانها .

(د) قسم ينصب ثلاثة مفاعيل وهو أرى وأعلم(.) وأنبأ(..) ونبأ(...) وأخبره .

أما الفعل اللازم فهو ما لا يتعدى أثره(....) فاعله(.....) ، ولا بتجاوزه إلى المفعول به بل يبقى فى نفس فاعله ويسمى (الفعل القاصر) لقصوره عن المفعول به ، كما يسمى (الفعل غير الواقع) أو (الفعل غير المجاوز) لأنه لا يجاوز فاعله .

ويصير اللازم متعدياً إذا أدخلت عليه همزة التعدية نحو : أذهبتم طيباتكم أو إذا ضعف ثانية نحو ــ فرحت المجتهد .

أو دل على مفاعلة مثل : جالس محمد العلماء .

(.) بفتح الهمزة والراء .
(..) بفتح الهمزة وسكون العين وفتح اللام .
(...) بفتح الهمزة وسكون الباء وفتح الألف المهموزة .
(....) بضم الراء .
(.....) بفتح اللام .

أو كان على وزن استفعل (العلاجية وليســت الصيرورية) مثل استخرج العمال الذهب أو سقط مع حرف الجر توسعاً مثل تمرون الديار أى تمرون بالديار .

وتلك هى أهم نقاط النحو العبارى توسعنا فيهــا شيئاً ما للفائدة أولا ، ولأنها تسهل فهم الإشارة ثانياً .

وفى رأينا أن المنطقة التى تشع الإشارة لا تخرج عن واحد من ثلاث :

(أ) ضرورة التأدب بشيخ فى هذه الطريقة .
(ب) باب الولاية .
(ج) باب الكرامة .

ذلك لأنها تحوى التزامات خاصة بصاحب الشــأن ، وامتدادات (تتعداه) إلى أسرته التى هو كبيرها .. ونعنى بالأسرة مريديه ومحبيه وسالكى طريقته ، وربما قومه وأهل بلده .

فبالنسبة لموضوع (الشيخ) فى الطريقة فإنه يمثل الهيمنة العليا التى لها الطاعة . ومن (اللازم) للشيخ أن يقدر وضعه على هذا النحو تمام التقدير ، فيكون قدوة فى الصغيرة والكبيرة . وأى خطأ يحتمل أن يهم به ربما يمتد على الفور إلى المحيطين به ، ووزره مضاعف : وزر الابتداع ووزر الاتباع .. وأهم الأشياء فى هذا المجال عدم التفريط فى الشريعة أو المساس بأدنى قاعدة من قواعدها ، وواجبه ألا يسترخص ، وأن يكون شعاره الدائم الأمر بالمعروف والنهى عن المنــكر ، وواجبه أيضاً **ألا يعطى علمه أو فضله بأجر** .. فإن العلمــاء ورثة الأنبياء — والأنبياء لا يؤجرون على أداء رسالتهم .

وواجبه كذلك ألا يعتقد فى نفسه العصمة .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

وألا يتزلف لمخلوق •

وألا يتقرب من سلطان •• بل على العكس يكون فى الأمة أشبه بضميرها الحى اليقظ ، تؤرقه مشاكل الناس وهمومهم ، ويلقى(•) بالقلمة القويمة الرشيدة غير هياب •• على ألا يكون فى ملأ •• لأن النصيحة على الملأ فضيحة ، ويكون رقيق الأسلوب مهذب اللفظ بعيداً عن العنف والاعتساف •

وفيما بينه وبين مريديه عليه أن يلحظ أن هناك فروقاً فردية داخل جماعة ، فيكلف كل واحد أو اثنين أو أكثر حسبما يرى التكليف (اللازم) بما يعود بالجدوى •• وتصبح هذه (الأفعال اللازمة) بداية لما هو أرقى وأعمق •• ويأتى وقت (تتعدى) فيه هذه الأفعال نطاق الفرد إلى ما هو أكثر ••

مع ملاحظة أن (التعدى) لا يكون بالمفيد فقط بل قد يكون (بالضار) إذا كان ثمة خطأ ما •• وهذا هو الخطير فى رسالة الشيخ

تجاه مريديه ، ويمتد ذلك طوال حياته إلى ما بعد مماته كما قيل :

فتى عيش(••) فى معروفه بعد موته   كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

إنهم يأخذون عنه (مباشرة) أو (بواسطة) كما يتعدى الفعل مباشرة أو بواسطة ، وترتبط الأجيال جيلا بعد جيل بأقواله وأفعاله بطريق الإسناد إليه والرجوع عليه •

حقاً •• إنها لمهمة شاقة تحتاج إلى فائق التقوى وجلد(•••) الفؤاد

(•) بضم الياء وسكون اللام •

(••) بكسر العين فالفعل مبنى للمجهول من (عاش) •

(•••) بفتح الجيم والدال •

وكشف البصيرة ! وبهذه أيضاً ينماز التصوف عن بقية العلوم فى كونه تربية مستمرة تنبنى على اكتساب فوائد فى كل وقت ، وعند كل موقف ، وما أسرع ما تتغير الأوقات على السالكين ، وما أشد ما تتكون المواقف !

فإذا انتقلنا إلى دائرة أوسع حيث : الولى والكرامة فإننا نجد أول شىء من قبيل (اللزوم) هو المحافظة على الشريعة ، ويقال دائماً إن أعظم كرامة للولى هى انتصاره على نفسه ، وإذا سمعتم أن فلانا يطير فى الهواء أو يمشى فوق الماء •• فاسألوا أولا •• أين مقامه من الشريعة ؟ ويقول القشيرى فى لطائفه « أفضل الأعمال ما كانت بركاته **(متعدية)** عن صاحبه إلى غيره •• فمن الفتوة أن يكون سعيك لغيرك » •

وتستطيع أن تدرك اتساع الدائرة التى يحدث فيها **(التعدى)** على أوسع نطاق حينما تسمع نصاً مثل **« كرامة الولى فرع على معجزة النبى »** •

فالنبى وصلت أفضاله إلى الولى ، لأنه ما وصل إلى ما وصل إليه إلا باتباع النبى • والولى (تتعدى) بركاته إلى الشيوخ ، والشيوخ (تتعدى) بركاتهم إلى المريدين ••• وهكذا •

وتستطيع أن تتصور كم (تعدت) بركات سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو فى المدينة ينادى « سارية » فى نهاوند أن يلزم : (الجبل الجبل) هو وجيشه •• وكان ذلك من أسباب الانتصار تحقيقاً لكرامة عمر •• فسارية والجيش وهم ينعمون بالظفر على الأعداء يذكرون صيحة عمر •• الآتية عبر الشفافية الأثيرية لتقودهم نحو هذه النهاية العظيمة •

أما من واقع حياة القشيرى نفسه •• فإننا نذكر كيف اختاره أهل خراسان والمشرق وهم فى منفاهم حول الحرم الشريف ليكون خطيبهم

ونـاصحهم إبان محنتهم ، وقد طالب غيبتهم عن أوطانهم ، فصعد المنبر ودعا الله دعاء استجيب فى ساعته •• حينما صاح قائلا : يا أهل خراسان بلادكم بلادكم والله إنى لأرى عدوكم الآن : الكندرى اللعين وهو يقطع إرباً إرباً ، ويرسل كل عضو منه إلى كل مكان ! وتحقق ذلك فى نفس اللحظة ـــ كما يقول الإمام السبكى(١) وتلك بركات شيخنا **(تمـــدت)** إلى مئات المنفيين ، فعادوا إلى أوطانهم معززين مكرمين •

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ترجمة القشيرى ، وارجع الى سيرته فى هذا الكتاب .

فصـــل [١٥] :

الأفعـــال الخمســـــة

« خمسة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون ونصبها وجزمها بســـقوط النون وهى : يفعلان وتفعلان ، ويفعلون وتفعلون ، وأنت تفعلين ٠

والإشارة : كذلك من الأفعـــال ما يكون مخصوصـــا ، ولا تقبل إلا بزيادة تقترن بها ، فهى يؤتى بها بشرط قران(٠) ينضم إليها ٠

كرمى الجمار مثلا ، لا يكون طاعة إلا فى الحج ٠

والسعى بين الصفا والمروة لا يكون عبادة إلا فى الحج والعمرة ٠

ومن قيضه(٠٠) لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولى لنفع له منه ٠٠ فإذا مضى وقت ذلك الشيخ فلا قدر(٠٠٠) لذلك الشخص ٠

---

(٠) بكسر القاف .

(٠٠) بضم القاف وتشديد الياء .

(٠٠٠) بضم القاف وسكون الدال .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

على عادتنا فى الشروح نريد أولا أن نعرف : من أين تنطلق اشارة الشيخ ؟ ثم نجرى عملية التنظير بما يفتح به الله علينا •

وبإمكاننا هنا أن نستنبط الإشارة على النحو التالى :

١ — معلوم أن الفعل هو حدث فى زمن •

٢ — القشيرى هنا يضيف بعداً ثالثاً هو الظروف المحيطة بالفعل عند حدوثه •

٣ — فليس يكفى أن نقول إن الفعل المضـــارع يعرب على نمط واحد ، هو الرفع بالضمة والنصب بالفتحة والجزم بسكون أو حذفه •• لأن هناك أفعالا مضارعة لا يجرى إعرابها على هذا النسق ، بل هناك ظروف خاصة — كاتصاله بألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة — تجعله يخرج عن النمط العادى فى الإعراب ، فهو يتم بالحرف ، ثبوت النون فى حالة الرفع وحذفها فىحالى النصبوالجزم•• **وهذه الخصوصية** لطائفة معينة من الأفعال تذكرنا بما شهدناه فى فصل سابق عن الأسماء الســتة •

فالمعادلة الجديدة هنا هى : فعل خاص = حدث + زمن + ظروف خاصة • ومن هذه الخصوصية فى الفعل تنطلق الإشارة •

ولكى يكون حديث القشيرى مفيداً فى أوسع درجات الإفادة ضرب أمثلة على ما يقول من الشريعة حتى يكون أكثر إقناعاً للسامعين والقارئين: فرمى الجمار لا يكون طاعة إلا عند أداء الحج أى أنه فى غير أوقات الحج لا يحسب له حساب • والسعى بين الصفا والمروة شعيرتان من خصائص الحج وخصـــائص العمرة •• وفى غير ذلك لا حســـاب • والاستشهاد بالمسائل الفقهية والكلامية كان ميزة للكتابة النحوية فى العهود الأولى (انظر مثلا خصائص ابن جنى وغيره) •

وأنت تستطيع أن تضرب للقاعدة بعد ذلك مئات الأمثلة فى يسر ؛ فصوم رمضان لا يكون فى شوال ، وزكاة الفطر (مقترنة) بموعد ؛ والصلوات الخمس لها شروط (قران) زمنى ميقاتى .. وهكذا .

فإذا ما اتضحت الرؤية أمامنا بالنسبة للشريعة سهل علينا أن ندخل بعد ذلك فى أمور تتصل بالحقيقة .. وهى بطبيعة الحال أخفى .. لأنها تتصل بالبواطن والجواهر .. وربما بالأسرار .

ولنضرب هنا مثلا ... (الدعاء) .

فالدعاء مطلوب فى كل وقت ، ولكن الشيوخ « يرون أن الأوقات مختلفة ، ففى بعضها يكون الدعاء بالتلفظ أفضل من السكوت — وهو الأدب ، وفى بعض الأحوال يكون السكوت أفضل من التلفظ وهو الأدب ، والعارف يقدر ذلك حسبما يشار إليه ، فإذا وجد إشارة إلى الدعاء المنطوق فهو له أولى[1] ، وإن وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم ، ويتضح ذلك بمراعاة الحال من حيث البسط والقبض ، فعند البسط يكون الدعاء ، فإن عاد إلى قلبه شبه زجر وقبض فالأولى له ترك الدعاء فليس هذا وقته . أما إذا لم يجد فى قلبه زيادة بسط ولا حصول زجر .. فالدعاء وترك الدعاء ها هنا سيان »[2] .

والخلاصة أن يكون العبد خاضعاً للوقت (تذكر فى الفقرة وقت الحج والعمرة والصلاة ، والسعى بين الصفا والمروة ..)

ولو أريد منا أن نذكر أهم كلمات القاموس الصوفى لقلنا إنها لفظة « الوقت » فهى أهم المصطلحات فى عرفهم . ولأجل هذا افتتح القشيرى

---

(١) بفتح الألف وسكون الواو .
(٢) الرسالة ص ١٣١ .

بها باب مصطلحه فى « الرسالة » ، ولأجل هذا جاءت بعض التعـاريف للتصوف والصوفى على هذا النحو المقتضب الدال : «الصوفى ابن وقته»٠

وهذه العبارة القصـيرة تعنى الشىء الكثير فى كل(٠) من التربية والمعرفة عند القوم ٠ إنهـا تعنى استرسال القلب مع الله تعـالى على ما يريد ، والانقياد الكامل لكل تصريف ، وعدم التطلع إلى المستقبل ٠٠ هذا الاطمئنان الدال على الرضا هو فى قمته آية من آيات الولاية :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ٠

فالوقت إذاً بهذه المعانى يكاد يطابق ما قلناه بأسلوبنا فى مستهل الشرح لهذه الفقرة « مراعاة الظروف التى يحدث فيها الفعل » ٠

وبهذا الفهم فإن على العبد أن يلتزم بمراعاة المقام الذى هو عنده ، فإذا رزق حالا من الأحوال عليه ألا يجاوز إطار هذا الحال إلى ما هو أرقى ٠٠ وإلا وضع الشىء فى غير محله على حد تعبير المتنبى وضـع السيف فى موضع الندى أو وضع الندى فى موضع السيف ٠٠ ففى الحالين إخلال وسوء أدب ٠

والشيخ المربى يضع علاجـاً لمثل هذه الحالة التى يعلم بخبرته الشخصية ـــ سواء مع نفسه أو مريديه ـــ أنها قابلة للحصول ذات مرة أو مرات فيقول : « إن سـنح فى باطنك من الوساوس أمر فاستعذ بالله يدركك بحسن التوفيق ، وإن هجس فى صدرك من الحظوظ خاطر فاستعذ بالله يدركك بإزالة كل نصيب ، وإن لحقتك فى بذل المجهود فترة فاستعذ بالله يدركك بإدامة آلائه ، وإن اعترتك فى الترقى إلى محل الوصول وقفة فاستعذ بالله يدركك بإدامة التحقيق ، وإن تقاصر عنك شىء من خصائص

---

(٠) بفتح اللام والكاف ٠

. . . .

القرب ـ صيانة لك عن شهود المحل ـ فاستعذ بالله يثبتك له بدلا من لك بك) .

هذه هى حـدود الدعاء ومواضـع حدوثه وصيغته المحـدودة « بالاستعاذة بالله » وغير ذلك وفوق ذلك فغير مسموح به .

(فلكل فعل ظروفه الخاصة جداً) .

* * *

وينهى الشيخ الفقرة بنموذج لعلاقة خاصة ولكنها مريـبة أى ليست خالصة ، ذلك هو الإنسان النهاز النفعى الذى يقترب من أحد المشـايخ أو أحد الأولياء .. لا على سبيل الاستفادة أو التبرك أو سلوك طريقة بل لتحقيق مأرب دنيوى ، فيحسب(*) على الشيخ أو الولى ويرتبط باسمه حتى لتكاد تجمعهما (ألف الاثنين) ، وهمـا على الحقيقة متناقضان ، لكل منهما (فعله) الخاص ونمطه الخاص .. وليس أدل على ذلك من أنه بعد مرور الأيام ، وغياب الشيخ أو الولى ينكشف أمر ذلك النهـاز الدنىء فيعرف الناس بعد انكشاف غطاء الزيف عنه أنه دعى(**) لا قيمة له..فالأصل فى المحبة « ألا تكون لغرض ، إذا زال الغرض زالت المحبة» كما يقول الجنيد .

وكأنى بالشيخ يريد أن يقول إن (ألف الاثنين) و (واو الجماعة) ينبغى ألا يلقب بهما إلا أشكال متماثلة .. حتى يتم لفعلهما أن يقع فى دائرة الخصوص .

(*) بضم الياء وفتح السين .

(**) بفتح الدال وكسر العين .

فصـــل [١٦] :

الصحيح والمعتـــل والمضـــاعف

« الأفعال على أقسام : صحيح ومعتل ومضاعف » .

الإشارة : كذلك من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة .

وحروف العلة ثلاثة : الواو والألف والياء .

وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة .

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى .

كذلك فإن بعض صنوف علل الأفعال الطف وبعضها أبدى(٠) » .

---

(٠) بسكون الباء وفتح الدال .

وضع الشيخ هذا الأصل الثلاثى لبنية الفعل العربى (ف ع ل) نصب عينيه وهو يستخرج الإشارة ، فكما أن أفعالا مثل : فهم وعبد سليمة الأصول ، وأفعالا مثل : وجد وقال وسعى تعتل فى البداية أو الوسط أو النهاية •• كذلك من أفعال العبد ما هو سليم من بدايته إلى نهايته ، ومنها ما تعتوره علة ما فى مرحلة من مراحل الطريق ، فيصاب العبد بالتوقف فترة تطول أو تقصر ، وربما تكون العلة قاتلة فيحدث التوقف التام •

ومن الطبعى أن يقع ذلك نتيجة المخالفات •• يقول فى لطائفه عند قوله تعالى :

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » •

(من استعمل جوارحه فى الطاعات وصانها عن استعمالها فى صنوف المخالفات فقد سلم الأمانة على وصف (السلامة) واستحق المدح والكرامة •

ومن دنسها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة واستوجب الملامة)(1) •

وقد سبق أن ذكرنا شيئاً عن الألف والواو والياء عند إشباع حركات الفتحة والضمة والكسرة •• ولكن ذلك كان فى نطاق الدور الإعرابى ، أما هنا فهى أصول فى بنية اللفظة ، وبالتالى فهى أدخل فى صميم (فعل) العبد فى مراحل الطريق ، وليست زائدة عليه •

ومن هنا اختلفت إشارات الشيخ فى الموضعين ، لأجل ذلك نراها تستحق اهتماماً أكبر وبخاصة من الناحية الصوتية مستفيدين من علم

(1) اللطائف المجلد الثانى ص ٣٤٨ •

الأصوات فى القديم والحديث بمقدار ما يسمح المقــام ولا يثقل على القارىء ، ورائدنا فى النهاية فهم التنظير فى الإشارة : —

فالواو حركة ضيقة خلفية تحتاج إلى جهد عضلى أكبر من زميلتيها، لأنها تتكون بتحرك أقصى اللسان فى حين أن الكسر حركة ضيقة أمامية لأنها تتكون بتحريك أدنى اللسان ، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصى اللسان .

والألف ضعيف فى غاية اللين ، ولا يجد هذا الصوت عائقاً يعوقه فى زوايا الفم حيث يكاد اللسان يكون مستوياً فى قاع الفم مع ارتفاع خفيف فى وسطه ، كأنما ينطلق على هواه .. فإن الفم والحلق منفتحان تماماً .

أيمكن بعــد ذلك أن نناظر بين الــواو و (الرياء) ، وبين الألف و (الإعجاب) وبين الياء و (المساكنة) ؟

وقبل أن نزيد التنظير ايضاحاً وتأكيداً نلتفت إلى أن الشيخ تجنب حركات أخرى تعرفها العربية كالإحالة إلى الكسر أو الضــم والتفخيم والترقيق .. الخ ، ويدلنا هذا على أن الشيخ تجنب ما يتصل باللهجات واكتفى بما تعرفه الفصحى ، لأن (نحو) الفصحى هو الأغلب الأعم .. وهو منهجياً موضوع التنظير فى هذا الكتاب .

ولنتحدث بشىء من تفصيل عن آفات النفس الثلاث التى ذكرها فى الفقرة :

١ — الريــاء :

وردت مادته فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع : —

* الذين هم يراءون (الماعون) .

* **يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (النساء) .**
* **لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس** (البقرة) .
* **والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** (النساء) .
* **ولا تكونـوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء النـاس** (الأنفال) .

إذا كانت (الواو) كما أوضحنا الآن أثقل من زميلتيها جهداً وصوتاً فإن الرياء — كما أوضحت النصوص القرآنية المذكورة — يبدو أثقل وزراً من الإعجاب والمساكنة ، فالمرائى لا يجعل طاعة الله سبحانه فى المحـل الأول بل يجعل استجلاب اطلاع الناس عليه فى المحـل الأول ، وتلك لعمر الحق شنيعة الشنائع . روى أحمد بن حنبل عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك[1] الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء .. يقول الله عز وجل للمرائين — إذا جزى الناس بأعمالهم — إذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » .

وإذا صح ذلك فى البيئة التدينية العامة فإنه هنا فى الطريق الصوفى أشد هؤلاء وأعظم نكالا ، فالصدق عماد الأمر هنا من البداية وفى الوسط وإلى النهاية ، ولا يستطيع أى سالك فى مرحلة أن يشم شيئاً من الخير فيه إذا داهن نفسه أو غيره ، فى السر أو فى العلن . وهم لهول ما يفعل الصدق بهم تقوم قيامتهم فى اليوم مرة ومرة بينما « يستطيع المرائى أن يثبت على حال واحدة أربعين سنة »(٢) — كما يقول الجنيد .

(١) بكسر الشين المشددة .
(٢) الرسالة ص ١٠٦ .

وبهذا المعيار يخرج من الطائفة كل من ارتدى الصوف أو الخرقة ليأخذ سمت الصوفية — وهو غير صادق فيما يفعل ، فسرعان ما ينكشف أمره ، ويفتضح ستره .

ويخرج كذلك من ادعى (المحو) واقترف مخالفات الشريعة بدعوى أنه فني عن نفسه ، وقد تناول الشيوخ هذه الموضوعات وأضرابها في مواضع كثيرة .. يقول الجنيد :

« ليس الاعتبار بالخرقة إنما الاعتبار بالحرقة »(٣) .

بل يمتد ذلك إلى شعراء خارج البيئة الصوفية حيث يقول محمود الوراق (من شعراء القرن الثالث الهجرى) فى رجل لبس الصوف ابتغاء التستر :

تصوف كى يقال له أمين   وما يعنى التصوف والأمانة
ولم يرد الإله به ولكن   أراد به الطريق إلى الخيانة(٤)

ويقول أبو سفيان الثورى : « لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء »(٥) .

ويحذر ابن السماك أمثال هؤلاء المرائين قائلا : « والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفاً لقد هلكتم »(٦) .

وقد وصلت موجة الرياء حدا مستطيراً حينما دخل التصوف غير قليل من أعداء الإسلام الذين عجزوا عن ضربه فى وضح النهار فراحوا

(٣) تذكرة العطار ج ٢ ص ١٠ .
(٤) العقد الفريد ج ٦ ص ٢٢٦ .
(٥) اللمع للسراج ص ٤٢ .
(٦) العقد الفريد ج ٦ ص ٢٢٦ .

يتسترون خلف أردية الصوف وانحشروا فى زمر الصوفية كى يحققـــوا مآربهم خلف الأستار المسدلة !

٢ ــ الإعجــاب :

إذا كان المرائى ينظر إلى أبناء جنسه فإن المعجب ينظر إلى نفسه ، تراه يمشى كأنما يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا !! كأنه (الألف) المنتصبة!!وأولى من ذلك ترك الاختيال والافتخار يقول تعالى: « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا** » ،وكان عمربن الخطاب يسرع فى مشيته لأن ذلك يبتعد بها عن الزهو ، وبلغ به التواضع أن حمل على عاتقه قربة ماء فلما قيل له : لا ينبغى لك ذلك أجاب : لما جاءتنى الوفود سامعة طائعة دخلت فى نفسى نخوة فأحببت أن أكسرها .

وبلغ عمراً بن عبد العزيز أن ابنه اشترى فصاً بألف درهم فكتب إليه عمر : « إذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن واتخـــذ خاتما من درهمين واجعل فصه حديداً واكتب عليه رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه » .

يعرف الصوفية هذه السمات فى أسلافهم من الصحابة والتابعين ، ويلحون على الاتصاف بالتواضع ، والتذلل فى جنب الله « فمن اعتز بذى العز فذو العز له عز » .

ويقول ابن أدهم :

« لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه » .

ويقول ابن المبارك :

« العز فى التواضع فمن طلبه فى الكبر(٠) لم يجده » .

---

(٠) بكسر الكاف وسكون الباء .

ويلتفت القشيرى إلى إشارة فى قوله تعالى : **« مختالا فخوراً »** فيربط بين ذلك وبين الفخور من الإبل وهو الذى سدت أخلافه ليتجمع فيها الدر(٠) (اللبن الغزير) فيتوهم المشترى أن تلك حالة على الدوام ... وما هو كذلك(٧) .

٣ ـ المساكنة :

فى المساكنة ما فى (الياء) من الخفض والاستنامة ، وفيها ما فيها من الاسترخاء والميل .

يبدأ ذلك كله عادة (بميل) الإنسان إلى نفسه فيلاحظها بإعجاب وحب ، ثم ينتقل ذلك إلى مخلوق آخر .. وتكون النتيجة أن ينسى العبد ما كان قد وطد العزم عليه .. وهو أن يحب المحبوب الأسنى دون سواه .

فهى إذاً ـ فى هذا الطريق ـ من أعظم العلل بكل مقاييس هذا الطريق تلك العلل التى تتفاوت خفاء وظهوراً كما يقول الشيخ فى الفقرة (بعض صنوف علل الأفعال ألطف وبعضها أبدى)(٠٠) .

ويذهب القشيرى فى ذلك إلى أن بعض الأولياء ـ وقد سما قدرهم ـ لا يسلمون من المساكنة « حين يلحظ الولى كرامة بدت عليه فيلاحظها »(٨) .

ويقول عند قوله تعالى : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله العظيم » .

« ومن ذلك .. أنه إذا جاء الحق بكشف أو تجل أو إقبال ، فمن حقهم ألا يلاحظوها فضلا عن أن (يساكنوها) لأنهم إذا لم يرتقوا عن

(٧) لطائف الاشارات المجلد الأول ص ٣٣٢ .
(٨) الرسالة ص ١٧٤ .
(٠) بفتح الدال المشددة .
(٠٠) بفتح الألف وسكون الباء .

ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحق مكر الله بهم بأن شتتهم فى تلك الأحوال من غير ترق عنها أو وجود زيادة عليها »(٩) .

فالخطر هو الاستمرار فى (المساكنة) بعد ظهور بوادرها الأولى ، لأن تبسيط الأمور وتهوينها بعد الردع الأول لا يؤدى إلى الخير(١٠) .

« ومن الأفعال ما أوله حرف علة .. وهو المثال .

كذلك : من أفعال العبد ما كان الدخول فيه ما لا يكون على حد الإخلاص للحق سبحانه وتعالى .

ومن الأفعال ما هو أجوف ، وهو الذى حشوه حرف علة .

كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله زلة كالغيبة والغفلة .

ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة .

كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذى تعقبه آفة ، فإن قبول القرب(*) موقوف على وفاء العواقب .

ومن الأفعال ما هو لفيف ، وهو الذى اجتمع فيه حرفان من حروف العلة إما مقترنين أو مفترقين .

كذلك من الأفعال ما تتوالى عليه الآفات ، فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الإعجاب .

---

(٩) لطائف الاشارات جـ ٣ ص ٨٧ .

(١٠) وانظر كتاب « ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى » للقشيرى تحقيق د. بسيونى فصل « حينما يقتحم الشيطان حصن أرباب الأحوال » .

(*) بضم القاف .

الصيغة الثلاثية الأصلية للفعل هى على الترتيب (ف ع ل) فالمثال ما اعتلت فاؤه نحو وعد وييس ، وإنما سمى بذلك لأنه يماثل الصحيح فى خلو آخره من الإعلال .

والأجوف ما اعتلت عينه نحو قال وباع وخاف ، وسمى بذلك تشبيهاً بالشيء الذى أخذ ما فى جوفه فيبقى أجوف ، وذلك لذهاب عينه كثيراً نحو :

قلت ، وبعت ، ولم يقل ولم يبع . وألف الأجوف لا تكون أصلية أبداً بل تكون منقلبة عن واو أو ياء مثل قال وباع .

وفى الإشارة أنه كما تصاب (العين) فى الوجه بالرمد أو العمى كذلك قد تصاب عين القلب بهما نتيجة فعل أو أفعال رديئة دنية . ومن أصيب عين قلبه لا يستبصر طريقه .

يقول فى اللطائف :

« والذى سد(·) بصره أنى ينفعه طلوع الشمس والنجوم ، وكذلك الذى سدت بصيرته أنى تنفعه شواهد العلوم ودلائل الفهوم ، وقالوا فى معناه :

وما انتفاع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم[11]

أما الناقص فلامه حرف علة ، وهى تنقص بالحذف فى بعض التصاريف مثل سمت وغزوا . وألف الناقص لا تكون أصلية أبداً بل هى منقلبة عن ياء فى رمى وعن واو فى غزا .

---

(١١) لطائف الاشارات المجلد الثانى ص ٦١٨ .

(·) بضم السين وتشديد الدال المفتوحة .

واللفيف قسمان : مفروق وهو ما اعتلت فاؤه ولامه نحـــو ولى ، وعى فالحرف الصحيح فارق بين حرفى علة .

ومقرون وهو ما اعتلت عينه ولامه نحو : رمى ، عوى ، قوى . وسمى بذلك لاقتران حرفى العلة أحدهما بالآخر .

والإشارة بعد الشروح السابقة تبدو على مرأى العين ، والخلاصة أنه إذا (سلم) العبد من الزلات والآفات من بداية الطريق وفى وسطها وعند بلوغ غايتها وصل[*] (صحيح) الجوارح والجواهر « فإن قبول القرب موقوف على وفاء العواقب» ، فإذا عرف العبد أن العبرة بالخواتيم لزم الحذر من أول خطوة إلى منتهى الخطوات . والصدق والإخلاص هما الوقود الأساسى لكل مراحل الحياة الروحية ، فبدونهما ينهار كل شىء مهما كانت الجهود السابقة المبذولة بالغة أقصى الحـــدود ، بنفس السرعة التى (ينحذف) بها (حرف العلة) من الفعل عند حدوث طارىء على (الفعل) متصل (كالمقرون) أو منقطع (كالمفروق) .

وليعلم العبد أن أقوى أعدائه الشيطان ، ولكن لو تأمل لعرف أن (الشيطان) ليس له كل هذه السطوة ، فهو لا يؤثر[**] إلا من كان عنده استعداد للسقوط ، ولا يقرب عبـــاداً للرحمن يعرفونه ويعرفون كيف يقرعونه « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وهو كما يصفه القشيرى عاجز تماماً لأنه لو ملك قدرة على الإضلال لاستطاع أن يملك قوة على الهداية .. هداية نفسه أولا !! ، فالمالك للشىء يملك القدرة على نقيضه .

ويأتى (الذكر) المستديم لله بالقلب وباللسان بل بالسر ليكون هو

(*) بفتح الواو والصاد واللام .

(**) بكسر الثاء .

ففى معركة التخلية والتحلية التى يجتازها العبد تتنازعه قوتان إحداهما تجنح به نحو حظوظه وأمانيه والأخرى تشده إلى حقوق الله والتزامات الرحلة عليه ، وبكلمات أخرى يحدث صراع بين إرادته الخاصة وإرادة مولاه ، وتتوقف الخطوات التالية على حسم هذا الصراع ، واختيار أحد الجانبين — يقول الحارث المحاسبى فى كتابه العظيم : « الرعاية لحقوق الله » : « إذا بدأ العبد بحظ نفسه فأسقطه ، وأحل محله حق الله كان له الأجر ، أما إذا بدأ بحق الحق وانتهى بحظ نفسه فقد خسر كل شىء .

ومن النماذج القرآنية لهذا الموقف قوله تعالى :

« يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

ونختم فقرة المضعفات بمقتبسات من آراء الشيخ فى هذا الشأن كما جاءت فى لطائفه يقول : (وعلى قدر **تضعيفه** فى طاعاته فإن سعيه مشكور ومقبول ، ومع القبول يكون **(التضعيف)** والتكثير ، فكما أن الصدقة يربيها(•) كذلك طاعات العبد يكثرها الله سبحانه وينميها)[١٢] .

وقوله « يربيها » إشارة إلى قوله تعالى « ويربى الصدقات » .

وإلى قوله تعالى : « والله يضاعف لمن يشاء » .

---

(١٢) اللطائف الجلد الثانى ص ٣٤٢ .

(•) بضم الياء وسكون الراء وكسر الباء .

ويوضح هذا المعنى فى موضع آخر بقوله :

« وإذا علم الله صدق قلب عبد أمده بحسن الأمجاد وأكرمه بجميل الامتداد ، وييسر عليه العسير من الأمور ، وحفظه من الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور »(١٣) .

(١٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٣٤٤ .

فصـــل [١٧] :

الإدغـــــام

« الإدغام الإخفاء ، فالحرفان فى التقدير موجودان — وإن كانا على اللسان بوصف الانفراد .

وفى هذا إشارة إلى ما يقوله القوم فى وصف الجمع وجمع الجمع . والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز فى بعض أحوال التصريف .

كذلك صاحب الجمع له رجـــوع ورد(٠) فى بعض الأحايين إلى عين الفرق » .

---

(٠) بفتح الراء وتشديد الدال المضمومة المنونة .

الإدغام فى اللغة الإدخال •• تقول أدغمت اللجام فى فم الدابة أى أدخلته فى فيها (ابن يعيش : باب الإدغام) •

وفى الاصطلاح : إدغام حرف فى حرف آخر من جنسه بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً ، وينطق بهما اللسان نطقاً واحداً •

والإدغام ثلاثة أقسام :

١ ـ ممتنع وذلك إذا تحرك أول المثلين وسكن ثانيهما مثل : حللت •

٢ ـ جائز أى يجوز الإدغام والفك وذلك إذا تحرك المثلان فى كلمتين : مثل جعل لكم ، أو كانا تاءين فى افتعل مثل استتر واستر •

٣ ـ واجب وهو الذى تحدث عنه الشيخ فى الفقرة ، وهو ما سكن الأول وتحرك الثانى فى كلمة واحدة مثل : مد (أصلها مدد) ويمد مداً والهدف من الإدغام تخفيف النطق ، ويرجع ذلك إلى تأثير الأصوات المتجاورة بعضها فى بعض مما يؤدى إلى **(فناء)** صوت فى صوت آخر فيكون ذلك يسيراً فى النطق •

ومن هنا تأتى ـ فى رأينا ـ إشارة الشيخ : موجود **(يفنى)** **فى موجود** فيكون الناتج بوصف (الانفراد) على اللسان • وإذا كان الحرف الأول ـ فى نحو الظاهر ساكناً والثانى متحرك فهذا هو بالضبط ما يحدث فى نحو القلوب • إذ ينبغى أن يكون العبد ساكنا عند حدوث (الهيبة) • يقول فى كتابه « ترتيب السلوك »

---

(١) ترتيب السلوك شرح بسيونى ص ٦١ •

• • • • • • • • • • • • • • • • •

(وتكون المناجاة بين العبد والرب فإذا تجلى الحق بالهيبة (سكن) العبد سكوناً تاماً • وعندئذ يمتلىء السر بهيبة المولى عز وجل ، وتتوقف كل حركة العبد ونطقه)(١) • إن العبد هاهنا **فى درجة (الصفر)** من حيث الإرادة والحركة والكلام •• ولم يعد هناك إلا (واحد) بعد هذا المصير• ويشبه الشيخ هذا السكون (بالكائن الحى وقد حومت حـوله الطيور الجوارح ، فهى لا تسقط عليه وفيه حركة)(٢) •

وحالة التوحيد هذه تختلف عن الوحـدة فى التصوفات الأخرى ، إنها فى بساطة شديدة فناء إرادة فى إرادة ، وليس فيها شىء من حلول أو امتزاج أو تقمص •• ونحو ذلك •

ويعبر الموحدون العظام فى التصوف الإسلامى عنها بأقوال بعضها سائغ لدى الفكر العادى وبعضها لا يتذوقه إلا العالمون ببواطن الأمور •

يقول فريد الدين العطار : (قلت(•) هأنذا قد فنيت •• قال : كذلك منحتك البقاء ، حين ترى نفسك عدماً أهبك وجوداً لا يتصور(••))(٣) •

أما الحلاج فيعبر عن حالة **(الإدغام) الروحى** التى انتهى إليهـا بقوله هذه القولة المشهورة **« أنا الحق »** •

وهى لا تستحق — فى رأينا — كل ما قيل عنها فى عصره وبعد عصره من ضجة ، وما كان ينبغى — لو أحسن(•••) فهمها — إلا أن تمر فى هدوء •

---

(٢) ترتيب السلوك شرح بسيونى ص ٤١ .

(٣) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار انظره منقولا عند عزام فى كتابه « التصوف وفريد الدين العطار » ص ١١٤ .

(•) بضم التاء .

(••) بضم الياء .

(•••) بضم الألف .

فقوله « أنا الحق » معناها فى بساطة أنا الحسين بن منصور الحلاج لست الحق ، فقد ذهبت كل مشاعر (الأنا) المفكرة و (الأنا) الفاعلة ، وحين نطق ــ نطق بالحق ، أى أن الذى ينطق عنه وفيه هو الحق •• وربما لا تعجب عبارتنا الأخيرة بعض المتسرعين ، ولكن الذى نريده أن كل الكائنات •• من حيوان ونبات وطير ناطقة بالوحدانية ، لأنها دلالة على الواحد •• فكيف نستغرب أن يكون ذلك شاملا أيضاً لهذا العبد المحب الواله الذى أسقط كل إرادة وفعل وتصريف عن ذاته **(وأدغم)** كل شىء فى الهيمنة العليا ، فهى التى تنطق عن نفسها فيه كما تنطق فى الشجرة • مثلا يقول الحلاج فى ذلك :

أقلب قلبى فى سواك فلا أرى سوى وحشتى منه ومنك به أنسى(٠)

فهأنا فى حب الحياة (مجمع)(٠٠) من الأنس فاقبضنى إليك من الحبس

ويقول : :

بينى وبينك إنى يزاحمنى فارفع بإنيك إنيى من البين(٤)

لقد ارتفع الحلاج إلى مرتبة (الجمع وجمع الجمع) ونتحدث عن ذلك بعد لحظات •

« والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز فى بعض أحوال التصريف • كذلك صاحب الجمع له رجوع ورد(٠) فى بعض الأحايين إلى عين الفرق » •

---

(٤) شخصيات قلقه للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٢٤ •
(٠) بتشديد الدال •
(٠) بضم الالف •
(٠٠) بفتح الجيم وتشديد الميم المفتوحة •

. . . .

ويكون البروز عند فك الإدغام ، ومن الطريف أن نجد لذلك شاهداً صوفياً يقول الخواص (ت ٢٩١) :

إذا ما (مددت) الكف ألتمس الغنى   إلى غير من قال اسألونى •• فشلت(•••)
سأصبر نفسى إن فى الصبر عزة   وأرضى بدنيائى — وإن هى قلت(••••)

وكأنهما بعد (الإدغام) وصيرورتهما واحداً فى الكتابة يمكن أن يعودا مرة أخرى فى ظرف معين إلى (الانفكاك) •

وحال (الجمع) لا تكون إلا بعد فناء الآثار والأغيار والبقاء بالحق•

وأما حال (جمع الجمع) فهو فوق هذا ، ومعناه الاختطاف كلية بالقبضة الإلهية والفناء تماماً عما سوى الله سبحانه •

ثم تأتى خلال ذلك حال **الفرق الثانى (وهى بالضبط تشبه حالة فك الإدغام)** « حيث يرد العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض كى لا تفوته » وما أن ينتهى العبد من ممارسة العبادات المفروضة عليه فى مواقيتها دون إخلال حتى يعاد مرة أخرى إلى ما كان عليه من (جمع)••

وكل هذه التصريفات فيه هى من لدن الحق وحده ، أما هو : « فقد ذهب فى الذاهبين » كما يقول البسطامى •

المهموز

« ومن أقسام الفعل المهموز(•) والهمزة مدة(••) فى الحلق • كذلك

(•••) بضم الشين .
(••••) بفتح القاف وتشديد اللام .
(•) بضم الزاى .
(••) بتشديد الدال مع التنوين .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

قد يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول » •

المهموز ما كان أحد أصــوله همزة نحو : أمر ، ألف ، رؤس(•••) (أى صار رئيساً) وسأل وقرأ وهنىء •

ويمكن أن يكون الفعل مهموزاً ومعتلا مثل رأى ، ويمكن أن يكون مضعفاً ومهموزا مثل نبأ(••••) •• والمسألة اعتبارية محضة •• ولهذا لم يجعل الشيخ « للمهموز» فصلا مستقلا•وإنما أتى به فى معرض معالجته « للفعل » فى نحو الظاهر عموماً حتى يناظر له فى نحو الباطن • فبعد أن تحدث عن (العلل) التى تصيب الفعل ، وعن (ادغام) الذى يحدث فى بعض حروفه يطرق هنـــا موضوع (الهمزة) فى حرف من حروف هذا الفعل •

ومن المعلوم فى الأصوات أن الهمزة أكثر الأصوات الساكنة شدة ، وأن النطق بها شاق أعظم ما تكون المشــقة ، حتى أن بعض اللهجـــات تسقطها أو تمدها تسهيلا (أى تحولها إلى حرف مد) ، وقريش تخففها •

فإذا كان للهمزة هذه القوة الصوتية التى تفوقها على ماعداها من الأصوات فكذلك فإن بعض الأعمال التى يقوم بها العبد قد تكون مرشحة للقبول أكثر من غيرها •

وقول الشيخ فى الفقرة « قد يصعد » يفيد ذلك ، ولــكنه دقيق التعبير ، إذ أن أحداً لا يملك أن يحكم على الأفعال الإنسانية بالقبول أو الرفض فهــذا مرده إلى علام الغيوب ، وبلغ الشــيخ الدقة باستعمال « قد » التى تفيد ــ كما نعلم ــ التحقيق والتأكيد كما تفيد التكثير ــ وهى أيضاً تفيد التقليل ، وكلها محتملة •

(•••) بفتح الراء وضم الهمزة التالية •

(••••) بفتح النون وتشديد الباء المفتوحة •

المهم •• أن الشيخ يقصد إلى أن يعزز المرء أعماله ، فبدلا من أن يردفها بما يضعفها يردفها بما يقويها حتى (تصعد مقبولة) •• والأمثلة على ذلك كثيرة •• فالنوافل تدعم الفرائض ، واستدامة الذكر آناء الليل وأطراف النهار زيادة مستحبة•والخلوة ، وعدم الجنوح إلى الرخص(•)، والأخذ بالأحوط ، واتباع الأشق دون الأسهل ، والذهاب إلى الحج رغبة فى رؤية رب البيت دون الاكتفاء بشكليات الشعائر ، وانفاق المال — الذى هو مال الله على صاحب حق فيه دون أن تدرى الشمال بما بذلت اليمين •• كل ذلك وأمثاله دواع (تصعد) بالفعل ، وهى كما ترى نقيض للدواعى التى (تهبط) به : كان الواسطى (يأمر تلاميذه لا بالتزام الطاعات ولا حتى برؤية التقصير فيها مهما زادت وحسنت بل كان يأمرهم بالفناء عنها والبقاء بمنشيها ومجريها) •

لأجل هذا نستطيع أن نصرح بدون تحفظ بأن الصوفية كانوا من أشد البيئات الدينية نفاذاً فى جوهر العبادات ، ومنحها نظرة خاصة مبنية على تفهم جواهرها ، وتفقه الأغراض البعيدة منها ، وتنحية المظاهر عنها ، حتى أصبحت الصلاة والصوم والحج والزكاة وكأنها ذات دلالات أعمق مما يعرفه سائر الناس •

وفى هذا رد ضمنى على من يتهمون الصوفية بإهمال الشريعة !

(•) بضم الراء المشددة وبفتح الخاء .

مقال فى نحو الظاهر :

عن الفصول القادمة والعامل

(١٨) ، (١٩) ، (٢٠)

المبتـــدأ والعامل فى رفعـــه

بعد ما انتهى شيخنا من دراســـة الفعل بدأ يدرس الاسم وبدأ الاسم بالمرفوعات ، وبدأ المرفوعات بالمبتدأ • ومن البدهى أن لهـــذا الترتيب ارتكازه الفكرى عنـــده ، وسيتضح ذلك من المتـــون والشروح القادمة •

ونلاحظ أيضـــاً أنه فى باب الابتـــداء وما تلاه يردد كثـــيراً لفظ (العامل) •• وهذه تذكرنا بقضية هامة شغلت نحاة المشرق والمغرب بل امتدت إلى عصرنا الحديث •

فما العامل فى رفع المبتدأ ورفع الخبر ورفع الفاعل ؟

وأيضاً ما العامل فى نصب المفعول به ؟

ما الذى يجعل الفعل المضارع المتجرد من العوامل يرفع(•) ؟

بادىء ذى بدء •• فإن العامل عند النحاة هو ذلك الذى يحدث(••) المعنى ويترتب عليه الإعراب ، وقد جرت أعراف النحـــاة على تقسيم العوامل إلى لفظية ومعنوية فالعامل اللفظى يكون له أثر فى التركيب بحيث لو افترضت إزالته أو كفه لتغير التركيب شكلا ومعنى ، وذلك مثل كان وأخواتها ، وإن وأخواتها ، وحروف الجر ، وأدوات الجزم •

(•) بضم الياء وفتح الفاء •

(••) بضم الياء وكسر الدال •

أما العامل المعنوى فهو : كالابتداء ، ووقوع المضارع موقع الاسم — وهو التجرد • وقد اختلف فى العامل من نواح : —

فيرى بعضهم — كسيبويه — أنها فلسفية(١) • بينما يرى ابن مضاء القرطبى أنها توقيفية (أى من فعل الله تعالى) •
(الرد على النحاة لابن مضاء ٨٧)

ويهاجم القائلين بعمل العوامل قائلا : « هذا قول لا يقبله عاقل ؛ فهذه العوامل لا تعمل بألفاظها ولا بمعانيها لأنها لا تفعل بإرادة ولا بطبع » •

ويشتد هجومه على القول بالعوامل المحذوفة ويرفض تقديراتهم لأنها تتصل بلغة التنزيل ، ولغة التنزيل منزهة عن هذه التقديرات •• « ومن بنى الزيادة فى القرآن بلفظ أو معنى عن ظن باطل فقد تبين بطلانه ، وقال فى القرآن بغير علم ، وتوجه الوعيد إليه » (ابن مضاء ص ٩٢ وما بعدها) •

وليس من شك فى أن ابن مضاء فى حملته هذه متأثر نزعة الظاهرية فى الفقه ، تلك النزعة التى كانت سائدة فى الأندلس •

وقد تكون مخالفة أهل المغرب لأهل المشرق فى بعض مسائل اللغة والنحو والأدب والتفسير والفقه والكلام من قبيل المخالفة التى تود تأسيس الشخصية العلمية المستقلة ، وربما حركت كل هذه الكوامن عوامل سياسية •• وربما •• وربما فليس هذا موضوعنا هنا •

أما ابن جنى فيردها إلى المتكلم نفسه يقول (•• وأما فى الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم لا لشىء غيره ، وإنما قالوا : لفظى ومعنوى لما ظهرت آثار فعل

(١) الكتاب ١/٣ •

. . . .

المتكلم بمضامة اللفظ ، أو باشتمال المعنى على اللفظ ، وهـذا واضح) الخصائص ١٠٩/١ وعالج ابن الانبارى الموضوع نفسه عند بحثه عن رافع المبتدأ ورافع الخبر (الإنصاف المسألة الخامسة) .

وذهب الكوفيون إلى أن نصب المفعول يعود إلى الفعل والفاعل جميعاً ، ومنهم من ذهب إلى أنه الفاعل وحده . ويذهب خلف الأحمر (وهو كوفى) إلى أن العامل فى المفعول معنى المفعولية ، والعامل فى الفاعل معنى الفاعلية .

أما البصريون فيرون أن الفعل وحده يعمل فى الفاعل والمفعول جميعاً . معنى هذا أن كلا من المدرستين : البصرة والكوفة تأخذ بالعامل ولكنها تختلف فى تعيينه .

وقد اختلف فى العامل فى المبتدأ :

فذهب سيبويه وجمهور البصريين إلى أن العامل فى رفعه هو الابتداء ، وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ ، فكأن العامل فى المبتدأ معنوى ، وهو كون الاسم مجرداً عن العوامل اللفظية غير الزائدة ، أما العامل فى الخبر فهو لفظى (المبتدأ) .

ومن النحاة من يقول إن الابتداء هو العامل فى المبتدأ والخبر معاً .

ومن يقول : المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالابتداء والمبتدأ .

ومن يقول : ترافعا .. يقول ابن مالك :

ورفعوا مبتدأ بالابتدا　　　كذاك رفع خبر بالمبتدا

أما فى العصر الحديث فيذهب المشتغلون بالنحو إلى أنه ليس فى

اللغة عامل كما تصور النحاة ، وإنما هى من عمل اللغة نفسها ، وارتضى العرف أن تأتى على هذه الأنماط ، وأن تـوزع الوظائف والقيم فى اللغة

هذا هو مجمـل الآراء الحديثة •• وهو أمر لا يستطيع المرء أن يتقبله دون أن تكون له وجهة نظر فيما ذهبوا إليه ••

لأن اللغة ليست إحدى العناصر الطبيعية التى جاءتنا هكذا •• لها درجة انصهار ودرجة غليان ووزن نوعى ووزن جزيئى وذرى ••• الخ ، وعلينا أن نتعامل معها كما هى •• إنما اللغة صناعة بشرية ، قامت بهـا أجيال من البشر لتحقق أغراضاً حياتية متنـوعة تحتاج إلى أساليب فى التعبير تابعة لكل غرض ، وحيث إن الأغراض متنوعة ووسـائل التعبير متنوعة •• فإن ذلك كله بحاجة إلى تفسيرات تتعدى كثيراً فهمنا (لخواص المـادة) إنها **منطق وعقل** باعتراف هذه الآراء ، ومن حق العقل أن (يفسر) هذه الأوضاع وأن يرجع كل وضع إلى سببه العميق فى عقول المتكلمين باللغة وفى أذواقهم وفى أعرافهم •

على كل حال •• ليس هذا موضوعنا هنا •• فلنا معه لقاء آخر فى كتاب لنا خاص بالموضوع سيكون عنـوانه بإذن الله « رأى خاص فى بعض مسائل الخلاف بين النحاة » ولا داعى لأن نقحم أنفسنا هنـا فنحول بين الشيخ وقرائه •

هذا التوزيع المنطقى العقلى •

فصـــل [١٨] :

« الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدراً(٭) للإخبار عنه ، وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر ، فإذا سلم من العوامل الظاهرة يسلم له صدر الخطاب ، كذلك :

من سـلم من تأثير الأطمـاع فيه ، ولم تعمـل فيه الشـهوات والإرادات سـلم له التقـدم • ومن أسرته(٭٭) المنى والمطالبـات تسفل(٭٭٭) للأعتاب ووقع في صف النعال »(٭٭٭٭) .

(٭) بتشديد الدال المفتوحة .

(٭٭) بفتح الألف والسين والراء وسكون التاء وضم الهاء .

(٭٭٭) بتشديد الفاء .

(٭٭٭٭) بتشديد النون المكسورة .

فصـــل [١٩] :

العوامل على قسمين : لفظى ومعنوى : فالاسم المبتدأ العامل فيه معنى الابتداء ــ وهو غير لفظى ، وإنما هو وقوعه مبتدأ ·

كذلك فى الإشارة : العامل فى العبد نوعان ، ظاهر يهتدى إليه كل أحد ، ومستور لا يظهر إلا بعد مدة · قال الجنيد رحمه الله : « من أراد أن يضع سراً(٠) عند أحد فليضعه عند رويم · فإنه صحبنا كذا وكذا سنة وفى قلبه حب(٠٠) إلينا ولم نبصره فيه » ·

---

(٠) بتشديد الراء .

(٠٠) بتشديد الياء وضمها .

فصـــل [٢٠] :

« ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتدأ بالرفع ــ وهو أقوى الحركات ــ لمصادفته حل لجام التكلم .

كذلك فى الإشارة :من تخلص من تأثير المطالبات فيه ، وتحرر من الإرادات قوى فى حاله فخص(٠) بأقوى الأثقال ، وحمل(٠٠) أثقل الأمور لأنه يحمله بقوة ، فأقواهم حالا يخص بأثقل الأمور ، قال الله لنبيــه صلى الله عليه وسلم : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل هائمة لا تكاد تجد فيها راحلة » قيل : الراحلة هى الناقة التى يحمل(٠٠٠) عليهــا ما يعجز عنها كل إبل » .

وكان الشــبلى يقــول : « أشـــعر(٠٠٠٠) أنى مأخــوذ بجــرائم الخلق(٠٠٠٠٠) .

---

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد .
(٠٠) بضم الحاء وتشديد وكسر الميم .
(٠٠٠) بضم الياء وفتح الميم .
(٠٠٠٠) بسكون الشين وضم العين الراء .
(٠٠٠٠٠) بفتح الخاء وسكون اللام .

ضممنا هذه الفصول بعضها إلى بعض لأن السياق يتطلب أن تقرأ مجتمعة فى صعيد واحد دون تشتيت ، وهى من حيث جوهرها تدور على ثلاثة محاور : —

١ — معنى المبتدأ .

٢ — العامل اللفظى والعامل المعنوى فى المبتدأ .

٣ — لماذا خص المبتدأ بالرفع .

ونشهد أن أسلوب الشيخ واضح لا غموض فيه ، والإشارة تنبعث من العبارة فى سلاســة ملحوظة ... الأمر الذى يســهل علينا عمليــة الشروح .

المبتدأ اسم مصدر(.) ، مجرد من العوامل اللفظية ، مخبر(..) عنه ، مسند إليــه . وكونه له الصدارة هــذا حق له من حيث اللقب والموقع والإسناد .

(١) وحتى حين يتقدم عليه الخبر فإنما يتم ذلك لدواع نحوية أو بلاغية ، أى فى حالات خاصة لا تخل بالقاعدة الأساس » .

فأما الأسباب النحوية فقد لخصها ابن مالك بقوله :

ونحو عندى درهم ولى وطر(...) ملتــزم فيــه تقــدم الخبر

كذا إذا عــاد عليــه مضمر(....) ممــا به عنــه مبينــاً يخبــر

أما الدواعى البلاغية فتتلخص فى إضفاء قدر كبير من اهتمام المتكلم بالخبر فيؤثر أن يبدأ الكــلام به ، لأنه يعلم أن السامع تواق إلى ذلك

(.) بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الدال المفتوحة .

(..) بفتح الباء .

(...) بسكون الراء ، وبسكونها فى القافية كذلك .

(....) بضم الراء ، وبضمها فى القافية كذلك .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

أيضاً ، فهو يقدم له ما يهمه أو يشغله ••فلا ضير عندئذ أن يتأخر المبتدأ ، والبلاغة فى صميمها — كما نعلم — هى مراعاة مقتضى الحال ، وهذا تحكمه ظروف القائل والمتلقى معاً • وتبقى الحسنة للغة •• فهذا الذى يحدث بحسب لها لا عليها ، إنها طواعية اللغة للذين يتكلمونها والذين يسمعونها •• ولا شىء غير •

ومع ذلك نجد فى المسألة التاسعة من « الإنصاف » إصرار الكوفيين على عدم جواز تقديم خبر المبتدأ عليه مفرداً كان أو جملة محتجين بأنه لا يجوز تقديم الضمير الذى فى الوصف أو فى الجملة على الاسم المعاد عليه هذا الضمير •

أما البصريون فأجازوا ذلك للسماع عن العرب ، وحكى سيبويه عنهم : تميمى أنا •

(٢) ويستتبع كون المبتدأ مصدراً أن من أحكامه فى الأصل أن يكون معرفة أو نكرة مخصوصة ، لأن الأصل أن المبتدأ محكوم عليه وأن الخبر حكم — والحكم على المجهول لا يفيد •

أما النكرة المخصوصة فلها أحكام (أنظر فى ذلك كتب النحو) وخلاصتها أن تكون نكرة مفيدة •

٣ — وكون المبتدأ مجرداً من العوامل اللفظية مثل : كان وأخوتها ، وإن وأخواتها ، وظن وأخواتها يرشحه (للرفع) بالضمة أو ما ينوب عنها فذلك لأن (الرفع) أثقل الحركات ، والمبتدأ عمدة فى الإسناد ، وما بعده جاء لأجل خدمته والتحدث عنه •• وذلكم هو العامل اللفظى فى (رفع) شأنه •

أما الإسناد فهو مؤهل بعامل معنوى هو (الابتداء) به ، وهذه خطوة أساس ترشح (للرفع) أيضاً (راجع فى قيمة الرفع وأهميته فصول هذا الكتاب) لتعرف رأى الشيخ •

. . . .

والإشــــارة :

ونحسب أن الإشارة الآن أصبحت قريبة المنال .

يبدأ (المبتدىء) فى طريق القوم بأول مقام من المقامات وهو « التوبة » ونلاحظ أنها استحقت من الشيخ اهتماماً كبيراً .. ولهذا نتوقف عندها :

الحياة أقصر من أن نؤجل التوبة ، فالبدار إليها أولى من التأخير ، والحياة أمامنا تمتلىء بالعجب العجاب « فكم ناسج ينسج كفنه وهو لا يدرى ، وكم بان يبنى لأعدائه — وهو يجهل ذلك ، وكم زارع لا يحصد ما زرع .. هيهات ، الكبش يعتلف .. والقصاب مستعد له »[1] .

ويحدث قبيل[*] التوبة نوع من (التيقظ) الواعى المدرك[**] يؤدى إلى وقفة مع النفس حادة وجادة ، ويتطلع المرء إلى الشاطىء الآخر حيث النجاة ، ويود لو تخلص من كل ما اجترحه من سيئات دفعة واحدة ثم قفز إلى هنـــاك ، هناك حيث يســـلم (ابتداؤه) من كل أدران الماضى (وعوامل) الخطيئة (الظاهر) منها و (الخفى) .

وبذا (**يسلم من الأطماع والشـــهوات والإرادات فيســـلم له التقدم**) لأن أية بقية من هذه تبقيه فى (**وصف النعال**) دون أن يحظى بشرف التقدم خطوة على البساط « **بساط ملك الملوك** » !

فلا له مكان فى صفوف الأعقاب أو فى الصدارة ، بل هو مرتبط مرتهن بالأعتاب و (النعال) .. فأى هوان وخزى !

---

(١) لطائف الاشارات المجلد الأول ص ٥٩٣ .

(*) بضم القاف وفتح الباء .

(**) بكسر الراء .

وعلى نفس المنوال — فى نحو الظاهر — يفقد (المبتدأ) كل صلاحياته ومزاياه التى أهلته (للرفع والرفعة) إذا ما أقبلت عليه هواجم (كان وأخواتها ، وإن وأخواتها ، وظن وأخواتها) •

بل إن ظن وأخواتها تتسفل به إلى (المفعولية) فيهبط دركات دنيا إلى مرتبة الخدم •

ولابد (للمبتدىء) فى دنيا القوم من عامل خفى (هو القسمة) أو الاجتباء الإلهى ، ومن عامل (ظاهر) هو فعله الدءوب فى درجات التطهر فإن توافقا فعلى بركة الله •• وله (الرفع) • وإلا •• فكل شىء إلى زوال •

ويضرب المثل(*) على أدب من آداب البـــداية هو كتمان السر • فمحمد بن رويم تتلمذ على الجنيد ، ولم يحدث أن أفضى بأحد أسراره طوال حياته إلى أن قبضه الموت •• درس للمبتدئين فضلا عن عشرات الوصايا التى تحدثنا عنها سابقاً •

(*) بفتح الميم والثاء واللام •

فصل [٢١]

الخــبر و اقســامه

« لابد للمبتدأ من الخبر ، والخبر ما تتم به فائدة الخطاب ، فإذا حصل الابتداء فلابد مما تتم به فائدة الخطاب •• وإلا كان لغواً •

كذلك : الابتداء فى العرفان فلابد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء •

فإذا حصل الابتــداء بالطاعات فلابد من تمامها — قال ﷺ : « الأمور بتمامها » •

وكذلك على لسان الجمع إذا حصل منه (سبحانه) ابتداء القسمة بالرحمة فلابد(•) فى الانتهاء والمآل من المنة والنعمة •

وإذا سبق منه الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه فى الانتهاء ، ولذا قيل :

إن الكريم إذا حباك بوده(••) ستر القبيح وأظهر الإحسانا
وكذا الملول(•••) إذا أراد قطيعة ستر المليــح وقال كان وكانا

(•) بفتح الدال المشددة .
(••) بكسر الدال المشددة .
(•••) بفتح الميم وضم اللام .

فصــل [٢٢]

« خبر المبتدأ على أقسام ـ وبالكل تحصل فائدة الخطــاب .

كذلك : لو سلكت للحق طريقاً ، أو ابتدأت بأمر فلا تنصرف ما لم تتم ذلك .. سواء كان سلوكك سبيل العبادة أو طريق الإرادة أو طريق العلم أو طريق الزهد ـ فإن قدر(.) الأمور بالاستقامة فيها ... فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لا تتم الفائدة به إلا بإتمامه :

تجرد من الدنيــا فإنك إنمــا سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد

(.) بفتح القاف وتسكين الدال وفتح الراء .
(..) بضم الميم وتشديد الراء مع فتحها .

فصـــل [٢٣]

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك : زيد منطلق(٠) ويكون جملة : إما فعلا وفاعلا ، أو شرطا وجزاء أو ظرفا وبجميع ذلك تحصـــل فائدة الخطــاب ٠

كذلك إذا ابتدأت بأمر فيكون تمامه بتجردك لذلك الأمر كما ابتدأت به ، فتكون اليوم(٠٠) كما كنت فيه بالأمس ٠

وقد لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى ، إذ لو لم تضفها(٠٠٠) إلى ما سبق منك بالأمس لا تحصل الفائدة ٠

---

(٠) برفع المبتدأ والخبر ٠

(٠٠) بفتح الميم ٠

(٠٠٠) بضم التاء ٠

تتحدث هذه الفصول الثلاثة عن ثلاثة أمور :

١ ــ تعريف الخبر ٠ ٢ ــ وظيفته ٠ ٣ ــ أقسامه ٠

١ ــ تعريف الخبر :

لفظ مجرد من العوامل اللفظية مسند إلى المبتدأ ليتمم الفائدة ٠ يقول ابن مالك :

والخبر الجزء المتمم الفائدة كالله بر والأيادى شاهدة

فيخرج من التعريف مرفوع الوصف المكتفى به مثل :

أطائر العصفوران ؟ فهو لا يسمى خبراً بل هو فاعل سد مسد الخبر٠

٢ ــ فوظيفة الخبر : إتمام الفائدة التى جئ بالمبتدأ لأجلها ٠

٣ ــ أقسام الخبر :

١ ــ المفرد ٢ ــ الجملة بنوعيها ٣ ــ شبه الجملة الظرف والحرف

أولا ــ الخبر المفرد : وهو نوعان :

الجــامد : وهو نوعان :

(أ) يمكن تأويله بمشتق مثل : زيد أسد (أى شــجاع) ، هذا مصرى (أى منسوب إلى مصر) ، وجهها قمير (أى قمر صغير) ٠

ومثل هذا الخبر يتحمل الضمير على أساس ما يتضمنه من معنى المشتق ٠

(ب) لا يمكن تأويله بمشتق مثل : هذا أسد (تقصد الحيوان المعروف نفسه) ، هذا محمود (علم على الشخص الذى اسمه هكذا)

فإنه يكون فارغاً أى غير محتمل للضمير لبعده(•) عن الوصفية والفعلية •

ومن هذا النوع الأخير اسم الآلة (هذا مفتاح) ، واسم الزمان (الامتحان موعد المجدين) واسم المكان (هذا مجلس زيد) — فهى وإن كانت من قبيل المشتقات إلا أنهـا لا تدل على وصف ولا على صاحب وصف •

المشــتق :

ما أخذت صيغته من المصدر للدلالة على متصف به ، وهو يؤدى معنى الفعل ، ولهذا يتحمل ضميراً مستتراً فيه يعود على المبتدأ مثل الذى قاله الشيخ فى الفقرة : (زيد منطلق) فهى فى المعنى تساوى (زيد انطلق هو) •

ثانيا — الخبر الجملة :

(أ) اسمية مثل : الطريق مقاماته متدرجة •

(ب) فعلية مثل : الطريق يسلكه المريد •

وقد يكون جملة شرط (وقد ذكرها الشيخ فى المتن) مثل :

المريد إن يسترخص فقد فسخ عقده مع الله •

وقد أحسن الشيخ إذ ذكر (فعل الشرط والجزاء) خلافاً للقول المعتاد (فعل الشرط وجوابه) ، فالتعبير هنا أليق باستنباط الإشارة كما سيأتى ، ويمكن أن يضاف إلى مجموع مصطلحات النحو عنده •• وهو تعبير دقيق جميل •

(•) بضم الباء وسكون العين •

ونلاحظ وجود ضمير رابط فى جملة الخبر بنوعيها يكون أشبه بصلة عضوية تربط بين أجزاء الجملة الكبرى .

أما عندما تكون جملة الخبر هى المبتدأ فى المعنى فإنها تستغنى عما يربطها بالمبتدأ مثل :

١ ــ نطقى الله حسبى

م•أول م•ثانى خبر الثانى

٢ ــ قل هو الله أحد

م•أول م•ثان خبر الثانى

وقد آثرنا أن نجرى هذا التحليل للمثال الثانى بخاصة لأن فحواه : (هو = الله أحد) ، فالطرف الأول هو نفسه الطرف الثانى ، وكلا الطرفين مفيد وتام، فكأن (هو) وحدها تساوى جملة مفيدة ،وهذا ما ذكره الشيخ فعلا فى كتاب « التدبير فى التذكير » ونوهنا به فى باب المبتدأ .

« وقد لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات ... الخ » .

إذا أراد المتكلم التعبير عن ثبات الخبر استعمل الجملة الاسمية لخلوها من الحدث المرتبط بالزمن ، أما إذا أدخل فى حسابه التحديد الزمنى استعمل الجملة الفعلية أو الصفات التى فى معنى الأفعال ، وسنوضح فى الإشارة .

وتركيز الشيخ على الأفعال والصفات هو ما حدا به ألا يذكر « شبه الجملة » كنوع من أنواع الخبر ، فضلا عن أسباب أخرى سنذكرها بعد قليل .

ثالثا ــ الخبر شبه الجملة :

وشبه الجملة إما ظرف أو حرف ، وكلاهما يتعلق بمحذوف واجب الحذف ، وهو كون عام يفهم(٠) بدون ذكره على تقدير (مستقر أو كائن أو استقر) يقول ابن مالك :

وأخبروا بظرف أو بحرف جر ناوين معنى كائن أو استقر

مثل : التوبة قبل الورع ، المريد عند شيخه •

ومثل الخشية فى القلب •

أما الكون الخاص فلا يجوز حذفه مثل : زيد **نائم** فى الدار أو جالس عندك •

وهناك كلام كثير فى كتب النحو عن ظرفى الزمان والمكان ، وعن متعلقات الكون العام والكون الخاص •• وربما وجد الشيخ أن هــذا الموضوع بخلافاته لا يفيد شيئاً هنا فلم ينوه(٠) به بتاتاً ، هذا فضلا عن تركيز اهتمامه بالأفعال والصفات فهى التى تعينه فى (الطريق) الصوفى•

إشـــارات من الخبـــر

العابد تائب ــ الزاهد يعزف عن الدنيا ــ العارف فى الفرق الثانى يؤدى الفرائض ــ الولى عند مرتبة الكرامة لا يلاحظ نفسه •

أردنا أن نصوغ فوائد الخبر فى عبارات صوفية تلخص فكرة الشيخ حول وظيفة الخبر ، فهو فى الواقع قد جىء به لبيان (صفات وأفعال) تحقق فائدة فى الجملة •

---

(٠) بضم الياء وفتح الهاء •

(٠) بضم الياء وتشديد الواو مع كسرها •

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

يرى الشيخ أن الرحلة ذات مراحل ، وكل مرحلة تتطلب عند (الابتداء) بها مزيداً من (الصفات والأفعال) ، فالخبر يفيد فى تجدد السلوك الذى يلتزم به (البادىء) الذى يدخل فى منزلة من المنازل **(سواء كان سلوكك سبيل العبادة أو طريق الإرادة أو طريق العلم أو طريق الزهد) و (كلها صفات وأفعال تربو)** •

هى إذاً معركة قتالية تحتاج إلى خطة بعيدة الهدف ، وتحتاج إلى خطة مرحلية تتغير بحسب المرحلة ، وبتكامل هذا وذاك يتم النصر • وعلى العبد أن يفهم أن الخطر على الدوام كامن ، وأن الأعداء — النفس والهوى والشيطان والدنيا — يتربصون به فى كل ثانية ، وأنها تختبىء فى جيوب على جوانب الدرب ، وأنها مفتحة العيون كى تنقض على العبد فرادى أو مجتمعة •• فبدون مضاعفة (الفوائد) وتجددها يضعف المرء ، وتفتر همته ، ويجد العبد نفسه — لو استسلم لعدو منها — أنه كان كمن يحرث فى البحر !

فى هذا الميلاد الروحى النبيل تنتعش الإرادة وتزدهر الروح ويتألق السر ولكن •• لا أمان ، فبدون هذه (الفوائد) فى كل منزلة يجهض هذا المولود وينتهى كل شىء •

وللحقيقة فإن الشيخ حين ألف « رسالته » الشهيرة قد وضع كل هذه الاعتبارات فى ذهنه ، فأفاض فى عرض الرحلة من بدايتها إلى نهايتها،وأبان علل الطريق، وشخص(••) الدواء لكل علة فلم تبق حجة لدى أحد يتذرع بها لأنه إذا **(صح الابتداء صح الانتهاء ، وتحققت الفائدة)**•

والشيخ بتجربته الواسعة ، وباتصاله بأعداد كبيرة من المريدين والخلطاء لهم يعرف أشياء ربما يجهلها غيره •• استمع إليه مثلا وهو

(•) بفتح الهمزة وتشديد اللام المفتوحة .

(••) بتشديد الخاء مع فتحها .

يعالج آفة الإحباط حينما تصيب المبتدئين •• كيف عالجها ؟

« من قارف الزلة(•••) فهومن خطئه على يقين ، فإذا تغلب على ذلك بالتوبة فهو من القبول فى شك ، فواجبه الإنكسار ، وملازمة التنصل والاستغفار ، واستشعار الوجل إلى الأجل » •

ولكى يأخذ بيده بعد تشخيص (الصفات والأفعال اللازمة لتحقيق الفائدة) يعود بهذا المحبط إلى سيرة المصطفى صلوات الله وسلامه لكى يقدم له الأسوة الحسنة والنموذج الأمثل •• كان صلوات الله عليه — وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر — يقوم الليل حتى تتورم قدماه ••وحين يسأل(••••) فى ذلك يقول : **« أفلا أكون عبداً شكوراً »**

ومع ذلك فإن هذا العظيم العظيم كان يقول أحياناً **« إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله اليوم سبعين مرة »** •

نظن أن فى ذلك كله ما يشفى من كل إحباط !

ليس هذا فقط بل إنه يضع فى يد المريد مقياساً ضابطاً لحصول (الفائدة) فى كل مرحلة فهو يقول مثلا عند الظفر فى مقام التوبة (وعلامة ذلك أن يجد الحلاوة فى المستأنف عوضاً عن المرارة فى السالف)•

وأخيراً••فإنه إذا كان (الابتداء بالقسمة بالرحمة فلابد فى الانتهاء والمآل من المنة والنعمة) وأيضاً (إذا كان الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه فى الانتهاء) •

معنى هذا أن (الابتداء) الصحيح يؤدى إلى (الانتهاء) الصحيح ، وتحدث (السلامة) فى (الجملة) ، فالمقدمات الصحيحة فى أى شىء تعطى النتائج الصحيحة •

(•••) بتشديد الزاى وتشديد اللام مع فتحهما •

(••••) بضم الياء وفتح الهمزة •

ولقد قلنا من قبل إن التصوف ينماز عن سائر المعارف بأن هناك عنصراً أولياً فى الطريق هو (القسمة)(*) ، هو (الاجتباء) الإلهى فالله سبحانه يصطفى من خلقه بشراً يكونون له خاصة .

وبدون ذلك .. لا فائدة .

أما عن (الانتهاء) فعلامة الصحة والسلامة أن (يحفظ) الله العارف وهو فى حال الجمع أو جمع الجمع فيرزقه حال (الفرق الثانى) كى يؤدى الفرائض فى مواقيتها ، فلا يكون عليه أو منه تقصير فى حقوق الشريعة .

وهل هناك **(منة أو نعمة) أعظم** من أن يجمع العـــارف بين الحقيقة والشريعة فى آن واحد ؟ **لأنه إذا صح الولاء فى البداية صح الانتهاء)** .

وهكذا نلحظ كيف أن القشيرى — وكبار الشيوخ — لا يملون(*) من تكرار القول إن الشريعة والحقيقة وجهان لحقيقة واحدة ، فكل منهما تمنح الأخرى طاقة الازدهار والانتعاش فى قلب العارف ووجدانه .

(*) بكسر القاف وسكون السين .
(*) بفتح الياء والميم وتشديد اللام المضمومة .

فصـــل [٢٤]

الفـــــاعل

« الفاعل مرفوع . وقيل : علة الرفع مشابهته للمبتدأ .

وقيل : لقوة حاله خص(٠) بأقوى الحركات .

وقيل : الفرق بينه وبين المفعول ــ والرفع أقوى الحركات .

وفى الإشارة : استحقاق الرفعة والعلو للحق سبحانه وتعالى ــ لأنه الفاعل على الحقيقة ، وليس لغيره قدرة على الاختراع .

ولأن الابتداء فى الأمور منه فهو الأول السابق ، واستحقاق الرفعة والعظمة له » .

---

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد .

تعريف الفاعل :

الفاعل اسم مرفوع قبله فعل مسند إليه على جهة قيامه بهذا الفعل أو قيام الفعل به .

تحليل هذا التعريف :

على طريقة أسلافنا فى الشروح نتوقف عند كلمات التعريف السابق مراعين أن نتجنب التطويل اللهم إلا إذا اقتضى فهم الإشارة — وهذا هو المهم — ذلك .

فهو (اسم) صريح : مثل : نصركم ربكم(٠) على أعدائكم .

أو مؤول مثل : أو لم يكفهم أنا(٠٠) أنزلنا .. أى إنزالنا .

(مرفوع) رفعاً ظاهراً مثل : يزهد الزاهدون فى الحياة الدنيا . أو على المحل مثل :

(أ) إضافة المصدر إلى فاعله مثل : يسرنى عطاء(٠٠٠) الغنى(٠٠٠٠) للفقير .

(ب) كونه مجروراً بمن أو اللام أو الباء الزوائد مثل : ما جاءنا من بشير ، هيهات هيهات لما توعدون ، وكفى بالله شهيدا .

(قبله فعل) الأصل فى الفاعل أن يلى الفعل لأنه كالجزء منه ، فالفعل لابد له من فاعل بعده فإن ظهر فبها وإلا قدر ضمير مستتر ، يقول ابن مالك :

---

(٠) بضم الباء المشددة .

(٠٠) بتشديد النون المفتوحة .

(٠٠٠) بضم الهمزة .

(٠٠٠٠) بتشديد الياء المكسورة .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

وبعد فاعل فإن ظهر فهو وإلا فضمير استتر

ذلك لأن الفاعل عمدة لا يجوز حذفه ، فهو جزء أساسى فى الجملة ، ولو أن بعض النحاة يوجبون حذفه أو يجوزونه فى بضعة مواضع ، ولكن هذه المواضع من الندرة بحيث لا تخل بالقاعدة الأساس •

ينبغى أن يكون الفاعل مع فعل مبنى للمعلوم حتى نخرج نائب الفاعل الذى يكون مع الفعل المبنى للمجهول •

ولندع جانباً رأى الكوفيين فى جواز تقديم الفاعل على الفعل فهو رأى يثير البلبلة ، ويوقع فى اللبس(•) ، والقاعدة النحوية ينبغى أن تريح لا أن تحير •ويميل شيخنا إلى رأى البصريين فى الحكم بتأخر الفاعل عن رافعه •

(مسند إليه) الواقع أننا ونحن نصوغ تعريف الفاعل السابق تأثرنا موقف البلاغيين فى فكرة الإسناد ، فزدناها كى يكون التعريف جامعاً مانعاً •••• وعلاقة الإسناد تشمل النوعين من العلاقات : علاقة قيام الفاعل بالفعل مثل : كسرت الريح(••) الزجاج(•••) • وعلاقة قيام الفعل به مثل : انكسر الزجاج ، ومثل سقط السقف ، ومات الرجل •• ففى هذه الأمثلة لم يقم الفاعل بالفعل وإنما قام الفعل به • وهذه العلاقة المنبهمة تدخل فى نطاق الإسناد على نحو ما تدخل العلاقة الواضحة الأولى •

بقيت فى الموضوع أشياء هى من البدهيات النحوية التقليدية مثل : الإعراب المحلى والتقديرى ، فالمعرب يظهر عليه الرفع ، والمبنيات تبنى

(•) بفتح اللام المشددة .

(••) بضم الحاء . (•••) بفتح الجيم الأخيرة .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

على ما ترفع به فى محل رفع ، ومثل قيام ما ينوب عن الفعل مقام الفعل مثل : اسم الفعل والمصدر ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة ، وأفعل التفضيل ، والجامد المؤول بمشتق مثل : (أسد بمعنى شجاع ، ونمر بمعنى غادر •• الخ) •

سـبب الرفـع :

يقول الشيخ : **« لمشابهته المبتدأ »** ، وهذا ما يذهب إليه فريق من النحاة على أساس أن الفاعل كالمبتدأ يتطلب الرفع الظاهر أو المقدر فى الأسماء المعربة ، والرفع على المحل فى المبنيات ، وهو لا يتحول عن هذا الرفع بحال •• فكأن المبتدأ هو أصل المرفوعات ، والفاعل لا يحيد عن هذه المرتبة حتى لو سبق(•) بحرف جر زائد •

ويرى الشيخ أيضاً أنه **« رفع لقوة حاله فخص بأقوى الحركات »** وهذه مسألة سبق أن شرحها فى المرفوعات فلا داعى لاعادتها هنا • ويضيف الشيخ أسباباً أخرى :

« ليس لغير الفاعل قدرة على الاختراع

الابتداء فى الأمور منه فهو الأول السابق

استحق الرفعة والعلو لأنه الفاعل على الحقيقة

توهم(••) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له » •

(•) بضم السين •
(••) بفتح التاء وفتح الواو وتشديد الهاء المضمومة •

. . . .

واضح جداً أن الذات الإلهية (الفاعلة) فى الكون بمشيئة مطلقة حاضرة فى ذهن الشيخ وهو يتحدث عن (الفاعل) .

والإشارات هنا نافعة فى إمكان حل الخصومات النحوية التى كثيراً ما تتشعب وتتفرع إلى تفاصيل لا جدوى منها ، وهى تثقل على الناس وبخاصة الناشئة — درس النحو ، فى حين تبقى الحقائق الضرورية الكافية بسيطة وناصعة لا تقبل الدوران حولها .

وتلك مأثرة من مآثر هذا الكتاب — لو أحسن فقهها .

فصل [٢٥]

« المفعـــــول »

« المفعـول منصـوب • والنصب أخف من الرفع ، والمفعـول أنقص رتبة من الفاعل ، فخص(•) بما هو الأخف من الحركات •

كذلك : الخلق هم المفـعولون ، فلهـم حالة العجـز والنقص لأنهم فى أسر القدرة وتصريف القبضة •

وقيـــل :

فاصـبر لمـر(••) العنـاء
فقـد خلقت(•••) ممـر(••••) القضـاء

(•) بضم الخاء وتشديد الصاد المفتوحة •
(••) بكسر اللام وضم الميم وتشديد الراء •
(•••) بضم الخاء وكسر اللام وسكون القاف •
(••••) بفتح الميم وتشديد الراء •

فصل [٢٦]

أقســـام المفعــــول

« المفعول على أقسام : مفعول مطلق ،مفعول به ، ومفعــول له ، ومفعول فيه ، ومفعول معه .

كذلك : المفعولات على أقسام ، فالجمادات مفعولات على الإطلاق ، والحيوانات مفعولات بها تجرى عليها أحكامه — سبحانه — فى النفع والضر .

والمكلفون مفعول لهم : خلق لأجلهم الجنة والنار .

وأحوال المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصى والطاعات فيها.

والبلاء مفعول معه لأن بنى آدم خلقوا والبلاء والعناء معهم ، قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »

ويصح أن يقال : الأرزاق مفعول معه لأنه خلق الرزق مع المرزوق.

ويصح أن يقال : كفاية الله مفعول معه لأنها لازمة لأوليــائه ، فلا يكون لله ولى(٠) إلا وهو مكفى(٠٠) الشغل ، قال تعالى :

« والله(٠٠٠) يتولى الصالحين» .

---

(٠) بفتح الميم وسكون الكاف .
(٠٠) بفتح الواو وكسر اللام .
(٠٠٠) بتشديد اللام المفتوحة .

جاء الفصل الخامس والعشرون ليكون تمهيداً عاماً يتناول المفعولات كلها ، ويشتمل على خصائص عامة تنطبق على كل المفاعيل •

فالمفعول فضلة **(لأنه أنقص رتبة من الفاعل) وهو (منصوب لأن النصب أخف من الرفع)** ولأنه يقع متأثراً بالفعل **(فله حالة العجز والنقص)** وتستوقفنا هنا بضعة أمور :

أن النصب استحقاق للكلمة حين تخرج عن نطاق الإسناد أو الإضافة• وبناء على ذلك يكون (الرفع) أسبق من النصب ، فالمبتدأ والفاعل أسبق من المفعول (نتذكر هنا ما قاله الشيخ فى بابى المبتدأ والفاعل مستحضراً (العظمة الإلهية بوجودها المبدئى الأزلى المطلق) و (بفاعليتها فى الكون) •

ولابن عربى كتاب صغير الحجم جليل القدر اسمه (شجرة الكون) جاء فيه أن الله سبحانه حينما أراد خلق الكون بذر(•) حبة (كن)

« إنما أمرنا إذا أردنا شيئا أن نقول له كن فيكون » •

ولهذا — فى رأى ابن عربى — فإن (كن) تحوى فى رحمها(••) كل تناقضات الكون فالكاف للكمال وللكفر ، والنون للنعمة والنقمة • ونستطيع نحن أن نربط بين هذه النظرة هنا وبين دوران لفظة (أمر) فى القرآن الكريم فنربط بين الآية السابقة وبين « حتى يقضى الله أمراً كان (مفعولا) » •

وبلغة الفلسفة نستطيع أن نقول إن الله سبحانه واجب الوجود •

(•) بفتح الباء والذال والراء •

(••) بفتح الراء وكسر الحاء •

• • • • • • • • • • • • • • • • •

أما المخلوقات (بعد كن) فهى من الممكن الوجود وبالتالى فكلها من المرجحات أو المفاعيل ، فكلها جاءت **(بأسر القبضة وتصريف القدرة)** وكانت عدماً تفتقر إلى من يوجدها ، ثم هى بعد وجودها لا تستغنى عن مبدعها أى الذى خلقها لا على مثال سابق ، ولا فى زمن يذكر ، وهى على حد تعبير ابن سينا تحتاج إلى (عناية) الصانع •• وللعلم فإن (دليل العناية) إضافة سينوية إلى مذهب أرسطو فى الوجود الإلهى •

وفى رأينا أن الشـيخ لا يطمح من عملية التنظير هنا إلى مجرد توافقات لفظية بين نحو الظاهر ونحو الباطن ، بل يطمح إلى ما هو أعمق ••• إلى الغرض الأساس من الكتاب : وهو توسيع آفاق المعرفة لدى (الذاكرين) •• ولنوضح الأمر نعيد هنا شيئاً كنا قد ذكرناه آنفا :

فيفترض(•) أن (التأمل) وهو حجر الزاوية فى (الذكر) يبدأ بالتأمل فى عظمة (الذات الإلهية) التى يمثلها (المبتدأ أو الفاعل) ثم يطوف(••) التأمل فى جنبات الكون وما فيه (المفعولات) هنا حيث تتجلى (الصفات) الإلهية من وهاب ورزاق ، ومحيى ومميت ومنعم ولطيف ، وقابض وباسط •••• فالبدء بالذات والانسياح مع الصفات ••• الخ حلقات فى سلسلة (الذكر) وتنتهى التأملات إلى أن :

فى كـل شىء لــه آيــة   تدل عــلى أنه الواحــد

الكون كله يسبح(•••) بتوحيد الله ، وبشكره ، وبعظمته ، وإبداعه فى خلقه ، وهذا الشمول الذاكر ، فى الألوهية ثم فى الكون والطبيعــة

(•) بضم الياء وسكون الفاء .

(••) بكسر الواو المشددة .

(•••) بكسر الباء المشددة .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

والإنسان هو المقابل الموضوعى للفلسفة ، فليست الفلسفة فى الواقع إلا : ميتافيزيقا وفيزيقا وإنسان •

وبدهى أن الخلاف شاسع جداً بين المعرفتين •• ولا مجال هنا لبيانه ، وإنما أردنا فقط أن نخرج مع إشارات الشيخ إلى دائرة أوسع من المناظرات اللفظية بين الكلمات فى هذا النحو وذلك •• والنقطة التى وصلنا إليها هى ذات النقطة التى انتهى إليها ابن سينا حين قال لأحد شيوخ الصوفية بعد أن استمع إليه طويلا : أنت ترى ما أعرف !

وسنحاول فى السطور القادمة أن نتخير من نصوص القشيرى فى مصنفاته المختلفة ما يفيد فى إبراز فكرتنا عن أن **المقصود بالباب — بل بالكتاب كله — شحذ همة (الذاكرين)** نحو تأمل جاد ومستنير — لا كما يحسب بعض الناس أن حلقات (الذكر) ليست إلا مجرد حركات أقرب إلى الهستيريا والادعاء والجهالة •

ومن أمثلة التأمل فى (الذات) قوله :

« سلهم هل فى الدار ، وهل للكون — فى التحقيق عند الحق مقدار ؟

فإن بقوا عن جواب يشفى فقل : (الله) فى الربوبية يكفى »[1] ثم نتابع النصوص المتصلة بالكون والطبيعة والحيوان والإنسان فيما بقى من (المفعولات) •• فكلها جىء بها لبيان الغرض الذى سقناه • والتأمل فى الطبيعة : « تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطار الكون وتباين النبات فى اللون والطعم واختلفت الأشياء ، ودل كل مخلوق بلسان فصيح وبيان صريح أنه بنفسه غير مستقل »[2] وفى الحيوان :

---

(١) لطائف الاشارات المجلد الأول ص ٤٦٣ .
(٢) لطائف الاشارات المجلد الأول ص ٤٩٢ .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

والله سبحانه خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ... الخ » « يريد خلق كل حيوان من ماء من صلب الأب وتربة الأم .. ثم أجزاء الماء متساوية متماثلة ثم ينقسم إلى جوارح فى الظاهر وجوارح فى الباطن فيختص كل عضو وينفرد كل شلو بنوع من الهيئة والصورة ، وضرب من الشكل والبنية ، ثم اختلاف هيئات الحيوانات فى الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب ، ثم فى القامة والمنظر ، ثم انقسام كل ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسن ومخ وعصب وعرق وشعر » .

« إن النظر فى هذا — مع العبرة به يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل » .

هذا السطر الأخير فى النص السابق هو تأييد لما ذهب إليه عن الغاية المقصودة من كل باب المفاعيل ، والنصوص المبعثرة على أقسام المفاعيل —كما سيأتى — تضيف تأكيداً جديداً إلى ذلك .

والآن ..

ندخل فى بيان هذه الأقسام مستريحين عند استنباط الإشارات :

أولا — المفعول المطلق :

أحسن الشيخ إذ قدمه على سائر المفعولات بينما هو يتأخر عنها فى كتب النحو الظاهرى .. وربما ترجع رؤية الشيخ إلى خصائص ينماز بها هذا المفعول .

فهو إذا كان حسب التعريف — مصدراً منتصباً يؤكد فعله أو يبين نوعه أو عدده مثل : أنعم الله على عبده إنعاماً وفيراً .

أو تخلق المريد تخلق الشيخ فى الصحبة .
أو تدور الأرض دورة واحدة كل يوم .

فإن هذه المصادر المنصوبة أسماء للأحداث الجارية على الفعل ، وهى تكاد تكون من حيث البنية نفس بنية الفعل ، ولا تنقص فى حروفها عنه ، وهى تدل على وقوع الحدث مطلقاً ، وعلى وقوع الفعل عليها حقيقة ، فهى بكل هذه الأوصاف المفعولات الحقيقية لمن قام بالفعل . بمعنى أنه اذا بحثنا عن صلة وثيقة بين الفاعل وفعله فإن المفعول المطلق أوثق الصلات بين الطرفين من حيث الصياغة ومن حيث الواقع : فقولك : قام المريض قياماً معناه أن المريض قد أوجد من نفسه هذا القيام ، وأحدثه حقاً وواقعاً بعد أن لم يكن .. بخلاف باقى المفعولات فإن الفاعل لم يوجدها ، فلها وجود خارجى خاص.وإنما سميت بحسب نسب[*] اعتبارية يقوم فيها حرف الجر بدور ذى مغزى مثل المفعول (به) و (له) و (فيه) وزاد السيرافى (منه) مثل قولك واختار موسى قومه سبعين رجلا (أى من قومه) .

وسمى الجوهرى المستثنى مفعولا (دونه) : « القطر لابن هشام باب المفعول به » .

هذه الصلة الضرورية ذات المغزى لا نجدها فى المفعول المطلق ، فهو بهذا (متحرر) من كل قيد ... **وبذا تتأكد عراقته فى المفعولية..** يقول ابن هشام فى أوضح المسالك عند تعريفه للمفعول المطلق « هو الذى يصدق عليه قولنا (مفعول) صدقاً غير مقيد بالجار بخلاف المفاعيل الأخرى » .

ميزة أخيرة .. أن هذا المفعول يحمل الحدث (الخالى من الزمن) وهذه ميزة أخرى لا نجدها فى غيره .

(*) بكسر النون وفتح السين .

وإذا كانت الجمــلة بركنيها الأساسيين تستطيع الإفادة ، وكان ما يأتى بعدها (لتكملة) هذه الإفادة فليس أعظم لأداء هــذا الدور من مفعول يستمد مادته الخام من الفعل ذاته ليؤكده أو يبين نوعه أو عدد مرات وقوعه .

* * *

وينطلق التنظير عند الشيخ بين المفعول المطلق وبين **الجمادات** . ومع أن الجمادات لا عقل لهـا إلا أنها تؤلف نســبة كبيرة من مكونات الوجود الطبيعى فهى مسرح (التأمل) المديد طلبـاً للعظة والاعتبار ، وقد وردت هذه المظاهر الطبيعية فى القرآن الكريم فى مواضع شتى لأجل هذه الغاية ، حتى لكأن النظر إليها نوع من التعبد والتفــكر المستمد من الواقع الخارجى .. بل إن القرآن يضعها فى بعض الأحيان موضع الذى يشعر ويتحرك ويتأثر .

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً .. »

و « ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لمــا يشقق فيخرج منه المــاء ، وإن منها لمــا يهبط من خشية الله » .

وبسط الأرض ودحاها ، والجبــال أرساها ، وفجــر عيونها ، وصنف أزهارها وثمارها ، وأنبت أشجارها ، وأجرى أنهارها ، وجنس بحارها ، وكور عليها ليلها ونهارها .. ذلك تقدير العزيز العليم .

ولعل القشيرى وهو فان(٠) فى بعض تأملاته قد عايش هذه اللحظات التأملية فى الطبيعة فنقل هذا المعنى عندما تحدث عن (الأوتاد والأبدال والقطب) فى طرائق الصوفية .. يقول مثلا :

(٠) بالنون المنونة المكسورة .

« وكما تمسك الأرض بالجبال تمسك بالأبدال فهؤلاء السادة فى الحقيقة أوتاد العالم »[1] •

والخلاصة : أن هذه الجمادات ـــ التى لا تملك عقلا أو إرادة ـــ لا تكليف عليها وإنما هى (مفعولات) مطلقة تكثر فى (العدد) و (تتنوع) فى المظاهر كأنها (منصوبة) لدور آخر هو العظة والاعتبار •

ثانيا ـــ المفعول به

هو اسم دل على ما وقع عليه فعل الفاعل إيجاباً وسلباً ولم تغير لأجله صورة الفعل مثل : يحب الله المتقن(..) لعمله •

وما أطعت النفس(...) •

ويكون ظاهراً كما فى المثالين السابقين •

ويكون ضميراً متصلا مثل : أرشده الشيخ إلى طريقة السماع •

أو ضميراً منفصلا مثل : إياك نعبد •

ويشترك المفعول به مع بقية المفاعيل فى أنه فضلة وكونه منصوباً ، ولكنه ينماز عنها بأنه لا ينصبه إلا الفعل المتعدى أما غيره فينصبه اللازم والمتعدى • وهو ينصب على الاشتغال وعلى الاختصاص وعلى الإغراء وعلى التحذير ، فكلها مفاعيل حذف(.) عاملها •

والمفعول به يتأثر تأثراً مباشراً **بفعل** الفاعل أما بقية المفعولات فهى إما (لأجله) أو (فيها) أو (معها) أى بوسيلة وسيطة •

* * *

(١) لطائف الاشارات ص ٣٩٩ •

(..) بفتح النون •

(...) بفتح السين •

(.) بضم الحاء وكسر الذال •

رنأتى إلى الإشارة ••

صرف الشيخ هذا النــوع إلى **الحيوانات** ، **حيث لا** تستطيع أن تزعم أن لها إرادة أو اختياراً ، وأنها فى الغالب لا تتحكم فى اختيار أنماط الحياة التى تحياها ، فهى مسخرة بأيد(••) فوقها ، تعمل فيها عملهــا •• صحيح إنها ربما استخدمت غرائزها فى بعض الأحيان فى القبــول أو الرفض ولكنها فى الأغلب الأعم ليس لها إلا الإذعان •• يقول القشيرى عند قوله تعالى :

« أولئك كالأنعام بل هم أضل » :

الأنعام رفع عنها التكليف (أى وفاق الشرع أو خلافه) ، وهى لا يهمها إلا الاعتلاف ، وما تدعو إليه الحيـلة من مباشرة الجنس •• وكذلك من أقيم بشواهد نفسه ، وكان مربوطاً بأحكام النفس وفى معناه أنشدوا :

نهارك يا مغرور ســهو وغفــلة وليلك نـــوم والردى لك لازم
وسعيك فيها ســوف تكره غبــه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم(١)

والإشارة تتداعى منها إلى ذهن القارىء على الفور صورة الكافر الضال من بنى الإنسان ــ فهوأولا وأخيراً من الحيوان ــ ولكنه منح(•) العقل والإرادة ولم يهتد بل ضلحتى أصبح فعلا كالأنعام (بل هم أضل)•

وصورة الإنسان ــ الذى يقــع فى تصنيف الكائنات من الحيوان أيضا ــ لكنه أحسن استخدام عقله وإرادته الممنوحتين فضلا من الله ،

(••) بكسر الدال المنونة .
(١) لطائف الاشارات المجلد الأول ص ٥٩٠ .
(•) بضم الميم وكسر النون .

. . . .

فعرف كيف يختار طريقه ، ويوجه فى رشاد إرادته ، واستطاع بذلك أن يرقى من مستوى البهيمة إلى مستوى الآدمية المكرمة(٠٠) .

وهكذا يدخل بنا الشيخ إلى الإطار الإنسانى الذى يحوى سائر المفعولات التالية .. فكلها للإنسان وحول الإنسان .

ثالثاً ــ المفعول له أو لأجله

هو اسم يذكر لبيان سبب الفعل ، وينبغى لنصبه أن يكون مصدراً مفيداً للتعليل ، متحداً مع المعلل به فى الوقت وفى الفاعل .

فإن فقد شرطاً من هذه الشروط وجب جره بحرف ملائم كاللام أو من أو فى أو الباء ويخرج بذلك عن إطار المفعول لأجله .

ومثال المستوفى لكل هذه الشروط : لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .

ومن أمثلة ما لا يستوفى : والأرض وضعها للأنام : لفقد المصدرية .
أدبتك لتأديبك : لأن الشىء لا يعلل بنفسه .
جئتك اليوم للإكرام غداً : لعدم اتحاد الوقت .

أقم الصلاة لدلوك الشمس : الزمانان مختلفان، واختلاف الفاعل فهو فى الصلاة غيره فى الدلوك .

والمراد منه أن هذا المفعول قد فعل لأجله فعل آخر .

والإشارة يطلقها الشيخ نحو « المكلفين » .

فهم الذين **« خلق الله سبحانه لأجلهم الجنة والنار »** .

---

(٠٠) بفتح الراء المشددة .

وهذا فرق بينهم وبين الجمادات (المفعول المطلق) وبين الحيوانات الذين يفعل(٠) بهم الفعل ولا يطالبون بتكليف (المفعول به = الجمادات) فكأن مشقة التكليف تشريف ، فهى لا تقصد(٠٠) لذاتها لأن الله لا تلحقه من الطاعة زين ولا يناله من المعصية شين ، إنما التكليف فى جوهره علامة تمييز وترق .. لكى يصبح « المكلف » هو المعنى(٠٠٠) حقاً بالخلافة فى الأرض ، والمعنى حقاً بقوله تعالى : **«إلا ليعبدون»** .

يجب إذاً أن تكون الأمور واضحة ..

يقول فى اللطائف « قيمة كل امرىء على حسب همته ، فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يحاسب ، وعلى العقل لا يطالب ، فالتكليف يتبعه التشريف .. وغداً سوف يعلمون »(٥).

فلا تبتئس — أيها المكلف — بمشقات الشريعة أو الحقيقة ، وابذل قصاراك فى عبور الجسر الواصل بين الدارين وأنت فى مأمن ..

(فلأجلك) أعدت المكافأة الكبرى .. لو سلم العبور وسلمت . وتصل الأمور إلى ذروتها عند الواصلين ، فمكافآتهم ليست مؤجلة ، إنها هنا فى **هذه الحياة الوسطى** التى يحيونها « فالقيامة عندهم تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق والجنة بالوصل والقرب واللقاء » يقول ذو النون المصرى :

« خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تقذف فى أعظم المحيطات » .

ويقول الشيخ فى تحبيره :

---

(٠) بضم الياء وفتح العين .
(٠٠) بضم التاء وفتح الصاد .
(٠٠٠) بضم الياء المشددة .

« جهنم الفراق أشد هولا من جهنم الاحتراق » •

فهم ــ أهل الحقيقة ــ أرقى درجات « المكلفين » •• (ولأجلهم)(•) **الزيادة التى جاءت فى الآية الكريمة « الحسنى وزيادة » حيث يفسرها** الإشاريون بأنها رؤية الله عيانا فى الآخرة •

وأخيراً ففى النص إشارة الى (**خلق**)(••) الجنة والنار، أى أنهما حادثتان ، وقابلتان للفناء على خلاف من يذهب غير ذلك •

رابعـاً ــ المفعـول فيـه

ويسمى ظرفاً ، وعرفه ابن عقيل بأنه زمان أو مكان ضمن(•••) معنى (فى) باطراد •

والأصل أن الظرف هو الوعاء للشيء ، وتسمى الأوانى ظروفاً لأنها أوعية لما يجعل فيها ،ولهذا سميت الأمكنة والأزمنة ظروفاً ، لأن الأفعال تحصل (فيها) •

والإشارة من ذلك إلى هذا الاصطلاح الصوفى الدقيق « الوقت » ، والوقت بالمعنى الصوفى تحمل البعدين(••••) : الزمان والمكان •

ولنشرح ذلك ••

التصوف مقامات وأحوال ــ كما نعلم •

فإذا كنت مجتهداً ووصلت بجهودك إلى مقام الزهد ، فهذا (وقت) الزهد أى (زمن) قيامك بمتطلباته ، فقد فرغت من مقام الورع وبت(•) فى

(•) بفتح الألف وسكون الجيم •

(••) بفتح الخاء وسكون اللام •

(•••) بضم الضاد وتشديد الميم المكسورة •

(••••) بضم الباء وسكون العين •

(•) بكسر الباء وتشديد التاء المفتوحة •

. . . .

مقام الزهد وتستعد إلى مقام التوكل ، هذا أيضاً بالتحديد (مكانك) .. ومن آداب الوقت أن تمتثل لـــكل دواعيه وألا تتعجـــل ، بل تأدب(..) والتزم .

والشيء نفسه فى الأحوال .. التى هى فيوضات من المولى سبحانه فإذا حصل أن وصلت إلى حال (القبض) فتريث فى هذا (المكان) وهذا (الزمـــان) اللذين يحتويانك حتى يقضى الله فيك أمراً ، وكل تجـــاوز للمكانية والزمانية لا خير فيه ..

وهكذا تصبح (منصـــوباً) ، وتستحق المـــكافأة .. وهى قادمة إن شاء الله عندما تلوح على البعد بوادر (البسط) أى الحال التالية .. وهكذا .

وهذا يتفق وما نعرف فى الجواهر الخمســـة أن الزمان والمـــكان مرتبطان (بالحركة) فيهما (راجع فى فلسفة الكندى ، الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة) .

خامساً ــ المفعول معـــه

عرفه ابن هشام فى « أوضح المسالك » بأنه اسم فضلة تال لواو بمعنى (مع) ، تالية لجملة ذات فعل ، أو اسم فيه معنى الفعل وحروفه ، مذكور لبيان مافعل الفعل بمقارنته نحو :

اترك المغتر والدهر(...) .

أنا سائر والنيل(....) .

ولا يجوز تقدمه على عامله فلا تقول : والنيل سرت .

(..) بسكون الباء .

(...) بنصب الراء ، وفتح اللام .

(انظر كتب النحو فى بعض الإيضاحات عن الفروق بين واو المعية وواو العطف) .

وتنبنى إشارة شيخنا على فكرة (الملازمة) التى هى من خصائص (المعية) وقد أخذت عنده ثلاثة اتجاهات :

١ — المفعول معه هو البلاء والعنان ، فإن بنى آدم خلقوا وهما (معهم) .

٢ — خلق الله الرزق (مع) المرزوق .

٣ — الله سبحانه بالكفاية (مع) أوليائه .

ونتحدث بإيجاز عن كل اتجاه .. فبالنسبة للاتجاه الأول : فالأصل أن الله لا يريد شقاء عباده لأنه لا يعود عليه شىء من ذلك فضلا عن أنه الرحمن الرحيم، انما جعل (البلاء) من أجل سبر أغوار النفوس البشرية ، وتصفيتها .. تماماً كما يدخل المعدن إلى التنور كى يصفو من كدوراته ، ويخرج منه على درجة من النفاسة أو الخساسة حسب الأصل .. وهذا درس لجميع الناس وبصفة خاصة للمبتدئين — فى هذه الطريقة — الذين يحتملون المشقات الأولى بجزع وقلق .

وإذا كانت القسمة الأولى قد جرت بالبلاء والعناء فإن الشيخ قد أردفها بنوعين آخرين هما : أنه بلطفه ونعمائه قد كفل الرزق لعباده ، وتولى أمر أوليائه .

وهذه المعادلة بين العناء والبلاء من ناحية وبين كفالة الأرزاق للعامة والخاصة هى (المعية) الإلهية الرحيمة .. لأنه اللطيف الخبير . وترد كلمة (المعية) صريحة فى موضع من اللطائف يوضح هذه المعانى :

« يبسط الرزق للأغنياء ويطالبهم بالشكر ، ويضيق على الفقراء ويطالبهم بالصبر . وعد الزيادة للشاكرين ، ووعد (المعية) للصابرين ، لأن الله (مع) الصابرين » .

أما كفالته لأوليائه فلندع توضيحها للصورة المنقولة عن مريم ابنة عمران كما أشار إليها القرآن ، فهى نموذج لما تصنع (المعية) الإلهية بعبد اختير من لدن الله كى يكون ضمن أوليائه .

مرت مريم بمرحلتين : المرحلة الأولى حينما كانت **(متجردة)** لله ، ليس لها من علاقة خارج نطاق التعبد والتطهر ، والتقرب إلى الله.. وفى هذه الأثناء كان زكريا كلما دخل عليها محرابها « وجد عندها رزقاً » ، وكان يتعجب فيما بينه وبين نفسه كيف يتم ذلك ؟

أما المرحلة الثانية فقد بدأت حينما اختيرت لتكون **(ذات علاقة)** كأول أنثى تلد ولداً من غير أب .. ولنتصور مبلغ الضعف الذى وصلت إليه مريم ، فهى أنثى فيها ضعف الأنثى ، حامل ، على وشك الميلاد ، لا تعرف ماذا تقول لأهلها وللناس عن هذا السر الذى دخلت فيه ولا تدرى كنهه .. اللهم إلا بعد ما بشرت(٭) بهذا الميلاد النبيل ، وأن من(٭٭) سينزل من أحشائها بعد قليل سيكون له شأن عظيم .. ولكن يتبقى أمر الناس .. ماذا ستقول هى ؟ ماذا سيقولون ؟

وفى وسط هذا الجو الذى يملؤه الخوف جاءت **(المعية)** (لتتولى) هذه العابدة العظيمة فأمرت بأن تهز النخلة ليتساقط عليها (الرزق) جنياً ، لتأكل ولتقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن الذى (يرزقها) القوة وهى فى أشد حالات ضعف الأنوثة والمرض هو الذى يستطيع أن (يرزقها) الولد على نحو غير طبيعى .. من غير أب !!

— فكأن هدف الشيخ البعيد من (المعية) ومن (المفعول معه) هو منح المريدين والسالكين .. دروساً فى [التوكل] .. وهل التوكل فى جوهره إلا أن تكون (مع) الله ليكون الله (معك) ؟!

(٭) بضم الباء وتشديد الشين المكسورة .

(٭٭) بفتح الميم وسكون النون .

فصــل [٢٧]

ما لم يســـــم فاعله

« ما لم يسم فاعله مرفوع لأنه لم يذكر فاعله وأقيم المفعول مقام الفاعل وأعرب إعراب الفاعل ، لأن الفعل لابد له من فاعل ، فيقال : ضرب(•) زيد •

والإشارة : إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نسبوا(••) الأفعال إلى المفعولين فتوهموا للمفعول استحقاق رتبة الفاعل ، فيضيفون الكائنات إليهم ، لأن العلم بأن هذه الحوادث لابد لها من محدث على الجملة — ضرورة • فإذ لم يثبتوا الصانع توهموا الفعل من المفعولين •

فواحد أقام الطبع مقام الفاعل — فى التوهم •

وآخر : النجم ، وآخر : الفلك

وآخر : الجد(•••) أو البخت (••••) وآخر الدولة (•••••)والدهر

وآخر : زيد وآخر : عمروا

وكما أن إعــراب الرفـــع للذى لم يســـم فاعله ليس بحقيقـــة كــذلك توهم(••••••) أن الحــادثات من المفعــولات والمفعــولين لا حقيقة له » •

(•) بضم الضاد وكسر الراء •
(••) بفتح النون •
(•••) بضم الجيم •
(••••) بسكون الخاء •
(•••••) بتشديد الدال وضمها وفتح الواو •
(••••••) بتشديد الهاء وكسرها •

هو اسم مرفوع أسند إليه فعل مبنى للمجهول .

وهو يستخدم فى مواضع يرى المتكلم عنـدها أنه لا داعى لذكر الفاعل صراحة ، وعندئذ يطرأ على الجملة بعض التغير ، فصيغة الفعل ينالها ضم فى الأول وكسر ما قبل الآخر مثل سرق متاعنا ، وفى المضارع فتح ما قبل الآخر مثل تستحب الصدقات فى رمضان .

ويتحول المفعول إلى عمدة ، فيقوم مقام الفاعل ، ويرفع بسبب ذلك ، إنه الآن ضرورى فى الجملة ولا يمكن الاستغناء عنه .

ويسرى ذلك على اسم المفعول مثل :

أمقطوف الورد(٠) — فالورد نائب فاعل سد مسد الخبر .

والأصل فى النيابة هو المفعول به ، ولكن يمكن نيابة الظرف المتصرف المختص مثل : صيم رمضان ، وسهرت الليلة ، وجلس(٠٠) أمام القبلة فإن لم يتصرف مثل : عند ، ومعك ، وثم(٠٠٠) فتمتنع نيابته .

كما يمكن نيابة المجرور بحرف الجر مثل : ما كتب من شىء .

ويصلح المصدر أيضاً للنيابة بشرطين :

١ — أن يكون متصرفاً (بمعنى أن يقبل إعرابات شتى) .

٢ — وأن يكون مختصاً (أى يتلوه شىء يوضح معناه) .

مثل علم(٠٠٠٠) علم نافع .

---

(٠) بضم الدال .

(٠٠) بضم الجيم وكسر اللام وفتح الميم المشددة .

(٠٠٠) بفتح الثاء .

(٠٠٠٠) بضم العين وكسر اللام .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

وفهم فهم العباقرة •

وللموضوع فى النحو تفصيلات كثيرة ، ولكننا اكتفينا هنا بما هو لازم لتذوق إشارات الشيخ •

ونحن نحمد للشيخ هنا اتخاذه لبعض المواقف التى تجمع بين الفطنة والدقة فضلا عن انسجامها مع منهجه الفكرى ، ومقاصده البعيدة والقريبة • آية ذلك أنه وضع هذا الباب عقب المنصوبات ، وقد جرت عادة كتب النحو أن تضعه مع المرفوعات •• ولكن الشيخ يرى أنه ولو كان مرتدياً ثوب (الرفع) على الظاهر إلا أنه على الحقيقة مازال فى دائرة (النصب) !! فالعبرة بالأصول •

أن تسميته للباب « ما لم يسمفاعله » فيها جمع بين المقصود وبين ضرب مثال له فى آن واحد ، بدليل أن الفعل فى العنوان مبنى للمجهول •• وزيادة على ذلك فإنه عنوان أخصر وأدق من عناوين النحاة •• الذين يوردونه على هذا النحو (المفعول الذى لم يسم فاعله) ، وقد رأينا منذ قليل أن النيابة قد تكون لغير المفعول •• كالمصدر ، والظرف ، والجار والمجرور •

وغير خاف أن التسمية تجنبت تماماً وصفه بأنه (نائب فاعل) ، لأنه يشعر — كما تتضح الإشارة — بأنه وإن كان مرفوعاً وأنه عومل معاملة الفاعل إلا أن هذه رتبة لا يستحقها فى الواقع وفى المضمون •• وأنه ليس من الفاعلية فى شىء ! إن هذه التغيرات التى أصابته وأصابت الفعل لأجله ما هى إلا محاولات فيها من التكلف والصنعة من أجل إقامة فاعل زائف !

وعند هذه النقطة تنطلق إشاراته كالسهام القاتلة نحو الطبائعيين والدهريين وعبدة النجوم والأفلاك والقائلين بالحظ والبخت ••• وغير

أولئك ممن يبعدون عن الحقيقة ، وهى نسبة الأمر لصاحب الأمر ، والخلق للخالق •• ومن يملك فى قبضته كل (الفاعلية) الحقة •

المسألة فى بساطة •• أن الله سبحانه هو القديم وهو واجب الوجود • وكل الكون — الذين تحارون فى نسبته إلى (فاعله) — كان عدماً ، والله البديع هو الذى (أحدثه) ، فالمحدثات فى أسر القدرة (القديمة) والممكن الوجود فى يد واجب الوجود ، بداية ونهاية وبين الاثنتين عناية ••• الكون كله مرجح(•) الوجود ، والمرجح يحتاج إلى مرجح(••) •

ولو أرجعتم شيئاً إلى (فاعل) آخر فإنه سيكون (نائباً) لا حقيقاً ، لأن تسلسل المحدثات لابد أن ينتهى ، وإلا دخلنا فى الدور والتسلسل ، وتكون النهاية حتماً (للفاعل) الأول ، والمحرك الأول ، والعلة الأولى • هو الخالق وهو المنظم •• وما عداه ممن تنسبون إليهم ذرة من ذلك زائف ، وقضيته فى التحقيق لا تثبت على المحك •

ويترتب على ذلك ومن ذلك ما يصرح به الشيخ فى لطائفه : — « الكل واقفون على التجويز ، غير حاصلين بوثيقة ، ينتظرون ما سيبدو فى المستأنف • إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو مما يقتضيه حكم الأفلاك ، وما الذى توجبه الطبائع والنجوم • أما المسلمون فينتظرون ما يبدو من المقادير ، فهم فى روح(•••) التوحيد ، والباقون فى ظلمات الشرك »(١) •

(•) بفتح الجيم وتشديدها •
(••) بكسر الجيم وتشديدها •
(•••) بفتح الراء وسكون الواو •
(١) لطائف الاشارات المجلد الثانى ص ٤٩٠ •

• • • • • • • • • • • • • • • • •

ونرى فى النص غمزتين :

الأولى توجه إلى أهل الاعتزال الذين ينادون بحرية مطلقة للإنسان (**زيد وعمرو**) • بينما يرى خصمهم أبو الحسن الأشعرى أن هذه الحرية المطلقة إذا نسبت إلى الإنســان فمعناه أن أكثر من (فاعل) يفعل فى الكون وبذا يتعدد (الفاعلون) •• والفعل ــ على الحقيقة ــ الذى يجرى فى الكون ينبغى أن يعــود لخالق الكون ، لأن الأشــياء تعود وتنسب لصاحبها الأصيل •

أما الغمزة الثانية فربما توجهت إلى هذه (النيابة) الزائفــة التى يزعمها بعض الأدعياء ، والذين كشــفنا أمرهم أكثر من مرة فى هذه الشروح •

إنهم يدعون(•) أنهم محو ، وأن التكاليف قد ســقطت عنهم ، وأن البشرية قد زالت وأن (القائم عنهم هو الحق) « وأن **(النائب عنهم)** سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا »(٢) •

وهى دعوى زائفة لا يقرها أهل هذه الطريقة والحراس عليها •

(•) بفتح الدال وتشديدها •

(٢) الرسالة ص ٣ وهى بضم الصاد وكسر الراء •

فصل [٢٨] :

المضاف إليه

« المضاف إليه له الخفض ، تقول : دار زيد(٠) .

والإشارة : أن الخفض أضعف الحركات ، ولما كان الاسم مفرداً كان له أقوى الحركات فلما جاءت الإضافة صارت له أضعف الحركات :

كذلك العبد مادام مجرداً فله أقوى الحالات ، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات » .

---

(٠) بتنوين الدال بالكسر .

الإضافة ضم كلمة إلى كلمة أخرى بتنزيل الثانية منزلة التنوين من الأولى فى تمام الكلمة ، وكشف ما بينهما من علاقة ، ويسمى الأول مضافاً والثانى مضافاً إليه •

والمضاف يأخذ إعرابه العادى حسب موقعه فى الجملة ، أما المضاف إليه فيكون مجروراً أو (مخفوضاً) حسب تعبير الشيخ • على أن المضاف يتجرد عند إحداث هذه العلاقة من أشياء ، كالتنوين الظاهر أو المقدر مثل : ثوب علىّ(•) ودراهمه •

ويتجرد من النون إذا كان مثنىأوجمعاً مثل : «تبت يدا أبى لهب وتب» : وخرج قاصدو مكة •

وفى معظم الأحوال يتجرد المضاف أيضاً من (ال) التعريفية حيث لا تبقى إلا فى أحوال تبلغ أصابع اليد الواحدة ذكرها النحاة : مثل مسجد الجامع أى المسجد الجامع وقد جاءت فى أحد نصوص القشيرى ومعها واحدة أخرى :

(صراط الحميد : الإضافة فيه كالإضافة عند قولهم مسجد الجامع أى المسجد الجامع ، فالصراط الحميد هو الطريق المرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة وليس للحقيقة عليه نكير)[1] •

والقصد من الإضافة واحد من ثلاثة :

١ — التعريف أى تعريف السابق باللاحق مثل : نور القمر(••) • فالإضافة إلى معرفة •

٢ — أو التخصيص : إن كان المضاف نكرة : نور مصباح •

٣ — أو التخفيف مثل : آكل التفاح •

---

(١) اللطائف المجلد الثانى ٥٣٧ .

(•) بكسر الياء المشددة المنونة .

(••) بكسر الراء .

ويعزو النحاة الجر الذى يحدث للمضاف إليه إلى وجود حرف جر مقدر ففى مثال الشيخ : دار زيد ومعناها دار لزيد .

وتقدير اللام هو الغالب ، وقد يكون (من) مثل جبة صوف وباب خشب — وضابطه أن يصح إطلاق اسم المضاف إليه على المضاف فتقول : هذه الجبة صوف ، وهذا الباب خشب .

وعلى كل حال فالمضاف إليه **(مخفوض) بسبب هذه العلاقة** ، على خلاف بين سيبوية — الذى يرى أن العامل هو المضاف — وبين الزجاج الذى يرجعه إلى حرف الجر المقدر .

* * *

والإشارة :

يستحق الاسم وهو متجرد ورئيس وعمدة أقوى الحركات وهو الرفع كما أسلفنا ، فإذا دخل فى علاقة مع اسم آخر يربطه به حرف جر مقدر فقد ضعف حاله ، ونزل عن كل ما كان يتمتع به من مزايا خاصة ثمناً لهذه العلاقة.كذلك العبد إذا خرج عن (قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق — حسب أحد تعريفات التصوف الشهيرة) فإنه يفقد تحرره واستقلاله ، ويصبح فى أسر(*) ما أضاف أو أضيف إليه .. وهكذا كل انتماء للغير والسوى ، أما النسبة الحقيقية التى تؤمن(**) الطريق فهى لله وحده .

وكما يحدث (الخفض) (للمضاف إليه) حينما يكون فى قبضة (المضاف) الذى بدوره يصبح تحت وطأة قوتين : إعرابه الأول فى الجملة

(*) بفتح الألف وسكون السين .

(**) بتشديد الميم وكسرها .

وإعرابه الثانى : (كونه مضافاً) تحدث بلبلة فى (الطريق) كله — تنذر بأوخم العواقب •

وينذر الشيخ حين يدق ناقوس الخطر بأن شيئاً هاماً وخطيراً مهدد بهذه (الإضافة) ألا وهو توحيد أهل الحقيقة :

(فالتوحيد التجـريد ، وعلامة صحته سـقوط « الإضـافات » بأسرها)[1] ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر بأن العلاقة المستحدثة ستكون بين العبد وبين الهوى أو النفس أو الشيطان أو الدنيا ، فهؤلاء هم الأعداء الأيقاظ الذين لا يألون جهداً فى جذب العبد إليهم فى (إضافات) مزينة[٠] تسرع به إلى (الخفض) !

بقى أن ننبـه إلى أن القشـيرى فى مصنفاته كثـيراً ما يستخدم « النسبة » بدلا من (الإضافة) •• نقول هذا لكى نضيف هذه اللفظة إلى مصطلحه النحوى — لمن يريد متابعة ذلك •

وتستطيع أن تعيـد قراءة النص والشروح فى ضـوء (النسبة) (والانتساب) دون أن تشعر بفروق فى المعنى •

(١) اللطائف المجلد الثانى ص ٤٥١ •

(٠) بضم الميم وفتح الزاى وتشديد الياء •

فصــل [٢٩] :

كان وأخــواتها

« كان وصــار ... إلى آخر هذه الأفعال الفاظ ترفع الأســماء وتنصب الأخبار ، تقول : كان زيد قائماً .

فهذه مشتبهة(٠) بأفعال ، وليست بأفعال محضة .

والإشارة :

أنها لمــا ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية ، فكما أن الفاعل رفع والمفعول نصب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب.. ولكن ينادى(٠٠) عليها بأنها ليست بأفعال محضة .

فكذلك من تشبه بقوم يجرى مجراهم ، ويحكم له — فى الظاهر — بحكمهم ، ولكن ينادى عليه بانه متشبه بهم وليس منهم حقــاً ، قال الشاعر فى هذا المعنى :

إذا انسكبت دمــوع فى خدود ... تبيَّن(٠٠٠) من بكى ممن تباكى »

---

(٠) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الباء وفتحها .
(٠٠) بضم الياء .
(٠٠٠) بتشديد الياء وفتحها .

فصل [٣٠] :

إن(٠) وأخواتها

« الحروف التى تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة وهى : إن(٠٠) وأن(٠٠٠) ولكن(٠٠٠٠) وليت ولعل ٠

وعمل هذه الحروف — فى الحقيقة — فى الأسماء دون الأخبار، لأن أخبار باقية على ما كانت عليه ، وإنما تساهل النحويون فى هذه الحروف ، فأشبهت كان وأخواتها — التى تعمل فى الاسم والخبر جميعاً ٠

ولما كانت هذه الحروف مشبهة(٠٠٠٠٠) بالمشبه ضعفت عنه فى العمل فعملت فى الاسم دون الخبر ٠٠

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق ، وأقرب من التلزيق والتلفيق كان أضعف فى التأثير وأخس فى المقدار ٠

---

(٠) بكسر الألف وتشديد النون مع فتحها .
(٠٠) بكسر الألف وتشديد النون مع فتحها .
(٠٠٠) بفتح الألف وتشديد النون مع فتحها .
(٠٠٠٠) بتشديد النون مع فتحها .
(٠٠٠٠٠) بتشديد الباء وفتحها .

ضممنا البابين بعضهما إلى بعض لأن منطلق الإشارة فيهما واحد ، ومن الخير أن نعالجهما على أنهما وحدة متكاملة منعاً للتكرار وتحديداً للمسائل .

ونبدأ بعناصر النحو الظاهرى الضرورية فى استنباط الإشارة .

(أ) كان وأخواتها :

أفعال ناقصة فهى **تحمل من عناصر الفعل (الزمن) فقط ، وليس فيها** (الحدث) ، لأجل هذا كان عملها فى الجملة الاسمية رفع المبتدأ (تشبيها بالمرفوع بعد الفعل التام) ونصب الخبر (تشبيها بالمفعول به فى هيكل الجملة البادئة بالفعل التام) وهذه عدالة فى التوزيع .

ومن حيث التصرف .. فمن هذه الأفعال الناقصة ما لا يتصرف أصلا مثل : ليس ودام ، ومنها ما يتصرف تصرفاً ناقصاً وهو زال وأخواتها (فلا يأتى منها أمر أو مصدر) والباقى يتصرف تصرفاً كاملا مثل كان : كان الطريق وعراً ، ولم أك بغيا — كونوا حجارة .

— لقد أعجبنى كونك مصراً على سلوك هذا الطريق ،

وما كل من يبدى البشاشة كائنا

أخاك إذا لم تلقه(٠) لك منجدا

واضح من كلام الشيخ أنه يعتقد بأن هذه الأفعال الناقصة تعمل عملها فى المبتدأ والخبر — وهذا أيضاً رأى البصريين .

أما الكوفة : إنها لا تعمل فى المبتدأ لأنه ظل(٠٠) على حال الرفع كما كان .

---

(٠) بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف .

(٠٠) بفتح الظاء وتشديد اللام مع فتحها .

ونحن نميل إلى الاتجاه الأول ، لأن المبتدأ قد فقد صدارته للجملة ، فضلا عن أنه فقد لقبه وأصبح : اسم كان وأخواتها •

فإذا ضممنا إلى هذه الأخيرة ما طرأ على الخبر من تغير فى الإعراب وفى اللقب فإننا نستريح إلى أنها عاملة فى الاثنين معاً •

(ب) إن وأخواتهـا :

إن وأن : لتوكيد النسبة ونفى الشك : إن الحق واضح •

لكن : للاستدراك ، وهو تعقيب الكلام بنفى ما يتوهم ثبوته : على شجاع لكنه بخيل •

كأن : تفيد التشبيه المؤكد لأنها تتكون من الكاف التى للتشبيه ومن أن التى للتوكيد :

كأن النيل ذو لب   لما يبدى من اليمن(•)
فيأتى حين حاجتنا   ويمضى حين نستغنى

ليت : وتفيد التمنى ، وهو طلب ما فيه عسر أو قرب استحالة : ليت الشباب يعود •

لعل : وتفيد الترجى أى توقع أمر ممكن محبة له : لعلكم تفلحون أو إشفاقاً منه : لعل الساعة قريب •

لا : النافية للجنس • وسيأتى الكلام عنها (الفصل ٤٦ من هذا الكتاب) وتحدث هنا عملية أشبه **(بالتلزيق والتلفيق)** اللذين وردا فى تنظير الشيخ :فيقال : صحيح إن هذه حروف ، ولكنها فى الواقع تحمل (معانى) الفعل دون لفظه •

فمعنى إن وأن : حققت(••) •

(•) بضم الياء وسكون الميم •

(••) بفتح الحاء وتشديد القاف الأولى وسكون القاف الثانية •

ومعنى كأن : شبهت .
ومعنى لكن : استدركت ... الخ .

وإذاً فقد وجب أن يكون لها مرفوع لأنها تحمل **رائحة الفعل** ، كما ينبغى أن يكون لها منصوب لذلك أيضاً .. وتلاحظ أنها قد تحقق لها هذا وذاك ولكن على نحو(.) غيرنمطى، فالمنصوب (المبتدأ) يقع فى الترتيب قبل المرفوع (الخبر) ويسمى الأول اسمها ويسمى الثانى خبرها .

والبصريون يرون أنهـا عاملة فى الجزأين — وهذا عنـد شيخنا نوع من **(التساهل)** .

أما الكوفيون فلا عمل لها فى الخبر لأنه باق على حاله قبل دخولها — وإلى هذا يميل الشيخ .. والخلاصة ..

أن الأصل .. هو الفعل التام ، وأن كان وأخواتها مشـبهة به ، وأن إن وأخواتها مشبهة بالمشبهة به ..

وتحصل(..) لدينا من ذلك ثلاث مراتب من حيث اكتمال المعانى ، والتأثير .. وكل على درجة استحقاقه .

فليس الفعل التام كالفعل الناقص كالحرف الذى يحمل من بعيد معنى الفعل وجاء الترتيب على النحو التالى :

فعل تام + مرفوع (فاعل) + منصوب (مفعول به) : الأصل .

فعل ناقص + مرفوع (اسمها) + منصوب (خبرها) : مشبه بالأصل.

حرف ناسخ + منصوب (اسمها) + مرفوع (خبرها) : مشبه بالمشبه بالأصل .

(.) بكسر الواو وتنوينها .
(..) بتشديد الصاد مع فتحها .

والإشــارة ...

الجو الصحى لهذه الطريقة (التصوف) الذى تهب عليه نسائم القرب هينة لينة ، وينعم فيه أفراده بالسعادة فى الدنيا والآخرة يتمثل فى ذلك (القطب) أو (الشيخ) الذى يراعى الحقيقة والشريعة ، ومن حــوله المترسمون طريقه ، يقلدونه ويتبعونه فى كل ما هو (تام) ومفيد .

والمبتدئون الخلصاء ينضمون إلى هذا الجو آحاداً بعــد آحاد ، فينهجون النهج نفسه .. والقافلة تسير .

ولكن .. يحدث أن ينضم إلى هؤلاء بعض الأفراد الذين يتشبهون بهم ، ولكن ليس إلى درجة الكمال ، وإنما (ينقصهم) شىء أو أشياء ، فقد يصابون بالعجز أو بالملل أو بالإحباط فيمارسون (أفعالهم) ، ولكن تحت ضغوط أو مؤثرات خارجية أو داخلية فتصدر عنهم سواء أرادوا أو لم يريدوا أمور لا ترضى(٠) قدامى السالكين : (أفعال ناقصة) تكون موضع الملاحظة ثم النقد ثم التوجيه ، فإما أن ينصلح حالهم إذا كانوا من المحظوظين ، أو يميلوا كل الميل .. وتكون النتيجة أنهم لو أهملوا وظلوا محسوبين على (القطب) أو (الشيخ) كانوا وبالا على الجميع .. لأن من الناس من لا ينظر إلى القطيــع إلا من خلال الشــياه السوداء ! فتبدأ الاتهامات الموجهة لا إلى هؤلاء وحدهم بل إلى الطريقــة وأهلها جميعاً .. وهنا مكمن الداء الناجم عن **(التساهل)** .

وليت الأمر يقتصر على هذا الحد ، فسرعان ما يدخل إلى القوم جماعة أخس قدراً ، **(وبالتلزيق والتلفيق)** ينحشرون فى زمرة القوم فتزداد النار شرراً ، وتفوح الروائح الرديئة .. ويبلغ السيل الزبى ، ويصل الأمر إلى حد لا ينبغى السكوت عليــه ، لأن هؤلاء المتشبهين الأواخر

---

(٠) بضم التاء .

بالمتشبهين الأوائل يكونون معاً وصمة فى جبين القـــوم يجب أن تزال ، وأعشاباً ضارة يجب أن تجتث ••• وإلا تداعى كل البنيان ••

حدث هذا •• ويحدث ، فالشيخ القشيرى بتجربته الواسعة يريد أن يميز هنا بين الأصيل والزائف ، بين المقبول والمرفوض ••

فكأنى به من خـــلال هذين البابين يستصرخ الشـــيوخ أن يحموا أنفسهم وطرائقهم من الدخلاء والأدعياء ، وذوى الأغراض والأمراض ، فعدوى الردىء تمتد إلى الأردأ عند ازدياد **(التساهل)** •

كأنى به ينبههم إلى الظواهر والبواطن •• فلا خداع أو انخداع ، بل نفاذ لجواهر الناس ، وأحكام حاسمة تفرض نفسها فى حسم وقوة ه كأنى به يحذر من آفات **(العقل الجمعى)**(•) الذى تذوب فيه المسئولية الفردية فى المســئولية الجماعية ، وتلتصـــق أفراد الأقليـــة بخطاياهم وأخطائهم بالأكثرية النقية الصالحة مهما (تشابهت) البذور أو اقتربت من التشابه •• فاليقظة مطلوبة والحذر أوجب •

لأجل هذا حرصت كل المراجع الصـــوفية الموثوقة على فرز هذه الطوائف، وتحجيم أدوارها ، ولفت(••) الأنظار إليها•••فكم من الخبائث يجرى تحت أردية الصوف والخرق(•••) !

(•) بفتح الجيم وسكون الميم •

(••) بفتح اللام وسكون الفاء •

(•••) بكسر الخاء وفتح الراء •

فصـــل [٣١] :

الفعـــل الماضى

« الفعـــل الماضى مبنى على الفتـــح نحو : ضرب ـــ والفتح أخف الحركات ، فلمـــا كان الماضى بمضيه(٠) له أضـــعف الحالات خص(٠٠) بأضعف الحركات •

الإشارة : أضعفهم حالا أبخسهم نصيبا •

قال الشيوخ :

« إن لله عباداً لم يرهم أهلا لمعرفته فشغلهم بنوع من عبادته » •

---

(٠) بتشديد الياء وكسرها •

(٠٠) بضم الخاء •

ملاحظة على المنهج :

نريد قبل أن نتحدث عن الفعل التام بأقسامه : الماضى والمضارع والأمر أن نسجل هنا ملاحظة على منهج الشيخ فى تبويب كتابه •• فليس من شك فى أنه يتبع طريقة غير نمطية فى ذلك ، فهو إنما يسير على نسق إشارى • ذلك أنه قبل أن يتحدث عن الفعل بعامة تحدث فيما سبق عن « باب كان » وهى أفعال ناقصة ثم « باب إن » وهى حروف شبهت بالأفعال الناقصة — على نحو ما سبق توضيحه •• فكأنه أولا يبدأ بتنقية الجو الصوفى الخالص بما ليس منه — فى الحقيقة — من أهل الابتداع والمقلدين والأدعياء والمنافقين •• وبكلمات أخرى **يتحدث عن الأعداء قبل الأصدقاء**، لأنه يرى أن كشف دور الخصوم واستبعاد أدوارهم يخلى(•) له الجو كى يصف معالم الطريق الخالص • وهذا النسق فى العرض اتبعه الإمام الغزالى بعده بنصف قرن ، فقبل أن يتحدث عن التصوف — تمشياً مع رحلته الروحية كان قد تحدث عن الفلسفة والفلاسفة وأبان « التهافت » فى هذا المنهج ، حتى إذا فرغ من هذه الحرب كان قد أعد الميدان لشىء جديد بديل هو الفراغ للتصوف وأهله •

والشىء نفسه فعله مع الباطنية •• فبعدما كشف دعاواهم وأباطيلهم شرع يتحدث عن أهل الباطن من علية القوم •

فكأن القشيرى واضع منهج فى الفكر كان أسوة لمن بعده •

هذا شىء أردنا أن نقدمه لمن يلتفت إلى ترتيب أبواب النحو فى هذا الكتاب •

ونعود إلى الفعل الماضى ••

فبالنسبة لنحو الظاهر •• فإن الماضى يبنى(••) على الفتح الظاهر :

(•) بضم الياء وسكون اللام • (••) بضم الياء وسكون الباء •

١ — إذا لم يتصل بآخره شيء : الله نزل أحسن الحـــديث
٢ — أو اتصلت به تاء التأنيث : امتثلت أم موسى لأمر ربها
٣ — أو اتصلت به ألف الاثنين : الشـــاهدان نطقـــا بالحق

ويبنى على الفتحة المقدرة : سعى المنافق بالفساد بين المريدين •

ويبنى على الضمة إذا أسند إلى واو الجماعة ، وعلى السكون إذا اتصل بتاء الفاعل أو (نا) الدالة على الفاعل ، أو نون النسوة •

ومعنى هذا أنه ملازم للبناء على الفتحة فى حالته العادية الغالبة •

والماضى —رغم اتساع الزمن الماضى — إلا أنه قاصر عن الدلالة على شيء أكثر من ذلك ، أما المضـــارع فهو صالح للحـــال والاستقبال فحركته أكثر •• لهذا استحق الأول البناء واستحق الثانى الإعراب ، ولهذا أيضاً نال الماضى الفتح باعتباره كما قلنا من قبل أضعف الحركات ، بل هو فى رأى بعض النحاة علامة استراحة واسترخاء •• ولكنه حظ(•) — وإن كان قليلا — ملائم لدرجـــة استحقاقه •• وتتضح أهميـــة ذلك فى الإشارة كما سيلى •

ونأتى إلى الإشارة :

ونقدم لذلك باقتطافة من لطائف الإشارات يحدد بها نظرته إلى الفعل الماضى حيث يقول : « الأيام والشهور والأعــوام والدهور بعد (مضيها) فى حكم اللحظة لمن تفكر فيها •• ولكن متى يكون لها أثر بعد تقضيها ؟ والآتى من الوقت قريب فكأن قدر(••) (الماضى) من الدهر لم يعهد »(١) •

هذا كلام رقيق جميل يعبـــر عن تحجيمه لـــ (الماضى) فى المنزلة

(•) بفتح الحاء وضم الظاء المشددة المنونة .
(••) بفتح القاف وسكون الدال .
(١) اللطائف المجلد الثانى ص ٩٨ .

الدنيا بينما يفوق(•) عليه الحاضر والمستقبل •• لأن ما أصيب بالفوات غير ما هو آت •

وقد رأى الشيخ أن يخلع هذه المرتبة المحدودة على جماهير الكافة من المتدينين الذين لا تربطهم صلة وثيقة بالطريقة وأهلها ، فهم وإن تعاطفوا معهم ، ولم يسببوا لهم ضيقاً •• إلا أنهم لم ينضموا إلى صفوفهم « **وإنما شغلوا بنوع من العبادة** » يرقى بهم عن مستوى أهل العادة ، فهى درجة استحقاق لا تضعهم فى إطار المرفوضين من القوم بالكلية •• إنها استحقاق على كل حال !

وهنا تبرز هذه النظرة المولعة بالتقسيمات عند الشيخ بل عند جميع كتاب(••) التصوف •

والتقسيم فى أغلبه ثلاثى : فبعد أهل العادة يأتى :

العباد والزهاد والعارفون

وتحت كل طائفة مجموعات تتصاعد فى القيمة حتى تترابط الحلقات، فليس من يعيش بحكم العادة كمن يعيش بالإرادة ، وليس من يعيش بإرادته كمن يعيش بإرادة مولاه —وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فكلهم خير ، ولكن هذا الخير على درجات ، وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على هذه المنازل •• فلن ننتهى •• فلنكتف بالقليل كى نوضح الترقى فى النظرة والممارسة للعبادة الواحدة •

١ — « **الزهد** للعامة قربة وللمريد ضرورة وللخاصة خشية » •

٢ — « **الصبر** أوله تصبر وهو تكلف الصبر ثم الصبر وهو سهولة حمل ما يستقبله من فنون القضاء ثم بعده الاصطبار ويكون بأن يألف الضر دون مشقة فليس له روح(•••) وله راحة » •

٣ — « **توبة** العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة » •

٤ — « **ذكر** العامة باللسان وذكر الخاصة بالقلب أما خواص الخواص فذكرهم يكون بفنائهم عن ذكرهم » •

(•) بتشديد الواو المكسورة •

(••) بضم الكاف وتشديد التاء المفتوحة • (•••) بسكون الواو •

فصـــل (٣٢) وفصـــل (٣٣)

الفعـــل المضـــارع وإعرابه

فصـــل [٣٢] :

« الفعل المضـــارع مرفوع لمضارعته الاسم ، فأصـــل استحقاق الاعراب للاسم ٠

والإشارة : من(٠) تشبه بقوم فهو منهم ، ومن أحب قوماً حشر(٠٠) معهم ٠٠٠٠ همو القوم لا يشقى بهم جليس ٠

وقال الشيوخ : من(٠٠٠) تحقق بحاله لم يحل(٠٠٠٠) عنه حاضروه »٠

---

(٠) بفتح الميم وسكون النون ٠

(٠٠) بضم الحاء وكسر الشين ٠

(٠٠٠) بفتح الميم وسكون النون ٠

(٠٠٠٠) بفتح الياء وضم الحاء وسكون اللام ٠

فصل [٣٣] :

الحروف التى تجزم الفعل المستقبل معلومة وهى :

لم ولما وأخواتهما ٠

والتى تنصبه معلومة وهى : أن(٠) ولن وكى وإذن ٠

والإشارة منه : أن الفعل المضارع مادام منفرداً كان له أقوى الحركات ، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات ٠٠ فآل إلى حال الضعف ٠

وكذلك : العبد عند تجرده فهو بنعت استقلاله وقوته ، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما رد(٠٠) إلى الضعف فبعدما كان بالله مستقلا صار أسير حظ(٠٠٠) ، وصريع نصيب ٠

ثم ٠٠ بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد ،

وبعض العوامل تجزمه (فتقطع) عنه الفوائد ٠

---

(٠) بفتح الألف وسكون النون ٠

(٠٠) بضم الراء وتشديد الهمزة المفتوحة ٠

(٠٠٠) بتنوين الظاء المكسورة ٠

• • • • • • • • • • • • • • • • •

● المضارع من الأفعال هو القسم المعرب ، واللفظة من (ضارع) أى شابه ، والمشابهة واقعة بينه وبين صاحب الأصل فى الإعراب وهو (الاسم) • فعلى حين يلزم آخر الماضى الفتح ، وآخر الأمر السكون وهما مبنيان على هذا الأساس — فإن آخر المضارع يتغير تغيرات شتى • وهو يشبه الاسم أيضاً بدخول لام الابتداء عليه كقولك :

إن زيداً ليخرج — مثل قولك إن زيداً لخارج •

ويرى الشيخ أن المضارع حينما شابه الاسم أخذ منه بعض الاستحقاقات التى (رفعت) شأنه ، فقيامه مقام الاسم عامل معنوى يشبه (الابتداء الذى يوجب الرفع) فيكون ذلك أيضا حال ما يشبهه ، وترتب على ذلك أنه حمل ما يحمل الاسم وهو الرفع الذى هو علامة على القوة بل على أقوى الحركات جميعاً •

● وهو ينال هذه المرتبة عندما يكون على الأصل ، أى الدلالة على الحال والاستقبال **والتجرد** من كل العوامل السابقة عليه تلك التى تنال من هذه الأصالة فتصرفه فى أزمنة مختلفة أو تحدد إطاره الزمانى فى الحال فقط أو الاستقبال فقط • • بمعنى أنه طالما لم تمس(•) هيبته العريقة فى المضارعة له الإجلال و (الرفع) ، **فإذا دخلت عليه العوامل** أثرت(••) فيه ونالت من هذه (الرفعة) • • **لأن هذا الخضوع (للعوامل) له ثمنه !**

● ومن علامات قوة هذا (المضارع) أيضا أنه يحمل فى بنيته الأساس دلالة على المسند إليه ، وهى :

(أ) التى يقال إنها بقية من (أنا) أو ما يشبهه •

(ن) أصلها نحن أو ما يشبهه •

(ى) أصلها ضمير بطل استعماله •

(ت) أصلها أنت •

(•) بضم التاء وفتح الميم •

(••) بفتح الألف وتشديد الثاء مع فتحها وسكون التاء •

وهى قاعدة مطردة ما عدا فى (تكتب) فهى صالحة للمفرد المخاطب وللمفردة الغائبة ، وهذه مسألة يحددها سياق الكلام .

● ويكاد المضارع يجد له مكاناً عبر الأزمنة كلها ، فهو يتحرك فيها بناء على العوامل الداخلة عليه الأمر الذى يعرض آخره للتأثر المتباين فى كثير من الأحيان .

فمثلا (لم) تنقله إلى الزمن الماضى وتجزمه .

و (لما)[*] تحمله إلى زمن التكلم وتجزمه .

و (لن) تخصصه للمستقبل وتنصبه .

و (لا) تنفيه ولا تؤثرفيه لأنه يبقى صالحاً للحال والاستقبال كما هو .

و (لام الأمر) تكسبه معنى الأمر فتجزمه .

و (لا الناهية) تجعله أمراً سلبياً فتجزمه أيضاً .

(وإن الشرطية وأخواتها) تعطيه معنى الشرط فتجزمه وتجزم جوابه معه .

(والسين وسوف) أى حرفا التنفيس أى التوسيع ..

فتخرج به من الحال إلى الاستقبال فقط .. والزمن المستقبل متسع ، وإن كانت (سوف) تفيد التوسيع أكثر من (السين) .

● ومرونة المضارع وانسياحه فى الزمن ليسا وقفاً على دخول هذه الأدوات عليه ، بل هو بذاته قد يلعب هذا الدور لتعطى الجملة معنى ومذاقاً خاصاً فالمضارع الحكائى مثل : المريد يبدأ أمس خلوة طويلة .

والمضارع التعودى مثل : إنى أذهب لرؤية شيخى كل مساء .

ومضارع الظواهر الطبيعية : يسقط المطر حيث تكثر السحب .

(*) بفتح اللام وتشديد الميم المفتوحة .

. . . .

والمضارع المسند للذات الإلهية
والدال على الاستمرار : مثل : يقلب الله الليل والنهار •

ويفيد الاستمرار فى الماضى فقط
إذا سبق(•) بالكينونة فى الماضى مثل : العرب فى الجاهلية كانوا يقتلون البنت خوف العار •

ويفيد نسبية الزمن مثل : خرج العمال يبنون الأهرامات •
فالثانى مستقبل بالنسبة للأول

للدلالة أن أمرين حدثا فى الماضى من فاعل واحد مثل :
جاءوا أباهم عشاء يبكون •

* * *

والإشـارة :

تنطلق الإشارة من كون المضارع يفقد (استقلاليته وقوته) حينما تدخل عليه (العوامل) فتؤثر فى **(رفعـه)** ، أو تحدد إطاره الزمنى ، أو المعنوى •• وهكذا العبد **(القـوى)** ينبغى ألا تؤثر فيه العلائق أو المنى أو التطلعات ، فلا ينظر إلى (ماض) ولا يطمح إلى (مستقبل) ولهذا فإن أقرب الأزمنة إلى اصطلاح المتصوفة (الوقت) هو (المضارع الدال على الحال) • وقد حدده القشيرى فى رسالته تحديداً تاماً حين قال **(الوقت** ما بين الزمانين الماضى والمستقبل)[1] ، ويترتب على الفهم الدقيق لهذا المعنى نتائج سلوكية وعرفانية خطيرة • وهذا الكلام الموجز يلخص مذهب القشيرى فى موضوع طويل يكتنف كل مصنفاته • يقول

(•) بضم السين وكسر الباء •
(١) الرسالة ص ٣٤ •

في التحبير [العارف ابن وقته لا يفكـــر في الطريق ولا في العواقب بل يشـــتغل بمراعـــاة (الوقت) ولهـــذا قيل : الصـــوفي من لا ماضي له ولا مستقبل][1] ، فإذا أردت (التوبة) مثلا فهيا (الآن) فأنت لا تملك (المستقبل) . كما ينبغي أن تتجرد عبادتك من كل غرض يتصل بالجنة أو النـــار **(الرغبة والرهبة)** بل تكون خالصة مخلصـــة للرب سبحانه تاركاً هذه الأشياء المستقبلية لصاحب الأمر .

وهو لا يستعجل هجوم الوارد عليه (لأنه مطروح في أسر الحكم لا يتحرك منه عرق)[2] تطلعاً إلى أية خطوة قادمة .

---

(١) التحبير في التذكير ص ٢٩ .

(٢) اللطائف المجلد الثاني ص٩٩ و«عرق» بكسر العين وسكون الراء.

فصل [٣٤]

فعــل الأمــر

« الأمر مبنى على السكون نحو قولهم : إذهب(٠)

والنهى مجزوم نحو لا تذهب(٠)

والإشارة : يشير السكون إلى الدوام ، كما أن الحركة تعنى الزوال،

فالأمر على الوجوب واللزوم ، والنهى مجزوم ، اذ النهى عن الشيء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت(٠٠) به ، وتقف عما نهيت عنه .

وجواب الأمر وجواب النهى مجزومان ، اذ ليس للمأمور ولا للمنهى لسان الاعتراض ؟ وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر والنهى .

فنعت المعارض(٠٠٠) والمنهى(٠٠٠٠) مجزوم، وغير الانقياد والخضوع منهما معدوم » .

---

(٠) بسكون الباء .

(٠٠) بضم الألف وكسر الميم .

(٠٠٠) بضم الميم وكسر الراء .

(٠٠٠٠) بفتح الميم وتشديد الياء .

* * * * * * * * * * * * * * * * * *

❋ يبنى فعل الأمر على :

١ — السكون مثل : إعمل لدنيــاك كأنك تعيش أبداً ، وإعمــل لآخرتك كأنك تموت غداً •

٢ — على حذف حرف العلة مثل : إرض ، وألق ، وادع •

٣ — على حذف النون مثل : إذهبا إلى فرعون ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، فكلى واشربى وقرى عيناً •

٤ — ويبنى عــلى الفتــح إذا اتصلت به نون التوكيــد مثــل : ساعدن(*) وطنك بالعمل •

❋ والأمر معناه طلب فعل شيء ، وهو على الأصل صادر من جهة عليا إلى جهــة أقل ، وقد تخرج عن هــذا إلى معان بلاغية كالنصح والاستمالة والدعاء •• ولكن تبقى صيغته واحدة •

أما النهى فهو طلب الكف عن شيء وتركه وله أداة واحدة هى « لا » الناهية • والنهى مضارع مجزوم ، فالجزم العلاقة الإعرابية المقــابلة للسكون (الأمر) فى البناء • فقولك : لا تكذب(**) معناه : أصدق(***) •

❋ أما قول الشيخ : **« وجواب الأمر وجواب النهى مجزومان »** فإن هذا ينسحب إلى مضارع يقع جواباً بعد [الطلب] ، وهذا الطلب يـــــكون :

١ — بالأمر مثل : اجتهد تنجح •

٢ — بالنهى مثل : لا تقنط من رحمة الله تسعد •

(*) بكسر العين وتشديد النون المفتوحة .

(**) بسكون الباء .

(***) بسكون القاف .

. . . .

٣ ــ بالعرض مثل : ألا تزورنا تكن مسروراً •

٤ ــ بالتحضيض مثل : هلا تجتهد تنل خيراً •

٥ ــ بالتمنى مثل : ليتنى اجهتدت أكن مسروراً •

٦ ــ بالترجى مثل : لعلك تطيع الله تفز برضاه •

وجزم الجواب يعود إلى الأسلوب الطلبى السابق عليه والمتضمن معنى الأمر أو ما يشبهه من دعاء أو التماس أو نصح ••• الخ • •

ومن النحاة من يرى أن السبب هو مكون الأسلوب كله أصبح شبيها بأسلوب الشرط : بأداته وفعله وجوابه •• فهو على منوال :

اجتهد(٠) تنجح(٠) = إن تجتهد(٠) تنجح(٠) •

ملحوظة : يرفع جواب النهى والأمر إذا لم يكن فيه معنى الجزاء فى المستقبل •

مثل : لا تكذبوا تهانون ــ فإن الشخص لا يهان على عدم الكذب • بينما تقول : لا تكذبوا تحترموا ــ لأن الاحترام جزاء عدم الكذب •

ومثله : ذرهم فى خوضهم يلعبون •• فاللعب ليس جزاء وليس مستقبلا وإنما هو تعبير عن واقع يحدث •

❋ ❋ ❋

والإشارة من كل هذا :

الإنسان فى حاجة ماسة إلى مجموعات من (الأوامر والنواهى) كى لا تتحول الحياة إلى متاهات يعجز هو وحده عن تبين الطريق الصحيح بينها ، وقد تنبهم الرؤية ، وتتشعب الطرق ، وتغيب شمس الحقيقة

---

(٠) بسكون الدال وسكون الحاء •

فتطمس هذه الظلمات تفكير المرء ، وتشل تصرفه..إنه وحده لا يستطيع أن يهتدى إلى ماذا يفعل ؟ وماذا يختار ؟ وماذا يسلك ؟

لأجل هذا يصبح من العسير عليه أن يفكر وحده ، ولأجل هذا كان لابد من معاونة خارجية تأتى من (سلطة عليا) .. ومع أن الله سبحانه قد قيض للإنسان عقلا فطريا كافياً — لو أحسن توجيهه — أن يتجنب مأساة الشك والتذبذب والتخبط فإنه سبحانه برحمته قد بعث الأنبياء والرسل والكتب كى يكونوا رحمة له ، وهداية لبصيرته بمجموعات من (الأوامر والنواهى) ، التى يجب عندها أن (يتوقف) وأن يمتثل .. هذا التوقف يقتضى أسلوب (السكون) و (القطع) و (والجزم) — ما دامت (الأوامر والنواهى) آتية من هيمنة عليا كأوامر الله سبحانه ونواهيه ، وما جاء به الأنبياء والرسل .. و (البت) القاطع يقتضى الاستجابة دون محاجة(*) أو لجاجة...ومن الأزل انبرى ابليس ليناقش (أمر) السجود لآدم فكان ماكان من أمره ، وأصبح لعيناً ينتظر اليوم الآخر هو ومن تبعه.

فإذا كان ذلك على المستوى الدينى العام فإن الشيخ هنا يبسط قضية **(الشيوخ)** وكيف يلزم أن تكون لهم على مريديهم الكلمة العليا ، (فالمريد إذا قال لشيخه بعد أمر : لم(**) .. لا يفلح أبداً) .

الشيخ رمز السلطة الكبرى ، وهو الذى يتولى بهمته صقل إرادة العبد ، تلك الإرادة التى يفترض أن تذوب فى الإرادة العليا كى يتحقق هذا العبد بالحقيقة .

هذا هو المراد بقول الشيخ : **« وجواب الأمر والنهى مجزومان »**

أى عندهما يجب الانقياد والاستسلام و (السكون) فلا خلاف

(*) بتشديد الجيم وفتحها .

(**) بكسر اللام وفتح الميم .

ولا مناقشة ولا رد ، فإن (الأمر) القاطع يحتاج إلى (الإجابة) القاطعة.

ثم لماذا نذهب بعيداً والأصل فى كلمة « الإسلام » الانقياد لله والطاعة (لأوامره ونواهيه) ؟

إن الإنسان لو أصاب النظر لترك لربان السفينة أن يتولى أمرها ، وما دام الله خيراً محضاً فكل شىء منه — مهما بدا للوهلة الأولى فيه المشقة — هو خير فى الدارين لو أحسن المرء التبصر .

يقول القشيرى فيمن (لا يسكن) عند هذه الحدود « أيها الإنسان .. إن الطينة إذا ادعت[٠] ما ليس لها فإن فى ذلك وبالا عليها » ويقول فى لطائفه « ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ولا قدركم فى الدنيا والعقبى إلا بمراعاة (الأمر والنهى) والمحافظة على أحكام الشرع »[١] قد تكون فى هذا الامتثال جبرية ... ولكنها من المحبوب .. فمرحى بجبرية الحب !

---

(٠) بتشديد الدال مع فتحها .

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٤٢٩ .

فصـــل [٣٥]

النعت

« النعت تابع للاسم ، فإن كان الاسم مرفوعاً فالنعت مرفوع ، وإن كان منصوباً أو مخفوضاً فالنعت مثله .

والإشارة من الاسم إلى السر ، ومن النعت إلى الوصف ، وإن ما يلوح على الظاهر ما يلقى به عن السر ، ســألوا : من(٠) العارف ؟ فقال : لون الماء من لون إنائه .

وأنشـــدوا :

كيفمـــا دارت الزجـــاجة درنا(٠٠)

يحسب الجاهلون أنا جننـــا(٠٠٠)

ولما كان النعت تابعاً كان حكمه حكم متبوعه ، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه » .

---

(٠) بفتح الميم .

(٠٠) بضم الدال .

(٠٠٠) بضم الجيم وكسر النون الأولى .

. . . .

ملاحظة على المنهج :

بعد أن تحدث الشيخ عن الاسم والفعل بدأ يتحدث عن التوابع للاسم ، وهو فى كتابه هذا لم يتناول كل توابع الاسم بل اكتفى هنـــا بالنعت ، وفى فصل ٣٧ بالعطف ، أى أنه لم يكتب عن : التوكيد والبدل وعطف البيان وعطف النسق •

والنعت هو التابع الذى يكمل متبوعه بدلالته على معنى فيه أو فيما له تعلق به •

الأول : الحقيقى مثل جاء المريد(•) الوفى(••) •

الثانى : السببى مثل جاء على التاجر(•••) أبوه •

وهما هنا يفيدان توضيحاً للمعرفة ، ويتبع المنعوت فى الإعراب وفى كل شىء ••

أما قولك جاءنى رجل نساج ، وجاءنى رجل نساج أبوه فالفائدة فيهما تخصيص النكرة ، ويفيد النعت أيضاً فى المدح والذم ••• الخ • ونريد أن نفرق بين لفظى الصفة والنعت لنوضح سبب اختيار الشيخ عنوان الباب •

يقول ابن عربى : الصفة تعطى معنى بذاتها ، ولا يستلزم استيفاء الموصوف عكسها مثل : العالم ، تعطى وصف العلم ، ولا تعطى بالضرورة

(•) بضم الدال .
(••) بضم الياء مع تشديدها .
(•••) برفع الراء .

استيفاء الموصوف بالعلم للجهل ، وكذلك : القادر والسميع والبصير لا تعطى أضدادها ، لأن الذات لا تقوم بأضدادها .

النعت يراد به النسبة ، بمعنى احتمال المنعوت لتقبل عكس النعت ، (فالأول) لا يمنع أن يكون المنعوت هو (الآخر(....)) وكذلك الظاهر والمعز والمضل .. فكلها نعوت[1] .

* * *

والإشارة تنطلق من : **« حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه »** . واتخذ الشيخ « السر » اسماً واتخذ حال العبد من حيث الظاهر (نعتاً)

والسر ملكه(.) (باطنة) فوق (الروح) ، والنعت هنا (ما يظهر) على العبد طبقاً لأحوال السر . وبعبارة أوضح يريد القول إن (ظاهر) المرء تعبير عن (باطنه) فهو (تابع) له ، فلا انفصام — أو هكذا ينبغى — بين ظاهر المرء وباطنه .

فإذا كانت النعوت فى نحو الظاهر توظف للتوضيح أو التخصيص .. الخ فإنها هنا وبنفس الكيفية والقدر تلعب نفس الدور . تابع لمتبوع ، وكشف لمغطى(..) ، والشاهد الذى اختاره الشيخ يعبر عن ذلك .

وأصله : « سئل الجنيد عن العارف فأجاب : لون الماء لون إنائه »[2] ومعنى هذا أنه إذا كان الوعاء الداخلى صادقاً خالصاً ظهر الصدق والإخلاص فيما يبدو على العبد من حركات ، وماينطق به من كلمات ، بل حتى مايومى

(....) بكسر الخاء .

(١) اصطلاحات الصوفية — فى الفتوحات المكية لابن عربى الحلبى سنة ١٩٣٨ .

(٢) الرسالة ص ١٥٦ .

(.) بفتح الميم واللام والكاف .

(..) بضم الميم وفتح الطاء .

. . . .

به من إيماءات ، وهنا تكمن الدقة فى اختياره لفظ **(النعت)** لاحتمال **أن يحدث** العكس إذا كان الباطن ممزوجاً بالدخل أو الزيف فيظهر على العبد أثر ذلك مهما حاول الإخفاء ، ويفتضح أمره ، ويعرض للانتقاص والمذمة ، (فالزجاجة) إذا كانت لخمر شفيفة فهى لا تدير الرؤوس ، أما إذا كانت خمرها كثيفة أطاحت بصاحبها ••وأصبح كمن به مس(٠٠٠)، ولون الخارج هو لون الشراب فى الداخل •

واضح أن الإشارة هنا موظفة لبيان حال(٠٠٠٠) تحدثنا عنها منقبل•• وهى عندما يمتلئ **(السر)** بلواعج الحب وشجونه ، وتحاول الكأس الداهقة أن تفيض أو لا تفيض إلى الخارج (الظاهر)••حسمها القشيرى **هنا** بقوله **(بالتبعية)** فهو خبير وعليم بأن الصب تفضحه عيونه ، وعليم بأن السكون أليق •• فأرجع(٠) الموضـــوع كله إلى (التوافق) الصادق بين الظاهر والباطن •• وكل إنســـان على قدره •• ولا عبرة **بما** يقوله **(الجاهلون)** بحقيقة حاله •

---

(٠٠٠) بفتح الميم وضم السين مع تشديدها وتنوينها •

(٠٠٠٠) بكسر اللام وتنوينها •

(٠) بفتح الجيم •

فصـــل [٣٦]

الشـــــرط والجـــــزاء

« الشرط والجزاء مجزومان . وللشرط والجزاء حروف نحـــو :

إن(.) وما ومن(..) وما أشبهها نحو قولك : إن تضرب(...) أضرب(...) .

والإشارة : الجزاء لا يستحق(....) إلا بحصـــول الشرط ســـواء بسواء ، كذلك فى الشرع علق أشياء من أفضاله على أشياء من أفعالك ، فإن وفيت(.....) بالشرط استوجبت الجزاء .. لذا قالوا :

إن وجدنا لمـــا ادعيت شـــهوداً

لم تجـــد عنـــدنا لحق جحـــودا

وقال الله تعالى : «أوفوا بعهدى أوف بعهدكم » .

(.) بكسر الهمزة وسكون النون .

(..) بفتح الميم .

(...) بسكون الباء فى الحالين .

(....) بضم الياء .

(.....) بفتح الفاء وسكون الياء .

. . . .

*** ملاحظة على المنهج :**

١ ــ نهاية الفقرة ليست أسلوب شرط ولكنه (أى الآية الكريمة) فعل أمر وجوابه أو جزاؤه مما يدل لعى أن الشيخ يقيس هذا الباب على الأسلوب المذكور وهذا شىء مفهوم لأن قولك : إقفل الباب لا يدخل الريح يساوى : إن تقفل الباب لا يدخل الريح •

٢ ــ أنه أطلق على أدوات الشرط كلها لقب « حروف » مع أن النحاة يميزون بين حروف وأسماء كما سيتضح بعد قليل •

٣ ــ أنه اختار فى العنوان لفظ « الجزاء » بدلا من جواب الشرط وهذا استعمال خليق بمن يعالج موضوعاً دينياً وأخلاقياً كهذا الكتاب •

٤ ــ أنه تجنب الإشارة إلى أدوات الشرط غير الجازمة مثل : إذا ولو ••• الخ •

٥ ــ أنه تجنب الإشارة إلى بعض مواضع يأتى فيها (الجزاء) مرفوعاً أى غير مجزوم ــ كما سنرى •

وعلى كل حال •• فإن قوام منهج الشيخ فى الباب هو أخذه بالأغلب المنتشر •

* يتألف أسلوب الشرط من :

١ ــ أداة الشرط ٢ ــ فعل الشرط ٣ ــ جواب الشرط أو جزاؤه •

وأدوات الشرط الجازمة للفعل والجواب هى :

إن(•) ــ وهى حرف باتفاق •

وإذ ما ــ وقد ذهب المبرد وابن السراج والفارسى إلى أنها اسم ، ولكن أصح الأقوال فيها إنها حرف •

(•) بكسر الألف وسكون النون •

من وما ومتى وأى وأين وأيان وأنى وحيثما وكيفما — وهى أسماء

مثل : إن تكتم الأسرار يثق فيك الناس •

ما تفعل(٠) من خير يعلمه(٠٠) الله •

وهناك أدوات للشرط غير جازمة مثل : إذا ولما ولو وأما ولولا •

وقد يأتى جواب الشرط — بعد الأدوات الجازمة — مرفوعاً كأن يكون هذا الجواب مسبوقاً بماض مثل قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالى ولا حرم(٠٠٠)

أو مسبوقاً بمضارع منفى مثل : إن لم يقم أقوم •

ورفع الجواب فى غير هاتين الحالتين ضعيف •

* * *

وتنبثق إشارة الشيخ من هذه العبارة التى صاغها عامداً فى أسلوبى شرط معبر عن الباب كله : « **إن وفيت بالشرط استوجبت الجزاء** » ، وكلها « **من أفضاله** » •

إن الشرط والجزاء ضروريان لانتظام أى نشاط إنسانى ، فهو مبدأ حضارى تحكمه ضوابط كالأعراف أو القوانين ، ومن قبل ذلك وبعده الدين ، حيث يحفل — كما قلنا — بالأوامر الحاثة على المعروف ، والنواهى المنفرة من المنكر ، وبالتالى — تأتى مراحل الجزاء إما فى الدنيا أو فى العقبى أو فى كليهما ، والدين أوسع دائرة من القانون فى الثواب والعقاب ، فالقانون لا يعاقب على الحسد أو البخل أو نقص المروءة ••

(٠) بسكون اللام .

(٠٠) بسكون الميم .

(٠٠٠) بفتح الحاء والراء .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

ونحو ذلك ••• بينما تستوجب هذه فى الدين عقاباً من نوع معين •

والجزم للفعل وجزاؤه قياس على أسلوب الأمر والنهى وجوابهما وقد سبق ذلك فى هذا الكتاب •

والله سبحانه وتعالى حين يمنح (الجزاء) فإنما يمنحه من أفضاله ، وهذه غمزة بالمعتزلة الذين يرون القضية بشكل آخر هو أنه (يجب) على الله أن يثب المطيع وأن يعاقب العاصى ، فالقشيرى يريد أن يلمح فى لفتة ذكية بأن عبارة (يجب على الله) مرفوضة ، فضلا عما فى التعبير من سوء أدب فالسؤال المطروح •• ومن ذا الذى يوجب عليه سبحانه ؟ إنه ذو الإرادة الكاملة الشاملة فى منح (الجزاء) كيفما شاء •

ولو علم أولئك أن من الخيرأن يعول(•) الأمر(••) كله على الله لوجدوا الخير كل الخير ، لأن الله سبحانه من صفاته الرحمة ، التى وسعت كل شىء ، وإذا كان يوضح لنا أن من ضمن (الجزاء) العــذاب وجهنم والانتقــام •• الخ فإنه قبل كل شىء رحمن رحيم •• والصوفية من أسعد الناس أملا فى هذه الرحمة يقول قائلهم :

حاســبونا فدققــوا ثم منوا(•••) فأعتقــوا

وفى موضع آخر ينشد قائلهم :

قوم إذا ظفــروا بنا جادوا بعتق رقابنــا(١)

(•) بضم الياء وفتح الواو مع تشديدها •

(••) بضم الراء •

(•••) بفتح الميم وتشديد النون المضمومة •

(١) اللطائف جـ ١ ص ٦٠ •

فصـــل [٣٧]

حـــــــروف العطف

« حروف العطف عشرة » :

الفاء والواو وثم ·· وأخواتها · وحكم المعطوف فى الإعراب حكم المعطوف عليه ·

والإشارة : لما اشتركا فى المعنى تشاكلا فى صورة الإعراب ، كذلك من صحب قوماً ووافقهم ، وانخرط فى سلكهم ، وعد(·) من زمرتهم فما استقبلهم استقبله ، وما يفتح لهم به يفرد له منه نصيبه ·

وفى الأثر : « جلساؤكم شركاؤكم » ·

(·) بضم العين وتشديد الدال وفتحها .
(··) بضم الياء .

. . . .

حروف العطف عشرة وهى :

١ ـ **الواو** لمطلق العطف دون ترتيب أو تعقيب ، وللاستئناف

٢ ـ **الفاء** للترتيب مع التعقيب .

٣ ـ **ثم** للتراخى (أى هناك فسحة من الزمن) .

٤ ـ **أو** للتخيير ٥ ـ **أم** : للتقسيم .

٦ ـ **بل** : للإضراب والإبطال ٧ ـ **إما** : للتعيين .

٨ ـ **لا** : للنفى . ٩ ـ **لكن** : (المخففة) للاستدراك .

١٠ ـ **حتى** : الوصول إلى الغاية .

فإن عطفت بها على مرفوع رفعت ، أو على منصوب نصبت أو على مخفوض خفضت أو على مجزوم جزمت .

والإشـــــارة :

عنوان الباب (العطف) ومعانى الحروف كما أوضحناها تمنحنا الإشارات فى سلاسة ، ويزداد الاتضاح إذا عرفنا أن (المعطوف) شريك للمعطوف عليه فى أحواله ، فهو يجانسه فى الإعراب ، وفى سريان الحكم عليهما .

بقى أن نتصور انطباق ذلك فى مجموعة بشرية يعمل أفرادها فى نشاط واحد ، ولهم وسائلهم وأهدافهم المشتركة ، وحقوقهم وواجباتهم نحو العمل من ناحية وفيما بينهم من ناحية أخرى .. وينبغى أولا أن يسود (العطف) فيما بينهم فى هذه البيئـــة صغرت أو كبرت ، لأنهم أسرة واحدة يربطها التكافل والتراحم ، (فعطف) الكبير على الصغير رحمة به ، ووفاق الصغير للكبير رغبة(٭) فى المسيرة وهكذا تصبح الإشارة

(٭) بفتح التاء المربوطة وتنوينها .

. . . .

أشبه بقبس من ضياء يبدد الظلام وينير الدروب نحو سيادة علاقة إنسانية راقية • وتستطيع أن تستوف جوانب هذا الموضوع القيم بالرجوع إلى أبواب فى مراجع التصوف تتصل اتصالا مباشراً به مثل (باب الصحبة) و (باب الفتوة) و (باب الوصايا) و (باب الجود والسخاء) — كما جاءت فى الرسالة القشيرية •

وتجدها عند السراج فى اللمع فى « آداب المشايخ ورفقهم بالأصحاب وعطفهم عليهم » اللمع ص ٢٧٣ وما بعدها •

فإذا رجعت إلى « عوارف المعارف » للسهروردى ص ١٠٩ وما بعدها وجدت هنالك قضية « ذكر من يأكل من الفتوح » تلك التى مسها الشيخ هنا مساً هيناً وعلى استحياء• **«ما يفتح لهم به يفرد له منه»** وهذه نقطة قد تبدو للبعض غير ذات أهمية ، ولكنها فى نظرنا من أجمل آيات (العطف) ، فالواجب أن يقتسم الفريق ما يفتح الله به حتى لو كان كسرات خبز جافة ، حفظاً من إراقة ماء الوجه عند الاضطرار إلى المسألة — وما أشد نفورهم منها ! وقل مثل ذلك فى كل العلاقات المعنوية والمساندات الروحية وما يتطلبه ذلك من البذل والتنازل والصفح والمواساة وعيادة المريض والأخذ بيد العاجز ••• الخ من الوشائج التى تسود المجتمعات السوية المتحضرة •

ويمكن أن يكون قول الشيخ فى الرسالة (صحبة من(•) دونك(••) تقضى على (المتبوع) بالشفقة والرحمة وعلى (التابع) بالوفاق[1] •

والقشيرى يحسن تذوق (حروف العطف) فى النص القرآنى ، ويستلهمها إشارات ممتعة مثال ذلك :

(•) بفتح الميم وسكون النون •

(••) بفتح النون •

(١) الرسالة ص ١٤٥ •

عند قوله تعالى فى قصة أيوب : **« أنى مسنى الضر ... فكشفنا ما به من ضر »** يقول : « والفاء تقتضى التعقيب فكأنه قال : فعافيناه فى الوقت ، بمعنى : يا أيوب لوطلبت(٠) العافية قبل هذا لاستجبنا لك »(٢) وعند قوله تعالى : **« وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى »** « ثم للتراخى : أى أنه آمن فى الحال ثم اهتدى فى المآل » .

وقل مثل ذلك فى بقية حروف (العطف) فهو يهتم بمعانيها فى مواقعها عند استخراج الإشارة بصورة تلفت النظر .

---

(٠) بفتح التاء .

(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٥١٥ .

فصل [٣٨]

همـــزة الوصـــل

« تلحق همزة الوصل بالأسماء والأفعال فى أحوال مخصوصة ، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها .

والإشارة منه : أن العبد ينصب(٠) لمقام ـ والمقصود غيره ، فإذا زال ذلك المعنى وحصل ذلك المقصود رد هذا المنصوب إلى ما يستحقه .. وهذه محنة للأكباد مفتتة(٠٠) ، وفى معناه أنشدوا :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وغيره :

أطعمونا حتى إذا ما طمعنا وجرت بيننا عرى الأسباب
سكنوا فى ديارهم ثم قالوا مالك اليوم عندنا من جواب

وقد يمتحنون بالتغافل عنهم ، فبعد طول الغربة ينشدون :

أدرجت(٠٠٠) فى أثواب نسيانكم حتى كأننى ألف الوصل

ولما لم تكن صحبة ألف الوصل أصلية لم تبق على دوام الأوقات ..

كذلك : من لم تسبق قسمته بالجميل فإلى مختوم الأزل يئول أمره».

---

(٠) بضم الياء .
(٠٠) بضم الميم والفاء وتشديد التاء وكسرها .
(٠٠٠) بضم الهمزة وسكون الجيم .

الهمزة على قسمين :

(أ) همزة الوصل : وهى الثابتة ابتداء الساقطة فى درج الكلام ، وسميت وصلا لأنها تصل ما قبلها بما بعدها ولا تقطعه عنه كما يفعل غيرها من الحروف .

وقيل : لأنها يتوصل بها إلى النطق بالساكن مثل : اكتب وانطلاق .

(ب) همزة قطع : وهى ثابتة ابتداء ووسطاً وآخراً مثل : أبى(*) ، ويأبى ، وأجلسته .

إثبات همزة الوصل وسقوطها :

١ ــ تحذف مما صغر(**) وكان أوله همزة مثل قولك : بنى(***) فى ابن ، وسمى(****) وسمى فى اسم .

٢ ــ تحذف لفظاً وخطاً فى (ابن) مسبوقاً بعام وبعده علم بشرط كونه وصفاً للأول والثانى أباً له ما لم يقع فى أول السطر .

٣ ــ تحذف لفظاً لا خطاً إن سبقت بكلام .

٤ ــ تحذف فى « بسم الله الرحمن الرحيم » بشرط أن تذكر كلها وألا يذكر معها متعلق . فتذكر فى قولك مثلا : باسم الله أبدأ حديثى وفى « بسم الله مجراها ومرساها » لك الإثبات والحذف .

٥ ــ تحذف مع كل معرف بالألف واللام :

اذا دخلت عليه اللام جارة مثل : للقوم .

(*) بفتح الألف والباء .

(**) بضم الصاد وكسر الغين مع تشديدها .

(***) بضم الباء وفتح النون وتشديد الياء .

(****) بضم السين وفتح الميم وتشديد الياء .

أو ابتدائية مثل : وللآخرة خير لك من الأولى •

٦ — تحذف مع همزة الاستفهام أ لرجل فى الدار ؟
فهى كما ترى قابلة للحذف والاثبات •

والواقع أن الحرف الحقيقى المعد من حروف الهجاء هو (الهمزة) وهذه بدورها تخفف خصوصاً عند أهل الحجاز ولاسيما قريش •

وعن موسى بن عبيدة مرفوعاً إلى ابن عمر قال : ما همز رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء ، وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم •

* * *

وفى الإشـــارة :

أحكام الله تعالى لا تخضع لعلة ، فمحاولة تعليل أفعال الله ضرب من الخطأ فى الأساس ، لأن العقل الإنسانى ممها نما وكبر لا يستطيع أن يخب فى دائرة غير دائرته ، فالإنسان مهما ارتقى عقله فهو متناه والله سبحانه غير متناه •

هذا الكلام سليم وصحيح بالنسبة لأفعال الله فى كونه ، هنا وفى الآخرة • وهو سليم وصحيح بالنسبة لما يصنعه فى هذا العبد السالك طريق القوم — فيجب تقبله برضى واقتناع ••

ومن المعلوم أن (أحوال) هذا الطريق أفضال إلهية تنثال على العبد فى ثنائيات متقابلة كى يتقلب القلب بين نقيضين لتجلو مرآته ، ويدرك السالك أنه مرتهن بمشيئة مولاه فى كل لحظات الرحلة ، ولـــكن ••

قد يحدث أن يكون الحال مقتضاه (الفصل) أو (القبض) وفجأة تأتى (البواده والهواجم) بحال (الوصل) (أو البسط) فينسى العبد أنه فى موقف ابتلاء ، وتصيبه البهجة وربما ينتابه شىء من الإعجاب

بالنفس •• وعلى الفــور يحدث النقيض •• تلك هى التربية الإلهية التى تتطلب عندئذ الاستغفار والندم ، والعهد الجديد بمراعاة (الوقت) والتسليم •• بأن الأشياء مردها لله ، وأنه لا خضوع فى أوامر الله لعلة • ذلك هو بالضبط الموقع الذى تصــدر عنه إشارة الشيخ فى هذه الفقرة لوأحسن قياس حال (همزة الوصل) القابلة للاثبات والحذف ، وأنها جىء بها للتوصل فقط وليس الأهمية فى كيانها •• الخ ولنزيد الأمور ايضاحاً نضرب مثلين مطابقين من اللطائف :

يقول الشيخ عند بسملة سورة الحجر : « تسقط ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لأسقاطها علة ، وزيد فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة •• ليعلم(٠) أن الإثبات والسقوط بلا علة ، فلم يقبل من قبل لاستحقاق علة ، ولا رد من رد لاستيجاب علة » •ويستمر الشيخ فى نفس الموضع مثلا :

« فإن قيل : العلة فى إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال فى كتابتها أشكل بأن الباء من بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة • فإن قيل : العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف (ألف الوصل) لأن الاتصال فيها موجود ، فلم يبق إلا أن الاثبات والنفى ليس لهما علة ، يرفع ما يشاء ويمنع ما يشاء »(١) •

وفى موضع آخر يقول عن عبد واقع تحت تأثير حال (القبض) :

« ••• فإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض • وقد يكون بسط يرد بغتة ، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سبباً ، يهز صاحبه ويستفزه •• فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب ، فإن له

(٠) بضم الياء وفتح اللام الثانية .

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٣٢٦ .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

فى هذا الوقت خطراً عظيماً ، وليحذر صاحبه مكراً خفياً •• ولهذا قالوا : قف على البساط •• وإياك والانبساط »[٢] • ويتضح من هذا كله أن الشيخ يقصد إلى هدف بعيد •

أن عملك وحدك غير كاف لنجاحك ، ولهذا فكل توقعاتك فى اللحظة التى أنت عليها لا ضمان لها ، إن المعول عليه دائماً هو الفضل الإلهى ، فارتهن به بلا تفسير أو تعليل ، وبدون هذا الفضل الإلهى لا أمل فى عمل ولا فى مستقبل ، وإنما هى (همــزة وصل) قابلة للحذف والإثبات ، فلا لها أصالة ، ولا لها فى ذاتها تصريف ، وهكذا :

« من لم تسبق قسمته بالجميل فإلى مختوم الأزل يئول أمره » •

وما أجمل قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجنى عليه اجتهاده •

---

(٢) الرسالة ص ٣٥ ، ٣٦ •

فصـل [٣٩]

حـروف الخفض

« الحروف التى تخفض الأسماء محصورة نحو :

من وإلى وفى ، والباء والكاف الزائدة وأخواتها .

وهذه الحروف تدخل على الأسماء ، وعملها الخفض .

كذلك : من الأسـباب الداخلة على العبد ما يعمل فيه الكسر ، والخضوع والوضع . فمن(٠) داخله الطمع والحرص والتمنى والشهوة وأمثالها من الخصـال المذمومة والأخلاق الدنيئة أوجبت(٠٠) له ضعة الحال ، ونقصان الرتبة ، وخساسة المنزلة » .

---

(٠) بضم الجيم .

(٠٠) بفتح الهمزة وسكون التاء .

. . . .

ملاحظات المنهج :

تبلغ حروف الجر نحو عشرين حرفاً . والجر تسمية بصرية وعند الكوفيين تسمى حروف (الإضافة) .

وقد اختار الشيخ (الخفض) للدلالة على معانى هذه الحروف ، وهى كلمة ذات مغزى فى علم له قواعد (ترفع) المرء ، ويحذر من دواع (تخفضه) و (تكسره) ـ كما جاء فى النص ، ، (فالخفض) أولى بعلم محوره السلوك والقيم ، (والخفض) علم(٠) الإضافة ، وتدل الكسرة على أن ما لحقته مضاف إليه أو تابع له فحيثما وجد الارتباط بين كلمتين بنسبة لا تعبر عن فكرة تامة (كالارتباط بين المبتدأ والخبر مثلا) فإننا نجد (الخفض) . ويذهب النحاة إلى أن ذلك أثر لحرف جر (راجع باب الإضافة الذى سبق) .

وفى حالة وجود فعل فإن معنى الإضافة هنا يكون على أساس أنك تضيف معانى الأفعال قبلها إلى الأسماء بعدها عندما لا تقوى الأفعال على اتخاذ مفعول به لها .. مثل : سافرت من العاصمة إلى القرية . فأنت تقوى معنى الفعل كى يصل إلى الاسم الذى بعده بواسطة الحرف .

ويرى البصريون أن لكل حرف معنى خاصاً محدداً ، ولهذا لا يقولون بنيابة حرف عن حرف .. بينما نجد القشيرى يقول بالانابة .. وذلك : كقوله عند الآية الكريمة « وما ينطق عن الهوى »

يقول (أى بالهوى فالباء تقوم مقام عن)[١] .

وقوله عند (فاسأل به خبيراً) : أى « فسل عنه خبيراً »[٢]

---

(٠) بفتح العين واللام .

(١) كتاب المعراج للقشيرى ص ١٢١ .

(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٤١ .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

وقد يأتى حرف الجر زائداً فيفيد توكيد المعنى فى الجملة كلها مثل :

الباء : كفى بالله شهيداً •

ومن : هل من خالق غير الله •

والكاف : ليس كمثله شىء •

ويجب أن يكون للجار متعلق وهو فعل أو ما يشبهه أو مؤول بما يشبهه•فإن لم يكن شىء من ذلك قدرنا[•] كوناً مطلقاً (بمعنى الوجود)•

ويدقق القشيرى فى تفاسيره فى معانى (الخوافض) وأثر ذلك فى السياق مثل قوله تعالى عند (واجتنبوا الرجس من الأوثان) •

: « من هاهنا للجنس لا للتبعيض ، وهوى كل من اتبعه معبوده ، وصنم كل أحد نفسه »[١] •

❊ ❊ ❊

والإشارة من هذا ••

نقدم لذلك ببعض مقتطفات ملائمة من كتبه المختلفة :

١ — فهويورد شاهداً شعرياً فى الرسالة ذا مغزى هنا :

فكم من (حروف تجر) الحتوف

ومن ناطق ود أن لو سكت[٢]

٢ — وهو يلتقط إشارياً معنى لفظ (الحرف) عندما يسمع الآية الكريمة : **(ومن الناس من يعبد الله على حرف)**

---

(٣) الرسالة ص ٦٣ .

(•) بتشديد الدال وفتحها .

(٤) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٣٢ .

فيقول : يعني يكون على جانب ، غير مخلص •• لا استجابة توجب الوفاق ولا جحداً يبين الشقاق ، فإن أصابه أمن وخير ولين اطمأن به وسكن إليه ، وإن أصابته فتنة أو نالته محنة ارتد على عقبيه ناكساً ، وصار لما أظهر من وفاقه عاكساً .

ومن كانت هذه صفته خسر فى الدارين ، وأخفق فى المنزلتين)[1] .

فيأيها المريد :

حدد هدفك من البداية •• إما أن تبقى بحكم العادة (فأضف) نفسك إلى الدنيا ودواعى النفس والهوى •• أو قم[.] بحكم العبادة (فتجرد) لتبقى (مرفوعاً) . أما أن تكون بين بين فإنك ستكون على (حرف) فى تنقلاتك القادمة ، وستكون نهباً للصراع••فإذا ما اخترت[..] طريق الحق فتجرد بكل الهمة لكى تصنع[...] صناعة إلهية كما فعل ربك بموسى •• ذلك الرضيع الذى لا إرادة له ، والذى أخرج من اليم ليكون من أمره ما كان •• تحرر من كل الأطماع والأغلال فكل ذلك من نتائجه (الجر)و (الكسر) و (الخفض) وما شاكل ذلك من عوامل الانحدار والتسفل ••

(١) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٣٢ .
(.) بضم القاف وسكون الميم .
(..) بفتح التاء .
(...) بضم التاء وفتح النون .

فصل [٤٠]

كف إن وأخواتها عن العمل

« ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه ، ويوجب له تغيير الإعراب وهى مثل : إنما وكأنما ، وليتما ولعلما وغيرها ٠

الإشارة : أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال ، فهو فى حال ما دخل عليه مثله فى حال تجرده عنها ٠

دخل بعضهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاه(٠) ، فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى ، فرآه لا يؤثر فيه ذلك ، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت فقال :

فديت(٠٠) من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى !

فقال ذلك الشيخ : « يا فلان ، إنا قد جردنا عن رق(٠٠٠) الآثار »٠

---

(٠) بفتح الميم وتنوين الهاء المكسورة ٠

(٠٠) بفتح الفاء وضم التاء ٠

(٠٠٠) بكسر الراء وتشديد القاف وكسرها ٠

. . . .

تتصل (ما) الزائدة بإن وأخواتها من الحروف الناسخة فتكفها عن العمل ، وحينئذ تفقد اختصاصها فى الدخول على الجمل الاسمية وتصبح صالحة للدخول على الجمل الفعلية ، ويسرى هذا على الجميع ما عدا (ليت) : مثل : « **كأنما يساقون إلى الموت** » .

« **قل إنما يوحى إلى** » .

ويقول امرؤ القيس :

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

ومثـــاله :

أعد نظراً يا عبد قيس لعلما أضاءت لك النار الحمار المقيدا

أما (ليت) فتبقى على اختصاصها بالجمل الاسمية . ويجوز إعمالها على الأصل أو كفها عن العمل وإلى هذا أشار ابن مالك :

ووصل (ما) بذى الحرف مبطل
إعمالها ، وقد يبقى العمـــل

أما (ما) الموصولة فإنها إذا دخلت على هذه النواسخ فلا تبطل عملها ، والأفضل أن تكتب منفردة للتمييز بينها وبين الحرف (ما) مثل : « إن ما صنعوا كيد ساحر » أى إن الذى ...

وتدور هذه الفقرة حول (المصطلم)(*) عن نفسه أى المأخوذ فى معارفه ، فهو (كائن بائن) أى موجود بين الناس ببدنه مفترق عنهم بروحه وسره ومعارفه وشواهده .

مثل هذا الإنسان لا تؤثر فيه عوامل من خارج ، لأن أعماقه وداخله لا تدع فرصة لتأثير (وارد) ينال منها . وأصل القصة التى استشهد

(*) بضم الميم وسكون الصاد وفتح اللام .

بها الشيخ هنا هو أن الشيخ أبا على الدقاق — شيخه وصهره روى له :

أن بعض الناس « دخلوا على أبى بكر القحطى وكان له ابن يتعاطى ما يتعاطاه الشباب ، وكان ممر الداخلين على هذا الابن ، فوجد الابن مع أقرانه يشتغلون ببطالتهم .. فرقت القلوب وتألمت للأب . وقال أحدهم : مسكين هذا الشيخ ! كيف ابتلى بمقاساة هذا الابن ؟ ! ولما دخل عليه وجده كأنه لا خبر له بما يجرى من الملاهى فتعجب وسأله : فديت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى ! فقال القحطى :

« إنا قد حررنا عن رق(٠) الأشياء فى الأزل »(١) .

ويريد القشيرى أن يتحدث عن **المناعة الذاتية** التى تحفظ على العارف عرفانه بحيث لا تزعجه تيارات تهب خارج ذاته ، بل يبقى مصاناً محفوظاً كأن شيئاً لا يحدث من حوله .

هذا الموقف يناظر فى نحو الظاهر ما يحدث لجملة (مفيدة) تتركب من (مرفوعين) ، والإسناد بينهما محكوم بهذا الحاجز (ما) الذى يمنع إن وأخواتها عن أداء أدوارها المعروفة فى تغيير المبتدأ والخبر ، فيظلان على حالهما من القوة والثبات ، ولا يعتريهما (المألوف) من (نسخ) النواسخ .

وإذا كان القشيرى من قبل ذلك قد تحفظ فى الواردات التى تحدث فى مجالس السماع ويترتب عليها فقدان التوازن عند بعض المريدين ، وإذ كان قد أرجعها إلى الصدق فى التأثر وفى التعبير عن هذا التأثر فهو هنا يبلغ بالأمر ذروته حين يجعل المؤثرات (ملاه محرمة) بالقطع .

(١) الرسالة واللمع .
(٠) بكسر الراء وكسر القاف المشددة .

. . . .

فالنأى التام هنا أولى(٠) ، لأنها حرام فى ذاتها ومشتتة فى أثرها .

والخلاصة أن العارف المتحقق له من معرفته وتحققه ما (يحف) عنه أى إضرار .. لأنه فى كنف الله الحفيظ ، وإذا ما تذكرنا ما سبق . أن (إن وأخواتها) مشبهات بالمشبهات بالفعل (كان وأخواتهـــا) فى التأثير ، فإننا نستطيع أن نتصور أى تضئيل لشأنها أكثر وأكثر بعد أن (**كفها**)(٠٠) **حرف ضئيل** ، فذهب بها وبكل نفوذها أدراج الرياح ! وهذا شأن كل المؤثرات الواهنة عند أرباب القوة والعزم .

---

(٠) بفتح الألف وسكون الواو .

(٠٠) بفتح الكاف وتشديد الفاء المفتوحة .

فصل [٤١]

الفــاء فى جــواب الطلب

« جواب الأمر والنهى والدعاء والاستفهام والجحد والعرض[١] والتمنى بالفاء منصوب ، ويجزم عند حذف الفاء ·

والإشارة : لما حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشياء أخرج[٠] الجواب عن واجب استحقاقه الى صفة أخرى ·

فكذلك شرط الواسطة ، تغير[٠٠] حكم المدخول عليه ، فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير حــكم ما وجب له عند التجرد عن المعلوم ·

أما العيش مع الله تعالى بلا علاقة فيبقى[٠٠٠] العبد على ما يجب — من تحقيق الوصل — فى الأصل ·

---

(١) بفتح العين وسكون الراء ·
(٠) بضم الهمزة ·
(٠٠) بضم التاء وفتح الغين وكسر الياء مع تشديدها ·
(٠٠٠) بضم الياء وكسر القاف ·

ملاحظة على المنهج :

يجعل شيخنا (جزم) جواب الأمر والنهى .... الخ هو الأصل ، ويجعل النصب بعد اقتران هذا الجواب بالفاء هو الفرع أو (**هو خروج عن الاستحقاق الواجب**) .

والنصب عند الشيخ حدث بالفاء وهو عند البصريين بأن المضمرة بعدها .

أمثلة للفاء الناصبة عقب أنماط مختلفة من الطلب :

١ — **بعد الأمر :** اقتد بشيخك فتنال(٠) رضاه .

٢ — **بعد النهى :** **لا** تتبع الشيطان فيضلك(٠) عن السبيل .

٣ — **بعد الدعاء :** ربنا آتنا من لدنك رحمة فنسعد(٠٠) فى الدارين

٤ — **بعد الاستفهام :** هل تفعل خيراً فتؤجر(٠٠٠) .

٥ — **بعد الجحد :** ما كان للمريد أن يفسخ عقده مع الله فيسترخص .

٦ — **بعد العرض :** هلا تقوم الليل فتفوز .

٧ — **بعد التمنى :** ليتك تشمر عن ساعد الجد فتعوض ما فاتك .

٨ — **بعد الترجى :** لعلك تساعدنى فأخرج من هذه المحنة .

ومن الملاحظ أن الفاء هنا سببية ولا تدل على الاستئناف ولا على العطف ، لأن صدر الكلام (طلب) ، وبذا يتباين ما سبق الفاء عما لحقها ، كما أن اللاحق نتيجة للسابق .

---

(٠) بفتح اللام (٠٠) بفتح الدال .
(٠٠٠) بفتح الراء .

وتنطلق إشارة الشيخ من أن (توسط) الفـــاء بين الطلب وجوابه أخرج هذا الجواب عن الأصل (الجزم) وأحله محلا جديداً (النصب) ، فالخروج جاء بسبب الواسطة **« والواسطة تغير حكم المدخول عليه »** .

وإذاً ما المرجو (أصلا) ؟ إنه الدخول إلى طريق الله (بلا علاقة) وهذا بالضبط تعريف الجنيد (سيد الطائفة) للتصوف : « إنه العيش مع الله بلا علاقة » .

قطـــع العلائق إذاً هو المطلوب ،ويـــكون ذلك ســـارياً على كل (الوسائط) التى تحول بين العبد وربه .. « إلى أن يصـــير عن الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه برياً ، ومن المساكنات والملاحظات نقيـــاً .. وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصـــل معرفته بربه عز وجل » الرسالة .

وهذه المواد الأساس فى دستور هؤلاء العارفين هى الضمان الأكيد لتحقيق الهدف الأسمى وهو **« التوحيد »** ، ومن هنا كانت (الواسطة) وكان الانجراف إلى شىء (ثان) عقبات فى سبيل حصول (التوحيد) .

فالنفس والهوى والشيطان والدنيا والناس علائق ووسائط يلزم أن يتخلى ـــ العبـــد الزاهد العـــارف الموحد ـــ عنها نهائياً وبصـــورة (جازمة) قاطعـــة . أما أن يسلك جزء من الطريق ثم تحدث نفســـه (باقتران) علاقة ما من قريب أو بعيد .. بطريق مباشر أو غير مباشر فهذه (اثنينية) لابد من سقوطها .

وهناك مثال قد يحدث فى بعض الأحيان .. ربما كان الشيخ يغمز إليه من بعيد .. وهو ذلك الانتفاعى الذى يدخل تحت تأثير الطمع إلى دنيا القوم رجاء الحصول على نصيب مما يوزعونه على أنفسهم من أرزاق يتبلغون بها ، فكأن الحصول على هذا النصيب هو كل غايته . مثل هذا الدخيل يجب إبعاده وكشف أمره ، لأنه صاحب أغراض حقيرة ، وسيملؤ

. . . .

الجو — إن لم يحصل على غرضه — سموماً لا قبل[1] لغيره — من المخلصين الأصلاء بها .

إنه كالأجير السوء إذا أعطى[.] شكر وإذا منع[..] كفر . ويمكن أن تقاس عليه عبادات قوم (مقترنة) بمطالب فى الدنيا أو فى الآخرة . فالشيخ يريد أن يبرىء الطريقة من أية (واسطة) تقترن بالتعبد ، لأن التعبد الصحيح عند القوم هو الخالص المخلص لوجه الله تعالى دون انتظار أو ترقب لمكافأة أو جزع من عقوبة . وإلا خرج المرء من النطاق الخالص، إلى النطاق الذى هو فيه (مقترن) بالوسائط ، أى رد[...] من حكم العبادة والزهادة والإرادة إلى أحكام العادة .. مثلما يحدث (لجواب الطلب إذا اقترن بالفاء) ، فهو خروج **(عن الأصل)** .

---

(١) بكسر القاف وفتح الباء .

(.) بضم الهمزة وكسر الطاء .

(..) بضم الميم وكسر النون .

(...) بضم الراء وفتح الدال مع تشديدها .

فصـــل [٤٢] :

المنـــادى

« المنادى على أقسام : فللمفرد المعرفة وصف ، وللمضاف وصف ، وللنكرة وصف ·

كذلك : من كان من العباد مفرداً ينادى(·) على وصف غير وصف ما ينادى(··) وهو مضاف ·

وكذلك : من كان بوصف المفرد : فالمفرد المعرفة من الأسماء مبنى على الضمة ــ والضمة أقوى الحركات ·
ومن كان أبداً بنمت التفريد كان فى أعلى الحالات وأقوى الصفات ·

والمنـــادى المضاف منصوب ·

وكذلك : من أضيفت إليه العلائق ، فهو فى أضـــعف الحالات لأن النصب أضعف الحركات ·

والنكرة من الأسماء خص(···) بعلم آخر :

كذلك صاحب النكرة وسم(····) برقم آخر » ·

(·) بفتح الدال ·
(··) بضم الياء وفتح الدال ·
(···) بضم الخاء وتشديد الصاد ·
(····) بضم الواوا وكسر السين ·

النداء هو طلب الإقبال من المخاطب بحرف من أدواته ، وأشهر هذه الحروف : « يا » و « أيا » و «هيا » والهمزة .

ويجوز حذف « يا » أحياناً مثل : «**يوسف أعرض عن هذا**» .

أقسام المنادى :

(أ) العلم(٠) المفرد ، وهو ما اجتمع فيه أمران : التعريف والإفراد .

والإفراد فى باب المنادى وفى باب (لا النافية للجنس فصل ٤٦ من هذا الكتاب) معناه ألا يكون مضافاً فهو معرف(٠٠) أصلا .

وذلك مثل : يا على(٠٠٠) .

(ب) النكرة المقصودة مثل : يا غلام .

وهى نكرة يراد بها معيناً ، فالتعريف هنا عارض سببه قصدك أن يقبل(٠٠٠٠) .

ومثلها يا سيدان ، يا منصفون ، يا رجال ، يا سيدات .

وهذان القسمان يتم فيهما : البناء على ما يرفع به — لو كان معرباً فى الأصل — أو يقدر الضم — لو كان مبنياً فى الأصل — وذلك مثل :

يا سيبويه الفاضل(١) (لاحظ ظهور أثر الضم المقدر على المنادى المبنى على آخر تابعه المعرب) .

---

(٠) بفتح العين واللام .

(٠٠) بضم الميم وفتح الراء مع تشديدها .

(٠٠٠) بتشديد الياء وضمها .

(٠٠٠٠) بضم الياء وكسر الباء .

(١) بكسر الهاء فى سيبويه وضم اللام فى (الفاضل) .

(ج) ما يجب نصبه وهو ثلاثة : —

١ — المضاف : ربنا اغفر لنا .

٢ — الشبيه بالمضاف (وهو ما اتصل به معمول له يوضح شيئاً من معناه) .

مثل : يا سامعاً دعاء المظلوم .
يا آخذاً بيد الضعيف .
يا زكياً أصله .

٣ — النكرة غير المقصودة (أى التى يراد بها التعميم لا واحداً مخصوصاً) .

مثل : يا مؤمناً لا تعتمد على غير مولاك .
ومثل قول رجل أعمى : يا رجلا خذ بيدى .

وتدخل « يا » على ما ليس فيه (آل) ، وتدخل (أيها) على ما فيه (آل) ويتسع لفظ الجلالة لقبول الجمع بين « يا » و « آل » .

فتقول بهمزة القطع : يا أَلله(١) .
وبهمزة الوصل : يا الله(١) .

وتنطلق إشارة الشيخ من أن هذه الأقسام للمنادى فى نحو الظاهر — على تنوعها فى الشكل واستحقاق الإعراب — تجتمع كلها تحت لقب واحد هو : المنادى .

فكذلك « الإنسان » لقب لكل بنى البشر على اختلاف أفراد الإنسان فرداً عن فرد ، وجماعة عن جماعة ... فلكل مشربه ووسائله وأهدافه . كذلك هناك العوام والخواص .

---

(١) بضم الهاء .

وبين الخواص هناك العباد(..) والزهاد والعارفون والموحـدون والأولياء .. الخ . والحق..إنها إحدى لوازم التأليف فى منهج الشيخ: أن ينظر نظرة عامة ثم يفصل تحت العمـوم أصنافاً ، وتحت الأصناف فروعاً ... وهو حين يفعل ذلك يرتب آدابا لـكل طائفة ويفصل حقوقاً وواجبات ، وهذه سـمة فى التأليف نراها ضرورية لـكى يميز المبتدئون والسالكون بين مقام ومقام وبين حال وحال ، وبين سائر على الدرب فى بدايته أو وسطه أو قرب غاياته أو عند منتهاه ، وبالتالى يكون التمييز فى داخل التجمع الصوفى على أساس السبق فى الفضل والوصول والاتصال. فإذا عدنا إلى باب المنادى ألفيناه يمنح **« المنـادى العلم المفرد المبنى على الضمة أو ما ينوب عنها » درجة الامتياز** ، فهو ـ فى نظره أقوى حالات المنادى . ولنضرب مثلين على ذلك ، ولنبدأ **بأقوى الأقـوى** : فقولك « يا الله(.) » : لفظ الجلالة ـ علم ـ مفرد (أى غيرمضاف) مبنى (والبناء يفيد الثبات والدوام) على الضم **(والضمة أقوى الحركات)**

أضف إلى هذا ـ ما قلناه من قبل من أنه هكذا كلام مفيد فى حد ذاته ، وفى غنى عن المزيد ، ثم إنك لو مددت فى (ندائك) هذه الهـاء الأخيرة لانتهيت إلى (هو) اسـم الله الأعظم .. وأنت عند ذلك فى مفتتح حلقة من حلقات (الذكر) تبدأ كلهـا ـ فى الأغلب ـ على هذا النحو ..

فهذا فى رأينا هو (النداء) المبارك ، **إنه أقوى نـداء .. إنه الذكر الحقيقى** وتستطيع واضعاً فى اعتبارك الفروق بين المطلق والنسبى أن تقول إن (يا مريد) أو (يا زاهد) أو (يا عارف) .. وأمثالها هى من قبيل (المنادى) القوى .. لأنها أعلام مفردة (غير مضافة) مبنية ..الخ

(..) بضم العين وتشديد الباء المفتوحة .

(.) بضم الهاء .

أما إذا (أضفت) هذا المنادى إلى شيء آخر فقد هبطت بدرجة المنادى إلى درجة أقل ، لأن **الإضافة نسبة** ، فبعد أن كان المنادى منفرداً بذاته وكان له (استقلاله) كان علماً وكان مبنياً وكان مستقلا ، وحين اعتورته الإضافة نقص حاله مثل : **يا مريد الدنيا** .

وهنا تغير حكم الإعراب فأصبح (منصوباً) و **(النصب أضعف الحركات)** .

ويلحق بذلك الشبيه بالمضاف مثل : يا ملبيـاً نداء النفس والهوى كفاك ما أنت غارق فيه !

أما النكرة غير المقصودة فيندرج فيها **العـوام أو** أهل العادة أو الكافة ـ فى تقسيمات الشيخ المعهودة .

ونأتى إلى النكرة المقصودة : **(نكرة من الأسماء ، خص بعلم آخر كذلك صاحب النكرة وسم برقم آخر)** وهى كما رأينـا ملحقة بالعلم المفرد القوى الشأن ، وهى تنال مثله درجة **(البناء على الضم)** .

إنها فى نظرنا لقب على صنف من رواد هذا الطريق ..

فالواحد من هؤلاء ليس علماً أى ليس مشتهراً ، بل إنه على العكس يبدو وكأنه بعيد ، وهو عند الناس غير مقدر(•) التقدير الواجب ..

إنهم الذين عناهم الحديث الشريف «رب(••) أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » هم يحفلون بالجواهر ولا يهتمون بالمظاهر ، ولنضرب أمثلة قليلة على ذلك :

ـ أويس القرنى :

تابعى ضارب بذقنه إلى صدره ، رام بذقنه إلى موضع سجوده ،

(•) بضم الميم وفتح الدال مع تشديدها .

(••) بضم الراء وتشديد الباء المفتوحة .

واضع يمينه على شماله ، يتلو القرآن ، يبكى على نفسه ، ذو طمرين ، لا يأبه له ، متزر بإزار صوف وبرداء صوف ، مجهول فى الأرض ، معروف فى السماء ، لو أقسم على الله لأبر قسمه : فإذا كان يوم القيامة قيل للعباد : ادخلوا الجنة ويقال لأويس : قف فيشفعه الله عز وجل فى مثل عدد ربيعة ومضر »[1] •

إن هذا الدرويش الذى يبدو ذابلا خاملا **(كأنه نكرة من النكرات)** هو نفسه (ذلك المجاهد المقاتل إلى جانب على فى صفين والذى قتل فيها)[2] •

وما زلنا حتى هذا العصر نشهد بعض أمثلة لأويس ، يمشون فى الأرض على التوكل ، يعاملهم الناس كأنهم (مجاهيل) ، يسيحون فى كل مكان ، تعرفهم على الفور أو بعد الأى[•] بعلامات خاصة أهمها أنهم لا يسألون الناس إلحافاً ، تبدو على وجوههم علامات الرضا والقناعة •• والإجهاد من قيام الليل •

٢ ــ شيبان الراعى :

راع يلتحف برداء نسجه من صوف أغنامه ، أمى لا يقرأ ولا يكتب، وما أن يدخل المسجد حتى يهرع الناس إليه ، يلتمسون منه كلاماً ، ولكنه عزوف عن ذلك ، ومع ذلك فإنه إذا تكلم تحلق الناس من حوله •• فيسمعون منه كلاماً لا قبل[••] لهم به •

يراه أحمد بن حنبل فيهمس فى أذن الشافعى : أريد يا أبا عبد الله

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ٢ ص ٨١ •
(٢) الاصابة جـ ١ ص ١٢٠ •
(•) بفتح اللام وسكون الهمزة •
(••) بكسر القاف وفتح الباء •

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

أن أنبه هذا على نقصان علمه كي يشتغل بالتحصيل • وينصحه الشافعى ألا يفعل ، فلا يقنع ، ويسأل شيبان :

— ما تقول يا شيبان فيمن نسى صلاة من خمس صلوات فى اليوم والليلة ولا يدرى أى صلاة نسيها •• ما الواجب عليه ؟

فيرد شيبان : يا أحمد •• هذا قلب غفل عن الله تعالى فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد !

فغشى على ابن حنبل فلما أفاق قال له الشافعى :
ألم أقل لك لا تحرك هذا ؟

ويعلق القشيرى فى رسالته على هذه القصة قائلا : وكان شيبان راعياً فما ظنك بالأئمة »(٣) •

٣ — الملامتية :

أولئك الذين ظهروا فى نيسابور فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى •وتتلخص أفكارهم فى التستر،بل فى اللجوء إلىبعض تصرفات— لا يحاسب عليها الشرع — توجب الملامة ، ملامة من لا يعرفون أنهم يعمدون إلى أن يكونوا (**نكرات**) بين الخلائق إمعاناً فى كتمان أسرار محبتهم ، وهم على الحقيقة من (**الأعلام**) •

---

(٣) الرسالة ص ١٩٨ .

فصـــل [٤٣] :

الترخـــــيم

« ويقع فى النداء الترخيم : وهو حذف بعض الاســـم من آخره على جهة الإيجاز ولذلك فى مسائل النحو شرح .

والإشارة : إلى أنه قد يكون فى نحو القلب ترخيم المنادى ، وهو أن ينادى(·) بالإشارة ، فيحذف(··) بعض التفسير ، ويقتصر(···) على ما هو المعلوم بين الأحباب قال عز وجل لنبيه : « يس » وجاء فى بعض التفاسير أن معناه : ياسيد .

وذلك على سنتهم فى الحذف والاختصار ، كما قال قائلهم :

قلت لهـــا قفى   فقالت لى قاف

والاقتصار على شطر الكلام فى مذهب الأحباب أبلغ من الإتمام ولهذا قال بعضهم :

ليس من الظرف(····) امتحان الحبيب بالوصف .

(·) بفتح الدال .
(··) بضم الياء الفاء .
(···) بفتح الصـاد .
(····) بتشـديد الظاء وفتحها .

الترخيم فى اللغة ترقيق الصوت وتليينه •

وفى اصطلاح النحاة حذف آخر الكلمة فى النداء أو عند الضرورة أو عند التصغير ، وأكثره فى النداء •• ولهذا ركز الشيخ عليه واكتفى به •

والقصد من الترخيم التخفيف أو التمليح أو الإيماء •

(أ) ترخيم النـــداء :

فقد يكون المنادى مختوماً بتاء التأنيث : علماً أو غير علم مثل :

يا عائش فى يا عائشة ، ويا ثق فى يا ثقة •

أو يكون علماً لمذكر أو مؤنث بشرط أن يكون غير مركب وأن يزيد على ثلاثة أحرف مثل : يا جعف ــ ويا سعا فى جعفر وسعاد •

ومنه قراءة ابن مسعود « ونادوا يا مال(•) » أى يا مالك •

(ب) الترخيم عند الضرورة الشعرية :

وهو مقصور على غير المنادى ، ولكنه صالح للنـــداء كقول امرىء القيس :

لنعـــم الفتى تعشـــو إلى نـــاره
طريف بن مال(••) ليلة الجوع والخصر(•••)

أى طريف بن مالك :

أما حركة آخر المرخم ففيها رأيان : إما أن تنوى المحذوف فلا تغير

(•) بكسر اللام .
(••) بكسر اللام وتنوينها .
(•••) بفتح الخاء والصاد .

ما بقى ، لأن المحذوف فى نية الملفوظ وتسمى هذه لغة من ينتظر فتقول : يا جعف (بالفتح) ويا حاد (بالكسر) ، ويا منص (بالضم) فى منصور ويجوز ألا تنوى المحذوف فتبنى على الضم كأنه آخر الاسم وتسمى لغة من لا ينتظر .

* * *

وضع الشيخ أمام ناظريه كل هذا الذى يحدث فى باب الترخيم ، واستفاد من المعطيات الناجمة عن ذلك من تغيرات وحذف وتخفيف واختلاف فى إعراب الأواخر ورجوع إلى السياق لفهم المراد ، وخرج من ذلك بإشارات نرى من اللازم أن ننقب فى العلم الصوفى مع الشيخ بحثاً عن نظائر لا تقتصر على باب النداء وحده .

ونرى أن هذا البحث يمكن أن ينشعب نحو ثلاث جهات ، وسنعرض لها بإيجاز تاركين التفاصيل .

١ — الحروف المقطعة فى بدايات السور :

إذا كان هذا الموضوع قد شغل جمهور المفسرين ، وذهبوا فيه مذاهب كثيرة .. فهو خليق أن يلقى درجة أكبر من الاهتمام عند القشيرى .. ذلك المفسر الإشارى الجليل .

فهذه الحروف فى أوائل السور عنده إشارات الأسرار بين الحبيب والحبيب ..

ففى المثال الذى ضربه هنا بعد أن ذكر ما يقوله العباريون عن « يس » بأنها تعنى « يا سيد » نجده فى اللطائف يقول : « والياء تشير إلى يوم الميثاق (والسين) تشير إلى سره مع الأحباب .. فيكون المعنى : بحق يوم الميثاق وسرى مع الأحباب وبالقرآن الكريم : إنك لمن المرسلين وإنك لعلى صراط مستقيم »(١) .

(١) اللطائف جـ ٥ ص ٢١١ .

. . . .

و (حم) أول سورة فصلت « بحفى وحياتى ، ومجدى فى صفاتى وذاتى .. هذا تنزيل من الرحمن الرحيم »(٢) .

و (طس) أول سورة النمل : « بطهارة قدسى وسناء عزى لا أخيب أمل من أمل لطفى . بوجود برى تطيب قلوب أوليائى ، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيائى . طلب القاصدين مقابل بلطفى ، وسعى العاملين مشكور بعطفى » .

والقارىء لابد أن يحس تردد الحروف فى ثنايا التفسير كأنه يريد أن يضع بصائرنا على أسرار فى تلك الحروف !

وربما كان النص التالى عن (الر) فى أول سورة يوسف من أكثر المواقف إفصاحاً عن موقفه فى هذه القضية كلها .. حيث يقول :

« التخاطب بالحروف المتفرقة غير المنظومة سنة الأحباب فى ستر المحاب ، فالقرآن — وإن كان المقصود منه الإفصاح والبيـان — ففيه تلويح وتصريح ، ومفصل ومجمل ، قال قائلهم :

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلكم
مما يلى الغرب خوف القيل والقال

ويقال : وقفت فهوم الخلق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه — ﷺ فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة ، ولكنه أفرد الحبيب بفهمه ، فهو سر الحبيب بحيث لا يطلع عليه الرقيب — يقول قائلهم :

بين المحبين سر(٠) ليس يفشـيه ... قول ولا قلم للخلق يحكيـه

وفى إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهى أن من كان بالعقل

---

(٢) اللطائف جـ ٥ ص ٢١٩ .

(٠) بتشديد الراء .

. . . .

والصحو استنبط من اللفظ اليســير كثيراً من المعانى (**تذكر اختصــار** صيغة المرخم)(٠) .

ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليســير ، ذلك لكمال عقله وهذا لتمام وصله » .

٢ ــ الإشارات الخفية بين الأحباب :

عند الصــوفية ذوق لماح(٠) ، وفيهم ظرف(٠٠) ، يغنيهم التلميح عن التصريح ، فهم أحياناً يتخاطبون فيما بينهم بلغة لها من الخصوصبة مالا يفقهها غيرهم ..

استمع مثلا إلى هذه القصة :

تواجد أحد المريدين فى مجلس الجنيد ، وصدرت عنه حــركات وزعقات .. فلم يكن من الجنيد إلا أن قال : « والذى يراك حين تقوم »! فكانت أشبه ببرقية ذات (شفرة) فهمها المريد من فوره فلزم الصمت والسكون ، وجلس كأنما أصابته صدمة !

وسمع بعضهم منادياً ينادى « الخيار بدرهم » فزعق زعقة هائلة وهو يصرخ : ويلى .. إذا كان الخيار بدرهم فكم يساوى الأشرار !

وسمع آخر يقول : يا سعترى برى ..

فالتقطتها لا واعيته على أنها : اسع تر برى(٠٠٠) .

ويعلل القشيرى لهذه الرهافة فى الحس عندما يسمع أحدهم هذه

---

(٠) بفتح الخاء وتشديدها .
(٠) بتشديد الميم مع فتحها .
(٠٠) بفتح الظاء وسكون الراء .
(٠٠٠) بكسر الباء وتشديد الراء المكسورة .

الإشارات الملغزة ويتأثر بها بقوله : « هذا شأن الأحباب فى ستر الحال وإخفاء الأمر على الأجنبى قال شاعرهم :

قلت لهـا قفى   قـالت قـاف
لا تحسبى أنا   ... لا يخاف

ولم يقل وقفـا سـتراً على الرقيب . فالعبارة للعمـوم والرمز للخصوص .

قال ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا » .

وقال بعضهم :

قال لى مـولاى :   ما هذا الدنف ؟
قلت : تهـوانى ؟   قال لام ألف ..

والموضوع طريف .. ويرى بعض دارسى الأدب أن المتنبى شاعر العربية الكبير قد تأثر الصوفية فى هذا الخصوص ، فكأن يلجـأ أحياناً إلى الرمز البعيد .

٣ ــ المصطلح الصوفى :

وتكبر هذه الفكرة ويصـبح للصـوفية لغـة اصطلاحية تتميـز بالخصوصية .. وهذا موضـوع كبير يحتاج إلى مجلدات ولـكنه نابع أساساً من هذه الأفكار التى أومأنا إليها فى هذه الشروح .

فصــل [٤٤] :

الأفعــال الجــامدة

« من الأفعــال ما ليس يتصرف تصرفا تاما مثل : نعم(٠) وبئس وعسى ·· ولذلك أبواب في النحو وأحكام ··

والإشارة منه أنه من الأفعال ما ليس بتام ، فلا يتمكن العبد من التصرف فيه على حسب ما أراده ، وبعضها به وإليه ·

فمن ذلك : فتح(٠٠) الجفن ، والإصــغاء ، إذ الادراك — وهو البصر والسمع — ليس بمكتسب للعبــد : فإذا أتى بالإصــغاء وفتح الجفن — خلق الله الإدراك على مجــرى العادة · فذلك فعــل ناقص التصرف فيه فيرد(٠٠٠) به الأمر والنهى ، ويحصل عليه الثواب والعقاب·

---

(٠) بكسر النون وسكون العين ·
(٠٠) بفتح الفاء وضم الحاء ·
(٠٠٠) بفتح الياء وكسر الراء وضم الدال ·

ينقسم الفعل إلى جامد ومتصرف ، فالجامد ما لازم صورة واحدة ، والمتصرف : إما تام التصرف وهو الذى تأتى منه الأفعال الثلاثة : الماضى والمضارع والأمر — وهو كثير وغالب نحو : حفظ وشرب وانطلق وتدحرج .. الخ .

وأما ناقص التصرف فهو ما ليس كذلك ومنه : —

١ — أفعال الاستمرار (مازال وأخواتها) .

٢ — كاد وأوشك .

٣ — كلمتا (يدع ويذر)(.) لأن ماضيهما قد أميت(..) وترك .

والفعل الجامد أكثره ملازم للماضى مثل : نعم وبئس وعسى (وهى التى ضرب بها الشيخ هنا المثال) — ويضاف إليها حبذا ولا حبذا ، وفعلا التعجب (ما أفعله ، وأفعل به) ، وأفعال الاستثناء (خلا وعدا وحاشا)، وليس (من أخوات كان) وحرى واخلولق وأنشأ وأخذ (من أفعال المقاربة) .

وتستعمل نعم للمدح مثل قولك : نعم الخليفة أبو بكر .

وبئس للذم مثل قولك : بئس الرجل أبو لهب .

وإعرابها : نعم فعل جامد يفيد المدح — والخليفة فاعله — وأبوبكر مخصوص بالمدح مبتدأ — والجملة قبله خبر مقدم .

أما عسى فهى من أفعال الرجاء ، وهى ترفع الاسم وتنصب الخبر ويكثر أن يقترن خبرها بأن(...) مثل : عسى الكرب أن ينفرج .

(.) بفتح الياء والدال والذال .

(..) بضم الهمزة وكسر الميم .

(...) بفتح الهمزة وسكون النون .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

وتنطلق الإشارة : من استحقاق بعض الأفعال للتصرف التام ، على حين تجمد الأخرى عن التصرف التام .

ويحاول القشيرى أن يوظف هذه الظاهرة لأجل قضية كبيرة أساسها هذا السؤال : هل الفعل الإنسانى إنسانى محض أم أن هناك تدخلا فيه من جانب الله سبحانه ؟

ويمكن صياغة السؤال نفسه بطريقة أخرى : إلى أى مدى تصل حرية الإنسان ؟

هل هو حر **(فى تصرفاته)** حرية تامة ؟ هل هى حرية ناقصة ؟

أم هو مجبور تماماً على أن يفعل ما يفعل ؟

والمشكلة كبيرة جداً ، وقد بدأت فى تاريخ الفكر الإسلامى منذ عهد مبكر ، وكان القدرية بزعامة (معبد الجهنى) أول من أثارها حين نادوا بأن الإنسان (يقدر)(٠) أعمال نفسه بعمله ، ويتوجه إليها بإرادته ثم يوجدها (بقدرته) .

وتصدى لهم فى الجانب الآخر فرقة (الجبرية بزعامة جهم ابن صفوان) ، ونادوا بأن الله سبحانه هوا لذى قدر فى الأزل أفعال العباد ، وأوجدها على يد العبد بقدرته وحده ، فقدرة الإنسان معطلة تمام التعطل .

ثم جاء (المعتزلة والأشاعرة) من بعد ذلك ، وتلقفوا هذا الموضوع ، وزادت هوة الخلاف بينهما ، وظهرت مسائل بعد مسائل تتصل بهذا الأصل ، ونشأت مدارس ووضعت مصنفات ضخمة .. بل أريقت دماء وثارت فتن ، وذهبت كل فرقة تلتمس من القرآن الكريم نصوصاً تؤيد بها مواقفها وتدحض آراء معارضيها ..

ولأن الموضوع كبير .. فنؤثر(٠٠) أن ننبه إليه هنا فحسب تاركين

---

(٠) بضم الياء وفتح القاف وتشديد الدال المكسورة . (٠٠) بكسر الثاء .

التفصيلات فيه إلى مواضعه فى علم الكلام ومطولاته •

ونختصر **الآراء فى سطور : يرى المعتزلة** أن الله عادل ولذا ينبغى أن يكون الإنسان حراً حرية تامة حتى يمكن أن يحاسب(•) يوم القيامة على (تصرفه) •

ويذهب الأشاعرة ومنهم القشيرى إلى تقليص هـذه الحرية عن طريق إدخال الفاعلية الإلهيـة فى (تصرف) الإنسـان ، لأن الله خالق الإنسـان وصاحب الكون •• فلا يمـكن أن يجرى فى ملكه فعل بدون مشيئته ، وإلا تعدد الفاعلون •• وهم يخشون من التعدد •

وقد عرفنا من ترجمة القشيرى كيف تعذب بسبب أشعريته ، وكيف كان جزاؤه النفى والتشريد •• وهو هنا يريد أن يمس مساً هينا هـذه القضية ، ونستطيع — **مرتبطين بالنص** — أن نجد ثلاثة أشياء فيه :

١ — بالنظر إلى الأفعال الإنسانية نجد أن « **بعضها به وإليه** » •

٢ — بعضها « **ليس بمكتسـب للعبد كالإدراك بطريق السـمع والبصر** » •

٣ — ويعلق « **الثواب والعقـاب** » على ما يكون من (تصرف) العبد •• وإذاً فنحن أمام عمل مركب •

من فتح الجفن أو إغلاقه عمل إنسانى ،

وإدراك البصر من خلق الله •

والشىء نفسه يقال فى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » •

يقول القشيرى : منك الرمى ومنا تسديد الإصابة •

وقوله تعالى : « **أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** » فالعلة الأولى مردودة لله تعالى والعلة القريبة هى الزراع(••) — إذا استعرنا فكرة (العلة) من الفلسفة •

(•) بضم الياء وفتح السين • (••) بضم الزاى وتشديد الراء مع فتحها •

وهكذا ، يتضح أن هناك جزءاً من الفعل يصنعه الإنسان (بتصرفه) .

وهناك جزء مكمل وهو العنـاية الإلهية التى تساعد الإنسـان فى الاضطلاع بما يختص به .

هذا الجزء المختص بالإنسان هو الذى سيحاسب(٠) عليه ، وهومناط الثواب والعقاب . ولنضرب على ذلك مثلا واحداً يتصل بالفقرة فى المتن .

للرسـول ﷺ حديث يقـع فيه هـذا النص « والعين تزنى » فالله خالق لإدراك البصر لكن الإنسان محاسب على فتح الجفن عامداً — أو غيرعامد — لامرأة(٠٠) غير محرمة عليه بقصد اشتهاء أو بدون قصد . وفى حدود هذه الظروف يتحدد الموقف ويكون الثواب أو العقاب .

وننبه إلى أن القشيرى عالج الموضوع هنا بوصفه متكلماً . أما لو سألته بوصفه صوفياً لحدثك عن الحرية الإنسـانية حديثاً ألمنا ببعض أطرافه فى مواضع متفرقة من هذه الشروح ، وهو « جبرية الحب » بمعنى أن الله محبوب والإنسان محب(٠٠٠) ، والمحب يرى أن يعول كل شىء على الله ، وأن يعود — حتى بما يصنعه من أفعال صالحة — إلى أفضال الله ، فلا توبة إلا إذا تاب عليك أولا .. وهكذا بقية المقامات .

وتعبر رابعة العدوية فى أشعار مشهورة عن حبها الله ، وتتنصل فى البداية والنهاية من أى فضل لها : « ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا » .

---

(٠) بضم الياء وفتح الحاء .

(٠٠) بكسر الباء المربوطة وتنوينها .

(٠٠٠) بضم الميم وكسر الحاء .

فصـــل [٤٥] :

المعانى المختلفة لـــ (ما)

« ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولها معان كثيرة : كقولهم « ما » : يكون صلة ، ويكون للنفى ، وبمعنى الذى ، وبمعنى من (٠) .. وغيره .

ويكون مشبها(٠٠) بالمشبه بالفعل فيقولون : ما زيد قائماً فيشبهونه بـــ « ليس » .. فقوم يرفعون خبره وقوم ينصبونه .

ويتبـــين الفرق بين « ما » و « ليس » فى تقـــديم الخبر ، وذلك لنقصان « ما » عن « ليس » .

كذلك : الملتحق بالمتحق لا يبلغ شأو(٠٠٠) المتحقق .

أما الخيام .. فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحى غير نسائها

وكما أن المشغول بالمشغول أشدهم محنة كذلك المتشـــبه بالمتشبه أضعفهم حالة . »

---

(٠) بفتح الميم .
(٠٠) بتشديد الباء وفتحها .
(٠٠٠) بفتح الشين وسكون الهمزة وفتح الواو .

ملاحظات على المنهج :

● هذا فصل ممتع ، وهو من الفصول التى تابع الشيخ فيها التفاصيل الدقيقة ، والفروق الاستخدامية — فى نحو الظاهر — للشىء الواحد الذى هو هنا « ما » .

● وجاءت عملية التنظير بين نحو الظاهر ونحو القلوب مقنعة أشد ما يكون الإقناع ، لأنها تنم عن فطنة ودراية بين النمطين .

● يستخدم فى المصطلح كلمة «صلة» بمعنى (زائدة)، كما سنرى .

● يقتضينا ذلك كله أن نطيل نفسنا(٠) فى عرض مسائل النحو الظاهر حتى نجلو منطلقات الإشارة ، وندرك احتمالاتها .

* * *

« مـا » من الأدوات التى تطالعك بوجهها فى أبواب كثيرة العدد فى نحو الظـاهر ، فأنت ستجدها فى باب النفى ، وباب الاستفهام ، والموصول ، والشرط ، وكان وأخواتها ، وباب التعجب . وإن وأخواتها .

وستجدها مرة حرفاً ومرة اسماً ، ومصدرية ظرفية .. وقد نجدها كافة .. وغير ذلك ..

وقد أراد الشيخ فى هذا الفصل أن يوظف هذا الاتساع فى الاستعمال لـ (مـا) ، وأن يجعل ذلك وسيلة — كعهد نابه — إلى مقاصد بعيدة .

(أ) ومن أمثلة استخدامها :

١ — **صلة (= زائدة) غير كافة** مثل « مما خطيئاتهم أغرقوا » ولبيان أن الشيخ يستخدم « صلة » التى جاءت فى النص بمعنى « زائدة » نسمعه عند قوله تعالى : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من

(٠) بفتح النون والفاء والسين .

كان فى المهد صبياً (كان هاهنا فى اللفظ صــلة ، وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها) •

وفى موضع آخر عند « وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه » أى (فلما ذهبوا به وألقوه فى غيابة الجب أوحينا إليهم فتكون الواو صــلة والإشارة : أنه لما حلت بهم البلوى عجلنا لهم التعريف بما ذكرنا من البشرى) •

٢ ــ **زائدة كافه** : إنما الحياة الدنيا لهو ولعب •

٣ ــ **نافيــة** : ما علمت النبــأ إلا الآن •

٤ ــ **مصدرية ظرفية** : اتق الله ما استطعت •

وهى فى المواضع السابقة حرف •

(ب) أما فى الأمثلة التالية فهى : ــ

١ ــ تقع موصولة للدلالة على غير العاقل

مثل : أعطيت السائل كل ما فى جيبى •

٢ ــ وقد تأتى **(بمعنى من(•) التى للعاقل)** كما جاء فى المتن مثل :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء » •

٣ ــ وتأتى استفهامية بمعنى من(•) للعاقل •

قالوا وما الرحمن ؟

٤ ــ وتأتى استفهامية لغير العاقل :

ما بيــدك ؟

٥ ــ وتأتى شرطية لغير العاقل : ما تفعل(••) من خير يكتبه(•••) لك الله • وهى فى هذه المواضع اسم •

(•) بفتح الميم وسكون النون . (••) بسكون اللام .

(•••) بسكون الباء .

« ما » التى بمعنى ليس :

ركز الشيخ نظرته عليها كثيراً ولذا تستحق وحدها وقفة متمهلة فى الشروح •

«ما» هذه حرف نفى يدخل على المبتدأ والخبرفتعمل عمل (ليس) عند أهل الحجاز مثل قوله تعالى : **« ما هذا بشراً »** •

ولكن بنى تميم يهملونها أى لا يعطونها عمل ليس •

ولاحظ الشيخ وهو يقارن بينهما أن : (خبر ليس) يمكن أن يتقدم على اسمها جرياً على ما يحدث بالنسبة لكان وأخواتها : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ومثل **« ليس البر(•) أن تولوا ••• »** فى قراءة حمزة وحفص •••

بينما لا يجوز تقديم **(خبر ما)** على اسمها فلا تقل :

ما قائماً زيد •

تتمة للفائدة وذات أهمية فى الإشارة :

قلنـــا من قبل إن كان ومعموليها (يشبهان) جملة الفعـــل التام فى ترتيب العناصر :

الفعل التام + مرفوع + منصوب

وتتجلى المشابهة فتقول : كان وأخواتها + مرفوع + منصوب

ويمتد هذا **(الشبه)** إلى شىء آخر هو جواز تقـــديم خبر كان وأخواتها عليها **(ما عدا ليس)** •

فتقول صائماً كان زيد ولا تقول : صائماً ليس زيد •

(•) بفتح الراء وتشديدها .

ولا صـــائماً ما زال زيد لأن تصريف (ليس) و (مازال) ناقص وإذاً فإن (ليس) أقل حظاً فى هذا (**الشبه**) •

فإذا انتقلنـــا إلى (**ما التى تشبه ليس**) ولا يطرد هذا الشـــبه (لأننا نعلم الفرق بين لغة الحجاز ولغة تميم — كما ذكرنا) **فهى ضعيفة فى** (**الالتحاق**) لأنها أدنى منزلة من (ليس) ولذا فإنها من باب أولى لا يجوز أن يتقدمها خبرها عليها ، فضلا عن أنه كما أسلفنا منـــذ قليل لا يجوز أن يتقدم خبرها على اسمها •• فهى أبلغ فى الضعف من (ليس)•

وهكذا تنقص (ليس) على أخواتها رتبة ، وتنقص (ما) عن ليس رتبة ، ويتحصل من ذلك كله ناتج كان له القيمة الكبرى فى نظرة الشيخ الإشارية:

أن الأصل هو جملة الفعل التام (المرتبة العليا) •

وأن المشبه هو جملة كان وأخواتها (ما عدا ليس) فى موضع فهو ينقص فى الرتبة •

وأن المشبه بهذه الأخيرة — أى « ما » — ينقص عنها بدورها رتبة•

وهذا التدانى الذى أصاب (ما) ناتج عن أنها (**ملتحقة بالملتحق**) وأن (ليس) (**مشبهة بالمشبه**) ، فيكون المجموع تنازلياً أربع مراتب •

***

يمكن الآن فهم إشارات الشيخ فى الفصل كله ، وكيف تدور حول هذا العبد التعس المناظر(*) لـ (ما) •• وأمامنا احتمالات لصرف المراد فمن حيث :

(**أ**) **الانتماء** : فكأنى بالشيخ يريد أن يوضح أن عبداً فيه صفات (ما) له عدة وجوه ، فهو فى كل مكان ، ومع أى شيخ ، وفى أى محفل ، إنه عديم الأصل ، منقطع السند ••

(*) بكسر الظاء •

وتجده لذلك يطرق كل الأبواب كما تدخل **(ما أبواب النحو)** فالنصيحة إذاً موجهة للمريد .. أن يبحث عن شيخ ثقة يأخذ عنه طريقته ، ويركز كل همته فى هذا الشيخ الذى اختاره ، وآمن بحسن سيرته من الناس ، وألا يحيد عن ذلك ألبتة ، ويلزم أن يكون انتقاء الشيخ من بين الذين يتصلون بنسب إلى سند قوى ، كما يتسلسل تابع التابعى عن التابعى عن الصحابى عن الرسول صلوات الله عليه وسلامه.. ينبغى أن تنتهى الأسانيد الصوفية إليه أو إلى أحد صحابته العظماء .. وكلهم من رسول الله ﷺ مقتبس .

أما إذا انجرف المريد فى سلسلة لا أصل لها ، فهو بمرور الوقت يفقد قيمته شيئاً فشيئاً كما يحدث فى حالة (ما) التى **(ألتحقت)** بأصل ضعيف .

(ب) تركيز الجهود : بمقدار ما تتركز الجهود فى غاية واحدة يكون الوصول ...

أما بعثرة هذه الجهود ، وتشتيت الرؤية ، والوقوع تحت تأثير الشد والجذب بين الحظوظ والحقوق ، فإن هذا يضعف الشأن كما توزعت (ما) بين أبواب النحو ، فأصبحت أشبه بكائن غير محدد المعالم والقسمات .. فأصابها ما أصابها من وهن وضعف !

وليعلم المريد أن الدنيا والآخرة شقيقتان ولا يصح الجمع بين شقيقتين — على حد تعبير على بن أبى طالب .

(ج) البـدعة : ربما يهدف الشيخ من بعيد إلى أن أسباب انتشار البدعة هو (التشبه) الذى حدث لأول مرة بمشبه به صدر عنه الخطأ ، وجاء ثالث و (تشبه) بالثانى .. وهكذا .. كلما بعد المرء عن الأصول الأصيلة التى تتخذ السنة الشريفة منهجاً .. يتلاحق الخطأ فى واحد إثر واحد .. حتى يأتى وقت يكون البعد عن (الحقيقة) قد هبط بصاحبه إلى الحضيض .

(د) الحب الحقيقي أساسه المبادلة :

إن قصة هؤلاء القوم في صميمها قصة حب كبير ، وكل حب كبير يقاس بعنصر المأساة فيه ، فمنهم من نتقطع كبده من الحزن لفراق محبوبه ، أو هجره أو فصله ، ويقضي الليل والنهار في (قبض) متصل حتى تلوح على البعـد تباشير (البسـط) ، وهكذا يقضي عمره بين (وجد) و (وفقد) .

ومنهم من (يتشبه) بالمشبه .. وهذه الطوائف وأمثالها ليس لها من الحب إلا الاسم ، فهي عند أول بادرة ابتلاء تتبدد كالفراشات عند الضياء ...

على أن القضية لا تقف عند هذا الحد ، فأهم شيء في هذا الصنف من الحب .. هو من(.) (المقسوم) له أصلا أن يكون المريد... (المراد)؟ فليس مهما أن تحب أنت ولكن المهم من(.) الذي تحبه ليلى ، وبمن هي (مشغولة) ؟ فلربما صدق قول الشاعر :

وكل يدعى وصـلا بليلى وليلى لا تطيق لهم وصـالا

وقد يكون الجواب ، أنك (مشغول بمشغول) وعندئذ (تكون المحنة الشديدة) .. فأنت لست الحبيب المراد المختار ، فتصبح :

إنما أنت في هواها كواو ألحقت(..) في الهجاء ظلماً بعمرو

أنت مستعد لأن تدفع ثمن هذا الحب العظيم من وقتك وجهدك وصبرك وانتظارك وأشجانك .... إلى أن ينحل بدنك...ولكن قل(...) أن تصل ! يقول السقطي :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا

(.) بفتح الميم وسكون النون .

(..) بضم الهمزة وسكون اللام .

(...) بفتح القاف وتشديد اللام مع فتحها .

وفى هذه المعانى ينشدون كثيراً بعض أشعار العذريين مثل :

جننا بليلى وهى جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ومثل :

خليلى ، لا والله لا أملك الذى قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا

* * *

فمنهم من هو على درجة (التمام) فى هذا الحب ، وآيةذلك هذه « المبادلة » التى بينه وبين ليلاه : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ، « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، « اذكرونى اذكركم » .

هؤلاء يناظرون (الفعل التام) وما دون ذلك يتفاوتون بين مشبه ومشبه بالمشبه .. درجات تنازلية فى هذا الحب حتى يكون اسماً على غير مسمى ! ومسعى بغير طائل !

وهكذا نجد الشيخ بإثارته لموضوعات (التشبه) و (الالتحاق) و (الانشغال) قد وضعنا أمام احتمالات كثيرة .. رأينا أن **(ما) تثيرها وتنعشها جميعاً .**

فصـــل [٤٦]

لا النافيـــة للجنس

« الاسم المنفى بلا مبنى على الفتح ، لأن « لا » نقيض « إن » . فلما كانت « إن » التى للتحقيق تنصب الاسم فالمنفى بـ « لا » يبنى على الفتح ... وهذا باب فى النحو يجرى(.) على المعنى حكم نقيضه .

والإشارة : أنه يوجد فى الأحوال ذاك ، فإن غاية الحزن توجب الضحك ، ونهاية السرور توجب البـــكاء ، وغاية الهجر بترك العتاب ، وحقيقة الود تكون بالتجنى وكثرة العتاب .. أنشدوا :

ترك(..) العتـــاب إذا استحق أخ
منك العتـــاب ـ ذريعـــة(...) الهجـر

وأنشـــدوا :

ولمـــا غدت عيســـهم للنـــوى وظلت بأحداجها ترتك (....)
ضحكت من البـــين مستعجباً وشر الشـــدائد ما يضـــحك

وقيل : إن يعقوب عليه السلام لما رأى يوسف بكى ، فقيل له فى ذلك فقال :

ذاك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور .

* * *

(.) بضم الياء .
(..) بسكون الراء وضم الكاف .
(...) بضم التاء المربوطة .
(....) بفتح التاء وسكون الراء وكسر التاء وضم الكاف .

. . . .

يبنى اسم « لا » النافية للجنس على ما ينصب به إذا كان مفرداً (ومعنى الإفراد هنا كمعناه فى باب النداء أى غير مضاف ولا شبيه بالمضاف — راجع فصل النداء ٤٢ من هذا الكتاب) أى يبنى على الفتح فى حالى المفرد وجمع التكسير مثل :

لا طالب(٠) فى المدرسة .

لا طلاب(٠) فى المدرسة .

ويبنى على الكسرة فى حال جمع المؤنث السالم ، وعلى الياء فى حالى المثنى وجمع المذكر السالم .

ويعرب اسمها إذا كان غير مفرد (أى مضافاً أو شبيهاً بالمضاف) ويكون عندئذ منصوباً .

مثل : لا ناصر(٠٠) حق مخذول — لا كريماً عنصره سفيه

لا حافظاً عهداً منسى — لا واثقا بالله ضائع

وقد قيست « لا » على « إن » فى عملها لأن هذه الأخيرة تفيد تأكيد الإثبات (وهو الذى سماه الشيخ **(التحقيق)**) .

أما « لا » فتفيد تأكيد (النفى) .

وهذا يفسر قول الشيخ : **« حمل الشىء على نقيضه »** .

ومن هذه النقطة الأخيرة تنطلق إشارات الشيخ .. وهو يريد — من بعيد — أن يقنعنا باحتمال قلب المحب (للأحوال) المتناقضة ، فالرب سبحانه وهو يربى عبده تربية إلهية يخضعه لهـذه الثنائيات : الرجاء والخوف ، الأنس والهيبة ، الوجد والفقد ، الوصل والفصل ، القبض والبسط ، البقاء والفناء ... الخ مما ذكرناه ونوهنا بتفاصيله فى مواضع شتى من هذه الشروح .

---

(٠) بفتح الباء .

(٠٠) بفتح الراء .

. . . .

هذه الأحوال كما هو واضح خلاصتها حمل الشيء ونقيضه .
فكما يحدث فى نحو الظاهر ذلك يتم فى نحو الباطن أيضا .

والواقع أنه حتى فى الحب البشرى فى كل العصور فإن معاناته تعرف هذا التناقض : العذاب العذب ، والشقاء الشيق ، وهنا مكمن الصراع فيه . فما بالك بالحب الأسنى الذى غايته أن يظل هذا القلب المحب يتقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن حتى يتم النقاء والصفاء ، ويتجرد القلب من كل الغير والسوى ، ويمتحن بالسراء والضراء كى يذوب فى نهاية الأمر فى الإرادة والتصاريف الإلهية ويصبح مرآة مجلوة من كل كدر .

ديدن هذا الحب إذاً هو اجتماع الشيء ونقيضه ، فهو مثلا فى أقصى درجات التنعم بالوصال تنتابه مشاعر القلق والإضطراب ، فهو يعلم أن كل شيء إلى زوال .. وعما قريب تنسحب كل نسائم هذا القرب لتحل محلها هواجم الفراق ونذر البعاد .. إنه ابتلاء مضن لا تحتمله وتصبر عليه وتنجو منه إلا قلوب الأفذاذ (العارفة) بأسراره ومراميه .

عن هذه التربية يحدثنا القشيرى فى واحدة من وصاياه للمريدين : « واعلم أن أضر الأشياء بالمريد استئناسه بما يلقى(٭) إليه فى سره من تقريبات الحق سبحانه له ومنته عليه ، فيظن أنه متفرد عن أشكاله ومختص بهذا »[١] .

ولقد رأينا أن أصدق وسيلة لنقل هذه المشاعر المتناقضة فى دنيا المحبين هى أن نترك للشعر المنشأ(٭٭) والمنشد(٭٭) أن ينقل هذه الخلجات، ونقصد بذلك أن نخرج عن النمطية التى جرت عليها الشروح ، وأن نذهب بالسأم الذى قد يصيب القارىء نتيجة لذلك ، كما أننا نريد أن نلفت

---

(١) الرسالة ص ٢٠١ .   (٭) بضم الياء وفتح القاف .
(٭٭) بضم الميم مع فتح الشين هنا وهناك .

بطريق غير مباشر إلى أهمية دور الشعر الصوفى فى احتواء تجربة هؤلاء القوم ، وأن إهماله جريرة لا تغتفر .. ونحن على ثقة أن القارىء لهذه النماذج التى اخترناها بعناية — يوطد عزيمته على البحث الجاد والاستزادة من هذا الشعر ، والعناية به .. إنه يكاد يكون شعراً معاصراً !

* * *

* يقول جعفر الخلدى « تفكرى فى مرارة البين يمنعنى من التمتع بحلاوة الوصل ، وتكره عينى أن تقر(*) بقربك مخافة أن تسخن ببعدك ، فلى عند الاجتماع كبد ترجف وعند التنائى مقلة تكفكف ، وأقول كما قال الشاعر :

وما فى الدهر أشقى من محب	**وإن وجد الهوى حلو المذاق**
تراه باكيا فى كل حين	**مخافة فرقة أو لاشتياق**
فيبكى إن نأوا شوقاً إليهم	**ويبكى إن دنوا خوف الفراق**
فتسخن عينه عند التنائى	**وتسخن عينه عند التلاقى(١)**

* وفى « لطائفه » وهو يفسر بالإشارة مأساة آدم وحواء يقول : « حين تمت أسباب الوصلة ، ووطنا نفوسهما على دوام القربة بدا الفراق من مكامنه ، فأباد من شملهما ما انتظم ... كما قيل :

حين تم الهوى وقلنا سررنا	**وحسبنا من الفراق أمنا(**)**
بعث البين رسله فى خفاء	**فأبادوا من شملنا ما جمعنا(٢)**

(١) اللمع ص ٣٠٩ .
(٢) اللطائف جـ ٢ ص ٥٢٤ .
(*) بفتح التاء والقاف مع تشديد الراء المفتوحة .
(**) بفتح الهمزة وكسر الميم .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

* ويستشهد فى موضع ثالث بقوله :

فبت(٠) بخير ــ والدنى(٠٠) مطمئنة   وأصبحت يوماً والزمان تقلبــا

ويقـــول :

وكان سراج الوصل أزهر بيننــا   فهبت به ريح من البين فانطفا(١)

* ويقول صاحب اللمع مستشهداً :

وفكر الوجــد فى معناه صحو   وصحو الوجد شكر فى الوصال(٢)

وينقل عن أبى العباس بن عطاء قوله :

جمعت شيــئين فى قلبى له خطر   نوعين ضدين : تبريد وتلهيب
نار تقلقنى والشــوق يضرمهــا   فكيف يجتمعا : روح وتعذيب(٣)

ملحوظة : لنغتفر هنا بعض الضرورات الشعرية فربما كانت لحظات غيبوبتهم تبعدهم عن دقة الصنعة •• فهم ليسوا من الشعراء المحترفين•

أما القشيرى فى « الرسالة » فهو لا يحرمنا من حين لآخر من هذا الشعر الجميل الذى يخفف مئونة الأسانيد والأحكام والسرد • الأمر الذى جعــل « الرســالة » ذات طعم خاص •• فلنســتمع ولنتــأمل **(الشىء ونقيضه) :**

* كان شيخى أبو على الدقاق رحمه الله ينشد كثيراً :

ودادكم هجــر وحبــكم قلى(٠٠٠)
وقربكم بعـــــد وسلمكم حـــرب

---

(١) اللطائف مجلد ٢ ص ٦ .

(٢) اللمع ص ٣٨٢ .

(٣) اللمع ص ٣٢٤ .

(٠) بفتح الفاء وكسر الباء وتشديد التاء المفتوحة .(٠٠) بضم الدال المشددة .

(٠٠٠) بكسر القاف وفتح اللام .

* وينشــــدون :

* محنتى فيـــك أننى لا أبــالى بمحنــتى
قربكم مثـل بعـدكم فمتى وقت راحــتى ؟ !

* افترقنا حولا فلما التقينا كان تسـليمه على(•) وداعــا

* وليس لى فى ســواك حظ فكيفمـا شـــئت فاختبرنى

* وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيــام

* أبكى •• وهل تدرين ما يبكينى ؟ أبكى حذراً أن تفارقينى
وتقطعى وصلى وتهجرينى

* أموت إذا ذكرتك ثم أحيــا ولولا حســن ظنى مــا حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً فكم أحيــا عليك وكم أموت !

* كم من مغبوط فى أحواله انعكست عليه الحال ، فبدل بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة •• وأنشد شيخى الدقاق رحمه الله :

أحسنت ظنــك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتى به القدر(••)
وســالمتك الليـــالى فاغتررت بها
وعند صفو الليــالى يحدث الكدر

* وأنشد أبو حمزة الخرسانى :

ترائيت لى بالغيب حتى كأنمــا تبشــرنى بالغيب أنك فى الكف
وتمسى مدبا أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

(•) بتشديد الياء وفتحها . (••) بفتح الدال .

فصل [٤٧]

كم الاستفهامية وكم الخبرية

« ومن الألفاظ التى تقع على معان مختلفة « كم » فإنه يكون بمعنى الاستفهام فينصب ويكون بمعنى « رب » فيخفض •

والفرق بين كم و « رب » اختصاص « كم » بالتكثير ، ورب بالتقليل ويتميز أحدهما عن الآخر بالقرينة والعلامة •

والإشارة : كذلك من الناس من هو فى صورة غيره ، ولكن بالقرينة والأمارة تتميز المقادير ، فالزاهد فى صورة الواجد — ولكن(٠) هذا قصده من الحق عطاؤه وهذا موجب استقلاله نقاؤه •

وقد يجمع الطريق سالكين(٠٠) ولكن بالمقصد تتفاوت المقـادير ،

فواحد يرجع إلى قصر(٠٠٠) مملوك له ••

وآخر إلى حجرة بكراء(٠٠٠٠) » •

---

(٠) بتشديد النون •
(٠٠) بسكون الياء •
(٠٠٠) بفتح القاف وسكون الصاد •
(٠٠٠٠) بكسر الباء والكاف •

• • • • • • • • • • • • • • • • •

تستخدم « كم » التى هى **(لفظ واحد)** استخدامين مختلفين لكل منهما معنى ولكل معنى أثر فى إعراب ما بعده •

فإذا استفهمت بها عن عدد يراد تعيينه قلت : كم مشتركاً فى المسابقة ؟
أما إذا أردت الدلالة على التكثير قلت : كم ليال سهرت !

ويكون معناها ما أكثر الليالى التى سهرت •• وطبيعى أن تتغير نغمة الصوت فى كل حالة عن الأخرى فصوت الاستفهام مختلف عن صوت التعجب ، كما أنك تلحظ بعض الاختلافات الإعرابية فى كل من الكلمتين بعد (كم) ••

وجوه الاتفاق بينهما :

١ — كل منهما اسم بدليل دخول (من)(•) وغيرها عليهما مثل :
من كم لاعب يتكون الفريق ؟ (استفهامية) •
على كم روايات أخذت(••) عيوب فنية ! (**خبرية**) •
٢ — مبنى على السكون •
٣ — مبهم يحتاج إلى تمييز •
٤ — يتصدر الكلام ولا يسبقه إلا حرف كما سبق أو المضاف مثل :
ملابس كم جندياً هذه ؟ (استفهامية) •
أسعاركم صنف(•••) ارتفعت ! (**خبرية**) •

وجوه الاختلاف بينهما :

كم الاستفهامية : يستفهم بها عن العدد فهى من حيث البلاغة تتصدر أسلوباً إنشائياً ، وتمييزها مفرد دائماً ومنصوب دائماً — وتدخل على الماضى والمستقبل •

كم الخبرية : كما أن « رب » حرف جر يفيد التقليل فإن كم

(•) بكسر الميم وسكون النون • (••) بضم الألف وكسر الخاء •
(•••) بكسر الفاء وتنوينها •

. . . .

تجر أيضاً ، ولا تفيد الاستفهام وإنما تفيد التكثير •• وهذا **أيضاً باب في النحو يحمل فيه الشيء على نقيضه** •

وأسلوبها من حيث البلاغة خبرى •

وأما تمييزها فهو دائماً مجرور وهو إما مفرد أو جمع ، والإفراد أكثر وأبلغ •

وهى تختص بالماضى فلا تقول : كم دور سأبنيها •

ويبقى أخيراً •• أن معنى السياق ، وصفات الاسم الواقع بعد « كم » •• ملامح كافية للتمييز بين النوعين •

❋ ❋ ❋

والإشارة تأتى من هذا الملحظ عند الشيخ :

إنها فكرة **الظواهر والبواطن** فى هذا الطريق ، فلفظ « كم » واحد فى حالين مختلفين ، وينجم الاختلاف عن السياق والمعنى ثم إعراب الاسم بعدها •••

خذ مثلا رداء الصوف •• الذى يلبسه شخصان ، فهما من حيث (الظاهر) متفقان تمام الاتفاق •• فإذا حكمت(•) (الباطن) ألفيتهما جد مختلفين••فليس الاعتبار بالخرق(••) إنما الاعتباربالحرق(•••) •• فهما عند بوادر الامتحان ، أوممارسة الصبر والتوكل والرضا •• ونحو ذلك يفترقان فى الإخلاص وفى طريق الممارسة وفى الطموح •• وفى كل شىء ، ويأتى وقت يفتضح أمر كل منهما ، فأما أحدهما فظاهره كباطنه ، ووجهه كقلبه ، ولون مائه من لون إنائه — كما قال الشيخ فى موضع مماثل سبق ذكره •

(•) بفتح الحاء وتشديد الكاف المفتوحة .

(••) بكسر الخاء . (•••) بضم الحاء .

ولأجل هذا نجد الشيخ فى باب « التصوف » فى الرسالة بعد أن أثبت أن النسبة إلى الصوف سليمة فى الصياغة اللغوية : « فيقال تصوف إذا لبس **الصوف** كتقمش إذا لبس القماش وتقمص إذا لبس القميص » فتحس أنه ارتضى هذه النسبة ، ولكنك ما تلبث بعد أن تقرأ بقية الباب أن تدرك أنه يرتضى النسبة إلى « الصفاء » •• فهو محمود بكل لسان • ويكون معنى هذا •• أنه آثر السلامة (القلبية) على السلامة (اللغوية) ، وبكلمات أخرى أرجع النسبة إلى (الباطن) ولم يحفل (بالظاهر) ، ووجد خيراً أن ينتسب المرء إلى (معان) داخلية ونوايا خفية لا يعلمها إلا علام الغيوب بدلا من (ثياب) يراعى فى انتقائها تعريف الناس به ، ولفت أنظارهم إليه ، فالعبرة بالسر لا بالعلن •

وكما يتضح معنى «كم» التى هى لفظ واحد فى «الخبر والاستفهام» بالسياق وبالإعراب يتضح (جوهر) كل متشاركين فى مظهر واحد عند العمل والممارسة ، فهذا — فى نظر الشيخ — هو المحك الحقيقى لإظهار معادن الرجال •

وما ينطبق على هذه الحال ينطبق على كل ما يحفل به الطريق من سلوك يتصل **بالظاهر والباطن** ، فالتسمية بعابد أو سالك أو مريد •• أو عارف لا يترتب عليها بالضرورة تساوى الأفراد الذين يتسمون بها فى درجات الوصول ولا فى غاياته •• ولذا فإن منهم من يتوقف ويرتد ، ومنهم من يستمر ويتعثر •• ومنهم من يصل ثم يتصل •• والمثل على ذلك كما يذكره فى المتن : **« الزاهد فى صورة الواجد •• لكن هذا قصده من الحق عطاؤه ، وهذا موجب استقلاله نقاؤه »** •

فكلاهما يأخذ سمت الواجد •• ولكن بالبحث وبالتجربة وبمرور الوقت يتضح أن أحدهما يعبد الله ، وقد يقطع مراحل من الطريق لا بأس بها •• ثم يظهر فيما بعد أن ذلك لأغراض وأعراض **(وعطاء)** فى الدنيا أو فى الآخرة ، على حين أن الآخر لا تهمه هذه الأمور لأنه يريد وجه

الله المحبوب فقط بكل (نقاء) القلب والروح والسر ، وفى هذا المعنى أنشـــدوا :

كلهم يعبدون من خـــوف نـــار ويرون النجاة حظا جزيلا
ليس لى فى الجنان والنـــار رأى أنا لا أبتغى بحبى بديلا[1]

ويروى الحلاج قصة — أوردها القشيرى فى كتابه « المعراج » — ذات مغزى :

« لما دنا السفير الأعلى من الحق فى المسرى — أى الرسول ليـــلة الإسراء — أيده فقال : سل[*] تعط[**] فقال :

ماذا أسأل وقد أعطيت ؟ ماذا أبتغى وقد كفيت ؟

فنودى : « إنك لعلى خلق عظيم .. حيث نزهت بساطنا عن طلب الحوائج »[2] .

ويمكن أن تسرى الفكرة ذاتها على شخصين عند « التواجد » فكل منهما يصاب بتغيرات عضوية ونفسية حادة عند غلبة الوجد .. ولكن التغلغل فى أعماق (البواطن) يكشف بعد قليل أن هذا صادق والآخر مدع[***] .. هذا يبكى والآخر يتبـــاكى .. وقل مثل ذلك فى كثير من المواقف التى يعرفها الشيوخ حق المعرفة .

---

(١) صفة الصفوة ج ٤ ص ٢٩٥ .

(٢) المعراج للقشيرى ص ١٠٨ .

(.) بفتح السين وسكون اللام .

(..) بضم التاء وفتح الطاء .

(...) بضم الميم وتشديد الدال مع فتحها .

فصل [٤٨]

حروف القسم

« حروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل ، فقول القائل : بالله أى يمينى بالله أو حلفت بالله .

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفا وأعم دخولا كالباء .

وبعضها أقل كالتاء والواو ،

وواسطة بين القليل والكثير — والكل حروف القسم .

والإشارة : الجميع من جملة الخدم ، ولكن منهم من(٠) يدخل الدار ويتمكن فى الصدر . ومنهم من حده(٠٠) أن يحضر الباب ويقف من البعد .. قال تعالى : « وقد علم كل أناس مشربهم » .

---

(٠) بفتح الميم .

(٠٠) بفتح الحاء وتشديد الدال وضمها .

حروف القسم هى الباء والواو والتاء .

والباء أكثرها شهرة ، والتاء أقلها ، والواو واسطة فى الاستعمال .

وهى تجر ما بعدها .

فأما الباء فهى الأصل ، وهى تدخل على الظاهر مثل :

بالله لأكافحن حتى يعلى الله كلمته .

وتدخل على المضمر مثل : بك لأحاربن حتى ترتفع كلمتك . ويجوز ذكر فعل القسم معها ويجوز حذفه فتقول :

أقسم بالله ... أو بالله لأفعلن(.) ..

أما الواو والتاء فمثل قوله تعالى :

« والفجر وليال عشر » .

و « تالله لأكيدن(.) أصنامكم » .

ويحذف فعل القسم (وجوباً) . ويختلفان فى (المدخول) عليه ، فالواو تدخل على المظهر(..) دون المضمر(..) .

أما التاء فتختص بلفظ الجلالة .. ومن تعليلات النحاة لذلك : (فإن قيل فلم(...) اختصت التاء باسم واحد وهو اسم الله تعالى قيل : لأنها لما كانت فرعاً للواو التى هى فرع للباء ولأن الواو تدخل على المظهر دون المضمر لأنها فرع انحطت عن درجة الواو لأنها فرع الفرع فاختصت باسم واحد .. وهو اسم الله تعالى) (أسرار العربية ص ٢٧٧) .

* * *

(.) نون عليها فتحة ومشددة .

(..) بضم الميم فى كليهما .

(...) بكسر اللام وفتح الميم .

والاشـــارة :

نتذوق باحساس دقيق كلمات فى النص ذات مغزى عميق اختارها الشيخ بفطنة كى تهدينا إلى مكامن إشاراته مثل :

أكثر **« تعرفا »** و **« أعم دخولا »** • والكل حرف **« قســم »** و **« الجميع من جملة الخدم »** •

فهذه الإيماءات لو ضمت بعضها إلى بعض لعاونت فى رسم الإطار العام للصورة المراد إبرازها إشارياً •

وهى فى الإجمال تعبر كما عبرت نصــوص سبقت عن درجــة **« التفاوت »** بين المراتب •

فكما تختلف حروف القسم فى درجة الاشتهار ، وتتفاوت فى حظها بالنسبة للمدخول عليه كما أوضحنا — يختلف المنتمون إلى هذه الطريقة ويتفاوتون •

وإذا كان النحاة يلتمسون التعليل لهذا التفاوت فإن الشيخ هنا يضع **« قسمة المقسوم »** **المأخوذة** من رحم الكلمة « ق س م » بفتح كل حرف من الحروف الثلاثة التى هى عنوان الباب — على اختلاف فى ضبط بنية الثلاثى — منطلقا للإشارة • ويقصد — حسب مذهبه — الرجوع بالأمر كله إلى أمر صاحب الأمر ، وإلى اجتبائه واختياره •• فهو الذى يريد من أصحاب الإرادة ما يريد ، وهو الكفيل بوصولهم إلى ما يصلون إليه •• وكل ميسر لما خلق له •• **« قد علم كل أناس مشربهم(•) »** •

وتكون نتيجة ذلك كله أن يتوقف بعضهم عند **« باب الدار »** فهذا حده وجهده **« وقسمته »** ، ومنهم من يمكن أن يتمكن من الدخول وينتهى به الأمر إلى أن يقف على **« البساط »** ، ومنهم من يمكن أن يتمكن من الوصول إلى **« الصدر »** • وهكذا ليس كل من **« يقصــد »**

(•) البقرة/٦٠ وانظر : نحو القلوب الصغير ص ٢١٠ للامام القشيرى تحقيق : علم الدين الجندى ط تونس .

ملك الملوك بمستطيع الوصـــول حسبما يريد ، وليس كل (خـــدم) القصر على خط متساو فى القرب من صاحب القصر !

والقشيرى فى موضع آخر حينما يريد التمييز بين هذه المراتب يقول: « ليس من مشى على ساحل البحر كمن سبح فى البحر كمن غرق فى البحر — فهؤلاء لهم لآلىء التوحيد والتفريد » .

هى إذاً فى النهاية محاولة لكشف طبقات هذه المملكة الروحية ، وكيف أنهـا تخضع لمقاييس وضوابط وحدود .. فلتتوقف الادعاءات الكاذبة ، فلا جدوى من التجاوزات المصطنعة ، والقفز على الحبال !

فصــل [٤٩]

الظـــــــرف

الظرف على ضربين : ظرف زمان وظرف مكان ، وكلاهما منصوب .. لأنه مفعول فيهما .

وفى نحو القلب : الظرف أيضا على ضربين : ظرف الزمان وظرف المكان .

فالزمان هو الوقت : والوقت ما أنت فيه ، ولكن ظرف الزمان فى نحو القلب مختلف باختلاف ما فيه ، فإن كان الذى فى الوقت وفاق(٠) الأمر فظرف صاحبه على الضمة — لأن الضمة أقوى الحركات .

وإن كان الذى فى الوقت خلاف الأمر فظرف صــاحبه مكسور ، لأن الكسر أرق الحركات .

وإن كان الذى فى الوقت المباحات(٠٠) فظرف صاحبه مفتــوح ، لأن الفتحة أخف الحركات ، والمباح أخف الحالات .

وأما ظرف المكان — فإن كان الحق سبحانه بنعت الرضا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصوب وإن كان صاحبه برقم الحظ فظرفه مكسور « ولون الماء لون(٠٠٠) إنائه »

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب .

* * *

---

(٠) بضم القاف .

(٠٠) بضم التاء .

(٠٠٠) بفتح اللام وسكون الواو وضم النون .

الظرف اسم منصوب يدل على زمان أو مكان ويضمن معنى « فى » باطراد .. فإذا فقد شرطاً من ذلك فلا يكون ظرفاً بل يكون حسب موقعه من الإعراب مثل :

يومنا يوم طيب (مبتدأ وخبر) .

أقبل يوم اللقـــاء (فاعل) .

لا تضيع أيام(*) شبابك فى الغواية (مفعول به) .

وإذا تخلى الظرف بنوعيه عن النصب إلى حال أخرى مثل انجراره بـ « فى » فقد ظرفيته حتى لو دل على الزمان أو المكان مثل :

فى الصباح — فى الدار

فالأصل هو نصب الظرف مثل : عند وصباحاً ، فإن جاء مبنياً على الضم مثل (حيث) أو السكون (لدن) ، أو الكسر (أمس) فى لغة أهل الحجاز فيكون فى محل نصب .

وظرف الزمان قد يكون مبهماً إذا دل على قدر غير معين من الزمان مثل :

حين ، وقت ، زمان

وقد يكون محدوداً إذا دل على قدر معين من الوقت مثل :

ساعة ، سنة

أما ظرف المكان فقد يكون مبهما إذا دل على مكان غير معين كالجهات الست

وقد يكون من الأضداد مثل (وراء) فهى ترد بمعنى أمام وخلف : مثل قوله تعالى : « وكان وراءهم ملك » ونجد ذلك فى تفسير القشيرى فى اللطائف عند قوله تعالى : « ومن ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » يقول الشيخ : (ويقع لفظ وراء على ما بين يديه وعلى ما خلفه ، فالوراء

(*) بنصب الميم .

ما توارى عليك أى استتر . يريد أن هذا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان وعلى ما خلفه ، أى الأجل ما سلف من الماضى من قبيح أفعاله) .

وقد بالغ النحاة فى بحث موضوع الظرف فى مطولاتهم حتى أفردوا لكل ظرف حديثاً خاصاً . وقد ركز شيخنا هنا على المسائل الأساس التى ليس عليها خلاف .

* * *

ونفضل قبل أن نشرح الإشارات أن نعيد جدولة النص على النحو التالى :

الظروف الطيبة (المرفوعة والمنصوبة) :

(أ) العبد فى الوقت وفاق الأمر [هو ظرف الزمان] .

الحق مقبل عليه بنعت الرضا [هو ظرف المكان] .

فالوقت هنا يستحق الضم — والضم أقوى الحركات .

(ب) العبد فى الوقت مباح له [وهو ظرف زمانه] .

الحق مقبل عليه بنع تالرضا [وهذا ظرف مكانه] .

فالوقت هنا منصوب — والنصب علامة الراحة والانفتاح لأن الفتح أخف الحركات .

الظروف الرديئة (المكسورة) :

العبد بخلاف الأمر ، لأنه ليس بحقوق الله ولكن بـ (حظ) نفسه . فالحق تاركه لنفسه — فظرفه مكسور .

ويتضح من الجدول السابق أن النص يتحدث عن ظروف «الأحوال» من جهة العبد وبالنسبة للمولى فى آن واحد ، وهذه هى العناصر الأساس فى اصطلاح « الوقت » كما تحدثنا عنه فى مواضع كثيرة . ويمكن أن يتلخص الموضوع كله فى عبارتهم :

« من(٠) حالفه الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت » الرسالة « مصطلح الوقت » فمن حالفه فظرفه يستحق الضم ، والضم أقوى الحركات ، أو يستحق النصب — والنصب علامة الاستراحة .

أما من ليس له شأن فى الوقت فقد (ناكده) الظرف وهو التعيس !

فالعبرة فى الزمن بالأفعال التى تجرى فيه يقول الشيخ فى لطائفه : (الليل والنهار ظرفا الفعل ، والناس فى الأفعال مختلفون .. فموفق ومخذول ، فالموفق يجرى وقته فى طاعة ربه ، والمخذول يجرى وقته فى متابعة هواه)(١) .

وفى إلحاحه على اغتنام كل فرصة ممكنة للعمل الصالح طوال عمر المرء يقول : (الأيام ثلاثة : يوم مفقود وهو أمس ليس بيدك منه شىء ، ويوم مقصود وهو غد لا تدرى أتدركه أم لا ؟

ويوم مشهود وهو اليوم الذى أنت فيه ، فالمفقود لا يرجع ، والمقصود ربما لا تبلغه ، والمشهود **(وقتك)** وهو معرض للزوال فاجعله فيما ينفع)(٢) .

وعن الاستراحة « سئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟

---

(٠) بفتح الميم وسكون النون .

(١) اللطائف مجلد ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) اللطائف مجلد ٢ ص ١٥٧ .

فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه »[1] .

ذلك هو الظرف المنصوب ، وعلامته أن يسمح[*] له إن كان فى حال القرب أو الأنس أو الوصل .. بشىء **(مبـاح)** من البهجة والسعادة فى حدود **(الوقت)** المسموح به ، بحيث لا يصـل أو يفكر فى **(حظ)** من حظوظ نفسه ، بل يحرص دائماً على (البقاء) بحقوق ربه . وهكذا.. تعود القيادة ــ حتى عند لحظات الوجد ــ إلى الرب سبحانه كى يصون عبده عن الزلل .. وهذا منتهى سعادتهم .. **وحيرتهم !**

« يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا » ويقول ذو النون عن أول درجات العارفين فقال :

« التحير ثم الافتقاد ثم الاتصال ثم التحير » وينشد :

ألست[**] دليل الركب إن هم تحيروا ۝ ومنقذ من أشفى على جرف هار

أما الشبلى فيقول :

ومن أين لى أين ؟ وإنى كما ترى ۝ أعيش بلا قلب وأسعى بلا قصد[2]

---

(١) الرسالة ص ١٣٧ .

(٢) طبقات السلمى ص ٣٥٤ .

(*) بضم الياء وفتح الميم .

(**) بفتح التاء .

فصـــل [٥٠] :

الاســـتثناء

« من أبواب النحـــو الاستثناء ــ وهو إخراج بعض ما تنـــاوله اللفظ ــ بدليل متصل ــ منه ٠

نحو : جاء القوم إلا زيداً ٠٠ وغير ذلك ٠ فلو لم يعقب(٠) بلفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقتضى للمستثنى دخوله فى جملة الأشياء المخبر عنها ٠

والإشارة : أنه قد يجمع الوقت(٠٠) والطريقة قوماً لو لم يتعقب ما يميز(٠٠٠) البعض لاشترك الجميع فى الحال ٠٠٠ ولكن جاء الحـــكم فأخرج البعض من الكل :

إن الأحبة شمروا(٠٠٠٠) وبقينا

كذلك قال الشيوخ : إن فى كل عصر ووقت يدخل فى هذه الطريقة من لا نهاية لهم ، ثم يخرج الأكثرون عند حصول الابتلاء والامتحان ويبقى القليل منهم ، ولقد قال الشيوخ :

هم الأكثـــرون ــ وإن قــلوا ، ومواضـــع الأنس(٠٠٠٠٠) حيث حـــلوا(٠٠٠٠٠٠) ٠

---

(٠) بضم الياء وتشديد القاف وفتحها ٠
(٠٠) بضم التاء ٠
(٠٠٠) بتشديد الياء وكسرها ٠
(٠٠٠٠) بتشديد الميم وفتحها ٠
(٠٠٠٠٠) بضم الهمزة ٠
(٠٠٠٠٠٠) بضم اللام وتشديدها ٠

وينقسم الاستثناء إلى قسمين :

استثناء الشيء من جنسه — ويقال له الاستثناء المنقطع ، واستثناء من غير جنسه ·

وفى الإشـــارة : من كان ضداً(·) غير مجانس فلا بأس بسقوطه ، ولا مبالاة بخروجه ·

ومن كان محرماً(··) للقوم — فإن نفى(···) عنهم وأخرج من بين جملتهم ·· فالمحنة أصعب والحسرة أشد ·

(·) بتشديد الدال وفتحها ·
(··) بضم الميم وكسر الراء ·
(···) بضم النون وكسر الفاء ·

الاستثناء إخراج ما بعد (إلا) أو إحدى أخواتها من عموم الحكم السابق عليها مثل : قدم[*] القوم إلا زيداً .

وأدوات الاستثناء هى : إلا وغير وسوى وخلا وعدا وحاشا .

واختلفوا فى عامل النصب فى المستثنى ، فمنهم من يرى ذلك نتيجة (إخراج) ما بعد إلا عما سبق عليها .

ومنهم من يرى أن (إلا) تعنى فعلا تقديره (أستثنى) كما أن (يا) فى النداء تعنى فعلا معناه (أدعو) .. وهذا أقرب التفسير إلى الفهم .

والواقع أن **الاستثناء الحقيقى هو الذى يكون من الجنس** لأنه يفيد التخصيص بعد التعميم مثل : خرج الناس إلا علياً .

أما الاستثناء من غير الجنس فهو أقرب إلى الاستدراك إذ ليس فيه تخصيص .. مثل قولك : جاء المسافرون إلا أمتعتهم[**] ، فلفظ المسافرين لا يحتاج إلى أداة استثناء لتخرج الأمتعة منه لأن الجنسين مختلفان ، وإنما أفادت (إلا) هنا معنى (لكن) ويسمى هذا النوع الاستثناء المنقطع .. وللاسم بعد (إلا) ثلاث أحوال :

١ ـ واجب النصب : إذا كان الكلام تاماً مثبتاً مثل :
فشربوا منه إلا قليلا منهم .

٢ ـ جائز النصب أو على البدل : حينما يكون الكلام تاماً منفياً مثل : ما قام من القوم إلا زيداً أو زيد[***] .

(*) بفتح القاف وكسر الدال .

(**) بفتح العين والتاء بعدها .

(***) بكسر الدال مع تنوينها على البدل .

٣ — يعرب حسب العوامل إن كان الكلام ناقصاً ويسمى الاستثناء المفرغ مثل :

ما قام إلا زيد(٠) فالمعنى : قام زيد •

ما ضربت إلا زيداً فالمعنى : ضربت زيداً •

ما مررت إلا بزيد فالمعنى : مررت بزيد •

لأن استثناء النفى إثبات •

* * *

وإشارة الشيخ تعتمد على أن لكل قاعدة شواذ ، ومن العموم يخرج استثناء •• ومن تجربته الواسعة يعلم أمثال المواقف التالية :

● فقد يلتقى المريد إبان عهد بدايته بنماذج من الرفاق يتزيون بزى الصوفية ، ويندرجون فى مسالك القوم ، ويرددون شعاراتهم •• ثم تثبت له الأيام(٠٠) أنهم ليسوا على شىء ، وأنهم تصدر عنهم أفعال تشكك فى خباياهم ، وتفضح طواياهم ••

فالشيخ يريد أن يقول له : حذار من أن تظن أن الجميع على شاكلتهم ، لاتكن ظالما بإطلاق حكم تعميمى •• إن لكل قطيع شياهه السوداء ،فهؤلاء متشبهون وليسوا أصلاء(٠٠٠)،مغرضون وليسوا أنقياء• لا تتسرع •• فالقاعدة أن فى القوم طيبا ، والاستثناء أن فيهم خبيثا ، ومن الظلم أن تجعل الاستثناء قاعدة •

● هذا الطريق شاق ومضن ، والعبرة فيه بالصابر المثابر ، وعند

---

(٠) برفع الدال .

(٠٠) برفع الميم •

(٠٠٠) بضم الهمزة وفتح الصاد .

الامتحان يكرم المرء أو يهان •• فسرعان ما يسقط كثير ممن دخل ويبقى القليل •• ولن يبقى إلا الصفوة الصامدون المرابطون ••

وكما يلفظ الجسم الإنسانى شيئاً غريباً عن كيانه سوف يلفظهم الطريق إلى الخارج حتى لو كانوا قد تجاوزوا الأعتاب ودخلوا من الباب •• فلن يتمكنوا أبداً من الوصول إلى البساط أو الصدر •• والأيام كفيلة بذلك ، والممارسات الشاقة والصبر عليها ستسقط(٠) الاقنعة عنهم وتفضح حقيقتهم •

فهؤلاء مختلفون **« ومن كان ضداً غير مجانس فلا بأس بسقوطه ، ولا م الاة بخروجه »** •

فليذهبوا بعيداً دون حسرات عليهم !

❋ ❋ ❋

هذا •• وقد أجمع معظم كتاب التصوف على الالتفات الشديد لهذه الظاهرة كأنهم يرون أن أمثال هؤلاء الشواذ الغرباء ذوو خطر شديد على سمعة الطائفة بأسرها ، فوضعوا المحاذير خشية اندساسهم •

(أنظر مثلا السراج فى اللمع فى باب :

(ذكر من غلط من المترسمين بالتصوف ومن أين يقع الغلط وكيف يواجه ذلك) من ص ٥١٦ إلى ٥٧٧ أى نحو ستين صفحة كاملة فى ذات الموضوع •

كما عقد السهروردى فى « عوارفه » فصلا كبيراً عنوانه « ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم » ص ٥٦ •

أما القشيرى فما قامت رسالته إلا لبيان :

---

(٠) بضم التاء وسكون السين وكسر القاف .

١ ــ تصحيح القواعد والأسانيد .

٢ ــ (الشيوخ الذين بهم اقتداء) .

٣ ــ كشف فضائح (المجانبين للأئمة) .

فأصبح لدينا **(استثناء) مهمته** أن يضبط المعايير قبل أن ينفلت الأمر ، وكأنى بهذه الفصول التى يكتبها الشيوخ فى هذا المضمار تركز كلها على ما بعد **(إلا) فى** دنيا التصوف لإخراج ما ليس **(مجانساً)** .

● غير أن الشيخ فى فقرته يذكرنا بشىء من واقع تجربته (أنظر سيرته) وذلك حينما تأتى قوة غاشمة من خارج البيئة والطريقة ثم تنتقى آحاداً من صفوة القوم ، وتطردهم وتنفيهم وتشردهم ــ كما حدث له شخصياً على أيدى طغرلبك ووزيره الكندرى ... هذا **(الاستثناء المنقطع)** الغاشم الذى لا مبرر له هو الذى يجعل **(المحنة أصعب والحسرة أشد)** لأن المخرجين(٠) من القوم هم صفوة المجالس ، **وهم الأصلاء ، وهم** مصابيح الهداية .. ولكن ما الحيلة ؟ وتلك شيمة دولة الظلم والظلام **(فى كل وقت وعصر)** ، وليس لها من دون الله كاشفة !

---

(٠) بضم الميم وسكون الخاء وفتح الراء .

فصــل [٥١]

الإلحـــــاق

« من الحروف ما يلحق بغيره ، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه : كالواو الملحقة بعمرو فى الخط تكون فرقاً بين عمرو وعمر(٠) .. وهذا الإلحاق يدوم عند الاستغناء عنه وهو همزة الوصل ـ فيما ذكرنا من قبل .

والإشارة : أن من الناس من(٠٠) يلحق بالطريق لأجل الغير ثم يطرح(٠٠٠) .

وقد قال الشيوخ : إن الله قيض لهــؤلاء القــوم أحد رجلين إما مؤمنا موافقاً وإما منافقا مسخراً(٠٠٠٠) .. وأنشدوا :

أيها المدعى ســليمى هواها　　لست منهــا ولا قلامة ظفــــر
إنما أنت فى هــواها كــواو　　ألحقت(٠٠٠٠٠) فى الهجاء ظلما بعمرو

---

(٠) بضم العين وفتح الميم .
(٠٠) بفتح الميم .
(٠٠٠) بسكون الطاء وفتح الراء .
(٠٠٠٠) بتشديد الخاء وفتحها .
(٠٠٠٠٠) بضم الهمزة .

. . . .

ملاحظة على المنهج :

هذا التلوين فى فن كتابة الموضوعات (النحوية) مألوف عند بعض النحاة الخلص(•) ••فالموضوع هاهنا أقرب إلىفن الخط والكتابةوالإملاء» تماماً مثل موضوع همزة الوصل — التى ورد بحثها فى باب سبق من هذا الكتاب لأن الأصل فى النحو أنه علم ضبط (آخر) الكلمة • وبهـذه المناسبة نذكربصنيع أبىالقاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجى(ت٣٤٠) فى كتابه « الجمل » حيث عقد أبواباً للتاريخ ولأسماء القبائل والأحياء والسور(••) والبلدان ، كما عقد باباً للهجاء ، ولأحكام الهمزة فى الخط • ولجأ السيوطى فى همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، إلى شىء من ذلك التلوين فى الكتابة النحوية •

ويرى هؤلاء الأعلام أنها أشياء تزيد ثقافة المتأدب بأدبهم ، وتثرى معلوماته على كل حال •

ونعود إلى الإلحاق : ومعناه جعل مثال على مثال أزيد ليعـامل معاملته(١) كأن تقول رباعياً جلبب من الثلاثى جلب وهكذا تقول جلبب يجلبب جلببة (كدحرج) فى التصريف والاشتقاق ، وسنضرب أمثلة أخرى لهذا الباب عند القشيرى فى ختام هذا الشرح •

وقد لجأت الفطرة العربية إلى ذلك من باب التوسع فى اللغة لمواجهة ضرورات الشعر أو للتلميح أو للتهكم •• وغير ذلك من الأغراض التى ليس هنا موضع تفصيلها ، وهى ظاهرة توقفت بطبيعة الحال عند عصر

(•) بضم الخاء وتشديد اللام المفتوحة .
(••) بضم السين المشددة وفتح الواو .
(١) الهمع للسيوطى ١/ ٣٢ .
وتعريفات الجرجانى ط تونس ص ١٩ .

. . . .

الاحتجاج ، وليس لنا حق فيها الآن ــ وإن كان بعض العلماء يعطينا هذا الحق أيضاً لأن الضرورات لا تتوقف .

ونحيل القارئ إلى فصل همزة الوصل (٣٨) من هذا الكتاب وكيف تكون سابقة موجودة فى الابتداء ثم تفقد فى الدرج ، وقد ضرب القشيرى هنا مثلا بواو عمرو ، فهى تثبت التمييز بين هذا الاسم وبين عمر ، ولكن ظروف الكتابة والإملاء قد تسقطها .

* * *

والإشارة تنطلق للتمييز بين علاقة أصيلة لا يعتورها التردد أو النقص أو الزوال ، وبين علاقة زائفة عارضة تتداعى لسبب أو لآخر كما فى المتن. وقد استشهد القشيرى بنفس الشعر عن « عمرو » فى موضع آخر فى اللطائف ، وكان السياق عن المنافقين فى قوله تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فقال الشيخ « من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق فى الحال ، وقيل :

أيها المدعى سليمى ..... »(١) .

ثم يخص فى موضع آخر المنافقين فى الطريقة بقوله : « مثل من خلط قصده بحظه ، وشاب إرادته بهواه ، يتقدم فى الإرادة بقدم(٠) ويتأخر فى الحظوظ بأخرى .. فهو لا مريد صادق ولا عاقل متثبت ، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القرب والمناجاة وسيعلمون عن قريب أن ذلك لن يغنى عنهم شيئا :

سوف نرى إذا انجلى الغبار   أفرس تحتك أم حمار ؟

وكذلك كل من حاول أن يجمع بين طريق الإرادة وطريق أهل العادة

---

(٠) بفتح الدال   (٠٠) بفتح التاء .

(١) اللطائف جـ ١ ص ٧٣ .

فإن ذلك لا يلتئم ، فالضدان لايجتمعان . « والمكاتب عبد ما بقى عليه درهم » « وإذا ادلهم الليل من هاهنا أدبر النهار من هاهنا »(١) .

ويزيد القشيرى على واو عمرو وهمزة الوصل أشياء أخرى تتجلى فى إشاراته عند بسملة سورة النحل حيث يقول : « أى استحقاق لواو عمرو حتى تثبت فى الخط ، وأى استحقاق إلى الألف فى قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأى موجب لحـــذف الألف فى الســـموات ؟ **طاحت العلل** وليس إلا اتفاق الوضع .. كذلك الإشارة فى أرباب الرد والقبول .. قال تعالى : « إن ربك فعال(٠) لما يريد »(٢) .

ومعنى هذا أن باب الإلحاق يمكن أن ينصرف إلى فكرة فى منهجه « أن أحكام الله سبحانه وتعالى لا تعلل(٠٠) .. وأن قسمته رهن بمشيئته فقط » .

---

(١) اللطائف جـ ١ ص ٧٦ .
(٢) اللطائف جـ ٢ ص ٢٨٤ .
(٠) بفتح الفاء وتشديد العين المفتوحة .
(٠٠) بضم التاء وفتح العين وتشديد اللام .

فصـــل [٥٢]

الممنـــوع من الصرف

« الأسماء على ضربين : منها ما ينصرف ــ وهو الاسم المتمكن ــ ومنها ما لا ينصرف وهو الناقص التمكن ، فالذى ينصرف يجرى بوجوه الإعراب ، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب ٠

الإشارة : كذلك الخلق(٠) : منهم من(٠٠) هو مجدود فى القســمة يحظى بكل النعيم : من إقبال ووصال، وتحقيق آمال، وزكاء أفعال وصفاء أحوال ، بالنهار له توفيق ، وبالليل لوصله تحقيق ٠ يجرون على البساط كما يريدون « لا يرهق وجوههم(٠٠٠) قتر ولا ذلة » ٠

ومنهم من هو منحوس الحظ٠٠إن قبل(٠٠٠٠) بالنهارأذيق بالليل طعم الرد ، وإن وافى بالليل لحكم الاتفاق تجرع(٠٠٠٠٠) بالغد كأس الصد ٠

---

(٠) بفتح الخاء ٠

(٠٠) بفتح الميم ٠

(٠٠٠) بفتح الهاء الأولى وضم الثانية ٠

(٠٠٠٠) بضم القاف وكسر الباء ٠

(٠٠٠٠٠) بتشديد الراء وفتحها ٠

التنوين (أو الصرف) علامة على تمكن الاسم من الاسمية فكلمة « مريد » مثلا يلحقهـا التنوين عند خلوها من (أل) والإضافة ، وإذا سبقه حرف الجر أو أضيف لحقت آخره الكسرة أو ما ينوب عنها ، كما تلحقه وهو (بأل) والإضافة .. وهذا النوع **(متمكن فى الاسمية)** أما الاسم المبنى فغير خاف أنه ملازم لحالة واحدة فى آخره ، فيبنى على ما هو عليه ، ويقدر له محل الإعراب على نحو ما سبق فى موضعه . ولكن — وهذا هو الذى يعنينا هنا — هناك أسماء ذات أوزان أو صيغ وصفية خاصة لا تنون على النحو السابق ، وهى **« تجر بالفتحة ولا تجر بالكسرة »** إلا إذا لحقتها أل والإضافة **(وهذا النوع غير متمكن فى الاسمية)** .

وقبل أن نبدأ فى بحث أنواع هذه المجموعة نستبعد من التنوين ما يسمى تنوين العوض مثل (جوار وغواش) فإن التنوين هنا عوض عن الياء فى جوارى وغواشى .

* * *

ونبدأ الآن فى تقسيمات ما لا ينصرف على النحو التالى :

١ — الاسم الذى لا ينصرف لعلة واحدة : مثل ذكرى وصحراء ومثل وزن مفاعل (منابر ومساجد) .

٢ — الذى لا ينصرف لعلتين :

(أ) ١ — فعلان الذى مؤنثه فعلى (.) : غضبان .

٢ — ما وازن الفعل وهو أفعل فعلاء : أحسن (..) .

وأفعل فعلى (...) : أفضل .

(.) بفتح الفاء وسكون العين .

(..) بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين .

(...) بضم الفاء وسكون العين .

٣ ــ المعدول عن لفظ آخر (والعدول هو تدويل اللفظ من هيئة الى أخرى) .

(أ) مثل فعال(*) (ثلاث) ومفعل (مثنى)(**) فهى معدولة عن ثلاثة ثلاثة ، اثنين اثنين .

(ب) مثل لفظ أخر (بهمزة مضمومة وخاء مفتوحة) مررت بنسوة آخر .

لأنها جمع أخرى أنثى آخر (من باب أفعل التفضيل) .

إذا أطلق الوصف الممنوع من الصرف على التسمية لشخص أو مكان أو ... الخ فإنه يظل على حاله من الامتناع عن الصرف لأن العلمية الجديدة تحل محل الوصف القديم ... وهذا مبرر للمنع .

(ب) العلمية فى الأحوال التالية :

١ ــ المركب تركيباً مزجياً مثل : ازدشير .

٢ ــ العلم (بالفتح) ذو الزيادتين مثل : حسان .

٣ ــ العلم (بالفتح) المؤنث بالتاء مثل : فاطمة .

الزائدة على ثلاث مثل : زينب .

الأعجمى مثل : آشك (اسم بلد) .

٤ ــ العلم (بالفتح) الأعجمى إن كانت علميته فى اللغة الأعجمية وزاد على ثلاثة مثل: ابراهيم، اسماعيل، لندن..

٥ ــ العلم (بالفتح) الموازن للفعل مثل : إثمد(***) (موازنة للفعل إجلس) .

* * *

(*) بضم الفاء وفتح العين .

(**) بفتح الميم وسكون الثاء .

(***) بكسر الهمزة .

وتنبثق إشـــارة الشـــيخ من ملاحظته أن الاســـم إما **(متمكن فى الاسمية) أو (غير متمكن)** • ومرد ذلك إلى علة واحدة هى أحكام الله سبحانه ، وهذه بدورها **لا تخضع لعلة** — كما قلنا من قبل ، ونذكر هنا بما أثبته الشيخ فى نهاية الفصل السابع من هذا الكتاب بعد جهد جهيد فى بحث الإعراب والبناء حين قال (كذلك الأحكام — أى أحكام الرب سبحانه — مختلفة الأقسام والأقدار ، متفاوتة الأدوار) •

وهذا هو الفرق بين نحو الظاهر ونحو الباطن •• فالنحاة يصوغون الصيغ ويضعون القاعدة ثم تخرج أشياء وتدخل أشياء من خلال أحاديثهم الطويلة حتى أوشكت مفردات الباب — خذ مثلا أمس(•) — أن تشكل باباً مستقلا • أما العلة هنا فواحدة •• تلك أقسام بإرادة الله ، لأنه :

إذا لم يكن عون من الله للفتى ∴ فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ويقـــول فى معـــراجه « الأمور بالمقادير والسوابق لا بأعمال العباد واللواحق » وتسوقفنا هنا عبارته التى يصف بها الإنســـان (المتمكن) وكيف أنه **(مجدود فى القسمة ••• بالنهار له توفيق وبالليل لوصله تحقيق)** ، ربما قصد ليل (القبض) ونهار (البسط) ونحو ذلك •

ولكننا لا نود أن نصرفها بالكلية نحو (الأحـــوال) ، بل نريد — حسبما نعرف من مذهب الشيخ ، بل من سيرته الشخصية أن نجعل **(التوفيق)** بالنهار لأعماله التى يتبلغ منها ، أى لسعيه فى الأرض بحثاً عن رزقه ورزق من لهم به علاقة كأولاده وزوجه • فإذا جاء الليل — موعد الأحباب ومناط الخلوة والعزلة — **(كان لوصـله تحقيـــق)** •
قال تعالى : « وجعلنا النهار معاشاً » نقول هذا طبقاً لما نعـــرفه عن اتجاهات الشيخ رضوان الله عنه ، فمثلا عند تفسيره للفعل **« وهزى إليك بجذع النخلة ••• »** •

(•) بكسر السين •

يقول ما خلاصته إن فعل الأمر هنا بالسعى على الرزق ، لأنها ستكون مرتبطة بعلاقة الولد القادم • أما حين كانت متجردة خالية من العلاقة فكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب « وجد عندها رزقاً » • وإذاً يكون **(التمكن)** الحقيقى إن جمع العبد بين عمله الذى يحفظ عليه كرامته ويكفيه مذلة السؤال من الخلائق ، وبين صحة وسلامة علاقاته بالخالق • فكرامة الإنسان ينبغى أن تكون مصانة عن المسألة •

وفى كل الأحوال ينبغى حفاظاً على **(التمكين)** أن يشعر العبد أنه فى كل أمر من أموره **(بالليل أو بالنهار)** مصرف(•) بيد القدر • وهنا نختتم الشرح بقصة عن الإمام الشافعى — ولا ننسى أن القشيرى من الشافعية •• (سأله أحدهم : يا إمام •• ما تقول فيمن خلقتنى لما اختار ، واستعملنى فيما أختار ، وبعد ذلك •• إن شاء أدخلنى الجنة وإن شاء أدخلنى النار •• أعدل(••) هذا أم جار؟ فأجاب الشافعى : يا هذا •• إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك ، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسأل(•••) عما يفعل وهم يسألون(••••))[1] •

(•) بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الراء المفتوحة •

(••) بفتح الهمزة والعين والدال واللام •

(•••) بضم الياء وسكون السين •

(1) شرح البيجورى على الجوهرة ط الأزهر سنة ١٣٨٩ هـ ص ١٣٥ •

فصل [٥٣]

التصغير

« إذا صغرت(*) اسما ثلاثيا زدت ياء فيه وضممت أوله فتقول في تصغير حجر حجير(**) .

كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد في الرتبة زاد له شغلا(***) يتوهمه ذلك البائس نعمة وفضلا ، ورفعة على أشكاله ، وهو في الحقيقة اذلال له ونقصان لحاله .

وعلى هذا النحو تقاس أقسام التصغير .

(*) بتشديد الغين وفتحها .

(**) بضم الحاء وفتح الجيم وسكون الياء .

(***) بضم الشين وسكون الغين .

التصغير فى اللغة التقليل .

وفى الاصطلاح تغيير مخصوص يحدث فى الاسم لأغراض منها : التحقير (كرجيل) وتقليل الكمية (كدريهمات) وتقريب الزمان والمكان (كقبيل المغرب أو دوين الكرسى) .

وعلاماته ضم أوله وفتح ثانيه وزيادة ياء ساكنة بعده تسمى ياء التصغير .

***

وتنطلق الإشارة متجهة نحو الذين يحكمون على الأمور بظواهرها ، ويقيسون أفعال الله سبحانه على أفعال البشر ، فمن المعروف عندهم أن كل زيادة فى المال أو الجاه أو الصحة أو الولد .. نعمة وأن النقص فى احداها نقمة .. فيريد الشيخ هنا — محتكما إلى ظاهرة نحوية — أن يثبت عكس ذلك . فالاسم هاهنا بعد ما زيد فى بنيته الأساس ، وأضيفت إليه إضافات فقد وزنه(*) ، وأصبح (أصـــغر) مما كان عليه .. وكان يفترض أن يكبر حجمه وتزداد قيمته ولكن الذى حدث هو العكس .

تماماً مثلما يفعل الله بعبد يرتزق من حرام .. فإنه إذا اشتد غضب الرب عليه بارك له فيه .. وينسى الغـــافل أن هذه الزيادة من قبيـــل الإمهال .. وأنه حين يأخذه فلن يفلته .

فالشيخ يريد أن يوجه نظر المريدين إلى أن الدنيا ومتعلقاتها لا تستحق قدراً أو قيمة فإذا كان الله قد وصفها بأن متاعها قليل .. فكم

(*) أى وزنه الصرفى لأن صيغته تغيرت .

سيملك الطامع المرتمى فى أحضانها من هذا القليل ؟! إنها سم[*] قاتل.. ومن الخير الحذر من إغرائها .

أرأيت إلى ابراهيم بن أدهم — أول من ترجم له الشيخ فى رسالته من الأكابر — وقد طلق إمارة بلخ وقنع بأن يعمل حمالا أو حارسا لبستان .. وكان يطأطىء رأسه ليضربه صاحب البستان ويقول : إضرب رأسا طالما عصى الله ! فلا (تثقل) كاهلك بالمطالب حتى لا (تقلل راحتك) ، فليست العبرة بزيادة المظاهر بل بنقاء الجواهر .

(*) بضم السين وتشديد الميم المضمومة المنونة .

فصل [٥٤]

التعجب

« يقال فى التعجب : ما أحسن(٠) زيداً !

وأحسن(٠٠) بزيد !

وزيد(٠٠٠) ما أحسنه !

- وتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول : ما أحسن زيداً أى : أى شىء حسن(٠٠٠٠) زيداً .

والإشارة : النصب أضعف الحركات ، فإذا دخل التعجب على الاسم خص بالفتح — الذى هو أضعف الحركات .

فكذلك إذا دخل « الإعجاب » على المرء آل إلى أضعف الحالات ... فإن الإعجاب أشد(١) الآفات .

---

(٠) بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين .

(٠٠) بفتح الهمزة وكسر السين وسكون النون .

(٠٠٠) بضم الدال وتنوينها .

(٠٠٠٠) بفتح الحاء وتشديد السين المفتوحة .

(١) بتشديد الدال وضمها .

نلجأ إلى أسلوب التعجب حينما نستعظم فعلا ظهرت فيه زيادة أو نقص .. ولا نعرف لذلك سبباً ظاهراً .

وللتعجب صيغ فعلية أوردها الشيخ ، وهى التى جرى العرف على استخدامها .

ونعرض الآن تحليلا لكوناتها :

أجمعوا على أن (ما) فى هذا الأسلوب مبتدأ لأن فى (أحسن) ضمير يعود عليها . والابتداء والإخبار هنا يكونان أسلوباً إنشائياً عند البلاغيين لأنه مصاغ أو منشأ(.) للتعجب .

ومن النحاة من يرى (ما) نكرة تامة بمعنى (شىء) وهذا التنكير أفادها الإبهام ، والشىء المبهم يحتمل أموراً كثيرة وهذا أليق بالتعجب . ويريدون بقولهم إنها (تامة) أى تكتفى بنفسها فلا تحتاج لصفة أوصلة. والجملة التى بعدها خبر لها .

وقد ذهب الشيخ هذا المذهب .

بينما يرى فريق آخر أنها (ما) الاستفهامية والجملة التى بعدها خبر عنها ويكون التقدير : أى شىء أحسن زيداً ؟

أما (أفعل) التعجب فالصحيح اعتباره فعلا بدليل أن نون الوقاية تلحقه إذا أسند إلى ياء المتكلم كقولك : ما أغنانى عن الناس ! ما أفقرنى إلى رحمة ربى !

وأما (أفعل)(..) فلفظه لفظ الأمر ولكنه من حيث المعنى .

بمعنى أحسن بالصدق أى صار الصدق ذا حسن(...) كقولك أعشب

(.) بضم الميم .

(..) بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر العين وسكون اللام .

(...) بضم الحاء وسكون السين .

انسهل أى صار ذا عشب ثم غيرت الصيغة إلى الأمر به عند (إنشاء) التعجب •

* * *

وتنطلق الإشارة هنا من الربط بين عنوان الفصل **(التعجب)** وبين **(الإعجاب) أى النظر إلى النفس** ، وادعاء أن شيئا منها يستحق أن **(يتعجب)** من قيمته أو من جدواه ، ولهذا استحق الاسم المتعجب منه **(النصب)** • ونحن نعلم أن **(النصب أضعف الحركات)** • وفى لفظة **(الحركات)** هنا تورية ، فالمعنى القريب هو الضبط الإعرابى ، والمعنى البعيد هوما نعرفه فى أسلوب الشيخ من أنه يطلقها على العبادات الشكلية التى يمارسها صاحبها دون تعمق فيها ، أو للزهو بها ، أو دون إدراك للمقاصد البعيدة منها — وهى بهذا الوصف لا قيمة لها ، بل طالما حذر الشيوخ منها • فالواسطى — وهو أبو بكر محمد بن موسى عالم كبير الشأن — خرسانى من فرغانه ت ٣٢٠ هـ — يسأل أصحاب مذهب الملامة بماذا كان يأمركم شيخكم ؟

فقالوا : بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها •

فقال : أمركم بالمجوسية المحضة •• هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشيها(•) ومجريها(•) ؟ !

ويعلق القشيرى على كلام الواسطى بأنه أراد أن « يصونهم عن محل (الإعجاب) لا تعريجاً فى أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب » •

أى أن المقصود عدم الزهو برؤية أنفسهم وهم يطيعون ، وكأنما

(•) بضم الميم •

يأتى منهم شىء •• والخير فى إعادة كل فضـــل(•) لله حتى ما تقوم به أنت••فمعنى أن تكون فيك بقية من نفسك تشاهدك وأنت تتعبد أن شريكاً لله فى الحسبان •• وهذه مجوسية فى عرف الواسطى !

ونحيل القارىء على الفصل ١٦ من هذا الكتاب حيث كان لنا حديث طويل عن « الإعجاب » •

ولكننا نود هنا أن ننصح بضرورة الاستفادة من سلوك هؤلاء الصفوة لتحسين نظرتنا الاجتماعية •• فلو استفدنا من هذا النفاذ إلى الجواهر ، واحتذيناه فى إدراكنا لشرائط الإتقان للعمل، وأقبل كل(••) منا على حرفته أو مهنته بفهم واع(•••) ، وبابتغاء مرضاة الله وحده وبمراعاة إرضاء الضمير •• لو فعلنا ذلك لتغير وجه حياتنا المتهدمة !

وهل نجادل بعد ذلك فى أن الصوفية ريادة فى فهم النفس والأخلاق وتربية الضمير ؟

(•) بكسر اللام المنونة .
(••) بضم اللام المشددة المنونة .
(•••) بكسر العين المنونة .

فصـل [٥٥] :

الحـــال

● « الحال منصوب ــ تقول جاء زيد قائماً ــ فقائماً نصب على الحال ، واستحق النصب لأنه مفعول ــ والحال تأتى بعد تمام الكلام ، فلما أتى بعد تمام الكلام صار كالمستغنى(.) عنه فنصب(..) .

الإشارة : المستغنى عنه له أضعف الحركات ، وأقل نصيب من الاستحقاق .

ولهـذا قيل : علامة المخـلوق أوصـاف النقص لأن المخـلوق مستغنى(...) عنه .. قال الله تعالى : « والله الغنى وأنتم ، الفقراء » .

وأنشـدوا :

وبعين مفتقر(....) إليك نظرتنى وحقرتنى ورميت بى من حالق

● والحال لا يكون إلا نكرة :

ولذلك فإن صاحب الحال من القوم يجب ألا ينظر [1] إلى حاله ، لأنه إذا عرف حاله لاحظها ، وإذا لاحظها أعجب بها ، فإذا أعجب بها تلاشت .. وكان الأستاذ ابو على الدقاق يقول :

« أخص الأحوال ما استترت عن صاحبها » .

(.) بفتح النون .
(..) بضم النون وكسر الصاد .
(...) بتنوين النون .
(....) بتنوين الراء وكسرها .
(١) بفتح الياء ونصب الراء .

• • • • • • • • • • • • • • • •

تعريف الحال : اسم منصوب يبين هيئة حصول الفعل وعلامته أن يصلح جواباً للسؤال .. كيف ؟

ويأتي من الفاعل جاء زيد راكباً .

ويأتي من المفعول به ركبت الفرس مسرجاً(.) .

ومن المجرور مررت بالدار خاوية(..) .

ويسميه سيبويه نعت الفعل .

لماذا نصب الحال ؟ في رأى الشيخ — وعند جمهور النحاة — لأنه فضلة — كالمفعول — أتى بعد تمام الكلام ، فأصبح **(كالمستغنى(...) عنه)** فاستحق أضعف الحركات .

شروطه : من شروطه أن يكون (نكرة) — كما ذكر الشيخ ، لأن صاحبه يشترط أن يكون معرفة ، ولو عرفت(١) الحال لاشتبه الأمر بينها وبين الصفة المنصوبة بعد المعرفة ، ولهذا إذا قلت مثلا :

اقرأ وحدك (فهى تؤول على : منفرداً) .

ولهذا أيضاً تعرب الجمل وأشباه الجمل بعد المعارف أحوال بينما تعرب صفات بعد النكرات .

ويلاحظ صاحبا « تهذيب التوضيح » (المراغى وسالم) أن الحال في الأغلب متنقلة بمعنى ، أنها لا تقع وصفاً ثابتاً إلا في أحوال نادرة مثل :

خالد أبوك رحيماً — فإن الأبوة من شأنها الرحمة .

* * *

(.) بضم الميم وسكون السين وفتح الراء .

(..) التاء المربوطة بالفتح المنون .

(...) بفتح النون .

(١) بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة .

وتدور إشارات الشيخ حول ثلاثة محاور تسير على هذا النسق :ـــ

« أولا » العبد يقوم (بفعل) من أفعال الطاعات •• هذا شيء حسن ومطلوب ، ثم يرزقه الله (حالا) كالأنس مثلا فيلاحظ العبد نفسه فى هذه (الحال) أى يعرفها والأصل أن تكون (نكرة) فينسبها إلى نفسه ، أن يظن أنها بفضل عمله ، أى أنهـــا **(مفعــولة)** وليست من لدن الله الغنى الحميد •• وعلى الفور تزول هذه الحال ، لأنها لم توضع موضعها الصحيح ، وهذا شيء طبيعى فالمتعلق بالفانى يفنى ويزول ، أما المتعلق بالباقى فله البقـــاء إلى أن يريد المولى سبحانه •• والأصل أن الفقير يستشعر (الافتقار) وهذا درس دقيق جداً الأرباب (الأحوال) : ليعلم كل(•) أحد أن الحال مرتهنة (بصاحبها) ، فالنهاية بحسب البداية •

« ثانيا » أن (الحال) عموماً (فضلة) تأتى مكملة لفعل إنسانى ، وهى قابلة للزوال ، ولكن هناك فرق بين زوال نهائى إذا كان صاحب الحال على غير المراد ، وبين زوال وقتى (لتحل) محلها (حال) أرقى إذا كان صاحبها على المراد ، وملتزم بآداب الوقت كما أوضحنا أكثر من مرة •• وفى زوال الأحوال يقولون :

لو لم تحل ما سميت حالا فـــكل ما حال فقد زالا

« ثالثاً » إذا عرف صاحب الحال القضية بهذا الوصف فعليه ــ وهو مطالب بكتمان **(الحال حتى عن نفسه) ألا** يفضحها لتصبح نهبـــاً لكلام الناس ــ وبخاصة لعواذل هذه الطريقة • والله سبحانه وتعالى يلطف بعبده الصادق فى توجهه فيحفظه ، وهو يصبر على ذلك الكتمان ، ويغالب صراع الحب ، وينشد الشيوخ :

(•) بضم اللام المشددة .

. . . .

صبرت ولم أطلع(٠) هواك على صبرى وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشــكو ضميرى صبابتى إلى دمعتى سراً فتجرى ولا أدرى

« ولو اطلع زرى على سرى لخلعته » .

أما غير ذلك .. فتتضح من هذا الشعر عواقبه :

من لم يصن سر مولاه وســيده لم يأمنــوه على الأسرار ماعاشا
وعاقبــوه على مــا كان من زلل وأبــدلوه مكان الأنس إيحاشــا
وجانبــوه فلم يصــلح لقربهمو لمــا رأوه على الأسرار نباشــا

(٠) بضم الهمزة وسكون الطاء .

فصـــل [٥٦] :

التمييز[1]

(أ) تمييز غير العـــدد :

« التمييز يوجب النصب تقول : عشرون درهماً تشـــبيها بالمفعول حيث أتى بعد تمام الكلام ٠

والإشارة أن المفعول ــ لنقصانه عن الفاعل ــ خص[٠] بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة » ٠

---

(١) يقرأ هذا الفصل وما تلاه قراءة متصلة لما بينهما من تكامل ٠

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد ٠

• • • • • • • • • • • • • • • • •

التمييز — كما يقول ابن هشام فى «القطر» — اسم فضله ، نكرة ، جامد ، منصوب مفسر لما انبهم من الذوات .

ويسمى : مفسراً(•) ، وتفسيراً ومبيناً وتبييناً ، ومميزاً وتمييزاً .

والشيخ يقترب من كل هذه المعانى ويركز على كونه (فضلة) وأنه مكمل (كالمفعول) وأنه (منصوب) مثله ، والنصب استحقاق الضعف لنقص ما يشبه المفعول (عن الفاعل) .

والتمييز نوعـــان :

١ — **ملفوظ** وهو للدلالة على ما انبهم من : —

(أ) العدد : أحد عشر كوكبا .

(ب) الوزن : قنطاراً قطناً .

(جـ) الكيل : جراماً فضة .

(د) المساحة : فداناً قطناً .

(هـ) المقدار : ملء الإناء عسلا .

٢ — **ملحوظ** وهو للدلالة على النسبة مثل اشـــتعل الرأس شيباً فالأصل اشتعل شيب الرأس .

ويجوز جر التمييز بمن أو الإضافة وعند ذلك يفقد النصب كقولك : جرام من فضة .

وقد سبق فى أبواب مختلفة ذكر العلاقة بين المنصوب والفضلة ،

(•) بكسر السين المشددة .

. . . .

والشبه بالمفعولية والضعف فى القــوة الفاعلية •• واستحقاق أضعف الحركات •• الخ •

ونرى أن **أهم قضية فى باب التمييز** هى التى سيثيرها الشيخ فى الفصل التالى عند كلامه عن تمييز العــدد ولها حديث طويل ، ومع ذلك سنعود إلى هذه الموضوعات فى الفصل القادم حتى يتكامل الإطار بعــد إضافة تمييز العدد •

فصـــل [٥٧] :

بين العدد والمعـــدود

(ب) تمييز العدد :

« الهاء تلحق بعدد المذكر فيمـــا دون العشرة ، وتحذف من عدد المؤنث تقول : ثلاثة رجال وخمس نسوة ، وتضيف العدد هاهنا إلى المعدود ٠ واعتبر هذا نوعاً من المعادلة ، فلما كان المؤنث أثقل من المذكر حذفت العلامة من لفظ عدده ، ولما كان المذكر أخف من المؤنث زيدت الهاء فى لفظ عدده ، فقالوا : ثلاثة رجال ـــ والإنصاف فى كل شىء عزيز ، فإن كان فى أحد ضعف يجب أن يقوى(٠) بغيره ، وإن كان فى شىء قوة(٠٠) حمل(٠٠٠) ما يحتمله ٠٠ ولهذا أمر(٠٠٠٠) فى الشريعة بمواساة الفقراء ٠

وقد يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم : أحد عشر رجلا ، والتفسير يأتى بعد تمام الكلام فأشبه ما ذكرناه عن المفعول ٠

---

(٠) بتشديد الواو وفتحها ٠

(٠٠) بتنوين التاء المرفوعة ٠

(٠٠٠) بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة ٠

(٠٠٠٠) بضم الهمزة وكسر الميم وفتح الراء ٠

● تشبيه التمييز بالمفعول به واستحقاقه النصب وكونه فضلة .. علامات ضعف فى كيان (التمييز) عند هذه الطائفة ، فالأصل أن يكون الفرد — مظهراً وجوهراً — بعيداً عن إقحام الخلائق فى حياته الروحية الخاصة كأنما ليس عنده لهم حســاب .. اللهم فى حسن الخلق وطيب العشرة .. فهو منهم على خير . أما إذا أراد أن (يتميز) بميزة تكون (علامة) له أو عليه كالخرقة(*) أو ثوب الصوف حتى يبدو درويشاً فقيراً مفتقراً دون ن يكون وصوله فى الطريقــة مأمون العواقب ، غير محاط بالصعاب .. فاللجوء إلى التمييز هنا (هو الضعف) بعينه .

ومن قبل ذلك..لماذا يحفل بعض الناس (بالتميز) عن الآخرين سواء بالثوب أو المظهر أو طريقة الكلام أو الاستعلاء فى المعاملة أو الرياء .. ونحو ذلك — والخلق كله لله ، والله سبحانه لا ينظر إلى أى تمييز بيننا إلا بالعمل الطيب : فنحن سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .. وإذاً (فالتميز والتمييز) أصلا أشياء مرفوضة فى الدين لو سارت على هذا النحو المريب .. فما بالك فى الطريقة ؟

● طرق الشيخ موضوعاً هاماً هو هذه **(المعادلة)** التى بين العدد والمعدود ، واستنبط منهــا إشارات تتصل **(بالإنصاف — والإنصاف عزيــز)** ونحن نتوقف هنا قليلا لنبــدى الرأى فى أن ذلك ملحوظ فى الاتجاهات التفسيرية عند بعض النحاة لمواقف شتى .

فمثلا : يقول ابن مالك فى قضية (العدد والمعدود) من الثلاثة إلى العشرة التى طرحها الشــيخ هنا « وإنما حذفت التاء من عدد المؤنث وأثبتت فى عدد المذكر فى هذا القسم لأن الثلاثة وأخواتها أسماء جماعات كزمرة وأمة وفرقة ، فالأصل أن تكون بالتاء لتوافق نظائرها ، فاستصحب الأصل مع المذكر لتقدم رتبته » .

(*) بكسر الخاء وسكون الراء .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

● ومن أمثلة المعادلة يجوز أن نضرب مثلا بالفاعل الذى هو (أرفع) قيمة فى الجملة لفاعليته فأخذ أثقل الحركات ، بينما نجد أن المفعول به الذى هو فضلة ، وأتى بعد تمام الفائدة .. الخ قد أخذ (النصب) وقد مر بنا ذلك بتفصيل .

● ومن أمثلة المعادلة فى مسائل النحو أيضاً ما يذكره النحاة عن كسرة النون فى المثنى وفتحها فى جمع المذكر السالم : أن المثنى خفيف والكسر ثقيل ، فلا مانع من اجتماع الثقيل مع الخفيف لإحداث التعادل . أما جمع المذكر السالم فهو ثقيل والنون مفتوحة خفيفة فيحدث التعادل .

والإشارة تنصرف أولا إلى ما ينبغى أن يكون من تكافل فى البيئة الاجتماعية العامة للمسلمين ، كما حدث بين المهاجرين والانصار فى بداية الإسلام ، فالقوى من واجبه مساندة الضعيف ، والضعيف له حق على القوى . لأجل هذا جاءت الزكاة والصدقات وما إلى ذلك من صور التكافل والتعاون التى يريدها الإسلام لمجتمع صحى يخلو من الحقد والجريمة .

أما على المستوى الخاص فهى موجهة أولا إلى الشيوخ الذين ينبغى عليهم بما لهم من قوة فى العلم وفى الأحوال أن يمنحوا مريديهم كل عون مناسب فى الوقت المناسب . وللقشيرى فى ذلك دستور سجل(٠) معظم مواده فى نهاية «الرسالة» وغيرها من مصنفاته : «الشيوخ فى محل السفراء ، والشيخ فى قومه ينبغى أن يكون كالنبى فى أمته » .

« والآب يربى الابن بنعمته والشيخ يربى المريد بهمته » .

« الآباء للأشباح والشيوخ للأرواح » .

« المريد ربيب همة شيخه ، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على

---

(٠) بفتح السين وتشديد الجيم المفتوحة .

خدمهم من نعمهم ، والأصفياء من الأوليـاء ينفقون على مريديهم من هممهم ، يجبرون كسرهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم ، ومن أهمل مريداً وهو يعرف صدقه فقد باء من الله بسخط[1] .

«إذا رجع المريد إلى شيخه بالصـدق وجب على شـيخه جبران تقصيره بهمته ، فإن المريدين عيال على الشيوخ ، فرض عليهم أن ينفقوا عليهم من قوة أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم[2] .

أما بين الأصحاب فتمتلىء أبواب « الصحبة » و « الفتوة » بنماذج هائلة لهذه **(المعـادلة) و (الإنصاف)** بحيث يتحصل لدينا نمط فى العلاقات الاجتماعية ندر أن نجد له نظيراً ، وأتخيل أنه لو انتقل عشر معشار هذه القواعد إلى المجتمع العام ، وعمل الناس به لانتظم حال الناس واعتدل ميزان الحياة .

ونختم هذه القضايا بطرح هذين التساؤلين اللذين يردان[٠] على بعض الخواطر :

١ ـ ما موقف الخواص بالنسبة لأملاكهم ؟

٢ ـ ما موقف المتصوفة من العون الذى يأتيهم من خارج ؟

ونترك شيخنا يجيب عنهما :

وهو يميز بين الأمرين : (الخواص لا يرون لأنفسهم ملكاً ينفردون به ، لا من الأملاك المنقولة ولا من المساكن التى تصلح لأن تكون مدخولة، ومن فاتحهم بشىء منهـا فلا يكـون منع ولا زجر ، ولا حجب لأحـد ولا حظر .. هذا فيما نيط بهم . أما فيما بغيرهم فلا يتعرضون لمن هى

---

(١) اللطائف ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٢) الامام القشيرى وآثاره تأليف بسيونى ص ٢٠٥ .

(٠) بفتح الياء وكسر الراء .

فى أيديهم لا باستشراف طمع ولا بطريق سؤال ، ولا على وجه انبساط . فإن كان حكم الوقت يقتضى شيئاً من ذلك فالحق يلجىء من فى يده الشىء ليحمله إليه بحكم التواضع والتقرب ، والولى يأخذ ذلك بنعت التعزز)[١] .

ويعلل الكلاباذى لرفضهم العون الخارجى فى ظروف معينة (لأن الذى فى يد الأغنياء ليس كله طيب .. والله سبحانه لا يقبل إلا طيبا .

ولأن هؤلاء مرادون بالبلاء فيمنعهم الحق سبحانه عن العوز[٠] إلى الأغنياء ليتم[٠٠] مراده فيهم)[٢] .

(١) اللطائف ج ٢ ص ٦٠٥ .
(٢) التعرف للكلاباذى ص ١١٥ .
(٠) بفتح العين وفتح الواو .
(٠٠) بضم الياء وكسر التاء وتشديد الميم المفتوحة .

فصــل [٥٨] :

الاسم الموصــول

« من الأسماء ما هو اسم موصول لا تتم الفائدة إلا بصلته نحو : ما ومن(٠) والذى وأى .

والإشارة : كذلك من الناس من لا يســتقل بتدبيره ، ولا يكون له بد(٠٠) من غيره .

ثم إن أراد به الله خيراً سد(٠٠٠) عليه طريق المخلوقين ، وفتح عليه طريق شهود الحق ــ سبحانه .

وإن أراد به سوءاً فالحال بالضد(٠٠٠٠) » .

---

(٠) بفتح الميم .
(٠٠) بضم الباء وتشديد الدال مع التنوين .
(٠٠٠) بفتح السين وتشديد الدال .
(٠٠٠٠) بتشديد الضاد مع الكسر .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

من أسماء الموصول : الذى واللذان واللذين واللتان واللتين ومنها ما هو مختص كما سبق ومنها ما هو مشترك : وهى التى تستعمل للفرد والمثنى والجمع بنوعيهما وهى :

من — ما — أل (الداخلة على اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبهة : جاء القائد = الذى قاد ، والبحر المسجور أى الذى سجر ، وحضرت الكريمة أى التى كرمت)(•) .

وكذلك ذو : سافر ذو كافأنى (أى الذى) وأى : يعجبنى أى(••) مهذب (فاعل مرفوع غير مضافة وصدر الصلة محذوف) : أحترم أياً هو مهذب (مفعول به . غير مضافة وصدر صلتها مذكور) وتبنى على الضم إلا إذا أضيفت وحذف صدر صلتها مثل (الفوز الأيكم(•••) مخلص . و (**تفتقر الموصولات كلها إلى جملة صلة**) تتأخر عنها ولا يجوز أن تتقدمها ، وجملة الصلة مشتملة على ضمير رابط مطابق للفظ الموصول وليس لها محل من الإعراب وشروطها أن تكون خبرية فلا تكون أمراً أو نهياً أو تعجباً .

* * *

شد(••••) لقب (الموصول) واحتياجه إلى (صلة) انتباه الشيخ .. إنه يقدر(١) احتياج المرء — سواء كان فرداً عادياً أوسالكاً لطريق الصوفية — إلى (صلة) تربطه بمن يساعده فى (**تدبيره**) .

ولكن هذه الحتمية تفرض عليه أن يلتمس العون والمدد من (الخالق)

(•) بفتح الكاف وضم الراء .
(••) بتشديد الياء المضمومة مع تنوينها .
(•••) بضم الياء المشددة .
(••••) بفتح الشين وتشديد الدال .
(١) بضم الياء وكسر الدال المشددة .

لا من (المخلوقين) ، لأن المخلوقين أنفسهم يرفعون حوائجهم إلى (الحق) سبحانه فهو وحده (**صاحب التدبير**) ، ولهذا (**من أراد الله به خيراً سد عليه طريق المخلوقين وفتح عليه طريق شهود الحق سبحانه**) فهذا هو الأصل .

وبهذا يكون الشيخ قد أنار الطريق إلى فهم حقيقة (**التوكل**) ، ومدى (**الصلة**) (**بالخلق وبالحق**) (**اسم الموصول**) الواجب الاتصال به . فالقضية أكبر من نطاق التصوف ، إنها تعود إلى الفهم الإسلامى الأصيل للتوكل ، الذى كثيراً ما يساء إليه .

فالأصل أن الإسلام ليس دين تقلص وانكماش ، وإنما هو دين السعى والارتزاق والكدح فى مناكب الأرض بحثاً عن الرزق الحلال ، فمن خلال ذلك تتضح معادن الناس . ولم يكن الرسول ﷺ استثناء من هذه القاعدة ، فقد عمل تاجراً وراعياً وكان يقول : لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يتكفف الناس ترده اللقمة واللقمتان » .

ويقول : « أحل ما يأكل المؤمن من كسب يده » .

كذلك لم يجىء التصوف ليتنكر بما فيه من زهد ورضا وصبر لهذه القاعدة ، وقد قلنا من قبل إن أجلة الشيوخ كانوا من أصحاب الحرف(*) البسيطة التى أغنتهم عن المسألة ، وهيأت لهم التفرغ لطريق الله .

فإذا حول(**) بعض المغرضين التوكل إلى تواكل .. فهذه حالة مرضية(***) تدل على سقم التدين عند صاحبها .

الشيخ هنا لا ينكر حتمية (**الصلة**) بالناس ، فهذا شىء

(*) بكسر الحاء وفتح الراء .

(**) بتشديد الواو مع فتحها .

(***) بفتح الميم والراء .

(ليس منه بد) لأن الإنسان لا يعيش وحيداً فى الأرض بل ضمن مجتمع من البشر •• لكنه يريد ألا تصل (الصلة) بأحد على نحو ينسى الله فيه ، ويوصم بهذه الشبهة من يرتمى فى أحضان الحكام والأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ ، كما يوصم بها من يكسر الشص ويمتنع عن الذهاب إلى البحر (اتكالا) على الرزاق • كلاهما أخو سوء••كلاهما على باطل •• كلاهما مضاد للروح الإسلامية •

ذلكم هو مقصد الشيخ — فى رأينا — من هذا الباب كله ، ونترك للنصوص الآن أن تبرز الصورة على نحو أفضل •

فكما ينقسم الموصول إلى مبنى ومعرب ، وكما تتوقف الصلة بحسب وجهتها تختلف مقادير السالكين بحسب نواياهم وتصرفاتهم وغاياتهم • يقول القشيرى فى لطائفه « إذا وضع العبد قصده فى حوائجه عند المخلوقين ، وعلق قلبه على الاستعانة وطلب المأمول عليهم فقد وضع الشىء فى غير موضعه •• بل هو ظلم • وعقوبة هذا الظلم خراب القلب ، وهو (انسداد) طريق رجوع ذلك القلب إلى الله »(١) •

ويقول إبراهيم بن أدهم مناجياً ربه :

مدحى لغيرك لهب نار خضتها ... فاجر عبيدك من دخول النار
والنار عندى كالسؤال فهل ترى ... ألا تكلفنى دخول النار

ويقول الخواص (ت ٢٩١) :

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى ... إلى غير من قال إسألونى •• فشلت
سأصبر نفسى إن فى الصبر عزة ... وأرضى بدنيائى •• وإن هى قلت

---

(١) اللطائف م و ٢٦٧ •

ويقول ابن السماك محدداً قضية كثيراً ما تثار :

« الأصل فى السؤال أن يكون لمن أمرك أن تسأله لا (من) يفر منك إذا سألته »(١) .

ويقول سفيان الثورى :

إن كنت ترجو الله فاقنع به ... فعنده الفضل الكثير البشير
(من ذا الذى) تلزمه فاقة ... وذخره الله العلى الكبير (٢)

ويقول أبو الأسود (أحد التابعين) :

وإذا طلبت من الحوائج حاجة ... فادع الإله وأحسن الأعمالا
إن العباد وشانهم وأمورهم ... بيد الإله يقلب الأحوالا(٣)

ومن طريف ما نذكره فى هذا الخصوص الإشارة التى لجأ إليها القشيرى فى توجيه (اسم الموصول) فى الآية الكريمة :

« يأيها النبى حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين(٠) » .

فيقول :

« أحسن التأويلات فى هذه الآية أن تكون (من) فى محل النصب أى : ومن اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله » .

ومن التأويلات أن تكون (من) فى محل الرفع أى حسبك من اتبعك من المؤمنين . وقد علم أن استقلال الرسول ﷺ كان بالله لا بمن

(١) حلية الأولياء جـ ٨ ص ٢١٠ .
(٢) حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٧٣ .
(٣) الأغانى جـ ١ ص ١٠٣ .
(٠) الأنفال ٦٤ وانظر اللطائف ٢/٣٣٢ ط أولى .

سوى الله . وكل من هو ســوى الله فمحتاج إلى نصرة الله . كما أن الرسول هو نفسه محتاج إلى نصرة الله »[١] .

أما فى **الأحوال** التى قلنا إنهــا من لدن الحق فينبغى أن يفقــه العارف صاحب الأحوال أنها مردها جميعاً إلى الله وأنها **(موصولة)** بمشيئته ، فإذا زخرفت له نفسه أن منه هو شىء فقد أساء فهم **(الصلة)** وجزاؤه **(ســد)**[٠] باب الألطاف و **(الرد)** عن البساط .

(١) لطائف الاشارات جـ ١ ص ٦٣٧ .

(٠) بفتح السين وتشديد الدال مع ضمها .

فصـــل [٥٩] :

النســـــب

« إذا نسبت اسماً إلى اسم زدت فى آخره ياء مشددة ، وأقر(٠) الأول بحاله فتقول فى النسب إلى جعفر جعفرى ، وإلى عمر عمرى — وكذلك حروفه وأقسامه .

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه ، وقيمة كل منســوب ما ينسب إليه . وإنما ينسب الشىء إلى الشىء إذا كان بينهما اختصاص .

والإشارة : يجب أن يطالع كل(١) .. إلى ماذا ينسب(..) ؟ إذا كان رجلا ينسب إلى الدنيا يقال له دنياوى فقيمته الدنيا .

وإن كان الغــالب عليه حديث الآخرة نســب إلى الآخرة فقيمته الآخرة ـــ كذلك جميع ما هو الغالب عليه .

فلينظر(...) كل غالبه يعرف(....) قدره(.....) .

---

(٠) بضم الهمزة وكسر القاف وتشديد الراء .

(١) بضم اللام وتشديدها وتنوينها .

(..) بضم الياء .

(...) بسكون الراء .

(....) بسكون الفاء .

(.....) بسكون الدال وفتح الراء .

النسب ، أو الإضافة المعكوســة ـ كما يسميه صاحبها تهـذيب التوضيح ـ أن تجعل المنسوب من آل المنسوب إليه ، أو من أهل تلك البلد أو القبيلة : كما شمي ومراغي وهذلي

أى من آل هاشم ومراغة وهذيل .

وهذه الياء الصغيرة فى حجمها ذات خطر كبير لأنها أشبه **بصك الانتساب** ، ومعناها احتمال **(كل)** أوصاف المنســوب إليه بحسناتها وسيئاتها ـ وإن كان الشيخ يســتعمل **(الغالب)** بدلا من (كل) ، ووصفه أقرب إلى الواقع .. كما سنرى .

ويعامل بعض النحاة المنسوب على أنه اسم مفعول على حين يذهب آخرون إلى أنه كالصفة المشبهة . فالياء فى الحالة الأولى نائب فاعل وفى الثانية فاعل .

ويكتفى الشيخ هنا بحالة النسب التى لا يصاحبها تغيير فى بنية المنسوب إليه عند إضافة الياء أى ذلك النوع الذى **(أقر الأول بحاله)** .

ولكننا سنلاحظ أنه **قد تنشأ بعض التغيرات عند الانتســاب**[1] على النحو التالى : ـ

١ ـ حذف تاء التأنيث مثل القاهرة ومكة ، قاهرى ومكى .

٢ ـ وتقول فى ملهى ملهوى . وفى عصا عصوى .

٣ ـ ويجب قلب الكسرة فتحة فى فعل مثل إبل[*] إبلى[**] .

٤ ـ تحذف علامات التثنية وجمع المذكر وجمع المؤنث .. وتنسب

---

(١) ناظر هذه التغييرات عند النسب عما قبله بما سيذكره فى الاشارة من (التزامات ثقيلة) تفرض نفســها على العبد عند انتسابه للطريقة أو للشيخ .

(*) بكسر الباء .

(**) بفتح الباء واللام .

إلى المفرد طالما لم تطلق الألفاظ على أعلام فتقول فى عابدين عابـــدى وفى تمرات تمرى (بالإسكان) •

أما إذا كانت أعلاما فتنسب إليها كما هى مثل : سلمان سلمانى •

٥ — تقول فى طيب طيبى •

وفى حنيفة حنفى (بحذف التاء ثم الياء ثم قلب الكسرة فتحة)
وفى صحيفة صحفى (بحذف التاء ثم الياء ثم قلب الكسرة فتحة)
حتى لا تتوالى كسرتان وياء النسب

٦ — وتقول فى غنى وعلى : غنوى وعلوى •

٧ — همزة الممدود حكمها فى النسب :
(أ) إن كانت للتأنيث قلبت واوا كصحراوى وسوداوى •
(ب) إن كانت أصلا سلمت كقراء[*] وقرائى •

٨ — وتنسب إلى الصدر فى حضرموت فتقول : حضرى •

* * *

حول المنهج :

فى مواضع شتى من مصنفاته يطلق الشيخ على (الإضافة) لفظ (النسبة) ، فهو مثـــلا فى كتابه « التحبير فى التذكير » وعنـــد معالجته لأوصاف الفعل يتحدث عنها (بالإضافة) إلى الحق أو إلى الخلق ويقصد بالنسبة إلى أى منهما •

وقد وجدنا بعض النحاة يتجهون إلى هذا الإطلاق (أنظر التوضيح وتهذيب التوضيح • ونجد ابن الأنبارى فى أسرار العربية يقول :

« النسب فى معنى الإضافة » وأما سيبويه فيقول صراحة :

(•) بضم القاف وتشديد الراء مع فتحها •

« هذا باب الإضافة وهو باب النسبة » الكتاب ٢/٦٩ .

والنسبة عند الشيخ بحسب **(الغالب)** من الصفات المشتركة بين الطرفين المنسوب والمنسوب إليه ، بينما نجدها فى تعريفات النحاة **(كل)** الصفات .. ومذهب الشيخ أكثر دقة من ناحية الواقع .

والإشارة :

تنطلق من حيث يعرف الشيخ أن لفظة (الانتساب) تتردد كثيراً جداً فى بيئة المتصوفة ، فهى تستخدم فى الدلالة على العلاقة بشيخ أو بطريقة أو بسند ، أو بالاتجاه نحو الدنيا أو الآخرة ، أو التعلق بالألوهية (ربانى)[1] .. ونحو ذلك ، فحاول هنا أن يستغل هذه الظاهرة فى ظلال قواعد النحو .

بل إن القضية أوسع من ذلك بكثير .. فقد لاحظ ابن خلدون وهو يؤرخ لنشأة التصوف أن أجيال الصحابة والتابعين وتابع التابعين وصلت إلى مرحلة فى التاريخ تشبه التوقف بعد موت آخر هذ الأجيال .. ولكن ظهر فيما بعد ذلك آحاد ثم جماعات (ينتسبون) إلى هذا السلف العظيم ، ويحملون أمانة الاستمرار على طرائقهم فى الورع والزهد والصبر والتوكل .. وتألفت من هؤلاء البدايات الأولى للصوفية ، الذين بدورهم تناسلوا عبر التاريخ هذه الأسوة الصالحة بحيث لا يخلو عصر ممن لهم (انتساب) إلى هذا الطريق ، فتظهر جماعة تمثل ضمير الأمة ، لا تجرفها الأطماع ، ولا يسترقها الحكام بل تبقى يقظة تحرس الدين مهما أحدقت الخطوب ، وارتمى الناس فى أحضان الدنيا .

---

(١) الألف والنون قبل ياء النسب بقية من بقايا السامية فى اللغة العربية مثل روحانى وربانى .. ونحوهما .

وعلى هذا يمكن أن تجرى إشارة الشيخ على ثلاثة محاور :

١ ــ بداية يجب أن يتذكر الإنسان حقيقة **(نسبه) فهو من** « سلالة من طين » وهذا التذكير بالأصل الطينى له أهمية بالغة فى السلوك .. استمع إليه « عرفهم(٠) أصلهم لئلا يعجبوا(٠٠) بفعلهم ، و **(نسبهم)**(٠٠٠) لئلا يخرجوا عن حدهم ولا يغلطوا فى نفوسهم ، خلقهم من سلالة سلت(٠٠٠٠) من كل بقعة فمنهم من طينة من جردة أومن سبخة ، من سهل أو من وعر .. ولذلك اختلفت أخلاقهم . خلقهم من سلالة من طين ولكن القدر للتربية لا للتربة » .

٢ ــ حينما يختار العبد **(ياء النسب)** ليدخل بها إلى الطريقة أو يتعلق بواسطتها بشيخ فعليه أن يعلم أن **(التزمات ثقيلة) قد ألقيت** على كاهله لأن « قيمة كل إنسان بحسب إرادته فمن كانت همته الدنيا فقيمته خسيسة حقيرة كالدنيا ومن كانت همته الآخرة فشريف خطره ، ومن كانت همته (ربانية) فهو سيد وقته »(١) .

وفى تقديرنا أن فكرة (الانتساب) هى التى فرضت نفسها بمرور التاريخ على هذه الطائفة لكى تظهر الأسانيد التى تنتهى غالباً بالنبى ﷺ فكل شيخ يريد أن (ينتسب) إلى (أستاذ) أخذ عنه الطريقة ، وهذا أخذها عن فلان عن فلان .. إلى النهاية ، حتى تظهر سلامة اقتدائه وانتسابه ، فلا يكون كـ **(ما)** التى لا تعرف لها نسباً ، ولا متشبهاً بمتشبه فى الفعلية !

---

(٠) بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة .

(٠٠) بضم الياء وسكون العين .

(٠٠٠) بفتح النون والسين والباء .

(٠٠٠٠) بضم السين وتشديد اللام مع فتحها .

(٣) اللطائف مجلد ٢ ص ٥٦٩ .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

٣ ــ حينما نهض الشيخ لتأليف « رسالته » الشهيرة كي يوجهها إلى الصوفية في جميع الأنحاء كان (الانتساب) هو القضية المحورية لكتابه ، لأنه يريد أن يجمع الأسانيد والمتون للشيوخ (الذين بهم اقتداء)، وأن يخلص[٠] الطريقة وأهلها من هؤلاء الأمشاج الذين لم يصح (نسبهم) في الالتحاق ، بل (كانوا عاراً) عليها وعليهم بما ابتدعوه من باطل .

---

(٠) بضم الياء وفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة .

فصل [٦٠]

جمــــوع الكثرة والقـــلة

« الجموع مختلفة ، فمن جمع هو أقل الجمع ، ومن جمع هو جمع الكثير • وأقسام الجمع تكثر وكذلك أحكامه •

والجمع إنما يكون لأشكال تزدوج ، وأمثال تجتمع ، ثم يخبر(•) عن المجتمعات باسم واحد •

والإشـــــارة :

الإنسان اسم شامل لجملة مخصوصة لهـا بنية(••) مشـــهورة ، فمن(•••) كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل ، ومن كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير •• وباختلاف أحكامه اختلاف مقداره •

(•) بضم الياء وفتح الباء .

(••) بكسر الباء وسكون النون .

(•••) بفتح الفاء والميم .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

فى الفصلين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الكتاب تناول الشيخ فى عجل جمع التكسير ، وكيف أنه فى كثير من الأحيان لكى يتخذ قوامه يحدث فى مفرده شىء من الهدم أو التغيير ، ولا يخضع ذلك فى الأغلب إلى قاعدة مطردة تريح الدارس ، ولهذا تعددت صيغ هذا النوع من الجموع ، ونشأت اصطلاحات مثل : جمع قلة وجمع كثرة ، وسماعى وقياسى •• فى محاولات لضبط أمر(•) عسير **(فأقسامه تكثر وكذلك أحكامه)** وهو هنا يفصل(••) الأمر •

ولنضرب أمثلة على ذلك :

قد تحدث تغيرات فى المفرد — مسموعة أو قياسية —

مثل : صنو وصنوان (التغيير هنا بالزيادة) •

تخمة وتخم (التغيير هنا بالنقص) •

أسد وأسد(•••) (التغيير هنا بتبديل الشكل) •

رجل ورجال (التغيير هنا بزيادة وتبديل الشكل) •

قضيب وقضب (التغيير هنا بنقص وتبديل شكل) •

والشيخ هنا يركز على فكرة معينة هى قضية الكثرة والقلة فى فئات هذا الجمع •

والأول ما فوق العشرة الى مالا نهاية له من الصيغ ، وقد نظمها بعض الظرفاء على هذا النحو محاولا أن يحصر السبعة عشر جمعاً (المشهورة) :

(•) بكسر الراء المنونة .

(••) بضم الياء وفتح الفاء .

(•••) بفتح الألف والسين ، والجمع بضم الألف والسين .

• • • • • • • • • • • • • • • • •

فى السفن الشهب البغـاة صور	مرضى القلـوب والبحـار عبر
غلمانهـم للأشـقياء عمـلة	قطـاع قضبان لأجـل الفيـلة
والعقـلاء شـرد(٠) ومنتهى	جموعهم فى السبع والعشر انتهى

أما جموع القلة فأوزانها أربعة هى على صيغ :

١ ــ أفعل(١) • ٢ ــ أفعال • ٣ ــ أفعله(٠٠) • ٤ ــ فعله(٠٠٠) •

ومع كل ذلك يبقى الباب مفتوحاً أمام شذوذ محتمل عن القاعدة ، فالباب كما قلنا صعب المراس •

والإشـارة ••

يتكاثر النوع **(الإنسانى)** ــ وهذا هو المهم فى نظر الشيخ ــ حسب القاعدة القرآنية « من كل جعلنا زوجين اثنين » التى تحوى أيضاً كائنات أخرى غير الإنسان • نقول يتكاثر البشر ثم يبدأون فى التشرذم جماعات وجماعات حسب طبائع أو دوافع أو أصول أو مواقع جغرافية ••• الخ هذه الأسباب المعروفة ، وتأخذ كل جماعة اسماً ووصفاً ، ويتحمس الفرد المنصوى تحت الجماعة لأهدافها وطموحاتها • وإذا حكمنا الأصل قلنا إن الخيرغاية مثلى للنظام الإنسانى، وإذاً فالخيرون أكثرعدداً من الأشرار ، وهذا يطابق النسبة النحوية لجمع التكسير فجموع القلة أربع صيغ أما الكثرة فثلاث وعشرون وتزيد • هذه هى النظرة الفوقية للموضوع • أما لو تغلغلنا فى دواخل هذه المجتمعات •• ولنأخذ مجتمع الصوفية مثلا ــ وهو مناط الرؤية عند الشيخ ــ فإننا نصدم بأن العكس هو الصحيح ••

---

(٠) بضم الشين وفتح الراء وتشديدها •
(٠٠) بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر العين •
(٠٠٠) بكسر الفاء وسكون العين وفتح اللام •
(١) بفتح الهمزة وسكون الفاء وضم العين •

بل إن رؤية القشيرى للموضوع تسبق ذلك بخطوات .. استمع مثلا إلى تفسيره لقوله تعالى : « وما وجدنا أكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .

(شكا من أكثرهم الأقلهم ، فالأكثرون من[•] ردتهم[••] القسمة والأقلون من قبلتهم الوصلة)[١] .

وتشتد الصراحة والوضوح فى كشف الحقيقة عند قوله تعالى مخاطبا نبيه : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » ويفسرها الشيخ هكذا : (أهل الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخطراً ، وأما الأعداء ففيهم كثرة) .

فإذا كان ذلك على المستوى العام ، أى بالنسبة للكافة ، فإنه صحيح أيضاً بالنسبة للمجتمع الخاص من الصوفية ، يدخل الطريقة أعداد وأعداد .. ثم يخرجون بعد حين ، ولا يبقى إلا أقل القليل « لأن الشكل بالشكل أليق »[٢] ولأن «المؤمن للأجانب مجانب وللأقارب مقارب — وكما قيل — طير السماء على آلافها تقع »[٣] .

فالانسجام المزاجى الروحى عزيز .. ولابد لقيام أى **(تجمع)** من الانسجام بين أفراده .. وهنا العبرة بالقيمة لا بالكم . فكأن الشيخ فى النهاية يشير على القوم بهذه النصيحة : لا تفرحوا (بالكثرة) فى عموم الأحوال ، وأفرزوا وغربلوا .. وليخرج من بينكم من يخرج .. غير

---

(١) اللطائف جـ ٢ ص ٥٥٤ .

(•) بفتح الميم .

(••) بفتح الراء وتشديد الدال المفتوحة .

(٢) اللطائف جـ ١ ص ٢٤٥ .

(٣) اللطائف جـ ١ ص ٦٤١ .

مأسوف عليه فربما كان جرثومة فى بدن (**مجتمعكم**) تماماً كما يخرج الشاذ من القاعدة المطردة فى نحو الظاهر فى حالة جمع التكسير •

ونختم الباب ببعض الأفكار عن (اجتمعات) الصوفية على نحو موجز :

١ — أهل الصفة(١) : أول صورة لمجتمع الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله • وينسبون إلى صفة مسجد النبى ﷺ فى المدينة ، وكان ينضـــم إليهم (أمثالهم وأشكالهم) ممن لا يجـــدون طعاماً أو مأوى •• وكانوا يكتسبون عند إمكان الاكتساب • وكان الرسول ﷺ يبعث إليهم مما عنده •

ويشبههم السهروردى « باجتماع الصوفية قديماً وحديثاً فى الزوايا والربط »(٢) •

٢ — الشكفتية : نسبة الى شكفت أى الكهف والمغارة ، ولا يسكنون القرى والمدن ، ويسمون فى الشام « الجوعية » ويضيف السهروردى قائلا : (واسم الصوفية مشتمل فى جميع المتفرق فى هـــذه الأســـماء المذكورة)(٣) •

٣ — القلندرية : وهم قوم « أسكرتهم طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات وطرحوا التقيد بآداب المخالطات والمجالسات ، وقلت(٠) أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض • ولم يبالوا بتناول شىء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع ، ومع ذلك فهم متمسكون

---

(١) بضم الصاد المشددة وفتح الفاء المشددة .
(٢) عوارف المعارف ص ٤٧ .
(٣) عوارف المعارف ص ٤٧ .
(٠) بفتح القاف وتشديد اللام المفتوحة .

بترك الادخار ، وتــرك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراســم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين وقنعوا بطيبة قلوبهم »[1] .

٤ ــ الملامتيــة : ظهروا فى منتصف القرن الثــالث الهجــرى فى نيسابور مدينة القشيرى ــ وقد تحدثنا عنهم فى مواضع متفرقة .

ونحمد للسراج أنه تابع أغلاط **(الجماعات)** الصوفية متابعة جادة وموضوعية ، الأمر الذى يهدى إلى تمييز الخبيث من الطيب بينها .. ونستمع إليه فى ذلك :

توهم **(جماعة)** من المريدين والمبتدئين أن مخالفة النفس يكون بترك الطعام تماماً حتى يؤمن شرها وبوائقها وعوائقها ، وظنوا أن ذلك « حال » . وقد غلطوا فى ذلك لأن المريد يجب أن يتوقف عند حد لا يكون منه بلاء وفتنة لا يقدر على تلافيهما ، فالنفس أمارة بالسوء ، ومن ظن أنها تنكسر بالجوع أو قلة الطعام فقد غلط ولقد كان سهل بن عبد الله رحمه الله يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم فى كل جمعة مرة حتى لا يضعفوا عن العبادة » اللمع ص ٥٢٧ .

(وجماعة) ظنوا أن التصوف سماع ورقص واتخاذ دعوات وطلب إرفاق .. ونحو ذلك . وهذه قلوب ملوثة بحب الدنيا ، متهمــة بالبطالة والغفلة .. وهى من قبيل المعلولات والتكلف » .

(وجماعة) فضلوا الأولياء على الأنبياء وهذا خطأ ، لأن كل ولى من الأولياء ينال ما ينال من الكرامة بحسن اتباعه لنبيه ﷺ . فكيف يجوز أن يفضل التابع على المتبوع ، والمقتدى(.) على المقتدى(..) به . وإنما

---

(١) عوارف المعارف ص ٤٨ .

(.) بكسر الدال .

(..) بفتح الدال .

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

يعطى(•) الأولياء رشاشة مما يعطى الأنبياء عليهم السلام •

والحق إن التصوف كان قد بدأ قبيل عصر القشيرى فى التمخض عن طرق كثيرة زادت مع الأيام عدداً وتشعباً ، وانتشرت فى بقاع العالم الإسلامى فيما بعد انتشـــاراً هائلا وحملت ألقاباً أخذت طريقها إلى الاشتهار مثل : الأكبرية والقادرية والرفاعية والسهروردية والشاذلية والمولوية والنقشبندية والبدوية ••• الخ •

وتحاول كل طريقة أن تثبت إسنادها وتسلسل هذا الإسناد ، ومعظمها إما ينتهى بعلى بن أبى طالب أو بأبى بكر الصديق ، وكلاهما من رسول الله ﷺ مقتبس • فإذ سلم إسناد الطريقة ومتونها على نحو مقنع فخير وبركة ، وإذ أصاب الإسناد أو المتن شىء من الارتياب •• فحقه الرفض •• ويمكن الاستفادة بحقائق « علم مصطلح الحديث » فى متابعة هذا الجانب متابعة علمية موثقة •

(•) بضم الياء وفتح الطاء •

خاتمـــــة الكتـــــاب

ويختتم الشيخ رضوان الله عليه كتابه على النحو التالى :

والله أعلم بالصـــــواب

وإليــه المرجــع والمآب

وبعـــــد

فهذه فصول فى نحو القلوب ، أنشأناها على وجه الإيجاز .

وبالله توفيق الخلق أجمعين ، وعليه التكلان والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

التصويبات

ص	س	الكلمة
٧	١٥	هو
١٥	٤	الاشارة
١٧	١٧	لتنصيع
١٩	٢١	تشطب الواو الزائدة (كواو عمرو)
٢٢	٨	غريبة
٣٥	٤	تشطب كلمة (رقم)
٣٧	٢٧	تشطب (٠) هامش
٤٢	١٤	ولا استكراه
٤٣	٦	والمعانى
٤٤	٢	بعد كلمة والسكون . فاصلة
٤٤	١١	التغيير
٤٥	٢١	منجوس
٤٦	٥	تضيف
٥٠	١٠	فاصلة بعد كلمة (الواحد)
٥١	٦	تحويل
٥٢	٧	التشريف
٥٢		هامش رقم ١٣ بدل رقم ١٢ وهكذا ١٢ بدل ١٣
٥٤	١٥	الخطوة
٥٥		يشطب سطر رقم ١٣
٥٦	١٤	توضع نقطة بعد كلمة (فزيادة)
٥٧	٩	ترفع الفاصلة بعد كلمة (كذلك)
٥٨	٩	توضع فاصلة بعد كلمة (وزره)
٦٠	٩	توضع فاصلة بعد كلمة (التصدير)
٦٣	١٨	كسر القاف وفتح السين
٦٣	٢٢	كلمة (واظهر) بين قوسين
٦٩	١٤	الحادثات
٧٢	٢٠	تصويب
٧٤	١٢	تضاف العلامة بعد كلمة بالميم وربما كانت لم (يجل) بالجيم اى لم يبرح
٧٦	١٦	وكسر الميم
٨١	٣	يئول
٨٢	٩	هناك

ص	س	الكلمة
٨٨	٨	شأو
٨٩	٢	بـ (لا) مبنى
٩٠	١٩	تضاف كلمة و (العطاء) بعد كلمة الأعواض
٩١	٣	توضع فاصلة تحتها نقطة بعد لفظ الجلالة
٩١	٨	الدار
٩٩	١١	حالق
١١٠	١٥	توضع شرطة بعد كلمة (الكلام) وكذلك بعد كلمة (ومركبا)
١١٣	٣	توضع فاصلة بعد كلمة (خطأ)
١١٦	٣	فوقفه
١١٦	٨	توضع فاصلة تحتها نقطة بعد كلمة (بهم)
١١٦	١١	مقرون
١١٦	١٨	علو
١١٨	١	توضع فاصلة بعد كلمة(فبها)
١١٩	١١	السدة
١٢٢	٢١	الجهل
١٢٢	٢٢	زور
١٢٢	٢٣	بهتان
١٢٤	١٣	وحملته
١٢٦	٢	ينبنى
١٢٦	٥	فهو مهم(٠)
١٢٦	١٢	بأحواله
١٢٦	١٨	أفاء
١٣٠	٢١	وقد
١٣١	١٥	فاصلة بعد كلمة (بالزمانية)
١٣٢	٢	يضاف رقم (١) بعد كلمة (اليه)
١٣٢	١٢	توضع نقطتان . و (توحيد المحبوب) بين قوسين بعد كلمة (الاشارة)
١٣٤	٧	المعلولات
١٣٥	١٥	(الله)
١٣٨	٢	حشو

ص	س	الكلمة
١٣٨	١٥	توضع نقطة بعد كلمة (المحبوب)
١٣٨	٧	تنبنى
١٤١	١٥	والمتصوفة
١٤١	١٦	نبسط
١٤٢	١٤	زيد(··)
١٤٤	٦	توضع نقطتان فوق بعض بعد كلمة (قليل)
١٤٤	١٧	حين
١٤٥	١٧	مفتوحة
١٤٦	١٢	الجامعه
١٤٦	١٤	انظر
١٤٧	١٤	لسنا
١٥٠	١٨	النحاة
١٥٠	١٩	يضاف بعد كلمة الألفاظ (يلزم لدراستها وضع)
١٥٠	١٩	يوضع فاصلة بعد كلمة(منها)
١٥٢	٣	فاصلة بنقطة بعد كلمة (بالخواتيم)
١٥٤	٢٠	بسكون
١٥٥	١١	النحوين
١٥٨		يرفع الجدول بأعلى الصفحة
١٥٩	٧	حين الى حين
١٦٠	١	مكابداتها
١٦٢	١٨	أربعة
١٦٣	٣	وأساس
١٦٦	١٧	وحطتك(··)
١٧٠	١٧	وحسن
١٧١	٩	يتفوه
١٧٢	٢٣	تحذف واو (وكائن)
١٧٣	١	بالشهادة
١٧٣	٩	وبميقات
١٧٣	١٩	يصل
١٧٦	١٣	ويصفو
١٧٩	١٧	والسكون
١٨٠	٧	توضع شرطتان بعد كلمة (واضحة وكلمة القلوب)
١٨٤	١٤	توضع فاصلة بعد كلمة (مجراه)
١٨٤	١٥	توضع فاصلة بعد كلمة (جانبيه)
١٨٥	١٢	لا يقرّ
١٨٥	٢٢	خطرات
١٨٥	٢٢	فان (بكسر الهمزة)
١٨٦	٧	جديدة
١٨٦	١٠	تشطب واو (وهذا)
١٨٨	٨	توضع كلمة (سبحانه) بعد كلمة معه
١٨٩	٦	بمفاتحات
١٨٩	٨	الاستئناس
١٩١	١٣	ببال
١٩١	١٥	كلما
١٩١	٢٢	جوهر
١٩٢	٥	آحاداً
١٩٢	١٩	التصوف
١٩٣	٢	مشتتة
١٩٣	١٠	الفاعلون
١٩٣	٩	مهما
١٩٣	١٥	توضع فاصلة بين ملكه وللمالك
١٩٣	١٧	لكلّ
١٩٣	٢١	توضع فاصلة تحتها نقطة بعد كلمة الوقت
١٩٥	١٦	«ما أدرى مايفعل بى ولا بكم»
١٩٥	١٦	توضع فاصلة بعد كلمة (بكم)
١٩٦	٨	سيطل
١٩٦	١٢	وحظه منجوس ونجمه
١٩٦	١٥	بما
١٩٧	٦	يوم البعث . وغير
١٩٧	١١	لجاجة
١٩٧	١٥	تقال
١٩٧	٢١	فى حضوره
١٩٨	١٣	ليس
١٩٩	١٠	الذى

ص	س	الكلمة
١٩٩	١٠	النسم ؟
١٩٩	١٢	استضاء
١٩٩	١٢	المصباح ، والمصباح
١٩٩	١٨	صفات
١٩٩	٢٠	سنح
٢٠٠	١١	وتصرفه
٢٠٠	١٥	الستر
٢٠١	٢٢	تحذف عبارة (انه عن كليته)
٢٠٢	١١	فيتوجه
٢٠٣	٨	بدأ
٢٠٣	١١	لم
٢٠٤	٦	بشريته
٢٠٤	٦	فى وصفه .
٢٠٤	٨	منسجمة
٢٠٤	٢٢	الحال ، فاقتادوه
٣٠٥	٥	القلوب
٢٠٥	١٣	ولا يخرج
٢٠٦	١٥	يقتحمون
٢٠٦	١٩	ويعنينا من هذه
٢٠٩	١٩	نقيض
٢٠٧	٢	نستنبطها (نون قبل الباء)
٢٠٧	١٣	فى كل الأزمان من الصوفية .
٢٠٨	٤	تلقينه
٢٠٨	١٢	الدنية
٢٠٩	١٧	فليعلم
٢١٠	٤	صاحب
٢١٠	٤	ومن
٢١٢	١٧	الروحية
٢١٢	٢١	والى
٢١٥	١٤	الاشارات ،
٢١٦	١٠	لأنها
٢١٨	١٠	التركيبية
٢١٨	١٥	يستحضر
٢١٩	٣	(الثنوية)
٢١٩	٤	الألوهية
٢١٩	٦	ومع
٢١٩	١٧	يساميه

ص	س	الكلمة
٢١٩	٢٢	المعانى
٢٢٠	١	له
٢٢٢	١٣	ذلك
٢٢٢	١٤	: لا أمامه ولا تحت اقدامه هداية أو دليل
٢٢٢	١٥	الشتات !
٢٢٣	٢	درهم
٢٢٣	٧	على طعام)
٢٢٣	٩	فيقول :
٢٢٤	٢٠	القلب
٢٢٥	١٩	المتعاقبة ، والتى
٢٢٥	٢١	القوم
٢٢٧	٢	تغييرات
٢٢٨	٣	مرأى العين
٢٣٠	٢١	الخلق » (٠٠٠٠) وفى الهامش : بفتح الخاء فى (الخلق) الأولى وبضمها فى الثانية
٢٣١	١٦	شمسهم ،
٢٣١	١٨	اعصار(٠٠)
٢٣١	٢٤	(٠٠) بضم الراء المنونة
٢٣٣	٧	مرة ... من زيادة
٢٣٣	١٢	الحرير
٢٣٤	١	للتغيرات
٢٣٤	٣	ومع
٢٣٥	١٧	محو الزلة (بالزاى)
٢٣٦	٧	انا
٢٣٦	١٢	نجيز
٢٣٦	١٦	حول
٢٣٧	٢	شكل(٠) المبانى
٢٣٧	١٥	عسر
٢٣٧	٢٠	(٠) بفتح الشين وكسر الكاف
٢٣٨	١	(فرد) ، وهما
٢٣٨	٤	حتى
٢٣٨	٥	المحبة ، ويلقى
٢٣٨	١٥	كجمع
٢٣٨	١٧	لعجزت عن رصد
٢٣٩	٨	المستهلك(٠) بفتح اللام

ص	س	الكلمة
٢٣٩	١٠	(التشريف) ! لأنها العين الوحيدة التى تعرف حقيقة الدواخل
٢٣٩	١٣	وقل(..)
٢٣٩	١٦	(..) بفتح القاف
٢٤٢	١٩	صوفية ، تشبه
٢٤٢	٢٢	(الصحبة والأصحاب)
٢٤٢	٢٤	الموضوع ، وعقد له
٢٤٣	٢	(المعرفة بالله) ، ولكن
٢٤٣	٩	بون
٢٤٦	١٤	فاعله . مثل ذهب وفرح الطفل
٢٤٨	٣	بالكلمة
٢٤٨	١٠	ويأتى
٢٥٠	١	طالت
٢٥٤	١٢	المتنبى : وضع
٢٥٤	١٤	اخلال
٢٥٤	١٦	أو مع مريديه
٢٥٤	٢٢	بضم الكاف وكسر اللام المنونة
٢٥٩	١٥	اذهبوا
٢٦٠	٥	فان
٢٦٢	١٧	عظيم
٢٦٣	٤	(١٠)
٢٧٣	١٢	ان (بكسر الهمزة)
٢٧٤	١٢	ان (بكسر الهمزة)
٢٧٥	٣	فالنوافل
٢٧٥	١١	بالفناء
٢٨٥	٦	الحياة
٢٩٠	٦	المتم
٢٩١	١٧	سيأتى
٢٩٥	٣	الانكسار
٢٩٤	٤	العلم
٢٩٥	١١	فى اليوم
٢٩٩	١	فعل فاعل
٣٠٠	١٢	لاعادتها
٣٠٢	٤	الحركات
٣٠٣	١٥	وهو يتولى بدل (والله)
٣٠٤	١٣	انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون : يس)
٣٠٦	٥	الكلمات
٣١٤	٤	الاشاريون
٣١٦	٥	والعناء
٣١٨	١٩	بفتح الجيم
٣١٨	١٣	زيداً
٣١٩		رقم الصفحة ٣١٩
٣٢١	٧	الاثنيتين
٣٢١	٩	حقيقيا
٣٢٥	٧	سيبويه
٣٢٨	٦	الأخبار
٣٢٩	٤	استنباط
٣٤٢	١٩	يلخص
٣٤٤	٣	اذهب
٣٤٥	٢،٥،١٤	: اعمل.واعمل. اذهبا : اصدق
٣٤٦	٧	كون
٣٥١	٨	ملكه
٣٥٣		الأخير وأوفوا
٣٥٤	٣	على/س٤ اقفل
٣٥٦	٦	يكيب
٣٥٧		فى آخر الهامش (..) بضم الياء فى الفعلين
٣٦١		فى الهامش (..) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد التاء وكسرها
٣٦٢	١٠	تحذف : وسمى (الثانية)
٣٦٣	٧	ابتدعوها/١٢ مهما
٣٦٧	١٨	على حين نجد
٣٧٣	٢	يكف
٣٧٦	١٧	جزءا
٣٨٥	٧	« يس »
٣٨٩	٧	الخصوصية
٤٠١	٢	للمريد
٤٠٢	٣	تتقطع
٤٠٨	١٧	بكسر القاف
٤٠٩		اترك مسافة لأن الشواهد من الشعر فى تلك الصفحة

ص	س	الكلمة
٤٠٩		آخر الصفحة : وتحيى — الحتف
٤١٣	١٨	يتوقف
٤١٥	١٠	قد
٤١٦	١١	« وتالله ... »
٤٢٠	٢٢	من
٤٣٤	٩	يريدون
٤٣٧	١٣	وتستوقفنا
٤٣٨	١٠	خلقتنى
٤٣٨	١١	اختـــار
٤٣٩	٦	اذلال (بكسر الهمزة)
٤٤٠	١١	يثبت
٤٤٥	١١	للصوفية
٤٤٨	٥	أو يظن
٤٥١	١	فضلة
٤٥٤	٧	أن
٤٥٥	٢	على حين نجد
٤٦٠	٦	ونفهم
٤٦١	١٩	اسألونى

اســـتدراكات

ص	س	
٣٨٥و٨٦	٩	هامش (٥) والشاهد من قول : الوليد بن عقبة ، وهو أخو عثمان رضى الله عنه لأمه ونصه : قلت لها قفى فقالت قاف . لا تحسبينا قد نسينا الايجاف — والايجاف — من اوجفته اذا اعديته ، وهوالعنف فى السير، وانظرقصة هذا البيت فى (شرح شواهد الشافية للبغدادى ٢٧١ تحقيق الأساتذة : محمد نور الحسن ورفاقه)) .
٢٦٨	٥	أضف ما يأتى : وانظر : دراسة ممتعة مستلهمة من : علم أصوات العربية والتنظير لها بمصطلحات الكشف الصوفى وذلك بعنوان (صوفية الحركات) من كتاب (نحو القلوب الصغير للامام القشيرى تحقيق : علم الدين الجندى ط : الدار العربية للكتاب . تونس ١٣٩٧ — ١٩٧٧م) .

* * *

والحمد لله على ماهدى اليه،وأعان عليه،وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله الأطهار ، وصحابته الأبرار، ونبتهل الى الله العلى القـــدير أن ينتفع بهـــذا الكتاب كل مقترب من هذه الروضة المباركة ، وأن يتقبله فى أعمالنا . آمين ،

المحققان ،

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٢١٢٠

الترقيم الدولى I. S. B. N. 977–254–030–4

الطبعة الأولى ــ ١٤١٤ هـ ــ ١٤١٥ هـ ــ ١٩٩٤ م

القاهرة ــ مكتبة عالم الفكر ــ ميدان سيدنا الحسين الأهر الشريف